غازي عبد الرحمن القصيبي

العصفورية



دار الساقي

وتولّوا بغصّةٍ كلهم منه . .

وإن سرَّ بعضهم أحيانا

المتنبّي



إلى

ن

مَـدخل

يفتح البروفسور النافذة من جناحه في العصفورية على الممرّ وينادي:

ـ شفيق! شفيق! تعال هنا فوراً!

يقترب الممرّض الضخم من النافذة وعلى فمه ابتسامة كبيرة:

ـ مساء الخير، يا بروفسور. أمرك؟

ـ أين الدكتور سمير ثابت؟

ـ فَلْ.

ـ فَلّ الله رأسك! كيف فلّ؟

ـ فَلّ، يا بروفسور.

ـ فَلّ دون أن يراني؟ أطلب لي فوراً فخامة الرئيس كميل شمعون.

ـ كميل شمعون أعطاك عمره.

ـ مات؟! لا حول ولا قوّة إلاّ بالله! أطلب لي فوراً دولة الرئيس سامي الصلح.

ـ وسامي الصلح أعطاك عمره.

ـ مات؟! إنا لله وإنا إليه راجعون! من رئيس الجمهورية الآن؟

ـ الياس الهراوي.

ـ من؟!

ـ الياس الهراوي.

ـ ورئيس الحكومة؟

ـ رفيق الحريري.

ـ ومتى يرجع الدكتور سمير ثابت؟

ـ على بكرة.

ـ أطلب منه أن يحضر لمقابلتي فور وصوله.

ـ أمرك، يا بروفسور.

يغلق البروفسور النافذة.

* * *

يدخل الدكتور سمير ثابت الجناح ويتأمّل جوانبه مُعجَباً. ثم يصافح البروفسور:

ـ صباح الخير، يا پروفسور.

ـ صباح النور، دكتور ثابت.

ـ ما شاء الله! ما شاء الله! صالون. وغرفة طعام. وغرفة نوم. ورفوف كتب. وكاميرات ڤيديو. وستيريو.

ـ كل شيء بثمنه، كما قال المعلّم رضا.

ـ مين المعلّم رضا؟

ـ نِقْر ما ينذْ!

ـ بتاريخ العصفورية ما سكن مريض بجناح.

ـ أولاً، يا دكتور، أنا لست مريضاً؛ أنا ضيف. وثانياً، لم يحدث في تاريخ العصفورية أن زارها إنسان مثلي. أنا لست إنساناً عادياً. وهذا ليس موضوعنا الآن. إجلس!

يجلس الدكتور سمير ثابت، ويفتح حقيبة أوراق منتفخة، ويخرج منها عدّة ملفّات، وينظر إلى البروفسور:

ـ نبلّش؟

ـ قبل أن نبلّش أود أن أسألك كيف مات كميل شمعون. في حادث صيد؟

ـ لا. مات موتة طبيعية.

ـ متى؟

ـ لا أذكر بالضبط. لَشوْ مهتمّ بكميل شمعون؟

ـ لَشو؟ كان صديقي. من أعزّ أصدقائي.

ـ كميل شمعون كان صديقك، يا پروفسور؟!

ـ أووه! كنا نصطاد معاً. نصطاد النمور، ونصطاد التماسيح، ونصطاد البطّ.

ـ النمور؟! وقعت يا پروفسور! كميل نمر شمعون. من هنا جاءت النمور. تداعي أفكار.

ـ لا تداعي أفكار ولا يجزنون. كنا نصطاد النمور.

ـ وين؟

ـ في البقاع.

ـ في البقاع؟! نمور في البقاع؟!

ـ كان هذا في الزمانات، يا حكيم. رُبّما قبل أن تُولَد أنت. كانت البقاع مليئة بالنمور. ثم أفنيناها، أنا وكميل شمعون.

ـ والتماسيح؟! في البقاع؟!

ـ هل جُننتَ، يا دكتور؟ تماسيح في البقاع! كنا نصطاد التماسيح في دجلة.

ـ تماسيح في دجلة؟!

ـ أووه! كانت دجلة تعجّ بالتماسيح. ثم أفنيناها، أنا وكميل شمعون. كنا نطبخ الصغار مسقوف، أمّا الكبار فكان كميل شمعون يأخذ جلدها ويستخدمه في صنع أحذيته. كانت جميع أحذية كميل شمعون من جلد التماسيح. ألم تلاحظ ذلك؟

ـ ما تشرّفت بشوفته. ولا شوفة صرماياته.

ـ إذن، صدّقني.

ـ وأين صدتما البطّ؟

ـ في جنوب أفريقيا.

ـ جنوب أفريقيا؟! لشو؟

ـ كان البط، أيامها، أبيض نقيّاً هناك. لا يلوّثه البطّ الأسود. إذن، مات كميل شمعون؟ ضيعانه! كان رجلاً عظيماً. وأين سامي بك الصلح الآن؟

ـ مات من فترة طويلة. كان صاحبك كمان؟

ـ أووه! من أعزّ أصدقائي. كنت ألعب معه طاولة كل يوم في البرج. في مقهى الشام. لا تقل لي لا يوجد مقهى اسمه الشام في البرج.

ـ لا أدري، يا پروفسور. يمكن كان بالزمانات. قبل أن أولد.

ـ كم عمرك يا دكتور؟

ـ ٤٥ سنة.

ـ فقط؟ لا زلتَ ولداً. أنا في عمر أبيك.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ صدّقني. سوف أشرح لك السرّ وراء مظهري الشاب فيما بعد. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا سامي الصلح. كان سامي بك أمهر لاعب طاولة في لبنان. ومع ذلك كنت أغلبه كل مرة. هل تعرف ماذا كان يقول لي أثناء اللعب؟

ـ شو كان يقول؟

ـ كان يقول: «إسمع، يا پروفسور! كل واحد في هذه الدنيا له مهنة. هذا خبّاز. وهذا طباخ. وهذا ميكانيكي. وهذا كندرجي. أما أنا فمهنتي رئيس وزارة. لا أعرف مهنة أخرى».

ـ مهنة ما إيش بها شي، يا پروفسور.

ـ وما أدراك؟ هل جرّبت رئاسة الوزارة؟

ـ لا. أتصوّر هيك. مجرّد تصوّر.

ـ هذه وظيفة مزعجة جداً. سماعك بالمعيديّ.

ـ هل كنت رئيس وزارة، يا پروفسور؟

ـ كنت أشغل منصب المعينُ العام. وهو منصب لا يقلّ أهمية عن رئاسة الوزارة، وقد يزيد. كنتُ مسؤولاً عن التعيينات كافة، كبيرها وصغيرها.

ـ وكنت مبسوط؟

ـ أعوذ بالله! كنت في غاية الضيق. طلبات! طلبات! طلبات ليل نهار! هذا يريد توظيف ابن خالته. وهذا يريد أن يصبح سفيراً. وهذا يرغب في تعيين جميع أقاربه. ألف طلب في اليوم؛ وألف طلب في الليلة.

ـ متى كان هذا؟

ـ في الزمانات.

ـ وين؟

ـ في عربستان ٤٨.

ـ وبقيت كتير بالوظيفة؟

ـ قرابة شهرين. أو قرابة سنتين. أنا انشتايني، يا دكتور.

ـ انشتايني؟!

ـ سمعت عن انشتاين؟ لا بُدّ أنك سمعت عن انشتاين، الرجل الذي اخترع، أو ربما اكتشف، نظرية النسبية، بالاشتراك معي. نصف النظرية منه، ونصفها منّي. النصف الأول هو المعادلة المشهورة: E = MC2، المعادلة التي لا يفهمها أحد، وهذا النصف منه. أما النصف الثاني فقد اكتشفته أنا، ووضعت عنه المعادلة المشهورة: $\frac{\text{و}}{\text{ع}} = \frac{\text{و}}{\text{ح}} \times$ ١٠٠٠. لا بُدّ من تبسيطها لكي تتمكن من استيعابها، يا حكيم. و معناها الوقت، وح معناها الحبيب، وع معناها العدوّ. الدقيقة التي تمضيها مع حبيبك تمرّ بسرعة $\frac{١}{١٠٠٠}$ من الدقيقة التي تمضيها مع عدوّك. ولهذا فأنا لا أهتمّ بالوقت التقليدي على الإطلاق. لا أتوقّع منك أن تفهم المعادلات الفيزيائية ولكني أتوقّع أن تكون قد قرأت المؤلفات الأخيرة عن انشتاين، التي تزعم أنه كان يضرب زوجته وينام مع ابنة أخته. الغريب أنه لم يصارح صديقي هيكل بهذا عندما زاره في صحبة التاريخ. إسمع، يا طبيب! هتلر كان ينام مع ابنة أخته. وفرويد كان ينام مع أخت زوجته. وانشتاين كان...

ـ عفواً يا پروفسور! هل من الممكن أن نرجع إلى المعينّ العامّ؟

ـ ظاهرة غريبة. هذا أبو علم النفس، وهذا أبو علم الذرّة، وهذا كبير النازية. لماذا لا ينامون مع زوجاتهم؟

ـ پروفسور! المعينّ العامّ!!

ـ حسناً! حسناً! كان منصباً مزعجاً.

ـ مزعجاً؟!

ـ الرشاوى! الرشاوى، يا دكتور، قتلتني. الذي يريد توظيف ابن خالته يحضر لي دجاجة رشوة. والذي يريد أن يصبح سفيراً يحضر لي سجادة رشوة. إذا كان يريد أن يكون سفيراً في إيران يحضر سجادة إيرانية. في الصين، سجّادة صينية. في تركيا، سجّادة تركية. في أميركا، وُوْل تو وُول كارپث. والذي يريد تعيين جميع أقاربه يحضر لي ثلاّجة رشوة. هلكت، يا دكتور! امتلأ المخزن الأول بالدجاج. تحوّل إلى مزرعة دجاج فيها مليون دجاجة وديك واحد. لا بُدّ أن الديك هلك بدوره. امتلأ المخزن الثاني بالسجّاد. امتلأ المخزن الثالث بالثلاجات. ١٠٠,٠٠٠ ثلاّجة.

ـ يخزي العين! صِرْتَ غَني يا پروفسور؟

ـ كل الأمور نسبية. والغنى الحقيقي غنى النفس. وأنت، يا دكتور؟ هل تعتبر نفسك غنيّاً؟

ـ نشكر الله.

ـ ولماذا لا تشكره؟ شقّة في بيروت. وبيت في برمّانا. وشقّة في لندن. وفيلاّ في جنوب فرنسا. واستثمار محترم في نيويورك.

ـ كيف؟ كيف؟ كيف عرفت كل هذا؟

ـ مجرد تدبير احترازي. ما دمت سوف تعرف كل شيء عني فلا بُدّ أن أعرف بعض الأشياء عنك. ولكن لا تخف! سرّك في بير. لن أفضح شيئاً. ولا حتّى علاقتك بالطبيبة النفسية الشقراء التي قابلتها في المؤتمر في مونتريال.

يحمرّ وجه الدكتور ثابت، ولا يتكلّم. ويمضي البروفسور:

ـ لا تخف! كلمة شرف! عمّاذا كنا نتكلم؟

ـ عن المعيّن العامّ.

ـ صدقت! وكنت أقول لك...

ـ لو سمحت، يا پروفسور؟ ممكن نبلّش نحكي جدّ؟

ـ بالتأكيد! ولكن إسمع، يا دكتور. الأسئلة السخيفة المعتادة بلاها. لا تسألني هل أتذكّر رحم أمّي. ولا متى شعرت بالشهوة الجنسية لأوّل مرّة. ولا

تسألني هل عبث جدّي بي وأنا طفل. لا تسألني عن هذه التفاهات والسخافات. لديك ٤ ملفّات فيها كل شيء. كل شيء! ملفّ الدكتور جونسون من مصحّة مونتري. سمعت عن مونتري؟ بطبيعة الحال! كنت تدرس في أميركا. وملفّ الطبيب البريطاني سپلووُتر من مصحّة بلاكپول، المدينة الإنجليزية الشهيرة بملاعب الأطفال. وملف الطبيب السويسري الفاصخ مونتيسكييه، من مصحّة جنيف. أغرب مصحّة في العالم، وأغلى مصحّة. لكبار الشخصيات وكبار الأغنياء. هل تعرف من أبصرت هناك؟ لا تستعجل! سوف أخبرك، فيما بعد. سأروي لك كل شيء، مور أوز لِسْ. أمّا الملفّ الرابع فمن هنا، من العصفورية، من زيارتي الأولى. من كان طبيبي وقتها؟

ـ الدكتور ألبير زعتر.

ـ صدقت! أينه الآن؟

ـ أعطاك عمره.

ـ مات؟ كل الناس ماتوا؟ «ذهب الذين يعاش في أكنافهم». كيف مات؟

ـ برصاصة طائشة أثناء الحرب.

ـ أيّة حرب؟

ـ الحرب الأهلية.

ـ الأمريكية؟ أو الإسبانية؟

ـ حاجة، يا پروفسور! اللبنانية.

ـ حرب أهلية في لبنان؟! مش معقول! الحروب الأهلية تحتاج إلى كثافة سكانية. لو قامت حرب أهلية لمات الجميع. كلّكم مليون إلاّ شويّ.

ـ قامت. وما ماتوا كلّهم. كيف ما سمعت عن الحرب بلبنان؟

ـ كنت مشغولاً بكره البشرية جمعاء.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ صدّقني! أنا أكره البشر جميعاً! الآسيويين. والأفارقة. والأستراليين. واللاتينيين. وأكره، بوجه خاص، شعوب عربستان، أو شعب عربستان. المسألة هنا نسبية. مرّة شعب، ومرّة شعوب. مرّة أمّة، ومرّة أمم. أنا، كما أخبرتك، من أنصار النسبية ولا أعترض على ذلك. ولكني أكرههم سواء كانوا شعباً أو شعوباً،

أمّة أو أمماً. باختصار، أكره البشر جميعاً. باستثناء أصدقائي وأصدقائك الأمريكان. وبعض سكان غرب أوربا. وبسّ! وبزيادة! تعرف هتلر؟ النمساوي الذي نام مع ابنة أخته وكان نباتياً وأباد أولاد عمّنا اليهود؟ هتلر يطلع عندي سَلَطَة، أو زلَطَه، أو سلاطة. عندما يقارَن بي يصبح هتلر بطلاً من أبطال التسامح.

ـ لَشو هيْدي العنصرية؟ كل شيء له سبب. اضطهدك أحد؟

ـ آخ! آخ! اضطهدني أحد؟! بعد قليل سنعود إلى الطفولة. سوف تسألني: «هل كانت أمّك تضربك على مؤخّرتك؟ وهل كنت تتلذّذ بالضرب؟». ستقول لي: «هل اغتصبك جدّك؟ أو، على الأقلّ، عمّك أو خالك»؟ سوف تسألني «هل تعاني من عقدة أوديب؟». سمعت عن عقدة أوديب، يا طبيب؟

يضحك الدكتور سمير ثابت طويلاً:

ـ يا پروفسور! أنا طبيب نفسي. سايكاترست! أكلُ عيشي من عقدة أوديب.

ـ عقدة أوديب نزعة عنصرية بغيضة. إعجاب سخيف باليونان وأساطيرهم. وأنا لا أحبّ اليونان ولا أحبّ أساطيرهم. أعمى ينام مع أمّه! هراء! عقدة خواجة! في مصر يسمّون اليونانيين خواجات. ثم أصبح كل أجنبي خواجة. من هنا جاءت الكلمة. عقدة الخواجة. هل زرت مصر، يا دكتور؟

ـ نعم. عدّة مراتٍ.

ـ آه لو رأيتها في عزّها أيام الخديوي إسماعيل والأمبراطورة يوجيني. في حفل افتتاح قناة السويس. أوپرا عايده. «حلم ليل من ليالي كليوباتره»، كما قال المهندس الذي سأحدّثك عنه فيما بعد.

ـ حضرتَ الاحتفال، يا پروفسور؟

ـ دكتور ثابت! هل تظنّ أنّي مجنون؟ حدث هذا في زمانات الزمانات. قبل أن تولد أنت، وقبل أن أولد أنا. عمّاذا كنا نتكلّم؟

ـ عن عقدة الخواجة.

ـ يسْ! الخديوي إسماعيل، يا حكيم، كانت عنده عقدة خواجة خديوي/سايز. هذا غير تعلّقه بالأمبراطورة الخواجاية التي لم ينل منها شيئاً. «ما كان إلا الحديث والنظرُ». الخديوي إسماعيل كان يريد أن يجعل مصر قطعة من أوربا. حلوة دي؟! مصر قطعة من أوربا! والخديوي إسماعيل لم يكن الوحيد الذي قتلته أوربا غراماً. الذي ألّف كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» كان، بدوره،

يتمنّى تحويل القاهرة إلى قطعة من باريس. على فكرة، يا دكتور، هل تعرف لماذا سُمّيت القاهرة القاهرة؟

ـ لا والله.

ـ لماذا لا تسألني؟

ـ لماذا سُميّت القاهرة القاهرة، يا پروفسور؟

ـ هناك، يا سيّدي الفاضل، ٣ آراء. الأول، يقول إن كتائب الفاطميين بعد انتصارها لُقّبت بالقاهرة، ثم انتقل الإسم من الجيش إلى الموقع الذي خيَّم فيه. والثاني، يذهب إلى أنّه كانت هناك قبّة في المنطقة تُسمّى القاهرة، فسُمّيَت المدينة باسم القُبّة. الرأي الثالث، الرأي الذي أميل إليه شخصياً، وإذا ما مِلتُ شخصياً إلى رأي فتأكد أنه الصحيح، هو أنّ القاهرة اختير مكانها، وموعد بنائها بعد حسابات فلكية، حسب العادة المُتّبعة في بناء المدن قديماً، وربما حديثاً أيضاً، وكان المريخ في أوجه، والقاهرة من أسماء المرّيخ. ولا تسألني لماذا يُسمّى الذكر بإسم مؤنث فأنا لست من علماء الفلك.

ـ أفادك الله، يا پروفسور.

ـ عمّاذا كُنّا نتحدّث؟

ـ عن باريس.

ـ صدقت! هل تعرف اسم الشخص الذي ألّف كتاب «تخليص الأبريز في تلخيص باريز»؟

ـ لا.

ـ هذا هو الفرق بيني وبينك، يا دكتور. أنت لا تكاد تعرف شيئاً سوى عقدة أوديب، وجاك الذيب، والأنا السُفلى، والأنا العليا، والمرحلة الشفوية، والمرحلة الشرجية. أمّا أنا فأعرف أشياء كثيرة متفرقة ومترابطة. آخذ من كل علم بطرف. ولهذا فأنت مجرّد دكتور أمّا أنا فپروفسور. ما هي مرتبتك العلمية؟

ـ أستاذ مشارك.

ـ هل رأيت؟ مشارك! أمّا أنا فپروفسور كامل. قُلْ پروفسور. لا بُدّ، يا دكتور، أن تذكّر نفسك دائماً بجهلك. كلَّ يوم. كل لحظة. «هناك أشياء في السماوات والأرض أكثر من تلك التي تحلم بها فلسفتك يا هوراشيو». هل تعرف من قال هذا؟

ـ لا.

ـ شكسبير. وهذا الأخ، بدوره، لديه عقدة خواجة. وإلاّ فلماذا يغيّر اسمه العربي الجميل، الشيخ زبير، إلى هذا الاسم الأنجلوسكسوني الصاقع؟ هل تعرف أن عدداً متزايداً من الباحثين يشكّكون في وجود شكسبير؟

ـ لا.

ـ صدّقني! أنت لا زلت شبه پروفسور وأنا پروفسور كامل. في الماضي، قال من قال إن مؤلفات شكسبير من وضع فرانسيس بيكون. والآن ظهر من يقول أن هذه المؤلّفات من وضع لجنة. لجنة؟! والسبب؟! السبب، يا نطاسي، أنه لا يمكن، أن يلمّ شخص واحد بهذا الكم الهائل من المعلومات الجغرافية والتاريخية واللغوية والنفسية إضافة إلى الموهبة الشعرية والدرامية. سبحان الله! حسد، يا دكتور، حسد!. «حتّى على الموت لا نخلو من الحسد». وفي تراثنا قصّة عن رجل حسده جيرانه عندما ادّعى أمامهم أنه سيصلب مع عدد من الأكابر. حسدوه على الصلب! وكنت أعرف مؤذّناً في الحيّ الذي أقطنه يعمل، بالإضافة إلى عمله مؤذّناً، خفيراً في محكمة. حسده أهل الحيّ على تقاضي راتبين، راتب الخفير وراتب المؤذّن. رفعوا أمره إلى الجهات المختصّة. والجهات المختصّة تعبير لذيذ، يا حكيم. سكسي! قطعت الجهات المختصّة راتب المؤذّن، فاستمرّ الرجل يؤذّن مجاناً، لوجه الله تعالى. حسده أهل الحيّ على الثواب وطالبوا بمنعه من الأذان. تصوّر! حسدوه على الثواب. لا حول ولا قوة إلا بالله! وهؤلاء يحسدون شكسبير على مواهبه. لجنة؟! هل سمعتَ أسخف من هذا الادّعاء؟ يبدو أن أصحابه لم يسمعوا بالقول المأثور: «إذا أردت لموضوع أن يموت فشكّلْ له لجنة». عندما كنت وزيراً كنت أشكّل مائة لجنة كل يوم. لم أكن أريد قتل المواضيع؛ كنت أريد قتل الموظّفين. ولكن، مع الأسف الشديد، لم يمت أحد منهم. حتّى وكيل الوزارة الهرم. على العكس، انتعشت صحّتهم. لا شيء ينشّط الموظّف مثل عضويّة اللجان. ولهذا يموت الموظّفون بعد التقاعد. لا يموتون لإنقطاعهم عن العمل بل لانقطاعهم عن عضوية اللجان. إذا أردت أن تقتل موظّفاً فلا تضعه في لجنة.

ـ عفواً، يا پروفسور! عفواً! متى كنتَ وزيراً؟

ـ في الزمانات.

ـ وين؟

ـ في عربستان ٤٩.

ـ وزير شو؟

ـ وزير الشؤون الهامّة. سوف أحدّثك عن ذلك، فيما بعد. أمّا الآن فإذا قلت لي اسم الشخص الذي ألّف «تخليص الإبريز» فسوف أدفع لك ١٠,٠٠٠ دولار. عدّاً ونقداً.

ـ عليه العوض.

ـ حسناً! اسمه رفاعة رافع الطهطاوي. اسم مشتق من الرفعة والطهطهة. كان شيخاً. وكان إمام أول بعثة دراسية مصرية أرسِلَتْ إلى باريس. ومع ذلك أصابته عقدة الخواجة. في رأيي المتواضع، يا دكتور، عقدة الخواجة أهم بكثير من عقدة أوديب. أتعرف لماذا؟ عقدة أوديب، على فرض وجودها، لا تمسّ إلا بعض الناس، من الأثرياء المُدلّلين غالباً. أما عقدة الخواجة فلا يكاد يسلم منها إنسان. خذ نفسك، مثلاً. ألا تعاني من عقدة الخواجة؟

ـ أنا؟ ما بظنّ.

ـ لا تظنّ؟! آي هاف نيوز فور يو! أنت ، بلا صغرة، عقدة خواجة بشرية. ساعتك من اليابان، سيكو على ما يظهر. زوجتك من أسبانيا. كرافطتك من إيطاليا. سيّارتك من ألمانيا. بدلتك من بريطانيا. شهادتك من أمريكا. عُقَدك النفسية من النمسا. عشيقتك من كندا. صاحبتك الثانية. . . .

ـ أو كي يا پروفسور! أوكي! أنا عقدة خواجة بشرية!

ـ لا تنزعج، يا دكتور. هذا المرض قاتل ولكنه غير مميت. يقتل الأمّة ولكنه لا يميت الفرد. على العكس، الفرد ينتعش بالعقدة كما ينتعش الموظّف باللجنة. عقدة الخواجة وباء عالمي كالأيدز أجارك الله. حتّى طه حسين الذي بدأ حياته طالباً ثم شيخاً في الأزهر أراد تحويل مصر إلى قطعة من البحر الأبيض المتوسط، الجانب الأوربي. هل أخبرتك أن طه حسين كان من أعز أصدقائي؟

ـ لا يا پروفسور.

ـ أووه! كنت أحبّه ويحبّني. ولم يكن يغضب حتّى عندما كنت أقلّده. أقلّد صوته وأقلد كتابته. واستمرّت العلاقة الحميمة بيننا حتّى بدأ يكتب اسمه طاها. أو، بالأصح، يملي اسمه. قلت له: «هناك خطوط حمراء لا يستطيع أحد تجاوزها. حتّى أنت يا دكتور طه». ولكنه أصرّ على رأيه. وكانت هذه بداية النهاية. كان، رحمه الله، رجلاً عظيماً ولكنه كان رجلاً عنيداً. وكان شكّاكاً. يشكّ في كل

شيء، وفي كل أحد. حتّى أنا لم أسلَم من شكوكه. اتّهمني، مرّة، بتهريب معلومات عنه للرافعي الذي كان وقتها يشويه على السفّود. تصوّر! لم تسمع عن الرافعي؟ يا عيب الشوم! مصطفى صادق الرافعي. كان أديباً موهوباً يكتب النثر وينظم الشعر. ويحصل على جوائز في الأناشيد الدينية والوطنية. وكان يعمل كاتباً بمحكمة طنطا. وكان مبتلًى بالصمم. ثم ابتلى نفسه بشيء أخطر من الصمم. ابتلى نفسه بحبّ ميّ. سمعت عن ميّ يا حكيم؟ ميّ زيادة! من جماعتكم. أعني لبنانية. الرافعي، بدوره، كانت لدية عقدة خواجة. وإلاّ ما له وما لميّ؟ طنطا فيها البركة. وهذه غير بركة السيّد البدوي. وتلك قصة أخرى، مختلفة تماماً. ميّ، يا حكيم، شخصية عجيبة غريبة تستحق دراسة نفسية لم تُكتب بعد. مع احترامي لكل من كتب، وكل ما كُتب. أدباء مصر وشعراؤها كافّة أحبّوا ميّ. بدون أيّ استثناء. «وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى .:. وليلى لا تقرّ لهم بذاكا». ألّف هؤلاء ما لا يُعدّ ولا يحصى من القصائد والمقالات والقصص والخواطر والروايات عن ميّ. بدون مبالغة، يا طبيب، لا أعتقد أنّه وجدت في التاريخ كلّه قبلها امرأة ألهمت هذا الحشد الهائل من المبدعين. وأنا أكره كلمة المُبدعين ولكنني أستعملها من باب تعويد النفس على المكاره. حتّى القاضي العجوز الوقور، إسماعيل صبري، أصابه الڤيروس. لم يكن يعيش إلاّ من أجل يوم الثلاثاء، يوم صالونها الأدبي. وقال في ذلك شعراً: «إنْ لم أمتّعْ بمَيٍّ ناظريَّ غداً .:. أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء». ولا ندري ماذا كان ردّ الفعل عند يوم الثلاثاء، خصوصاً والتهديد صادر من قاضٍ يملك سلطة الحبس. الرافعي، بالمناسبة، كتب عن ميّ كتابين، «السحاب الأحمر» و «رسائل الأحزان»، لم يفهمهما أحد. حتَّى ميّ. حتّى أنا. وإذا كنت أنا لم أفهم شيئاً، فُورجِتْ إتْ! والعقّاد كان يزعم أنه الوحيد، تصوّر الوحيد، الذي أحبته ميّ. كان العقاد رجلاً عظيماً، يا حكيم. ولكنه كان مغروراً جداً. هل أخبرتك أنّه كان صديقاً عزيزاً لي؟

ـ لا.

ـ أووه! كنا صديقين حميمين. وكثيراً ما كان يحدّثني عن ميّ. كان يقول لي: «ميّ مجنونة بي، يا پروفسور. ميّ لم تفتح صالونها الأدبي إلا من أجلي. ميّ لم تعشق غيري طرفة عين» وكان ينشدني ما ينظمه فيها من شعر. كان العقّاد شاعراً، يا دكتور. وأصدر حوالى ٢٠ ديواناً. ومع ذلك لم يحفظ إنسان شيئاً من شعر العقاد غيري، وغير صالح جودت، وغير سيّد قطب قبل أن يقرّر أن شعر العقاد ينتمي إلى فترة الجاهلية. هل تريد أن اتحفك بقصيدة عقّادية؟

ـ لا، يا پروفسور. دخيلك!

ـ حسناً! سوف أهفّك ٣ أبيات فقط. وهي، على كل حال، أجمل ما كتب. كنت معه عندما نظمها وكانت، بكل تأكيد، عن ميّ «وُلِدَ الحُبُّ لنا.. وافرحتاهْ! .ٌ. .. وقضى في مهده... واأسفاهْ! مات لم يدرج.. ولم يلعب.. ولم .ٌ. يشهد الدنيا... ولم يعرف أباهْ. ليته عاش!.. فأمّا إذ قضى .ٌ. فليكن برداً على القلب جواهْ». هذا شعر جميل بكل المقاييس، يا حكيم. ولكن العقّاد لم يكن محظوظاً في الشعر. والدنيا حظوظ، في الشعر وغير الشعر. أنا، يا طبيب، أعتقد أن ميّ لم تبادله شعوره. ولهذا انتقم منها. وجاء الانتقام على شكل رواية سمّاها «سارة». روايته الوحيدة. بيضة الديك. بيضة الديك! وبيضة الديك مجرّد أسطورة، فالديك لا يبيض حتّى مرّة واحدة. وكل أديب يشعر أنه بحاجة إلى كتابة رواية. حتّى صديقي طه حسين. أدلى بدلوه وكتب «دعاء الكروان». مجرد خواطر منمّقة. وهيكل باشا. أعني هيكل الأوّل لا وزير الپروپاجنداء. عماذا كنّا نتحدث؟

ـ عن «سارة».

ـ صدقت! «سارة» كانت انتقام العقاد من ميّ. أعطي ميَّ في الرواية اسم هند وأهملها إهمالاً تامّاً، ووقع في دباديب سارة. وهذا تعبير مصري دارج يعني أحبّها حُباً عنيفاً. أحبّ سارة، وأهمل هند. يا للانتقام الرهيب! لا شكّ أن هند غضبت ولكني أشكّ أن ميّ تأثرت. ظلت صداقتي وطيدة مع العقّاد، حتّى زرته ذات يوم مرتدياً كرافطة حمراء. فُوجئت به يصرخ منفعلاً: «إقلع الكرافطة يا مولانا! إقلعها فوراً!». كان العقّاد يسمي كل من يكلّمه «مولانا»، استهزاءً وسخرية، إلاّ أنّا فقد كان يسمّيني الپروفسور. عندما سمّاني «مولانا» توقّعت كارثة، وبالفعل حدثت. قلت له: «لماذا تريد أن أقلع الكرافطة يا سي عباس؟». إعلم، يا طبيب، أنّه منذ أن هدّد العقّاد بكسر أكبر رأس في البلد والجميع يسمّونه «الأستاذ». حتى لا يكسر رؤوسهم. وإذا استبدّ بهم الخوف سمّوه «العملاق». إلاّ أنا. لم أكن أسمّيه إلاّ «سي عباس». ردَّ عليَّ غاضباً: «الأحمر! اللون الأحمر! أنا أعتبر كل من يرتدي كرافطة حمراء شيوعيّاً». قلت له: «إعقل يا سي عباس! العقل زِيْنة! تلقّيت هذه الكرافطة أمس بمناسبة عيد ميلادي. تلقيتها هديّة من كاميليا». تعرف كاميليا، يا دكتور؟ الممثلة المصرية اليهودية الحسناء التي احترقت في طائرة تي. دبليو. أيه. ما إن سمع العقّاد اسم كاميليا حتّى فقد اتزانه، وصاح: «أخرج يا عدوّ الله! عليك اللعنة!». والواقع، يا دكتور، أنني شدهت. الجملتان مُسجلتان باسم يوسف بك وهبي في الشهر العقاري ولا يجوز لغيره استعمالهما. سمعت عن يوسف بك وهبي؟

ـ معلوم.

ـ حسناً! شُدهتُ ثم غضبت. قلت للعقّاد: «بل عليك اللعنة أنت يا سي عبّاس، يا عدو اللون الأحمر». ولم أكتف بذلك بل مضيت صارخاً: «أنت كذّاب أشر، يا مولانا! أنت شاعر فالصو، يا مولانا! ميّ لم تحبّك، يا مولانا! ميّ كانت تكرهك، يا مولانا!». قبل أن أنتهي من كلامي رأيت العقّاد يخلع طربوشه الرماديّ ـ كان العقّاد يكره اللون الأحمر حتّى في الطرابيش ـ ويزيح شاله الرماديّ، ويقبل عليّ ناوياً خنقي بالشال. الحقّ أقول لك، يا دكتور، أطلقت ساقيَّ للريح. الهريبة تلتين المرجلة، كما يقول أصدقائي اللبنانيون، بحقّ. لم تكن هناك ريح. كُنّا في مصر الجديدة. في شهر يوليو. تموز الذي فيه تِدْفَا العجوز ويغلي الميّ بالكوز. ولم تكن هناك نسمة واحدة. ولكني أطلقت ساقيَّ للريح. أي فركتها. بعدها، لم أر العقّاد أبداً. رحم الله العقّاد! كان مغروراً. ولم يكن يطيق منافسة من أحد. الحسد! الحسد آفة العلماء والأدباء، والعباقرة عموماً. و «كل العداوات قد تُرجى مودّتها .. إلاّ عداوة من عاداك عن حسد». والمتنبّي كان مهووساً بالحسد. ولهذا سمّي ابنه مُحسّد. وأسمّيه أنا أبا حسيد. كان يعتقد أن كل الناس يحسدونه. حتّى سيف الدولة! تصوّر! روي لي بنفسه قصّة القطيعة مع سيف الدولة...

ـ عفواً، يا پروفسور! أنت حكيت مع المتنبّي؟!

ـ أووه! ألف مرّة! على الأقلّ!

ـ كيف؟

ـ سوف يجيئك خبر ذلك بالتفصيل. إسمع الآن قصة القطيعة بين أبي حسيد وسيف الدولة كما حكاها لي بنفسه. قال لي: «كان سيف الدولة يحسدني، يا پروفسور». قلت له: «ولماذا يحسدك وأنت كما يقولون في ديرتنا لا وجه في المقعد ولا... حسناً! لا داعي لبقية المثل. لماذا يحسدك؟». قال: «كان سيف الدولة شويعراً...».

ـ عفواً يا پروفسور! شو يعني شويعراً؟

ـ شويعر تعني شاعراً صغيراً. زغير!

ـ سيف الدولة شاعر؟ ما شفناها في الكتب.

ـ صدقت! لا يوجد الكثير من أشعاره في الكتب. رُبّما لأنّه كان شويعراً. وربّما لأنه كان مُقلاًّ. وربّما لأن أبا حسيد جاب خبره مع الشعراء الذين جاب

خبرهم. المهم أن أبا حسيد كان يقول لي: «كان سيف الدولة يتمنّى لو كان شاعراً مثلي. صدّقني! كان مستعداً للتنازل عن ملكه ليكون شاعراً مثلي. كان بالإمكان، يا بروفسور، أن تستمّر العلاقة بيننا رغم الحسد، لولا الجارية الروميّة، قبّحها اللّه!» قلت: «أي جارية روميّة يا أبا حسيد؟». قال: «إعلم، يا بروفسور، أن سيف الدولة أسر رومية حسناء من أكابر الروم. وبدلاً من أن يرجعها لهم ويستردّ ابن عمه الثرثار الذي جلب الصداع للإنس والجن بكثرة استعطافه وكلامه مع الحمام مثل المجانين، أقول بدلاً من أن يفعل سيف الدولة ذلك قرّر أن يحتفظ بها لنفسه ويمارس معها السحّ الدحّ أمبو. بنى لها ڤيلا قرمزية بريفاب في ضواحي حلب الشهباء وأنشد فيها، أعني الجارية لا الڤيلا القرمزية: «راقبتني العيون فيك، وأشفقتُ.. ولم أخلُ قطُّ من إشفاقِ. ورأيتِ الحسود يحسدني فيك.. اغتباطاً، يا أنفس الأعلاق. فتمنيّتُ أن تكوني بعيداً .. والذي بيننا من الودّ باقِ. رُبَّ هَجْرٍ يكون من خوفِ هجرٍ .. وفراقٍ يكون خوف فراقِ». اللهمَّ لا اعتراض! أنشد فيها هذه الأبيات، وهذا شأنه. من حقِّ كل إنسان أن يقرض الشعر طبقاً لإعلان حقوق الإنسان الصادر من الأمم المتحدة. ولا يجوز حبس إنسان بسبب شعره مهما كان رديئاً طبقاً لمنظمة العفو الدولية. المشكلة أن سيف الدولة طلب رأيي في الأبيات». قلت: «الأبيات جميلة، يا أبا حسيد. أرجو أن تكون قلت للرجل كلمة طيبة». قال: «كلمة طيبة؟! أنا لا أجامل في الشعر، يا بروفسور. أجامل في كلّ شيء إلا الشعر. طلب رأيي وأعطيت رأيي: على أهلها جنت براقش». قلت: «الله يستر! وماذا كان رأيك؟». قال: «قلت له: «يا سيف الدولة!، هناك بعض الملاحظات. في البيت الثاني ذكرت كلمة اغتباطاً، وهذه كلمة ليس لها مُبرّر. مجرّد حشو ليستقيم الوزن. تستطيع أن تحذفها ولا يتغير المعنى: واعلم، يا سيف الدولة!، أن مقياس الشعر الحقيقي أنك لا تستطيع أن تحذف منه كلمة أو تضيف إليه كلمة. مثل شعري، أنا يا محاچيك! وهذا يذكرني، يا سيف الدولة!، بالحشو الذي جاء في البيت الأول. جملة «ولم أخل قطّ من إشفاق» زائدة. جملة اعتراضية. جملة غير مفيدة. ثم إنني، يا أخ علي!، ...».

- عفواً يا بروفسور! من الأخ علي؟

- الأخ علي هو سيف الدولة، يا حكيم. علي اسمه الأوّل. هِز فرسْت نيْم! دعني أكمل كلام أبي حسيد. «... ثمّ إنني، يا أخ علي!، صحبتك مدة طويلة فلاحظت أنك كثيراً ما تخلو من الإشفاق. وفي البيت الثالث، حاولت أن تطابق بين البعد والقرب فعصلَجتْ عليك القافية، فطابقت بين البعد والبقاء، وهذا ليس

بشيء . ولو سمع ابن المعتز [illegible] ... أما البيت [illegible] بالسيف [illegible]

الدولة [illegible] يأس به . [illegible] أن [illegible] ونرسل الأبيات الأخرى [illegible]

إدارة الأرشيف [illegible] . لا [illegible] عليه كثيراً . يا أبا [illegible]

[illegible] ذكرني [illegible] بقدر [illegible] كل [illegible] وأعني [illegible]

هي شعري . قالت [illegible]

سارت الأمور من [illegible] ما قاله أبو

حميد إلا أنه شاعر . والشعراء يكذبون [illegible] .

- [illegible] -

[illegible]

جبران [illegible] عشقت [illegible] متأولة [illegible] أرادت [illegible]

واحداً [illegible] بيروت . عشقت جبران خليل جبران .

- جبران كان لبنانياً يا بروفسور [illegible]

[illegible] جبران [illegible]

[illegible]

بالمواصلة [illegible] من القرن [illegible]

ملبّقة [illegible] كل [illegible] في [illegible]

مجرد [illegible]

إجابة على بالي . وهذا ليس موضوعنا الآن . موضوعنا أن مي عشقت جبران . وكانت

تكتب له رسائل ملتهبة [illegible] غابت الشمس وراء الأفق [illegible]

خلال [illegible] الأشكال والألوان [illegible]

الرو [illegible]

[illegible]

والشفق يملأ [illegible] وأن النور يتبع الظلام ،

وأن الليل سيخلف النهار [illegible] مرات كثيرة قبل أن ترى الذي

تحبه ، تتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة [illegible] فتلقي بالقلم جانباً [illegible]

لتحتمي من [illegible]

لقد [illegible] في [illegible] في [illegible]

إليها . [illegible]

«نحن نريد الكثير ، نحن نريد كل شيء ، نحن نريد الكمال ... أنا اليوم في سجن [illegible]

من الرغائب. ولقد ولدت هذه الرغائب عندما ولدت. وأنا اليوم مُقيّد بقيود فكرية قديمة، قديمة كفصول السنة...». هل هذا كلام عاشق؟! حتىَ في نهاية الرسالة لا تلمح أثراً لعاطفة حقيقية: «الآن قرّبي جبهتك، قرّبي جبهتك الحلوة. كذا كذا، والله يباركك ويحرسك يا رفيقة قلبي الحبيبة». جبهتك الحلوة؟ يا سلام! وماذا عن الشفايف والخدود، يا جبران؟! أنا، شخصياً، أعتقد أن جبران لم يحبّ ميّ. أعتقد أن جبران، بدوره، كان يعاني من عقدة الخواجة. هام حُبّاً بالأمريكيات والفرنسيات. والحسناوات الشابات منهن لم يحببنه، أمّا العجائز فحدّث ولا حرج. إحفظ هذا البيت يا نطاسي: «جُننّا بليلى وهي جُنّت بغيرنا ٭ وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها». سجّل هذا البيت في دفترك. وترجمه إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية. وأنشده في مؤتمرات علم النفس. نصف المشاكل العاطفية يلخّصها هذا البيت. لو قاله فرويد لاعتُبر نظرية علمية، أمّا وقد قاله أعرابي كحيان فقد ظلّ مجرد بيت شعر. بالمناسبة، هل قرأت الكتاب الذي صدر مؤخّراً والذي يزعم أن جبران كانت لديه ميول جنسية غير طبيعية؟

- سمعت عنه.

- طبعاً سمعت عنه. كل شيء فيه جنس وشذوذ تسمعون عنه معشر الأطباء النفسيين. أنا لا أعتقد أن جبران كان شاذاً. قال ميخائيل نعيمة في كتابه عن جبران إنه عرف الجنس، أعني جبران لا نعيمة، في سن الرابعة عشرة، مع امرأة تكبره. مشكلة جبران لم تكن الشذوذ؛ مشكلته إعجاب العجائز به. وهذا الموضوع يستحق التحليل، ولكنه ليس موضوعنا الآن. موضوعنا ميّ. الفتاة التي عشقها أعظم عباقرة العصر قضت بقية أيامها في عزلة ومرض ووحشة. قضت سنة هنا. في العصفورية. في هذا المكان العتيد. أدخلوها ظلماً وبهتاناً بتهمة الجنون. حقيقة الأمر، أنها لم تكن مجنونة عندما دخلت، إنما كانت مجنونة عندما خرجت. كيف تفسّر هذه المعضلة، موت امرأة كهذه شقية وحيدة؟

- يا پروفسور! ميّ لم تكن مريضتي.

- ماذا تقصد؟ وأنا لست مريضك. أنا، يا مولانا، لم أجيء هنا للعلاج. أتيت للحديث. وأنت تتقاضى مائة دولار في الدقيقة، في الدقيقة لا في الساعة يا دكتور، مقابل الإنصات إليّ. لا تقل مرة ثانية لا تصريحاً ولا تلميحاً إني مريض هنا.

- لم أقصد شيئاً. لا تكن شكّاكاً كالدكتور طه حسين.

ـ براڤو، دكتور ثابت، براڤو. كنت أعتقد أنك محروم من حسّ الدعابة، سِنسْ أوف هيومر، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأنجلوسكسون. معظم الأطباء النفسيين الذين عرفتهم، وقد عرفت العشرات منهم يا صديقي... حلوة يا صديقي هذه! تذكّرني بصديقي أنور السادات، الله يرحمه! كان كل خواجة صديقه، بل عزيزه. لم يقابل السادات في حياته خواجه لم يحبّه. وهذه تشنيعة مُحوّرة. أطلقها الجمهوريون على الديمقراطيين. لم يقابل الديمقراطيون ضريبة لم يحبّوها. أي لم يحبوا فرضها على الناس. نعود إلى السادات. نيكسون كان صديقه. وفورد وكارتر. وطبعاً العزيز الأكبر هنري. ومناحيم بيجن. لا تُدخلنا في السياسة، يا حكيم.

ـ أنا ما قلت شي.

ـ قلت أو لم تقل، لا تدخلنا في السياسة الآن. أودّ أن أتحدّث عن حسّ الدعابة. كنت أقول لك إن معظم الأطباء النفسيين الذين عرفتهم، وقد عرفت العشرات منهم يا صديقي، محرومون من حسّ الدعابة. رُبّما لأن التحليل النفسي الذي يتعرضون له خلال تدريبهم يكشف لهم جوانب مرعبة من عقلهم الباطن. أو يذكّرهم بما فعله أجدادهم بهم خلال طفولتهم. وربّما لأن عدوى الكآبة تنتقل إليهم من مرضاهم. من الثابت، تاريخياً، أن فرويد لم يكن يضحك إلا عند نومه مع أخت زوجته.

ـ حاجه، يا پروفسور!

ـ حسناً! حسناً! لا داعي للمبالغة. كان يبتسم ولا يضحك. هل تعرف أن الأطباء النفسيين من أكثر الفئات المهنية انتحاراً؟

ـ نعم. نعم.

ـ لا يسبقهم إلا أطباء الأسنان. ومن يلومهم؟ الروائح التي يستنشقونها من أفواه زبائنهم كفيلة بدفع أيّ إنسان يحترم نفسه إلى الإنتحار. الزبون الأول: فول مدمس مع بصل. الزبون الثاني: بسطرمه. الزبون الثالث: دجاج بالثوم. في حياتي، يا طبيب، لم أر ثوماً كما رأيت في زحلة في الزمانات. تأتي الدجاجة فوق جبل من الثوم. ولهذا، ربّما، لا يصاب الجرسونات في زحلة بالسكتة القلبية. ولكن يصاب بها الزبائن. عندما يستلمون الفاتورة. نعود إلى حسّ الدعابة. أنتم معشر الأطباء النفسيين تزعمون أن المرء يضحك ابتهاجاً بأن الشيء المضحك لم يحدث له. فلان تزحلق على قشرة موز. هاه! هاه! هو الذي تزحلق وليس أنا. وحسّ الدعابة أنواع. يختلف مع اختلاف الشعوب. العرب حسّ الدعابة عندهم

مرتبط بالكلَمزينس. كيف تترجم هذه الكلمة إلى العربية؟ لا تعرف؟ ولا أنا! الأمثلة تكفي. فلان لا يتكلّم بطلاقة. يتأتىء أو يفأفىء أو يكأكىء. تـ.. تـ.. تـ.. فـ.. فـ.. كا.. كا.. كا.. ويضحك العرب من الأعماق. فلان قعد على الكرسي فانكسر الكرسي وسقط الأخ على مؤخرته. يضحك العرب من الأعماق. ولهذا تجد الأفلام والمسرحيات العربية مليئة بهذا النوع من التهريج. والتهريج ليس عيباً؛ هو مجرد عادة. وحسّ الدعابة الإنجليزي مختلف تماماً ويعتمد على التلاعب الخفيّ بالألفاظ. حسّ دعابة جافّ، كما يقولون. وهذا التلاعب الخفيّ قد يكون خفيّاً جدّاً. ولهذا يقال إن الإنجليزي يضحك على النكتة ٣ مرات. الأولى بمجرد أن يسمعها. والثانية، عندما يعتقد أنه فهمها. والثالثة، عندما يفهمها فعلاً. إذا كنت في لندن، يا طبيب، تركب الأندرجروند ورأيت أمامك إنجليزياً عجوزاً ينفجر من الضحك بلا سبب فلا تخف ولا تنزعج ولا تأخذه إلى أقرب مستشفى. كل ما في الأمر أنه فهم الآن نكتة سمعها خلال الحرب العالمية الثانية. أو ربّما الأولى. في كل محلّ في العالم الضحكة لمن يضحك أخيراً. إلاّ عند الإنجليز. الذي يضحك أخيراً هو أغبى الموجودين. وعند أصدقائي وأصدقائك الأمريكان النكتة، دائماً وأبداً، إحتقار للضعيف. المجنون. الأجنبي. الأجنبي بالذات. ولهذا تزدهر النكت البولندية في أمريكا. والنكت الروسية. أعني النكت التي تسخر من البولنديين والروس. والكسيح. وكبير السن. مجتمع عنيف، يا حكيم، حتّى في نكته. خصوصاً في نكته. عمّاذا كنا نتحدث؟

ـ عن عقدة الخواجة.

ـ عفاك! عفاك! كل مفكّري عربستان في القرنين التاسع عشر والعشرين عانوا من عقدة الخواجة. حتّى محمد عبده. لا! لا! لا! لا أقصد المغني المشهور. صديقي. أقصد الشيخ المفتي. الأستاذ الإمام. الذي قال حافظ إبراهيم في رثائه: «سلامٌ على الإسلام بعد محمّدٍ ∴ سلامٌ على أيامه النضراتِ». هذا البيت بذيء، يا طبيب. بذيء إلى درجة متناهية. أنا شاعر وقاصّ وروائي وكاتب مقالة ورئيس تحرير ومنتج سينمائي وفيلسوف وپروفسور وأؤمن بالحرية الفنية إلى أبعد الحدود. ومع ذلك، أعتبر البيت بذيئاً جداً. الإسلام لا يموت بموت أحد. حتّى الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل أحد إن الإسلام انتهى بوفاته. وحافظ إبراهيم يودّع الإسلام بعد محمد عبده. ولا يكتفي فيقول: «فإني لأخشى أن يضلّوا فيومئوا ∴ إلى نور هذا الوجه بالسجداتِ». تصوّر! والغريب، يا حكيم، أن حافظ إبراهيم كان يشكّ في صدق إيمان محمد عبده. قال يعني! ذكر في ديوانه أنه كان يعتقد أن

محمد عبده لم يكن يصليّ حتى صحبه في رحلة بحرية طويلة فرآه يصليّ فمنحه البراءة: «صحبت الهدى بضعاً وعشرين ليلة .·. فقرّ يقيني بعد أن كان يرجف». وهذا، بدوره، بيت سخيف جداً. لا داعي لاتّهام محمد عبده بترك الصلاة، ولا داعي لتسميته بالهدى. عاتبت حافظ إبراهيم بنفسي. قلت له: «يا شاعر النيل! هذا شعر نيله!». قال: «صح مني العزم والدهر أبى». قلت: «عذر أقبح من ذنب». قال: «لا تلمني. لُم الغادة اليابانية التي كنت أهواها في زماني». قلت له: «أنت؟! تعرف غادة يابانية؟! لا تكن رديكليوس!». قال: «ذات وجه مزج الحسن به .·. صفرة تُنسي اليهود الذهبا». قلت: «إحذر اللاسامية». قال: «وما اللاسامية؟». قلت: «كره اليهود». قال: «أنا لا أكره اليهود. ولا الذهب». المهمّ أن الأستاذ الإمام، بدوره، أراد تحويل العالم الإسلامي إلى قطعة من أوربا. الحقيقة أني أخشى أنه لم تبق في أوربا قطع. وزّعوها على أصحاب عقدة الخواجة، كما فرغ الصعيد من الصعايدة بعد أن وزّعوهم على النكت. أوربا شبه فاضية الآن من الأوربيين. هذه قطعة الطهطاوي. هذه قطعة الشيخ محمد عبده. هذه قطعة طه حسين. لا عجب إذا أصبحت بعض مناطق أوربا الآن في مستوى عربستان من حيث النظافة والخدمات. إسمع، يا طبيب! أنا أتحدّث عن الأشخاص لتوضيح الفكرة. الأشخاص لا يهمّون؛ ما يهم هو المبدأ. أستطرد فأذكر الأشخاص أحياناً من باب الجوسپ. والجوسپ، يا نطاسي، ممتع جداً. يسمّونه في بعض نواحي عربستان القرض. تصوّر فأراً يقرض جبنة. أكّالة الجبنة، كما كان يقول المير فؤاد شهاب. لا تدخلنا في هذه المتاهات الآن. تصوّر فأراً يقرض. عملية مثيرة شبه جنسية. ويسمّونه في نواحٍ أخرى من عربستان الحشّ. وهذا الكلمة ليست مشتقّة من الحشيش الذي يُدخّن بل من الحشيش الذي ترعاه الماشية. تصوّر نشوة الفلاح وهو يحش، نشوة شبه جنسية. ويسمّونه في نواحٍ أخرى من عربستان القصّ. تصوّر جراحاً يقصّ لحم مريضه، وتصوّر شعوره، شعور شبه جنسي. ماذا تسمّون الجوسپ في لبنان؟

- طقّ الحنك.

- لا! لا! لا! طقّ الحنك هو الكلام الفارغ عموماً وإجمالاً. الجوسپ هو الحديث المُحدّد عن أشخاص محدّدين، الحديث الذي يركّز على عيوبهم وفضائحهم ونوادرهم، سواء كانت حقيقية أو وهمية.

- تركيب مقلة.

- أحسنت! أنا أتطرّق إلى الأشخاص والهدف هو إيضاح عقدة الخواجة.

وهذه العقدة، يا حكيم، موجودة في كل مكان. البريطانيون يحبون العطور الفرنسية. والمرأة الفرنسية تحبّ الرجل الشرقي. وصلنا إلى الجنس. بدأت تبتسم وتشعل سيجارة جديدة. من حسن الحظ أنك لا تدخن السجائر الفرنسية لأن رائحتها تصيبني بالغثيان. على عكس السجائر الأمريكية ذات النيكوتين السكسي والتكنولوجيا المتطوّرة. شأنها شأن القنابل الذكيّة. السجائر الأمريكية، يا دكتور، ذكيّة جداً، بدليل أنها تحذّر الناس من أضرارها في أمريكا ولا تفعل ذلك في بقية بلاد العالم. إسأل السيجارة التي تدخّنها إذا لم تصدقني. لا تجاوب؟! تتغابى. «ليس الغبيّ بسيّدٍ في قومه ∴ لكن سيّد قومه المتغابي». وكذلك السيجارة المتغابية، سيّدة قومها. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا إعجاب المرأة الفرنسية بالرجل الشرقي. وهذه مقولة اختبرتها بنفسي. لاحظ دقة التعبير. قلت مقولة ولم أقل نظرية. في عربستان، يا حكيم، خلط هائل في المصطلحات فيختلف العربستانيون حتَّى عندما يتفقون. يخلط العربستانيون بين المقولة والنظرية والقانون. مع أن الفروق شاسعة. يعتقدون أن كل نظرية علمية صحيحة. وهذا هراء غير علمي. المقولة، يا حكيم، هي مجرّد زعم. كل إنسان يستطيع أن يأتي بمقولة. هناك ملايين المقولات. لا! بلايين المقولات. الزنجبيل يعالج الكحّة. القطّة السوداء تجلب الحظ السيِّىء. السمك مع البطيخ مضر. العلم في الصغر كالنقش في الحجر. الأصلع يتمتع بقوة جنسية فائقة. كل هذه تبقى مقولات حتى يجرّبها أحد في ظل ظروف موضوعية دقيقة عشرات المرات. عندها تصبح المقولة نظرية. النظرية، إذن، هي المقولة التي تقبل النفي وتقبل الإثبات. الكثيرون يعتقدون أن النظريات العلمية لا تقبل النقاش؛ العكس هو الصحيح. إذا جرّبت النظرية مليون مرة وضبطت تحوّلت إلى قانون. والقوانين قليلة. والنظريات كثيرة. والقوانين لا تتغير والنظريات تتغيّر كل يوم. المهمّ أني اختبرت مقولة إعجاب المرأة الفرنسية بالرجل الشرقي فوجدتها صحيحة. كان هذا عندما كنت أدرس في فرنسا. وهامت الفرنسيات بي. هل تعرف الفرق بين أحبّ وهام؟ لا تعرف؟ إعلم، إذن، أن للحب مراتب فصّلها الثعالبي النيسابوري. أول مراتب الحب الهوى، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف وهو شدّة الحبّ، ثم العشق، ثم الشعف، ثم الشغف، ثم الجوى ثم التيم، ثم التبل، ثم التدليه، ثم الهيوم. من فرط هيامهن بي، حدثت مآس عديدة للفرنسيات. واحدة انتحرت، كوليت. واحدة قتلت زوجها، ماريان. واحدة أصبحت راهبة، فرانسواز. الأخت فرانسواز.

ـ متى كنت تدرس في فرنسا، يا بروفسور؟

ـ في الزمانات.

ـ وشو كنت تدرس؟

ـ نسيت. «إختلاف النهار والليل يُنسي»، كما قال البرنس أحمد شوقي. في باريس، تعرّفت على مجموعة من ألمع شخصيات القرن. خذ، مثلاً، أرنست همنجواي. سمعت عنه؟ بالتأكيد! الروائي الذي انتحر ببندقية الصيد، الشُوت جنْ، والتي حُرّف اسمها في بعض مناطق عربستان فأصبح الشوزن، والتي تسمونها هنا، على ما أظن، الجفت. أنا لست خبير بنادق. كميل شمعون كان الخبير. كانت لديه أكثر من ٤٠٠ بندقية. همنجواي، يا طبيب، فتح الدولاب الزجاجي الواقع في ردهة منزله ذات صباح وأخرج بندقية، شوت جن، وأفرغ الرصاص في رأسه ومات. هل تعرف لماذا قتل نفسه؟ سوف أقول لك السرّ الحقيقي. دعك مما تقرأ في الكتب والصحف. صحيح أنه دخل المصحّة عدة مرات. صحيح أنه كان مصاباً بالكآبة. صحيح أنه كان يعاني من النضوب. ولكن كل هذه الأشياء لا تفسر انتحاره. معظم الذين يدخلون المصحات النفسية لا ينتحرون. ومعظم الذين ينتحرون لم يدخلوا مصحات نفسية، أليس كذلك؟

ـ تمام.

ـ والكآبة النفسية ليست سبباً للانتحار. ٩٩,٩٪ من شعوب عربستان، أو شعبها، مصابون بالكآبة النفسية ومع ذلك لا ينتحرون. هل تعرف عربستانياً لا يعاني من الكآبة النفسية؟

ـ هذه مبالغة، يا پروفسور.

ـ حسناً! هذا رأيي الشخصي. مجرد انطباع. مجرد مقولة. أغنياء عربستان مصابون بالكآبة وسبب كآبتهم فقراء عربستان. وفقراء عربستان مصابون بالكآبة وسبب كآبتهم أغنياء عربستان. وقس على ذلك. سبب كآبة الحكام المحكومون وسبب كآبة المحكومين الحكّام. سبب كآبة المرضى الأطباء وسبب كآبة الأطباء المرضى. الزبدة أن المكتئبين لا ينتحرون. وكذلك الأمر بالنسبة للناضبين. هؤلاء، بدورهم، لا ينتحرون. أعرف شاعراً يكتب القصيدة نفسها من ٧٧ سنة ولا ينتحر. وهمنجواي ترك تراثاً هائلاً. لماذا ينتحر وقد قال ما عنده؟ هل تريد أن تعرف السبب؟ السبب الحقيقي؟

ـ نعم، يا پروفسور. رجاءً!

ـ أبشر! واسمع جيّداً! لو كان عندي الوقت لألفت رواية عن الموضوع.

توليت ناو! إسمع القصة الحقيقية لانتحار همنجواي. واحفظها. واكتب عنها تقريراً لمؤتمر من مؤتمراتكم النفسية. واروِها لصديقتك الشقراء. هل تعرف أني أكتب الرواية؟ وروايات الخيال العلمي، بالذات؟ هل تعرف أحسن رواية من روايات الخيال العلمي في التاريخ؟ لا تعرف؟! حسناً! سوف أخبرك. رواية «سيف بن ذي يزن». اكتشف مؤلّفها السحرة والأطباق الطائرة قبل والت ديزني بقرون. أعجبت بالرواية وأنا طفل. عندما دخلت المدرسة سمعت من سادتي المثقفين أن الأدب العربي لم يعرف الرواية إلاّ في القرن العشرين نقلاً عن الغرب. أولاد حرام الذين قالوا هذا الكلام ودرّسوه. أولاد حرام! ماذا عن «عنترة بن شداد؟» ماذا عن «الأميرة ذات الهمة؟» ماذا عن «الزير سالم؟» ماذا عن «تغريبة بني هلال الكبرى؟» نقلاً عن الغرب في القرن العشرين. يا سلام!! وإذا تحذلق متحذلق قال إن هناك «شيئاً من فن القصّة في المقامات». لا يا شيخ؟! «شيء من فنّ القصة!» وماذا عن «التوابع والزوابع»؟ ماذا عن «رسالة الغفران»؟ ماذا عن «حيّ بن يقظان»؟ وماذا عن «ألف ليلة وليلة»، أروع مجموعة قصصية عرفها العالم؟ أولاد الحرام هؤلاء يعلّمون أولادنا أنا نقلنا القصّة والرواية من الغرب في القرن العشرين. اللغة الإنجليزية لم تظهر لغة مستقلة إلاّ منذ ٥ قرون، وأدبنا مليء بالروائع منذ ١٥ قرناً، ومع ذلك يزعمون أننا نقلنا كل فن قصصي من الغرب. جهلة وأميون وصعاليك!

ـ تيك إت إيزي، يا پروفسور. لشو تعصّب؟

ـ عقدة الخواجة! عقدة الخواجة! عماذا كنا نتكلم؟

ـ عن انتحار همنجواي.

ـ صدقت! حسناً! همنجواي، بغريزته، صيّاد وُلِد بمواهب الصياد وطبيعة الصياد وقوّة الصياد وضعف الصيّاد. ربما وُلِد في القرن الخطأ. بدأ حياته ملاكماً يصيد الرجال بلكماته. ثم بدأ يصيد النساء بكلماته. ثم انتقل إلى الحيوانات. صاد كل حيوان يمكن صيده. الفيلة والنمور والتماسيح والأسود. بالمناسبة، لا تصدّق أن الأسد ملك الحيوانات. الأسد، يا حكيم، حيوان كسول يحبّ النوم ولا يتحرك من مضجعه إلا مضطراً. وحتّى عندما يصيد تقوم اللبؤة بالشطر الأكبر من العمل. لهذا السبب، رُبّما، يطلق أصدقائي المصريون على المرأة التي تصيد الرجال لقب اللبوة. ملك الحيوانات في أفريقيا هو الجاموس البرّي، أقواها وأخطرها على الصيّادين. كتب همنجواي عدّة قصص عن صيادين قتلتهم الجواميس البريّة. أنا، يا حكيم، كنت أسمّي همنجواي پاپا، كما يفعل كل أصدقائه المقرّبين. ولهذا تستطيع أن تعتبر كل ما أقوله عن همنجواي صادراً عن مصدر مطّلع. ومصدر مطّلع تعبير

جميل جداً. مثل الجهات المختصّة. والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. وحدود إسرائيل الآمنة. وساعات النضال الحاسمة. هل قرأت قصة «الشيخ والبحر»؟ وشاهدت الفيلم؟ براڤو! كالعادة، الكتاب أفضل من الفيلم. الشيخ هو همنجواي نفسه، والقصة رمزية، بطبيعة الحال. تذكّر أن أسماك القرش أكلت السمكة الهائلة وعندما وصل صاحبنا العجوز إلى الميناء لم يجد سوى العظام. والمقصود بالرمز؟ عبثية الصيد! لا يوجد شيء يستحق أن يُصاد. حتى السمكة الهائلة ليست، في النهاية، سوى عظام. هنا تبدأ في فهم انتحار همنجواي. لم يبقَ شيء لم يصده همنجواي حتّى بدأ يشعر بالملل. شعر أنه لم يبقَ في حياته ما يستحق أن يعيش من أجله. ثم لمعت في رأسه فكرة رائعة. فكرة قاتلة. وكما قال أوسكار وايلد، «كل رجل يقتل الشيء الذي يحبّه». سمعت عن أوسكار وايلد؟ بالتأكيد! الإيرلندي الذي قضى حياته يضحك من الإنجليز. وكتب روايات ظريفة مليئة بالسخرية منهم. فوضعه الإنجليز في سجن بتهمة الشذوذ الجنسي. وبعد موته أباحوا الشذوذ. لا تستهن بالإنجليز، يا حكيم. اللؤم يجري في عروقهم مجرى الدماء. تذكّر ما فعلوه مع نابليون. لا! لا! لم تبدأ القصة في واترلو ولا سانت هيلانة. بدأت عندما كان يقود الحملة الفرنسية إلى مصر. كان جنرالاً شاباً وقتها. وأعجب بحسناء اسمها پولين فوريه. كان زوجها ضابطاً من ضبّاطه. أرسل الزوج في مهمّة إلى فرنسا ليخلو له الجوّ مع پولين. ولكن الإنجليز أوقفوا السفينة التي تحمل الضابط في عرض البحر. وبدلاً من أن يعتقلوه أو يقتلوه أعادوه معزّزاً مكرّماً إلى مصر لينغص خلوة الجنرال مع پولين. وبالفعل نجح التخطيط. وبعدها تعقّد نابليون جنسياً. وزادت عقده فيما بعد الأمبراطورة جوزفين التي كانت مصابة بالشبق الشديد. وأصيب الأمبراطور بالعجز الجنسي وهو في الثامنة والثلاثين. واستطاع الإنجليز هزيمته بسبب هذا التخطيط الجهنمي بعيد المدى. وصديقي هيكل أسرَّ لي، مرّة، أن نابليون هُزم في واترلو لأنه كان مصاباً بالإسهال. وأنا لا أصدّق ولا أكذّب. عمّاذا كنا نتكلم؟

ـ عن انتحار همنجواي.

ـ يس! لمعت في رأي پاپا فكرة خارقة. ما هي الطريدة التي لم يصدها من قبل؟ الطريدة الفريدة التي لم يسبقه إلى صيدها أحد في التاريخ؟ الطريدة العظيمة التي تضمن لصائدها الخلود؟ هل تعرف الجواب، يا دكتور؟

ـ لا.

ـ حسناً! الجواب هو أرنست همنجواي نفسه! أعظم صيد في التاريخ. عندها

تحوّلت حياة همنجواي إلى ملحمة صيد لا تخطر ببال. أعظم صياد، همنجواي، يطارد أكبر صيد، همنجواي. آه لو أبصرت الصراع بين الصيد والصيّاد. يختفي الصيد في المصحّة حتى يعثر عليه الصيّاد ويخرجه منها. يحتمي الصيد في أحضان امرأة فيأتي الصياد ويطردها. يغلق الصيد دولاب الأسلحة قبل أن ينام، فيأتي الصياد قبل الفجر ويفتح الدولاب. لا تنسَ أن الصيد كان يعرف كل حيل الصياد. والعكس بالعكس. استمرت المطاردة المثيرة ١٥ سنة. ثم وقع الصيد في يد الصياد. وخرّ همنجواي صريعاً بالسلاح. الرجل الذي كتب «وداعاً للسلاح».

ـ فانتاستك! فانتاستك، يا پروفسور!

ـ صدقت! ولهذا يقال إن الحقيقة أغرب من الخيال. المهمّ أني تعرفت على همنجواي في باريس. وسألته: «ماذا تفعل هنا، يا پاپا؟». قال: «أكتب رواية». قلت: «عن باريس، يا پاپا؟» قال: «لا، يا پروفسور. عن إسبانيا». قلت: «عجيب! لماذا تكتب رواية عن إسبانيا في باريس؟». قال: «لأنّ باريس هي باريس». كما إنني قابلت في باريس جيمس جويس، روائي سوپر الفضل. سوف أخبرك، بالتفصيل، عن سوپر. لا تستعجل! هذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أني رأيت جويس في باريس. لم يتعرّف عليّ إلا بصعوبة. كان نظره ضعيفاً، وعلم البصريات وقتها لم يكن متطوراً. علم البصريات الذي وضعه ابن الهيثم. وقد كان يعاني من القرحة. أعني جويس لا ابن الهيثم. قلت له: «ماذا تفعل هنا يا جيمس؟ ولمن تركت دبلن وحاناتها الكئيبة وسكّانها السكارى؟ لمن تركت الدبالنة؟ ومن سيرسم صورة الفنّان وهو فتى صغير؟». في هذه الكلمات إيماءات أدبية متنوّعة لا أتوقع أن تفهمها ولكن جويس فهمها. رغم أنه كان في مرحلة متقدّمة من السكر. أو رُبّما في مرحلة متأخّرة. كان يسكر كل ليلة. ويعتمد على العجائز الطيبات في تمويل عبقريته وسكره. شأنه شأن جبران الذي لم يكن سكّيراً. غريب هيام العجائز بالأدباء والشعراء! المهمّ أني قلت لجويس: «ماذا تفعل هنا يا جيمس؟». قال: «أكتب رواية خالدة، يا پروفسور». قلت: «هنيّالك! عن باريس؟». قال: «لا! لا! عن دبلن. يوم في حياة دبلن. بعيون رجل يهودي. وزوجته التي تخونه. وطالب يدرس الطب». قلت: «فظيع! ولماذا تكتب رواية عن دبلن في باريس؟». قال وهو يغادرني مترنحاً: «لأن باريس هي باريس». حسناً! خواجة يحب مدينة خواجاتيه. فهمنا! ولكن الغريب هطول الأدباء العرب على باريس. حلوة كلمة هطول. ذات مساء، يا حكيم، كنت أمشي في الشانزليزيه وأنا أقضم رغيفاً فرنسياً. تعرف الرغيف الفرنسي؟ الذي أتاكم في لبنان مع الانتداب؟

أنجح عملية نقل تكنولوجيا في القرن العشرين. وربّما في كل القرون. لا شيء ألذّ من الرغيف الفرنسي، ولو أنكم تحاولون أن تفسدوا متعة البشر بتشبيهاتكم الفرويدية. المهمّ أنني كنت أمشي في الشانزليزيه وأنا أقضم رغيفاً فرنسياً عندما رأيت أمامي توفيق الحكيم. بدون أن أشعر اندفعت نحوه وأنا أصرخ: «مش معقول! سي توفيق بيه الحكيم؟». قال لي: «بعينه!». قلت: «وأين الحمار؟». قال: «تركته في الإسكندرية». قلت: «ولِمَ؟». قال: «نائب الأرياف نجح في إقناع المحكمة بإيداعه سجن الحيوانات الخطرة لكثرة كلامه». قلت: «والعصا؟». قال: «في البنسيون. عند الوليّة». لا تصدّق الذين يقولون لك إن توفيق الحكيم بخيل. كذّابون يكرهون الرجل ويغارون منه. حسد! عزمني، فوراً، على قهوة تركي سكّر زيادة.

- في الشانزليزيه؟!

- أي نعم. في الزمانات كانت باريس مكتظّة بالأتراك. إذا رأوا فرنسياً صرخوا فيه: «اشرب قهوة تركي وأنا سيدك!». هل أخبرتك أني أكره الأتراك؟ عزمني الرجل على قهوة تركي سكّر زيادة. لا تصدّق أنه كان بخيلاً. ولا تصدّق أنّه كان عدوّ المرأة. كان، وقتها، يحب امرأة فرنسية نصّ عمر ويسمّيها الوليّة. قلت له: «ماذا تفعل في باريس يا سي توفيق؟». قال: «أكتب رواية». قلت: «يا حلاوة! واسمها إيه الرواية يا سي توفيق؟». قال: «عصفور من الشرق». قلت له: «وأنت العصفور، يا توتو؟». احمرّ وجهه خجلاً وأطرق وهو يهمس: «وي مسيو!». كان توفيق الحكيم يخربط بالفرنسية. لم يكن يتقنها. ولكنه، على أية حال، لم يذهب إلى باريس لتعلّم الفرنسية. ذهب لكتابة رواية بالعربية، وكتبها. هل قرأتها يا دكتور؟ لا أعتقد أنك ستفهمها لو قرأتها بالعربية.

- ولو يا پروفسور! أخذت البكالوريا من لبنان.

- بطبيعة الحال! لا يجب أن يستخف أحد بالبكالوريا اللبنانية. ولا الـ إيه ليڤل البريطانية. ولا الأباتور الألمانية. ماذا قرّروا عليكم في منهج البكالوريا؟ «تحت ظلال الزيزفون»؟

- نعم. كيف عرفت؟

- من لم ينفعه ظنّه لم ينفعه يقينه. المنفلوطي. أغرب مترجم في التاريخ. ترجم ٧ روايات عن الفرنسية وهو لا يعرف حرفاً من الفرنسية. لم يذهب المسكين إلى باريس. ربّما لو ذهب لألف رواية اسمها «بطّة من الشرق». وترجم لنا

«أحدب نوتردام» فِرست هاند. كان، على الأغلب، سيسميها «محدودب نوتردام». أنا لا أعرف ما هو الزيزفون. هل تعرف أنت؟

ـ لا.

ـ إذا كنت أنا لا أعرف الشيء، فورجت إت! تستطيع أن تعتبرني مثل الأصمعي. إذا لم يسمع كلمة من غريب الأعراب فادفنها كما تدفن السنورة.... حسناً! كما تدفن السنّورة ولدها. ومن أغرب ما مرَّ في باريس، يا حكيم، أني كنت ذات يوم بقرب ضريح نابليون، ما غيره، عندما سمعت همهمات وتمتمات موزونة ومقفّاة وتدلّ على معنى. التفتّ فإذا بي أمام أحمد شوقي بك، أمير الشعراء. قلت له «پرنس شوقي! ماذا تفعل هنا؟ لا تقل لي إنك تكتب رواية! رجاء لا تقل لي أنك تكتب رواية!» قال: «هل تعتقد أن أمير الشعراء يعجز عن كتابة رواية؟» قلت: «لا، والله!، يا پرنس. هي الرواية شغلانة؟ قدّها وقدود! قل لي ماذا تفعل في باريس؟». قال: «أنشد قصيدة». تنفّست، عندها، الصعداء. أنا لا أعرف ما هي الصعداء ولكنها كلمةٍ تنقال. شوقي، يا حكيم، لم يحصل على الباشوية. حظوظ! حصل على البكوية من الدرجة الثانية. وأنا لا أدري هل الدرجة الثانية في البكوية أعلى أم الأولى. طبقية في كل شيىء حتّى في الألقاب. إلا أن شوقي رقّى نفسه بنفسه إلى الباشوية. كان يُصرّ على أن يسمى «يا باشا». شأنه شأن طه حسين الذي كان باشا حقيقياً. وعزيز أباظة الذي كان، أيضاً، باشا حقيقياً. عزيز أباظة من الشعراء غير المحظوظين. مع النقاد والجمهور على حدّ سواء. لو لم يغنِّ له مطرب الملوك والأمراء «يا منية النفس» لما سمع عنه أحد، سوى بقية الباشاوات. مع أنه شاعر موهوب. وألّف مسرحيات شعرية لا يقلّ مستواها عن مستوى مسرحيات الپرنس، وقد يزيد. منها «العبّاسة أخت الرشيد». وقد صدّق الإشاعة السخيفة عن زواج جعفر البرمكي بالعبّاسة وعزا نكبه البرامكة إلى هذا الزواج. فنّد ابن خلدون في مقدمته هذه الأكذوبة. وروى السبب الحقيقي لنكبة البرامكة: الصراع على السلطة. من الخطر أن يصبح المرؤوس أكثر شعبية من الرئيس. خصوصاً في تلك الأيام. أيام مسرور السيّاف. قبل أن تبدأ منظمة العفو الدولية في ممارسة نشاطها. عماذا كنا نتحدّث؟

ـ عن شوقي.

ـ أحسنت! شوقي كان أمير الشعراء، الأحياء منهم والأموات والذكور والسيّدات، ومع ذلك يفضّل لقب الباشا. أنا كنت أسميه «پرنس» رغم علمي أنه يفضّل اللقب الآخر، لأغيظه. حسد وغيرة! قلت له: «وما موضوع القصيدة؟».

قال: «نابليون. نظمت قصيدة عن نابليون وأتيت إلى قبره أُسمعه إياها». قلت: «وهل أعجبته القصيدة؟ هل أمر لك بلقب كونت؟». نظر البرنس إليّ وصرخ في وجهي: «فإن هُموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا». كان يشتمني. كان، رحمه الله، نرفوزاً. واعلم، يا نطاسي، أن للنرفزة مراتب لم يفصّلها الثعالبي النيسابوري ولكن فصلتها أنا. النرفوز هو الذي ينرفز ولا ينرفز غيره. والنرفاز هو الذي ينرفز وينرفز غيره معه. والنرفيز هو الذي ينرفز غيره ولا يتنرفز. كان البرنس نرفوزاً. وكثيراً ما كان يصيح بشعره في وجوه الناس. لم يكن يحسن إلقاء شعره فيلقيه نيابة عنه آخرون. الحلو ما يكملشي! أمير شعراء لا يعرف يلقي شعره. شأنه شأن البحتري الذي كان يُغضب الممدوح بإلقائه فيأمر بإلغاء الجائزة. وقد يأمر بصفعه. أو قذفه في بحيرة غير عميقة. كان علي الجارم يلقي شعر شوقي. وإلقاء الجارم نص/ نص ولكن، كما يقول أصدقائي اللبنانيون، «الأعور على المكرسحين غزال». لا أدري لماذا غضب مني البرنس. قال لي إنه جاء لِيُسمع الأمبراطور قصيدة، وعندما سألته عن رد فعل جلالته صرخ في وجهي. يذكّرني بالعالم الجليل الذي ألّف كتاباً عن السيّد البدوي. وذكر في مقدّمة الكتاب أنه ذهب يستأذن السيّد البدوي في ضريحه في طنطا فأذن، رضي الله عنه، له. يا سلام!! نقول للناس: «لا تعبدوا القبور!» فيقولون: «وهابيّة!». نقول للبشر: «لا تقدّسوا البشر!». فيقولون: «وهابيّة!». والبرنس، سامحه الله، يقول إنه جاء باب النبيِّ عليه الصلاة والسلام داعياً. وهذا لا يجوز. القرآن الكريم يقول بوضوح ما بعده وضوح: «فلا تدعوا مع الله أحداً». لا من الأنبياء، ولا من الملائكة، ولا من الأولياء، ولا من الصالحين، ولا من الملوك. البرنس كان يصيح في وجوه الناس بشعره إذا نرفز. غضب، مرّة، على السفرجي فصاح في وجهه: «وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ∴ فأقمْ عليهم مأتماً وعويلاً». أصيب السفرجي المسكين بحالة عويل لم تفارقه حتّى مات. ينبغي الحذر عند التعامل مع الشعراء. لا تعرف لماذا يمدحونك ولماذا يهجونك. لسانهم مفلوت. وأنا شاعر ولا ينبيك مثل خبير. و«كم في المقابر من قتيل لسانه ∴ كانت تخاف لقاءه الأقران». من الشعراء غالباً. مئات الشعراء قتلوا بسبب لسانهم. ومنهم سحيم عبد بني الحسحاس. هل سمعت بسحيم؟

ـ لا.

ـ هل سمعت ببني الحسحاس؟

ـ لا.

ـ حسناً! بنو الحسحاس قبيلة مغمورة لم تدخل التاريخ إلاّ بسبب عبدها

سحيم. وسحيم كان زنجيّاً وسيماً جداً. وشاعراً ممتازاً. وكان ألثغ لا يحسن إلقاء شعره. كالپرنس. رغم أن الپرنس لم يكن ألثغ. وكان سحيم يحسن اجتذاب النساء. وطاح في بنات القبيلة من شق وطرف. واحدة داخلة وواحدة خارجة. ولم يكتفِ بوصلهن ولكنه تغزّل فيهن جهاراً نهاراً سهاراً. ولا تقل لي «ما معنى سهاراً» فهذه جاءت عفويّةً مثل: «أيها القاضي بقمْ. قد عزلناك فقُمْ!». قال في واحدة: «فما زال بردي طيّباً من ثيابها .·. إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا». يبدو أنها كانت وكيلة أليزابيت آردن. وقال في الثانية: «كأنَّ على أنيابها بعد هجعة .·. من الليل نامتها سلافاً مُبرَّدا». وهذا بيت دراكيولي بعض الشيء. المهم أن رجال القبيلة غضبوا لهذا الهجوم الجنسي الفرويدي الشعري على عرض القبيلة. أعتقد أنهم كانوا حسّاسين بعض الشيء، ولهذا سمّوا الحسحاس. أشعلوا ناراً كبيرة وقرّروا أن يجعلوا من سحيم شاورماء. تظنني أمزح؟ ارجع إلى كتب التاريخ. أحضروا شاعرنا الأسود الوسيم الألثغ وبدأوا في ضربه. ثم بدأوا في حرقه. هل تظن أنه خاف وارتعش وتوسّل واستعطف؟ لا يا حكيم. كان يحترق وهو يردّد: «شدّوا وثاق العبد لا يُفلتكمُ .·. إن الحياة من الممات قريبُ. فلقد تحدَّر من جبين فتاتكم .·. عرق على جنب الفراش. . وطيبُ». تصوّر! لو كان خواجة لأنتجت هوليود عنه عدة أفلام. أليست هذه قصة مثيرة؟ شاعر يحترق وهو يعيّرهم بفتاتهم. عماذا كنا نتكلم؟

ـ عن شوقي؟

ـ وقبل ذلك؟

ـ عن باريس.

ـ أحياناً ينسى المرء الموضوع الأصلي. وما سُمّي الإنسان إنساناً إلا لنسيانه. تعرف نكتة النسيان؟ الرجل الذي ذهب إلى طبيب نفسي، مثلك وشرواك، وأخبره أنه جاء يتعالج من النسيان ثم سأله: «ماذا تنوي أن تفعل؟». ردّ عليه زميلك: «أنوي أخذ الأجرة مُقدّماً». مشكلتي الحقيقية ليست النسيان؛ مشكلتي كثرة الذكريات. ومن أجملها ذكريات باريس الأدبية التي أرويها لك الآن. كنت، يا حكيم، في مقهى من مقاهي البيجال أرتشف قطرات من البرنو عندما «سمعت صوتاً هاتفاً في السَّحَرْ». التفتُّ فإذا بي أمام رجل قصير القامة عظيم الهامة وقف على صندوق صابون فارغ وهو يصيح بأعلى صوته: «هبّوا! أملأوا كأس الطلا!». ما إن انتهى حتّى هجم على المقهى آلاف الفرنساوية وفي يد كلّ منهم كأس، وكل منهم يصيح في النادل، والنادل هو الجرسون بالباريسية الدارجة: «هبّ! إملأ كأس

الطلا!» إلاّ أن النادل، وقد كان خواجة يونانياً من زملاء الخواجة بيجو، قال لهم ببرود: «والحساب يا خبيبي. الخساب على مين؟». انصرف الفرنساوية بكؤوس فارغة. ذهبت إلى الرجل الذي كان وقتها يصيح: «لا تشغلِ النفس بماضي الزمان...» وقاطعته: «عفواً؟ مَن الأخ؟». نزل عن الصندوق الفارغ ومدّ يده، وقال: «محسوبك! أحمد رامي. شاعر الشباب. مجنون سومه». صافحته قائلاً: «خرطوشة فردك! البروفسور. شاعر الشِيّاب. مجنون فيروز» ثم تعانقنا، وبدأت أعاتبه: «لماذا تحرّض غُفاة الفرنساوية على أن يهبّوا في السَحَر ويملأوا كؤوس الطلا؟ لماذا تُحدث لنا هذه المظاهرة بعد منتصف الليل؟ ألا تعرف الكره العرقي الذي يواجه العرب في فرنسا؟ ألا تقرأ الجرائد؟ إذا تحجّبت فتاة عربية فصلوها من المدرسة. وإذا جاء عامل عربي يطلب رزقه أغرقوه في السين. وأنت، الآن، تريد أن تحدث لنا مشكلة جديدة. هل يحتاج الفرنساوية يا أخ أحمد ـ وهنا قاطعني وقال: «سمّني رامي» ـ هل يحتاج الفرنساوية يا أخ رامي إلى من يوصيهم بشرب الطلا؟ ألا تقرأ الإحصائيات يا شاعر الشباب ومجنون سومه؟ يشرب الفرنساوي زجاجة نبيذ أبيض مع الفطور، وزجاجة نبيذ أحمر مع الغداء، وزجاجة نبيذ روزيه ـ وهنا قاطعني وقال: «ما الروزيه؟» ـ الروزيه هو النبيذ البمبة يا أخ رامي، وزجاجة نبيذ أخضر مع شاي العصر، وزجاجة نبيذ أزرق مع العشاء، ويعود إلى النبيذ الأبيض في فترة ما بعد العشاء. لا يستريح الفرنساوي من الطلا إلاّ في السَحَر. وأنت، الآن، يا أخ رامي تطلب منه أن يهبّ في السَحَر ويملأ كأس الطلا. هل أنت شاعر الشباب أم شاعر شركات النبيذ؟ وهل أنت مجنون سومه أم مجنون الشابليه؟». ضحك رامي حتى بدت له سنّ سُوميه كان يخفيها وقال: «صدّقني، يا بروفسور، لم أضحك مثل هذا الضحك منذ هلّت ليالي القمر». ثم صمتَ قليلاً، وقال: «كبرّ عقلاتك، يا بروفسور!». قلت: «سألتَ شططاً». قال: «كِلمةِ تنقال. أعلم أن هذه الكلمات ليست لي». قلتُ: «واعجباه! ليست لك؟ كلمات من إذن؟» قال: «عمر الخيّام». قلت: «الذي يبيع بيوت الشَعَر في البطحة؟». قال «لا! لا! عمر الخيام الشاعر الفارسي المشهور». قلت: «فارسي وينظم بالعربيّة؟! بيّض الله وَجهه!» قال: «لا! لا! ينظم بالفارسية» قلت: «سبحان الله! وهل «املأوا كأس الطلا» كلمات فارسية؟». قال: «لا! لا! يا دُهَل!». قلت: «وما الدُهَل؟» قال: «المقطف». قلت: «الحمد لله. كنت أظن أنك تشتمني». قال: «نظم الخيام شعره بالفارسية وترجمته أنا إلى العربية، ولهذا الغرض جئت إلى باريس». تصوّر يانطاسي! شاعر عربي يأتي إلى عاصمة الفرنساوية ليترجم شعراً فارسيّاً! الأمر الذي يذكّرني بأدونيس. هل تعرف أدونيس؟

ـ الإله القديم؟

ـ لا يا عمّي! الشاعر المعاصر. رأيته في زقاق من أزقة باريس الضيقة لا يبعد كثيراً عن مكان إقامة إرما دي لوس. كان في مقهى بوهيمي يكتب ويمزّق كل ما يكتبه. قلت: «ماذا تفعل يا أدون؟». قال: «وما أدون؟». قلت: «ولو يا أبا الأدانسة! «ترخيماً أحذف آخر المُنادى ∴ كيا سُعَا فيمن دعا سُعادا. فقل على الأول في ثموديا ∴ ثمو ويا ثمي...» وهنا قاطعني: «لأنَّك من أنصار الثابت؟!». قلت: «ولا فخر! ماذا تفعلُ هنا؟». قال: «أكتب ديوان شعر». قلت: «يقوّي ساعدك! وماذا سمّيته؟». قال: «أغاني مهيار الدمشقي». قلت: «الفارسي؟». قال: «الفارسي». قلت: «إذن، تحوّل مهيار؟». قال «تحوّل. إجلس معي واشرب كوكتيل صدمة الحداثة». قلت: «وما كوكتيل صدمة الحداثة؟» قال: «خُذ كفريات ابن الراوندي الملحد، وهرطقات بشّار الأعمى الناصح، وشعوبيات أبي نواس الغلاميّ الزنديق، ورُشّ عليها شكوكيات أبي العلاء المعرّي، وتقعّرات أبي تمّام، ثم خُذْ خَربَقاً وسَلَقَاً وشَبرَقاً فزهزقه وزقزقه فينتج كوكتيل صدمة الحداثة» قلت: «ويلمِّها «صدمة» ويلمّ «شاربها» ∴ لمثلها خُلق المَهْرية القُودُ». والمهرية القود، يانطاسي، هي طاكسيات باريس. قفزتُ في طاكسي منها فإذا بالسائقة حسناء مغناج جلس بقربها كلب أُحسنتُ حلاقته، من طراز البودل. مددتُ يدي ألاعب الكلب وأنا أترنّم بشعرِ عبد الرحمن رفيع: «يا سلام هذي غزَالة؟ ∴ هذي كلبٌ ما فوقه كلب. هذي أكله خوم قُواطي ∴ مُوبْ مثلنا عيش وحبّ». وهنا عضّني الكلب اللئيم عضّة جعلتني أتمنى لو بقيت أشرب كوكتيل صدمة الحداثة مع أدون. صحتُ بقلب مجروح وجفن مقروح: «مدموزيل! مدموزيل!» قالت: «وي شيري؟» قلت: «صوني عَتورِكْ عنا... إننا عربٌ ∴ نهوى السلامَ... وهذا الكلبُ شرّاني. أو فابتغي قفصاً، يَتقى به مَغَصاً ∴ كيلا يرى فُرَصاً... في عضّنا تاني». ضحكت حتّى بدت لها سن پودليه كانت تخفيها. أوقفتِ السيارة وقالت للكلب: «برون لترو أي رون شي توا». انطلق العقور اللئيم لا يلوي على شيء. التفتت إليّ وقالت: «إلى أين أيها الرجل الشرقي الأسمر الشهيّ الخطير الرهيب؟!» قلت: «إلى غاب بولون في ذِمهُ عليه ولي عُهودُ». ذهبنا، يا دكتور، إلى غابة بولونيا، «وكان ما كان مما لستُ اذكره». عدت في أقصى حالات النشوة لولا أبو فرات، سامحه الله.

ـ مين أبو فرات؟

ـ محمد مهدي الجواهري. الشاعر الأشهر. كنت على وشك الدخول إلى

العمارة التي أسكنها عندما قفز أمامي صائحاً: «أتعلم أم أنت لا تعلمُ؟!». قلت: «أبا فرات الورد! حيّا الله هالشوفة! ماذا تريد أن تعلم؟». قال: «الطريق إلى الإليزيه». قلت: «وماذا تريد من الإليزيه؟» قال: «أريد أن ألج البيوت على حكام فرنسا و «أغري الوليد بشتمهم والحاجبا» قلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله! لماذا تريد أن تغري الوليد بشتمهم والحاجبا؟» قال: «ألم تسمع قولي: «لأمّ القوافي الويل إن لم يقمْ لها .·. ضجيجٌ. ولم تهتز منها المحافل؟» ألم تسمع قولي...» هنا قاطعته وقلت: «إسمع يا أبا فرات! هذه ليست بغداد نوري السعيد. هذه باريس الجنرال ديجول. إذا أغريت الوليد بشتمهم والحاجبا أغروا بك اللص الظريف أرسين لوبين. أو رُبّما جيف انسپكتر كلوزو». قال «أعوذ بالله! كلوزو؟! «ذئب ترصّدني وفوق نيوبه .·. دم إخوتي.. وأقاربي.. وصحابي». هل تعرف الطريق إلى جورج سانك؟». قلت: «أعرفه ولا أنكره. ماذا تنوي أن تفعل هناك؟». قال: «سأنظم قصيدة عن فاتنة فرنسية اسمها انيتا». قلت: «هذا أفضل وأسلم». كيف تفسّر، يانطاسي، عقدة أدباء العرب وشعرائهم مع باريس؟

ـ لا أعرف، يا پروفسور. لم أفكّر في الموضوع.

ـ فكّر ولكن «لا تشغل النفس بماضي الزمان .·. ولا بآتي العيش قبل الأوان» الغريب أن كل العرب الذين قابلتهم في باريس كانوا يخربطون بالفرنسية. لم يحسنها منهم أحد. حتى ميشيل عفلق. الذي لم يذهب ليكتب رواية ولكن ليدبّج «في سبيل البعث». أنا العربي الوحيد الذي أتقن الفرنسية. تستطيع اعتباري بلبلاً من الشرق، سميناً بعض الشيء. صديقي العزيز سارتر مرّة قال لي: «أقسم بشرف سيمون دي بوڤوار، يا پروفسور، أنك أفصح من يتكلم الفرنسية ما حاشيت من أحد». قلت: «إلاّ ديجول، يا جين، إلاّ ديجول» تعرف شارل ديجول؟ بلا شك! كانت لديه، بدوره، عقدة خواجة. قلت لك لا يكاد يسلم أحد من هذا الداء. كان اسمه الحقيقي بشّار الغول. بدأ الأولاد يضحكون من اسمه فغيّره. ديجول كان عظيماً، يا حكيم. ربما كان أعظم من عرفت.

ـ وكان من أقرب أصدقائك إلى نفسك يا پروفسور؟

ـ كيف عرفت؟

ـ من لم ينفعه ظنّه لم ينفعه يقينه.

ـ براڤو، دكتور ثابت، براڤو. كان من أقرب أصدقائي فعلاً. وكان شاعراً رقيقاً.

ـ الجنرال ديجول كان شاعراً رقيقاً؟

ـ أي نعم! هذه حقيقة لا يعرفها إلاّ القلّة. صفوة الصفوة. لاكريم دي لاكريم، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الفرنسيون. كان ينشدني قصائده ونحن نسير في تلك اللحظات السحرية التي تسبق مهرجان الشروق. كنّا، يا دكتور، نذهب إلى مطعم من المطاعم الرخيصة التي يرتادها صيّادو السمك عند الفجر. كنا نتناول معهم شوربة البصل ونبغبغ معهم بالفرنسية الفصحاء. ذات فجر كنّا، شارل وأنا، نتأمّل الأفق البعيد الذي بدأ يحمرّ عندما تنهّد شارل ثم أنشد: «القمر يصبح قديماً ويموت. والنهر يشيخ ويتجمّد. أمّا عيونك. فتبقى قمراً لا يموت. تبقى نهراً لا يشيخ. تبقى تلمع وتبرق. مثل صخور دوڤر البيضاء.» هل تريد أن أنشدها لك بالفرنسية؟

ـ لا، يا پروفسور. دخيلك!

ـ واي نوت؟ أنتم في لبنان تتقنون الفرنسية. خصوصاً الموارنة، مثلك وشرواك. حتّى الذين درسوا في أمريكا أتقنوا الفرنسية قبل سفرهم في مدارس الفرير. لا ضير في ذلك. أنا، شخصياً، أتكلّم عدّة لغات حيّة، وكل اللغات الميتة. المهم، يا حكيم، أن ديجول بعد أن أنشد هذه الأبيات اغرورقت عيناه بالدمع، وباح لي بسر من أعظم أسرار الحرب العالمية الثانية.

ـ خير؟

ـ إعترف لي أنه نظم هذه الأبيات في سائقته الانجليزية آن/ ماري. هل تعرف، يا طبيب، أن ديجول كان يعشق الجندية الإنجليزية التي كانت تقود سيارته أثناء الحرب في لندن؟

ـ كنت أظن أن آيزنهاور هو الذي عشق سائقته الإنجليزية.

ـ براڤو، دكتور ثابت، براڤو. وظنّك في محله. آيزنهاور عشق سائقته إلاّ أن هذه قصة معروفة. أما قصة ديجول فسرّ مخبوء. كتب ديجول عن حبيبته ديوان شعر كامل اسمه «عيون آن/ ماري»، وأودعه خزائن اللوڤر مع تعليمات بألاّ ينشر إلا بعد موته بمائة سنة، وينشر باسم مستعار هو «وحش المانش».

ـ يا پروفسور! ذكريات باريس على العين والرأس. وشعر «وحش المانش» على العين والرأس. ولكني أودّ أن أبدأ الحديث عن حياتك الحقيقية.

ـ حياتي الحقيقية؟! عمّاذا كنت تظنني أتكلم، يا نطاسي؟ عن حياة رجل

الثلج المرعب؟ كل ما رويته لك حصل لي بحذافيره. إما في الواقع وإمّا عن طريق السقمصة.

ـ السقمصة؟! شو يعني السقمصة؟

ـ سؤال جيد! السقمصة اصطلاح نحتّه أنا، ولم يسبقني أحد إليه حتَّى صديقي هيكل الذي هو من أنحت العرب. وينحت في ديرتنا تعني ينضل ويحسد، ولكن تلك قصة أخرى. السقمصة مشتقة من الإسقاط والتقمّص. عندما تسقط كل مشاعرك وأحاسيسك على إنسان أو شيء فإن هذا الإنسان أو الشيء يتقمّصك. ظاهرة نفسية معروفة.

ـ لم أسمع بها من قبل.

ـ ألم يسبق لي أن استشهدت ببيت الشيخ زبير الذي يذكرك بأن في السماوات...

ـ سبق! سبق!

ـ حسناً، يا طبيب. لا تكن نرفوزاً ولا نرفازاً ولا نرفيزاً.

ـ أودّ أن أتحدث عن مصحة مونتري.

ـ لديك الملفّ. لا بد أنك قرأته. مليء بالقصص والفضائح التي تعشقونها معشر الأطباء النفسيين. وصف تفصيلي للتجربة الجنسية الأولى. وصف تفصيلي لكل التحرشات. ما حدث في المدرسة الابتدائية. ما حدث في المدرسة الثانوية. الاستمناء. كل هذه التفاهات.

ـ هذه ليست تفاهات، يا پروفسور. هذه مفاتيح العقل الباطن.

ـ نونسنس! رَبَشْ! الإحصائيات التي تعرفها جيداً تقول إن ٩٩٪ من المراهقين يستمنون، والبقية يكذبون. ما دام الجميع يفعلون ذلك، فلم السؤال والجواب؟ أيّ مفاتيح؟! وأيّ عقل باطن؟! لا أدري لماذا تسألون هذه الأسئلة خاصة وأنتم الآن تعتبرون كل شيء طبيعياً. حتى الشذوذ الجنسي الذي طالما أقضّ مضجع جدّكم فرويد.

ـ معلوماتنا عن الجنس تزداد كل يوم. ومع ازدياد المعلومات تزول الأساطير القديمة.

ـ وماذا تسمّون الشذوذ الجنسي الآن؟

ـ الخيار الجنسي البديل.

ـ إسم لذيذ جداً. سكسي في الواقع. سوف أذكر هذا التعبير. فلان ليس لصاً؛ إنه يمارس الخيار الاقتصادي البديل. وفلان ليس كذّاباً؛ إنه يمارس الخيار اللغوي البديل. وفلان ليس سميناً؛ إنّه يؤمن بالخيار البدني البديل.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ لم تغيروا رأيكم بسبب زيادة معلوماتكم. غيرتم رأيكم بسبب ضغط الجمعيات الشاذة. اللوبيز! اللوبيز تمرح وتسرح في أمريكا. وأقوى لوبي ـ بعد اللوبي الصهيوني ولوبي البنادق ـ هو لوبي الشاذّين. ويأتي بعده لوبي جماعتكم الأطباء. بإمكان أمريكا أن تخرّج أضعاف الأطباء الذين يتخرجون الآن. المقاعد موجودة والأساتذة موجودون والمختبرات جاهزة. ولكن لوبي الأطباء يمنع من تدريب المزيد من الأطباء. أتركوا أمريكا ترسل الأطباء للعالم، يا حكيم، بدلاً من إرسال المارينز.

ـ لا تنسَ، يا پروفسور، ما حدث عندما تساهلت جمعية المحامين في هذه الناحية. انظر إلى النتيجة. ألف محام في كل شارع. قضايا ترفع بسبب وبلا سبب. هل تريد أن تمتلىء الشوارع بأطبّاء يبحثون عن عمل؟

ـ جمعية المحامين لم تتساهل. لا يزال بوسع كليّات القانون في أمريكا أن تخرّج أضعاف الأعداد الحالية. اسألني! أنا خبير في الموضوع. هل تعرف أني أملك أكبر مكتب محاماة في العالم؟

ـ أنت، يا پروفسور؟

ـ أيْ نعم!

ـ وين؟

ـ في عربستان ٧٥. ولكن نشاطاته تمتدّ إلى كل مكان. لديّ قرابة ٦٠٠ محام معظمهم من أصدقائي وأصدقائك الأمريكان. وفي المكتب كلّ تخصّص يخطر ببالك، وعدد من التخصّصات التي لا تخطر ببالك. لدينا، مثلاً، قسم كبير متخصّص في قضايا الجن.

ـ قضايا الجن؟!

ـ أووه! لا تتصوّر كثرة قضايا الجنّ ولا تتصوّر أهميّتها. خذ بعض الأمثلة. عندما يتزوج إنسي جنية، أو العكس، وينجبان أطفالاً تقوم عدة مشاكل. من يتولّى

الحضانة؟ هل يعيش الأطفال مع الجن أو مع الإنس. خذ قضيّة الدور المسكونة. هذه الدور يملكها الإنس ويسكنها الجن ولا يدفعون إيجاراً. هل هذا يجوز؟ هل هذه عدالة؟ خذ، مثلاً، جلسات الزار. يُستدعى الجن لحضورها ثم لا يدفع لهم أجر المثل. ظلم. وهناك قسم متخصص في قضايا السحر.

ـ السحر؟!

ـ أي نعم! قضايا السحر، بدورها، قضايا خطيرة. لا تتصوّر مدى أهميّتها. لا تتصوّر عدد المسحورين في العالم وبعضهم في وظائف حسّاسة جداً. ألا تؤمن بالسحر يا حكيم؟

يضحك الدكتور سمير ثابت ولا يجيب.

ـ لا تؤمن؟! لديكم هنا الأستاذ مدهش الذي سحر معظم... حسناً، سحر معظم وجهائكم. بوسعي أن أثبت لك وجود السحر بكل سهولة. هل تريد أن أطلب من أحد السحرة أن يجعل صديقتك الكندية الشقراء تكرهك؟ هل تتحداني، يا دكتور؟

ـ أعوذ بالله، يا بروفسور. أنا أتحدّى من يتحدّاك.

ـ هذا أفضل. من خاف سَلِم. قسم السحر في المكتب يرفع قضايا التعويض نيابة عن المسحورين. مثلاً، كان هناك رجل أعمال شهير رُبِطَ ولم يستطع مباشرة زوجته. أتانا في المكتب، أقصد جاءنا، ورفعنا قضيّة ضد الساحر وكسبناها. أخذنا تعويضاً يعجبك. منذ أن استلم الزبون التعويض، وهو في حال انتشار دائم. مثلاً، جاءتنا ممثلة كبيرة كانت تزوجت من صناعي مشهور وطُلّقتْ بسبب السحر. رفعنا قضية ضد الساحرة، واضطررناها إلى إلغاء السحر ودفع تعويض ضخم. السحرة لديهم الكثير من المال، وقضايا التعويض ضدهم مجزية.

ـ وأين ترفعون هذه القضايا؟

ـ أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي. هل هناك ساحر تودّ أن تقاضيه، يا حكيم؟

ـ أنا؟ لا. شكراً.

ـ ثم إن لدينا قسماً متخصّصاً في وقوع الحافر على الحافر.

ـ قسم حيوانات؟

ـ لا يا عمّي! هذا اصطلاح. يُستخدم عندما يسرق الشاعر بيتاً بحذافيره من شاعر آخر. وعندما يُضبط مُتلبّساً بالنشل يقول: «هاه! هاه! مجرد كو إنسدنسْ. حافر وقع على حافر». بعبارة أخرى، هذا قسم السرقات الأدبية. وأنشط زبائن هذا القسم هو المتنبّي، وهو زبون متعب كثير الطلبات. أبو حسيد! كلّما مدح شاعرٌ عربي حاكماً عربياً وتلقى منه الشرهاء...

ـ عفواً! شو يعني الشرهاء؟

ـ الشرهاء هي الشرهة بالفصحاء. والشرهة هي الإكرامية. أبو حسيد منذ أن قال: «أجِزْني إذا أُنشدتَ شعراً فإنّما ∴ بشعري أتاك المادحون مُرَدّدا» يطالب بكل شرهاء من كل حاكم تعطى مقابل أيّ قصيدة مدح. تصوّر! التعامل مع أبي حسيد صعب جداً. التعامل صعب مع كل العباقرة. ولا شيء أسهل من التعامل مع السُذّج والأغبياء. ولكن أبا حسيد مزعج جداً. بالإضافة إلى كثرة طلباته، وكثرة طمعه، فهو كذّاب أولمبي. لا تستطيع أن تصدّق كلمة من كلمات أبي حسيد. تصوّر أنه قال لي، مرة، إن أخت كافور تعشقه...

ـ تقصد أخت سيف الدولة؟

ـ براڤو، دكتور ثابت، براڤو! أنتَ، بين الحين والحين، تفاجئني مفاجأة سارّة. سمعتَ عن خولة؟! براڤو! لا أتحدّث عن خولة الآن. أتحدّث عن أخت كافور. قال لي أبو حسيد إن أخت كافور هامت به حُبّاً وسمع أخوها فاستدعى أبا حسيد، ذات مساء، وقال له: «إسمع يا أبا حميد...

ـ عفواً يا پروفسور! مين أبو حميد؟

ـ آه. اسم المتنبّي أحمد، وكافور كان يسمّيه أبا حميد تحبّباً وتقرّباً واتقاءً لشرّه. أمّا أنا فلا أسمّيه إلاّ أبا حسيد لأسباب أوضحتها لك، ولا أرى من الضروري تكرارها. قال له: «إسمع يا أبا حميد! هذه أختي شجرة القار...».

ـ شجرة القار؟! شو هالإسم؟!

ـ لا تقاطعني. يا دكتور. لم أسمّها أنا. اسأل أم كافور لماذا سمّتها شجرة القار. دعني أكمل، ولا تقطع حبل أفكاري. حبل أفكاري رقيق جداً وينقطع بسهولة. آخر مرّة انقطع فيها، اضطررت إلى زرع حبل أفكار مأخوذ من بروفسور ياباني عجوز. ولهذا تجدني، أحياناً، أنحني بلا سبب. وأحياناً أصرخ، بغتة،

«هي»!. وأحياناً، آكل السمك النيء الذي أكرهه، كما سأخبرك فيما بعد. يحدث هذا عندما تتداخل أفكار البروفسور الياباني مع أفكاري. أنظر ماذا فعلت! كدت أنسى الموضوع. كنت أتحدث عن شجرة القار. يسْ! قال له أبو المسك: «إسمع يا أبا حميد! هذه أختي شجرة القار زينة النساء ولها هوى فيك». ابتسم أبو حسيد وأنشد: «لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلم ∴ عَرضاً نظرتُ وخِلتُ أنّيَ أسلمُ» قال أبو المسك: «وأنت ترغب ولاية». قال أبو حسيد: «وفي النفسِ حاجاتٌ وفيك فَطانةٌ». قال كافور: «ما رأيك، إذن، أن تتزوج شجرة القار، وأُعطيك الولاية؟». ضحك الخبيث حتّى بدت له سن قرمطية كان يخفيها، وقال: «وأرجع مَلْكاً للعراقينَ والياً يا أبا الكلونياء؟». قال أبو الكلونياء: «للعراقَينْ؟! ده بعدك! ولكن ترجع بولاية محترمة في حجم إيداهو، ولاية البوتاتو جبز». وافق أبو حسيد. وعُقِد القِران. وزُفّت إليه شجرة القار. وأقبلت تمشي الخَيْزلى وهي مشية شبيهة بمشية المون ووك التي اخترعها مايكل جاكسون لاجتذاب الأحداث. وما إن رآها أبو حسيد حتّى هتفَ: «لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ∴ ما دام فيه مُحلَّلٌ ومُحرَّمُ. والبكرُ لا تدري حلاوة جسمها ∴ حتى يراقَ على جوانبه الدمُ». قضى أبو حسيد ليلته في أحضان الشجرة، أو في أغصانها. لم تبدأ المشاكل إلاّ في الصباح. وصل صك الولاية واسمها، بالمناسبة، نخل، وقد تغيّر اسمها أيام صديقي جمال عبد الناصر إلى مديرية التحرير. راجع أبو حسيد صك الولاية فوجد أن المساحة ٢٧ كم مربعاً. كان الطمّاع يتوقع مساحة لا تقل عن ٢٧,٠٠٠ كم مربعاً. ما إن أبصر أبو حسيد الرقم حتى صرخ بأعلى صوته: «أين المحاجم يا كافور والجلَم؟». المحاجم، يا نطاسي، هي القوارير التي تجمع فيها دماء الحجامة، والجلَم هو المقصّ الذي يسمّيه أصدقائي وأصدقاؤك القصّابون المشرط. جاء كافور مهرولاً بالبيجامة وفي يده المحاجم والجلم، وقال: «صباح القشطة يا أبا حميد! تشتهي الحجامة الآن؟». قال: أبو حسيد: «لا يا كويفير! أشتهي الولاية التي دفعت ثمنها من عفّتي أنا «الذي يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادرٌ ∴ ويعصي الهوى في طيْفها وهو راقدُ». أنا الذي إذا لحتُ حاضتْ في الخدورِ العواتق» وفي رواية العكبري «ذابتْ». قال أبو الكلونياء: «ألم يصلك الصكّ؟ أخرجت كاتب العدل من بيته في منتصف الليل لإعداده». قال أبو حسيد: «وأنا أبو مُحسّد!! هل تتوقع مني أن أقبل بهذا الجيتو وأنا القائل: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم»؟ هل تتوقّع ذلك حقّاً؟» تأزمَ الموقف يا دكتور. وحاول وزير خارجية كافور الاتصال بوزير خارجية النرويج لبذل مساعيه الحميدة إلاّ أن الوزير كان قد أعطاهم عمره. ثم حاول الاتصال بالأمين العام للأمم المتّحدة فتبين أنه مشغول بلعبة شطرنج يتوقّف عليها

مصير البلقان. صُعّد الخلاف. بدأت شجرة القار تنوح وتولول. نظر إليها أبو حسيد شزْراً وقال: «بَزْ أوف، فأنتِ ديڤورسدْ!». انتحرت المسكينة فوراً بشرب كمية من القار. واعتكف كافور في المخدع الكافوري. وخرج أبو حسيد من مصر وهو يهزج بالمقصورة الشهيرة. هل تعرف ما هي المقصورة؟ لا تعرف؟ هذا ما توقعته. المقصورة، يا حكيم، هي القصيدة التي تنتهي بالألف المقصورة. ورغم أن مقصورة أبي حسيد مشهورة إلا أن مقصورة ابن دريد أشهر منها. رغم أن ابن دريد كان شاعراً نص/نص. ولكن الدنيا حظوظ حتّى في المقصورات. هل تريد أن أنشدك مقصورة ابن دريد؟

ـ كم بيت؟

ـ ٢٥٣ بيتاً فقط لا غير.

ـ لا، يا پروفسور، دخيلك!

ـ حسناً! نعود إلى مقصورة أبي حسيد: «ألاَ كلُّ ماشية الخيزلى ∴ فِدى كل ماشية الهيذبى» وماشية الخيزلى هي شجرة القار كما سبق أن أوضحت لك. أما الهيذبى فكل شيء تزيد سرعته عن ١٥٠ كم. لو تأملت المقصورة بعمق، يا حكيم، لوجدت أن أبا حسيد أورد قصته مع شجرة القار كاملة. : «فيالك ليلاً على أعكشٍ ∴ أحمّ البلادِ. . خفيّ الصُوى. وردنا الرهيمة في جوزه ∴ وباقيه أكثر مّما مضى. فلمّا أنخنا ركزنا الرماح ∴ بين مكارمنا والعُلا» لا أدري كيف غفل الشرّاح عبر القرون، عن الإشارات الفرويدية الواضحة. «اعكش»، «ركزنا الرماح»، و«باقيه أكثر مّما مضى». قبّح الله أبا حسيد! ما أبذأه! قالت له المسكينة، ليلتها، «أنا حبيبتك الرحيمة»، ولأنها علجة لخناء لفظتها «الرهيمة» فسخر اللئيم منها، وقال «وردنا الرهيمة». والشراح يقولون الرهيمة اسم ماء. تصوّر! ثم أوضح أبو حسيد رأيه في الجيتو فقال: «مَرزْنا بنخْلٍ وفي ركبها ∴ عن العالمين وعنه غنِى». ثم لخّص القصّة كلها حين قال: «وأني وفيتُ. . وأني أبيتُ». أي وفى بوعده فتزوّج شجرة القار، وأبى قبول الجيتو. كان أبو حسيد يكره السود. وكان يكره، بصفة خاصة، العبيد. وكانوا يكرهونه، بدورهم. كانوا يتآمرون عليه، وكان يتآمر عليهم. حاولوا قتله، مرّة، فأحبط الخطّة وأنشد: «أعددتُ للغادرين أسيافا ∴ أجدعُ منهم بهنّ آنافا». حقيقة الأمر، أنه لم يكتف بجدع أنف الغادر بل قتله بعد محاكمة صورية ماركة كانجرو. احتجّت منظمة العفو الدولية فهجاها أبو حسيد بأبياته الشهيرة التي مطلعها: «أنَوكُ من عبدٍ ومن عرسه ∴ من حكّم العبد على نفسه». وأنوك، يا حكيم، معناها أحمق فلا تذهب الظنون بك كلَّ مذهب.

المهمّ أن المعركة بين أبي حسيد والعبيد كانت سجالاً. أعظم مقلب دبّره للعبيد بيته الشهير: «لا تشترِ العبدَ إلاّ والعصا معه .". إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ». من ذلك الوقت، وحتى إلغاء أسواق النخاسة في الأسبوع الفارط، لم يكن أيّ عبد يُباع إلاّ ومعه عصا تُقدم للمشتري، مجّاناً، كما تُقدم البطارياء، أحياناً، مع لعب الأطفال مجّاناً. وكان العبيد يصنفون طِبقاً لنوع العصا. هذا «عبد أبو خيزرانة». وهذا «عبد أبو جريدة». وهذا «عبد أبو سوط». أمّا الإماء فكُنّ يُبعنَ مع مجموعة عصيّ بلاستيك دسپوزبل، تُستعمل العصا منها، مرّة واحدة، على الردف. إلاّ أن العبيد، في النهاية، انتصروا على أبي حسيد. عندما أطبقت عليه فرقة الصاعقة التابعة لضبّة بقيادة أمّه الطرطبّه، لم يَدْرِ أبو حسيد ماذا يفعل. همس معجب كان يرافقه في أذنه «ألف كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمو!» كان أبو حسيد على وشك أن يفركها عندما تقدم منه كبير العبيد، ولثم يده، وقال: «سيدي الشاعر الفحل القرْم الشجاع الرئبال الحلاحل! بأبي أنت وأمي! لا يتحدث الناس أنك فررت وأنت القائل: «الخيل والليل...». بقي أبو حسيد في جفن الردى يظن أنه نائم وتبين أن الردى كان مستيقظاً وراح أبو حسيد وطي.

ـ عفواً! شو يعني راح وطي؟

ـ راح وطي يعني داسوه. يعني وطئوه بأقدامهم. يعني راح في داهية. كيكد ذا بكِتْ، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان.

ـ عفواً يا پروفسور! حكايات المتنبّي ظريفة جداً. ولكن هل من الممكن أن نتحدث الآن عن مصحة مونتري؟

ـ آه! مونتري! أجمل مدينة في العالم. على هامة الجبل الأخضر. تطلّ على المحيط الباسيفيكي. المدينة التي انتخبت كلينت إيستوود عمدة. لا! لا! جارتها، كارمل، هي التي انتخبت الممثل عمدة. تعرف كلينت إيستوود؟ بالتأكيد! الرجل الذي اشتهر بجملة: «مِيْك ماي دي!» أطلقها مثلاً. تصعب ترجمة الجملة إلى العربية حرفياً. «أصنع يومي!»؟ جملة غير مفيدة. الترجمة كثيراً ما تكون مشكلة عويصة. خصوصاً ترجمة أسماء المستخرعات الحديثة. هذا ما أدى إلى استقالتي من مجمع السدنة الخالدين.

ـ أنتَ كنت عضواً في مجمع السدنة الخالدين، يا پروفسور؟

ـ أووه! ولقيت الويلات خلال عضويتي القصيرة. لا يقبل المجمع في عضويته إلاّ من جاوز الثمانين. وقُبِلت أنا في الستين استثناءً. وبقليل من البرطيل.

بالنظر إلى صغر سني، كان الأعضاء يسمونني السادن الخالد الفتى. جوّ غريب، يا حكيم. شخير في كل مكان. والأعضاء لا يسمعون الشخير لأنهم مصابون بالصمم. ولا يكاد أحد منهم يعرف أحداً لأنهم مبتلون بقصر النظر وطوله. هل تريد أن تعرف ما حدث في الجلسة التاريخية التي استقلت خلالها؟ تريد؟ حسناً! كانت الجلسة مخصّصة للبحث عن إسم عربي للتيلفزيون. وبدأ السادن الرئيس الخالد، فقال: «أيها السدنة الخالدون! أيّها السدنة الخالدون! إسمعوا وعوا! اسمعوا وعوا! استخرع سَفَل الفرنجة ماكيناء تستشفط هيولى الإنسان استشفاطاً بالكاميراء ثم تستنفثها استنفاثاً بالإلكتروناء، فتظهر على شويشة أشبه ما تكون بالملاءة البيضاء. نودّ الليلة تسمية هذا المستخرع الشيطاني». لم يسمع أحد شيئاً، واضطر السادن الرئيس الخالد إلى طلب الهاون. وجاء حاجبان خالدان تجاوز عمر الواحد منهما قرناً يدحرجان الهاون. أمر السادن الرئيس الخالد بقرع الهاون، فقرعه الحاجبان الخالدان وهدأ الشخير وبدأ النخير. أعاد السادن الرئيس الخالد ما قاله. هبَّ السادن الخالد الذي كان في غيبوبة بجواري، وصاح: «سيّدي السادن الرئيس الخالد! الرزراز! الرزراز!» أجابه السادن الرئيس الخالد: «وهمت أيها السادن الخالد. الرزراز هو التيلفون». انتفض سادن خالد آخر وشخر ونخر، ثم قال: «سيدي السادن الرئيس الخالد! وهمت! التيلفون هو المسرّة». قام سادن خالد آخر كان يدبّ على الأربع، وفحَّ: «وهمتما! التيلفون هو الهاتف». أمر السادن الرئيس الخالد بقرع الهاون من جديد. ثم قال: «أيّها السدنة الخالدون! انتهينا من تسمية التيلفون السنة الفارطة. نحن الآن نحاول تسمية المدعو تيلفزيون». همس سادن خالد: «المذياع! المذياع!» أجابه السادن الرئيس الخالد: «المذياع هو الراديو. انتهينا من تسميته الليلة الفارطة». هنا هبَّ سادن خالد من عميق منامه ولذيذ أحلامه وصرخ صرخة ارتجت لها جدران المجمع: «الكامخ! الكامخ!» قال السادن الرئيس الخالد: «أيها الحجّاب الخالدون! أحضروا الشاطر والمشطور للسادن الخالد الجائع. واعلموا أن للجوع مراتب فصّلها الثعالبي النيسابوري: الجوع فالسغب فالغرَث فالطوى فالضَرم فالسعار». أكل السادن الخالد المسعور كامخ رُتيلاء وعاد إلى الغطيط. قال السادن الرئيس الخالد: «أما من مقترحات أخرى، ثمّة؟». قام سادن خالد يتوكأ على عصا وقال: «وجدتها! وجدتها! الخصخصة!». قال له السادن الرئيس الخالد: «الخصخصة؟ هذا هو الأسم الذي أطلقناه على تسريحة المسز ثاتشر». قال المتوكّىء: «إذن فالخوصصة!». غضب السادن الرئيس الخالد وقال: «أيها السادن الخالد! لئن لم تنفكّ عن خوصصتك لأخصينّك خَصْيَ المسز بوبت بعلها المارينار». صمت المخوصص على مضض. هنا ارتفع صوت سعال شديد،

أعقبه عطاس طويل، أعقبه نداء متحشرج: «نقطة نظام! نقطة نظام! نقطة نظام!».
إلتفت السادن الرئيس الخالد إلى مصدر الضجّة، وقال: «ما بالك أيها السادن الخالد تنوظمني بنقيطاتك؟» قال المنوقط: «تسمية المستخرع فرع من تصوّره. نريد أن نرى المستخرع بوالدت مآقينا». تعالت الهمسات: «بخٍ بخْ! زهٍ زه!». أمر السادن الرئيس الخالد الحجّاب الخالدين بالذهاب إلى مستودع المستخرعات الشيطانية وإحضار جهاز تيلفزيون. جاء أربعة من الحجاب يحملون على ظهورهم جهازاً وضعوه على سدة الرئاسة. قال السادن الرئيس الخالد: «أيها السدنة الخالدون! ها هو ذا التيلفزيون!» هنا، يا حكيم، هببتُ واقفاً وصرخت: «نقطة نظام! نقطة نظام! نقطه نظام!». التفتَ إليّ السادن الرئيس الخالد وقال: «الهوينى، أيها السادن الخالد الفتى، الهوينى. بم بَعِلت؟». قلت: «سيدي السادن الرئيس الخالد! بَعِلت بهذا الجهاز. هذا ليس جهاز تيلفزيون. هذه غسالة! ووشنج ماشين!». قال السادن الرئيس الخالد: «وأيم الحق؟!». قلت: «وأيم الحق!» قال: «واعجباه! واطول استغراباه! واعِظَم حيرتاه! شيء مستدير كالشويشة تنبثق منه أشياء خلتها، وايم الحق!، هوائيات فإذا بي إزاء ووشنج ماشيناء». قام سادن خالد وقور وتنحنح، ثم قال: «سيدي السادن الرئيس الخالد! يحسن منع النسوة من استخدام هذا المستخرع الشيطاني خوف الفتنة». هنا، يا طبيب، وقفت على قدميّ، وصرخت: «وأيم الحق! لئن لم يسحب السادن الخالد اقتراحه لأقترحنّ إلغاء نون النسوة». أنّ السادن الخالد الوقور أنيناً وهو يقول: «إلغاء نون النسوة؟! إلغاء نون النسوة؟! ويلتقي الرجال والنساء في كتب النحو والإعراب بلا رقيب ولا حسيب؟! أواه! واسيبويهياه! واكسائياه! وامدرسة الكوفتاه! وامدرسة البصرتاه! واألفية ابن مالكاه!». قال قولته هذه، وأغمي عليه. إلتفت السادن الرئيس الخالد إليّ غاضباً وقال: «أيها السادن الخالد الفتى! إعلم أن للغضب مراتب عدّدها الثعالبي النيسابوري: السخط فالفطام فالبرطمة فالغيظ فالحرد فالحنق فالاختلاط. وأيم الحق! إني الآن لمختلط. ما فتئت منذ زعقت التعاريف تتكأكأ علينا تكأكؤ ذي جنة. لئن لم تنته لأقطعنّك تقطيع شاورماء غرائب الأبل، ثم لأفرمنّك فرم هامبورجراء المكدَ بن الدونلد، ثم لأسحقنّك سحق پودراء جونسون للورعان، ثم لأذرونّك حُبيباتِ هباءٍ تلتقطها صحون الدش، وتمزقها قذائف الساكتون حتى تتطاير شذر مذر، وتموت بغصّةٍ أعظم من غصة الذي حسب لسعة الزنبور أخفَّ من لسعة العقرب فإذا هو هي إياها». تعالت الهتافات «بخ بخ! زهٍ زه!». وهنا، يا حكيم، لم أستطع تمالك أعصابي فهببت واقفاً، والتفت إلى السادن الرئيس الخالد، وصحت: «شذر مذر؟! شغر بغر؟! خذع مذع؟! زنبور وعقرب؟! أَلِمِثْلي يقال هذا

أيها الحيزبان الدردباس؟! وأنتم تبخبخون وتزهزهون؟! مضافط! عضاريط! تجمّعتم فتكمكمتم! وتقمقمتم فتشرنقتم! أما تستحون؟! لكل أمة لغة واحدة ولكم ٧٧ لغة. الفصحى، والفصحاء، والفصيحية، والفصحوية، والإفصاحية، والمفصوحة، والعاميّة، والعاميّاء، والعُوَيميّة، والفصحامية، والعامفصحية، ولغة المشارقة، ولغة المغاربة، ولغة الصحافة الراقية، ولغة الصحافة الهابطة، ولغة المذياع، ولغة التلفزة، ولغة البادية، ولغة الصينية، واللغة الدارجة، واللغة المارجة، ولغة الاستعمال اليومي، ولغة الاستعمال السنوي، ولغة النسوة، ولغة الفحول إلخ إلخ إلخ لخلخ الله جماجمكم! عثاجل! حنازب! جعاسيس! شَخَرة! نخرة! أباخر! أما تستحون؟! «والأصل في الفاعل أن يتّصلا .·. والأصل في المفعول أن ينفصلا. وقد يجاء بخلاف الأصل .·. وقد يجي المفعول قبل الفعل». تخافون الفتنة وأنتم لا تتحدثون إلا عن فاعل ومفعول به ومفعول له ومفعول معه ومفعول من أجله ومفعول فيه؟! أما أني لأجد كلامكم أشدّ إثارة من فوازير شريهان وصور الولد الملعاب وأغاني مادونا. هلاقم! تلاقم! جراضم! ألا تستحون؟! ٩٠٪ من شعبكم لا يحسنون قراءة ولا كتابة. وخريجو جامعاتكم لا ينطقون جملة واحدة صحيحة. ورؤساء تحريركم لا يكتبون إلا بمصححين. وأنتم هنا تبخبخون وتزهزهون؟!». ثم أخرجت من جيبي، يا حكيم، ماكيناء الحلاقة التي تعمل بالبطارياء، ماركة «براون»، ومضيت هادراً هدير الفحل: «وأيم الحق! من نطق منكم ببنت شفة، أو بولد شفة، أو بتوأم شفة، أو ذاد الطير عن رأسه، حلقت لمّته بهذه الماكيناء التي بعلتم بتسميتها. وأُسمّيها لكم الآن: المجزازة! يا ناموس المجمع! سجل في ناموسيتك أن هذا يوم تحلاق اللمم. واعلموا أيها الدراديح الجلاجيب أن للعداوة مراتب فصّلها الثعالبي النيسابوري: البغض فالقلى فالشنف فالشنأ فالمقت فالبغضة. وأيم الحق! إني لأبغضكم. كنتم فبنتم!». وكنتم فبنتم، في مصطلح السدنة الخالدين، تعني الاستقالة بأثر فوري. علمت بعدها أن المجمع قرَّر قبول استقالتي بالإجماع. وأصدر بياناً بهدر دمي نُشر في الصحف إلاّ أن أحداً لم يفهمه لحسن الحظ. واتخذ المجمع بعد خروجي، تلك الليلة، قرارين: الأول، بتسمية ماكيناء الغسيل «خرعوبة» مع توصية بمنع الرجال من استخدامها خوف الفتنة. والثاني، بتأجيل تسمية التيلفزيون إلى القرن القادم. وهكذا بقي التيلفزيون بلا اسم عربي. هذا يسمّيه المرناء، وهذا يسميه الرائي، وهذا يسمّيه التلفزة. وأبو حسيد يطالب المجمع بالتعويض على أساس أنه سرق اسم خرعوبة منه.

ـ عفواً، يا بروفسور، عفواً! هل يمكن الآن أن نعود بالحديث إلى مونتري؟ رجاءً! رجاء!

ـ أوكي! أوكي! ولكن قبل الحديث عن مونتري أودّ أن أحدثك قليلاً عن پالو التو، حيث تقع جامعة ستانفورد، حيث كنت أدرس. پالو التو تعني، بالإسبانية، الشجرة الطويلة. أضف هذا إلى قائمة معلوماتك التي لا تضرّ ولا تنفع. وجامعة ستانفورد بنيت بتبرع من ثريّ أمريكي. ونحن العرب نعتقد أنّنا أكرم الناس. وهذه قضية معقدة بعض الشيء. پالو التو تبعد ٥٠ كم عن سان فرانسيسكو، أجمل مدينة أمريكية بلا منازع. تستطيع أن تعتبر پالو التو ضاحية من ضواحي سان فرانسيسكو، ضاحية هادئة عملها الوحيد هو العلم. صدّق أو لا تصدق، يا حكيم، أن قوانين تأسيس پالو التو تمنع تداول الكحول فيها. وكانت هذه القوانين سارية أيام كنت هناك. إلا أن الكثيرين يؤمنون أن القوانين لم توضع إلا لكي تُخالَف. كانت أياماً حلوة، يا طبيب. «كانت تلك هي الأيام يا صديقي»، كما تقول الأغنية المشهورة. كانت الحياة رائعة، وكان الشباب أروع منها، وكان الحب أروع منهما، وكنا نحن أروع الرائعين. كنا مجموعة من الشباب العرب لا يتجاوز عددنا ٤٠ شاباً، نعيش في پالو التو وندرس في ستانفورد. كنا، جميعاً، نحلم بولايات عربيّة متحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية. نريد أن نسافر عبر الأمة العربية فلا يصدّنا جمرك ولا يعترض طريقنا مخفر. كانت أحلامنا كبيرة، يا دكتور. كنا نقول: «فعلها الأمريكان، فلماذا لا نفعلها نحن؟». يسافر الأمريكي من لوس أنجلوس إلى نيويورك فلا يستوقفه عسكري واحد. لا توجد على الطريق نقطة حدود واحدة. لا توجد سوى اللافتات المرحبّة والمودّعة. «أهلاً بك في نيڤادا». «خرجت الآن من كاليفورنيا». كانت الحياة طيّبة وبسيطة وكنّا شباباً طيبين بُسطاء. لم يكن أحد منا يعرف معنى فيفتي/فيفتي أو ون پرسنت. ولم يكن أحد منا يحلم بڤيلا فخمة، أو بركة سباحة، أو منصب خطير، أو كرسي دوّار. كنا نحلم بولايات عربية متحدة وبجيش عربي واحد وبعلم عربي واحد. كنا نحلم بمجتمع يحفظ للإنسان العربيّ كرامته. مجتمع لا يجرجرونك فيه إلى القسم بلا سبب. ولا يحتجزونك بدون تهمة. ولا يعتقلونك بدون أمر قضائي. كنا نريد أن نحيا مثل الأمريكان، من ناحية الحقوق والضمانات لا من ناحية الثراء. كنّا نحلم بأن نركب السيارة من المحيط وننطلق فلا نقف إلا في الخليج. لا يسألنا أحد عن التأشيرة. وعندما نتعب نقف في موتيل وننام دون أن نبرز الهويّة. نحلم بأن نمشي فلا يستوقفنا أحد ويستفهم عن المرأة التي معنا وهل هي جدّتنا أو خالتنا. كنا نريد أن نتجول في شوارع المدن العربية دون أن نحمل شجرة العائلة على صدورنا، وعقد الزواج في جيوبنا، وبطاقة أحد المتنفذين على جباهنا. كنّا نتلقّى العلم في جامعة من أعظم جامعات العالم. كان مِنّا من يدرس الطب، ومِنّا من يدرس السياسة،

ومِنّا من يدرس القانون، ومِنّا من يدرس الاقتصاد. وكنا نلتقي باستمرار. كنا مجموعة متجانسة متآخية. أيامها، لم يكن أهل الماء يطمعون في أهل البترول. ولم يكن أهل الصحارى يخافون من أهل المدن. ولم يكن أهل الجبال يحقدون على أهل السهول. ولم يكن سكان الشطر يكرهون سكان الشطر. كنا نلتقي في الكافيتريا، وفي جمعية الطلبة العرب، وفي البيت الدولي، وفي المحاضرات، وفي الرحلات، وفي الحفلات. كنا نتحدّث، طيلة الوقت تقريباً، عن وطننا العربي. وطننا، يانطاسي، لا أوطاننا. كنا نقارن ما تركناه خلفنا بما نراه أمامنا فتعتصرنا اللوعة. يحدثنا دارس الطب عن الأطفال الذي يموتون في وطننا العربي نتيجة انعدام التطعيم، ونرى أطفال الأمريكان أمامنا محمرّي الوجنات من العافية. ويحدثنا طالب الإدارة عن البيروقراطية العربية وكيف تمتصّ دم الإنسان العربي. هل تذكر تلك الأيام في أمريكا، يا دكتور؟ لا! وقتها لم تكن أنت قد ذهبت إلى أمريكا. كان تركيب جهاز التيلفون يتم في دقائق. مكالمة واحدة، وبعد ربع ساعة يأتي من يركّب الجهاز. تستأجر جهاز التيلفزيون فيكون عندك بعد أقل من نصف ساعة. ورخصة القيادة! لا تستغرق القضية من أولها إلى آخرها ساعة واحدة. من أولها إلى آخرها! فحص العيون والاختبار النظري والاختبار العملي. لم ندفع رشوة لأحد طيلة إقامتنا. ولا مرة واحدة. لم ندفع رشوة للحصول على تيلفون. أو تيلفزيون. أو شقة. أو سيارة. أو شهادة. عندما يستوقفك بوليس المرور يحدثك بأدب، ويعطيك قسيمة المخالفة بأدب. وتدفع الغرامة بالبريد. لا صفعات ولا لعنات ولا إكراميات. ولا: «وقف يا ولد!!». ولا «ما تعرف أنا مين؟!». وكنا نسأل طالب الإدارة: «لماذا؟! لماذا؟! لماذا؟! لماذا يدفع الناس الرشاوى في الوطن العربي ولا يدفعونها هنا؟ لماذا تتعطّل الإجراءات عندنا ولا تتعطّل عندهم؟ لماذا تصدر معظم رخص القيادة في العالم العربي، بالواسطة أو بالرشوة، وبدون امتحان من أي نوع؟». ويردّ طالب الإدارة أن هذا كله سيتغير عندما نعود ونبدأ في تطبيق النظم الحديثة في الإدارة العامة وإدارة الأعمال. عندما نعود نحن ونتولى دفّة القيادة. ويتكلم طالب الاقتصاد. ويتحدّث عن مزايا المشروع الكبير. وكيف يجيء ماء لوس أنجلس من ضواحي سان فرانسيسكو. وماء نيڤادا من أوريجون. وكان يقول إننا سنطبق كل المبادىء الاقتصادية السليمة بعد عودتنا. كنا نحلم، يا طبيب، بوطن عربي متكامل، يتقاسم الخيرات والويلات، يتقاسم السرّاء والضرّاء. دولة واحدة. سياسة واحدة. قوة عظمى. كنت أنا، رُبَما، أكثرهم حماسة. أشدهم شوقاً إلى الولايات العربية المتحدة. وكنت أدرس علم الاجتماع، وكانوا يسألونني: «ما القصّة يا بشّار...».

ـ عفواً، يا پروفسور! اسمك بشّار؟!

ـ نعم. بشّار الغول. ألم أخبرك؟

ـ قلت لي إن هذا اسم شارل ديجول الحقيقي.

ـ واسمي الحقيقي. المُهمّ أن الأصحاب كانوا يسألونني: «ما القصّة يا بشّار؟ هل تختلف طبيعة العرب عن طبيعة الأمريكان؟ لماذا لا نتّحد مثلهم؟ لماذا لا نتقدّم مثلهم؟». وكنت أقول لهم إن البشر لا يختلفون. أيامَها، لم أكن عنصرياً، يا حكيم. كنت أؤمن بالمساواة بين الناس. كنت أقول إن البشر سواء. يجمعهم حُبّ الحريّة، وحبّ الكرامة، وحبّ الأرض، والحرص على لقمة العيش. كنت أقول لهم لا تنقص العرب إلاّ الفرصة. وسوف تتوفّر الفرصة عندما نعود نحن ونتولّى قيادة السفينة. كنا نؤمن، يا دكتور، أن المشكلة، كل المشكلة، تنحصر في الجيل الذي كان يحكم وقتها. أقول الجيل ولا أقول الأفراد. لم نكن نفرّق بين حاكم وحاكم. كان الجيل، برمّته، في نظرنا ميئوساً منه. جيل الكهول والشيوخ. وكنّا نحن الشباب. جيل القدر. الجيل الذي سيعود، ويغيّر كل شيء. سارق النار. سارق الأسرار. جيلنا الذي عرف كل الحقائق، ودرس كل النظريات. نظريات التخطيط الصحّي، ونظريات التربية الحديثة، ونظريات الإدارة الفعّالة، والنظريات الدستورية. جيل القدر. جيل ستانفورد وهارڤرد وپرنستون وأكسفورد وكامبردج. الجيل الذي سيهزم إسرائيل لأنه سيهاجمها بأسلحتها: الإعلام والتكنولوجيا. ولم نقصّر، يا دكتور، في محاربة إسرائيل في عقر دارها. وعقر دارها هو أمريكا كما تعرف. لم نقصّر رغم قلة عددنا وضآلة مواردنا. كُنّا نقاوم الصهاينة بكل ضراوة، وندخل معهم معارك حامية، وننتصر في بعضها. لن أنسى ما حدث عندما دعونا الكاتب اليهودي ألفرد ليلنثال، عدوّ إسرائيل الشهير. هدّد الطلبة الصهاينة بالاعتداء عليه إذا دخل الكامپس لإلقاء محاضرته. وأقمنا حوله سياجاً بشرياً، ودخل وتكلّم رغماً عنهم. أو حين جاء القنصل المصري ليتحدث في لقاء عام وأصرَّ الطلبة الصهاينة على إلغاء الحديث، أو دعوة القنصل الإسرائيلي. وجمعنا آلاف التوقيعات ونجحنا في إقناع إدارة الجامعة بتجاهل الطلب الإسرائيلي. أو يوم جاء الدكتور فائز صائغ. أو يوم جاء الأستاذ تحسين بشير. كنّا في ميعة الصبا، يا دكتور. نستمتع بالحياة. نستنشق كل لحظة منها بعنف يحوّلها إلى أوكسيجين يشعل دماءنا ويغرينا باللحظة التالية. لم نكن مزُيَّفين، ولا متطرّفين، ولا متعصّبين. ولم نكن أبطالاً، ولا شبه أبطال. لم تكنْ لدينا ليال حمراء أو مغامرات صاخبة. بعضنا كانت لديه صديقة، وبعضنا كان يخجل من ظلّه. لم يكن في المجموعة كلّها سوى

دون جوان واحد. أو اثنين على الأكثر. كنّا نعمل عند الحاجة ولا نشعر بأيّ حرج. نعمل بالساعة، في المكتبة، أو مطعم الجامعة، أو محطة البترول. هل كنّا مصابين بعقدة الخواجة؟ ربّما! هل كنّا من ضحايا الاستلاب؟ رُبّما!

ـ عفواً! شو يعني الاستلاب؟

ـ الاستلاب، يا نطاسي، معناه أن يستلب الغرب روحك فتصبح دمية سليبة الإرادة. هل كنّا من ضحايا الاستغراب؟ ربّما! وقبل أن تسألني أقول لك إن الاستغراب عكس الاستشراق. الاستغراب هو أن تهيم بالغرب حُبّاً. والمفارقة غير دقيقة. فالمستشرقون لم يحبّوا الشرق كما أوضح البروفسور إدوارد سعيد في دراسته القيّمة عن «الأورينتالزم». هل قرأت الكتاب يا دكتور؟ لم تقرأه؟ من الضروري أن تقرأه. قد ينفعك في عملك. ولكن ينبغي أن أحذّرك. الكتاب عسير الهضم ويحتاج إلى حبة «الكسلزر» تبتلعها قبل كل صفحة. وبعض الصفحات تحتاج إلى حبّتين. إدوارد سعيد أوسم المثقفين في التاريخ، وأجملهم بِدَلاً، ولكن أسلوبه صعب بعض الشيء. الحلو ما يكملشي. ولا القبيح، إذا فكّرت في المسألة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني لا أعتقد أنّنا كُنّا مستغربين أو مستلبين. كُنّا طيّبين ولكننا لم نكن حمقى. وكنّا أبرياء، ولكننا لم نكن أغبياء. كُنّا نرى عيوب المجتمع الأمريكي، وكُنّا نعرف أنها عيوب، ولم يخطر ببالنا، غمضة عين، أنها محاسن. لا شيء يؤثّر على صفاء الرؤية، يا نطاسي، مثل اختلاط العيوب بالمحاسن. وقد صدق الشاعر القديم الذي قال: «إذا محاسنيَ اللاتي أدلُّ بها .˙. عادت عيوباً... فقل لي كيف أعتذرُ؟». لا! لم يقل هذا أبو حسيد. وكيف يقوله وهو لا يتصوّر، مجرد تصوّر، أن هناك من يمكن أن يرى أي عيوب فيه؟ لم نفكّر في جعل الوطن العربيّ قطعة من أمريكا. لو قال واحد منّا، أو من غيرنا، سُخفاً كهذا لضحكنا عليه. لم نكن نحلم بلاس ڤيجاس في الربع الخالي ولا بسانتا باربرا على البحر الأحمر. ولم نكن نصدّق كل ما نسمع عن الديمقراطية. كُنّا نرى بأعيننا سيطرة الصهاينة على الكونجرس، رغم الديمقراطية. وكنّا نرى كيف كان الزنوج، الذين كانوا يُسمّون أيامها الملوّنين، يُعاملون في المجتمع الأمريكي الديمقراطي. وتطوُّر التسميات يدلّ على تحسن الوضع، نسبياً على أية حال. في البداية كان الزنجي نيجر، ثم رُقّي إلى نيجرو، ثم إلى كَلُورد، ثم إلى بلاك، ثم إلى أفريكان/ أمريكان. أيامها كانوا في المرحلة الملوّنة. بكل أنواع الاحتقار. تحتاج البنت البيضاء إلى أن تكون في شجاعة البيَونك وُمَنْ قبل أن تخرج مع شاب ملوّن. حتى في قلب الليبرالية النابض، سان فرانسسكو. ولم نكن نؤمن أن أمريكا هي

اليوتوبيا الأرضية. لم نجد الضيافة الحارّة في كل بيت. ولا كان كل الناس يستقبلوننا بأذرع مفتوحة. معظمنا كان يصنّف في خانة الملوّنين. أو المكسيكان، وهذه خانة أرقى من الملوّنين بملم واحد. ولم نكن نعتقد أن الرأسمالية نظريّة نازلة من السماء. كنا نرى بأعيننا الملوّنين يبحثون في صناديق القمامة عن طعام وعن ملابس. كنا نرى المشهد كل يوم. ولا كنّا معجبين بالعادات الأمريكية. كنا نكره، على وجه الخصوص، تلك العادة الأمريكية القذرة: تصويب قاع الحذاء إلى وجه المخاطَب. وكنا نستغرب سماح الرجل للمرأة أن تدفع حسابها في المطعم أو المقهى وهي في ضيافته، الطريقة الهولندية كما تُسمّى. وكنا نشمئزّ عندما يطلب الزبائن من الجرسون أن يأتي ببقيّة الدجاجة أو قطعة اللحم ملفوفة في كيس. يتظاهر الجميع أنَّ ما في الكيس للكلب، ويعلم الجميع أنَّ ما في الكيس للزبون. كنا فخورين بديننا وتقاليدنا وعاداتنا. كنا نصلّي صلاة العيدين في الهواء الطلق ويأخذ المنظر الألباب. وكنا ندعو الأمريكان إلى غداء أو عشاء فيشهقون وهم يرون خروفاً كاملاً. كنّا نستدين وندعو، على الطريقة البدوية العريقة. لم نشعر قطّ بمركّب نقص ولا سحرتنا تقاليد أمريكا. كنا نمتعض من التبسّط الذي يسمح للولد بمناداة أبيه باسمه الأول. ولم نكن نفهم رُعب الأسرة بأكملها من طفل صغير. ولم نكن نفهم أن تطلب الأسرة من هذا الطفل الصغير، نفسه، أن يبدأ الاعتماد على نفسه بمجرد بلوغه سن السابعة عشرة. لا يا حكيم! لم نكن نعاني من عقدة الخواجة. كل ما كنّا نريده هو أن نقيم الولايات العربية المتّحدة على النمط الأمريكي. بلا جمارك، وبلا مخافر، وبلا أسلاك شائكة. وأن نعطي الإنسان العربي ما يتمتع به الإنسان الأمريكي من حقوق. وأن نجعل خدماتنا العامة في مستوى خدماتهم العامة. هل كنا مجانين؟ ربّما! هل كُنّا خونة؟ رُبّما! هل بعنا أرواحنا للشيطان؟ ربُمّا! لم نكن من شباب الصحوة. أيامها، لم يكن التعبير معروفاً. كان الجميع من شباب الغفلة. أين نحن من شباب الصحوة؟! الأتقياء الأنقياء. الذين يذكّرونك بأصحاب أبي حمزة. ولا تسألني الآن من هو أبو حمزة. هذا ليس مُهمًّا. المهم أن أصحابه كانوا «نِعمَ الشباب مكتهلين، عميّة عن الشرّ أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم». لم نكن كذلك، غفر الله لنا. كُنّا من الخطّائين؛ ولم نكن من التوّابين. كنّا من المستغفرين. «نمزّق ديننا بالذنوب، ونرقّعه بالاستغفار». وكانت معلوماتنا الفقهية لا تكاد تذكر. لم نكن نعرف الفرق بين السنّي والشيعي، ولا كنا نبحث آراء المعتزلة والجهمية والأشاعرة والأباضية. كُنّا متسامحين. رُبّما كان تسامحنا قائماً على الجهل، وربّما كان قائماً على الحبّ. لم نكن نحمل ديننا سوطاً نجلد به أنفسنا والآخرين. كنا نحمله إيماناً فطرياً صادقاً. حُباً للخالق، وتعاطفاً مع مخلوقاته.

هكذا كانت حياتنا، يا طبيب. ثم جاءت سوزي...

ـ سوزان شيلنج؟!

ـ برافو، دكتور ثابت، برافو! من الواضح أنك قرأت ملفّ الدكتور جونسون بعناية. نعم سوزان شيلنج. الجميع كانوا يسمّونها سوزي. هل قرأت في الملف قصة تعرّفي عليها؟ لا أعتقد أن الدكتور جونسون سألني عن هذا الموضوع مع أنّه وجّه إليّ مليون، أكررّ ألف ألف، سؤال شخصي. إسمع القصّة فهي لا تخلو من طرافة. كنت في الكافيتيريا أستجمّ من عناء المحاضرات، وأرتشف قدحاً من الروت بير، عندما رأيت، في طَرَف الكافيتيريا، أجمل مخلوقة رأيتها في حياتي. بدون مبالغة، يا دكتور، لم أر مثلها قبلها، ولم أر مثلها بعدها. شعرها أشقر، بين البرتقالي والأصفر والأحمر، ينسدل إلى منتصف ظهرها. كان هذا أوّل ما شدَّ انتباهي إليها. كانت الموضة أيامها الشعر القصير، وكان شعرها الطويل ظاهرة نادرة. بعد ذلك، نزلتُ من الشعر إلى العينين. بحيرتان من الزمرّد. أو الزبرجد. الصراحة، يا حكيم، أنني لا أعرف ما هو الزبرجد ولكن الشعراء العرب القدامى كانوا يتغنون به دائماً. أتصوّر أنه في لون الزمرّد. ثم نزلتُ إلى الأنف. الأنف روماني، يا حكيم. تعرف الأنوف الرومانية؟ بالتأكيد! هنا، أنا مصاب بعقدة خواجة مستحكمة ميئوس من علاجها. يقتلني الأنف الروماني. يذبحني من الوريد إلى الوريد. الأنف الذي يتطلّع طرفه إلى أعلى. بشيء من التحدّي. رُبّما لأنني أفطس. أو شبه أفطس. ثم نزلتُ إلى الشفتين. فِلقتا بدر، كما تقول «ألف ليلة وليلة». بدر قرمزي. والأسنان؟ دعاية كولجيت. والابتسامة؟ أخطر شيء في وجهها الابتسامة. ألعاب نارية في ليلة مظلمة. والغمّازتان؟ لا تذكّرني بالغمّازتين! كانت على طاولة في طرف الكافيتيريا، ومعها صديقة، وعلى الطاولة كرسي ثالث فارغ. وكانت تمدّ يدها نحو الكبريت لتشعل السيجارة المتأرجحة في فمها. من غير تفكير، يا دكتور، انطلقت كثور أسباني هائج. أقصد كثور أسباني مستعجل. كنت أدخّن أيامها. سجائر «كنت». قبل أن تعقّدوا معشر الأطباء حياتنا بالحديث عن السرطان وتضطرونا إلى الاكتفاء بالسيجار. لم يبق الآن شيء لا يسبّب السرطان سوى الخس والجزر. ولم تبق مخلوقات في صحة جيدة سوى الأرانب. وهيك أكل بدو هيك أشكال. هجمت عليها وفي يديّ قدّاحة. حلوة قدّاحة يا حكيم. أظنّ، والله أعلم، أنها ظهرت رغم مجمع السدنة الخالدين لا عن طريقه. هجمت، إذن، وفي يدي قداحة ماركة «دنهل» وأشعلتُ لها السيجارة قبل أن تصل يدها إلى الكبريت. فُوجئت الفتاة بهذا الصاروخ البشري المنطلق بالقداحة من أقصى الكافيتيريا ليشعل سيجارتها. الأمريكان، كما تعرف، لا يقومون بتصرفات كهذه مع

الغرباء أو حتّى مع الأصدقاء. لا يقوم بمثل هذه الحركات القرعاء إلاّ المتخلفون تكنولوجياً، مثلي وشرواي. المهمّ، أني أشعلت سيجارتها. نظَرَتْ إليّ باستغراب شديد. ثم انفجرت ضاحكة. أخبرتني، فيما بعد، أنها لم تر في حياتها الماضية كلّها إنساناً بهذه الجرأة. أعتقد أنها تقصد بهذه الصفاقة. عندما ضحكتْ قلت لنفسي: «تحرّك، يا ولد!، وإلاّ ضاعت الفرصة إلى الأبد». إتْ إز ناو أور نِفْرْ، كما يقول إيلفيس پرسلي. قلت لها: «هل هذا الكرسي محجوز؟». قالت، ببساطة، «لا، تفضل». ما صدَّقتْ خبر! جلست وبدأت أثرثر معها. قلت لها إنني من الميدل إيست. اعتقدتْ أنّ الميدل إيست منطقة في أمريكا مثل المد وسِتْ. لم تر عربياً قبلي، ولا شرق أوسطياً. تكلّمنا طويلاً. والحديث أنزى من ظبي. ولو أنني لم أر ظبياً ينزو وأورد المثل على ذمة الميداني. ثم اعتذرت من صاحبتها، وقامت. ونظرت إليّ: «أنا ذاهبة أتسوّق. لماذا لا تجيء معي؟». من يضيّع فرصة كهذه؟ كانت لديَّ محاضرة عن الطقوس الدينية لأهل هاوائي الأصليين. وقررت، على الفور، أن هذه الطقوس لن تتغيّر بسبب عدم حضوري. خرجنا من الكافيتيريا. بمجرّد وصولنا إلى العشب الأخضر في الحديقة قالت لي: «عفواً!». ثم قذفت حذاءيها فانطلقا كما لو كانا كُرتين. التقطتْهما، وقالت: «أحب المشي حافية على الحشائش. ماذا عنك؟». قلت: «أخذت نصيبي من المشي حافياً في طفولتي». اقترَحَتْ أن نذهب بسيّارتها. كانت من ماركة «ثندر بيرد»، أجمل سيارة سپورت وقتها في أمريكا. كانت السيارة حمراء، «لونها لون دمي المنسجم»، كما قال شويعر مغمور من أصيحابي. وانطلقنا إلى سوپر ماركت في منطقة الداون تاون. أيامها، كنت أسكن مع صديقين عربيّين أكولين. لا داعي لذكر الأسماء، فهما الآن شخصيتان معروفتان، أو، على الأقل، هذا ما يعتقدانه. ومسألة الشهرة نسبية، كباقي المسائل. على أية حال، كانا، أيامها، مجرد طالبين عربيَّين أكولَيْن. دخلنا، يا حكيم، السوپر ماركت، واشترت زجاجة حليب، وزجاجة عصير برتقال، و ٦ بيضات، وعلبة قهوة. ثم قالت: «هذا كل ما أحتاج إليه. ماذا عنك؟». قلت: «لا أحتاج إلى شيء. شكراً». قالت: «هل تعيش بمفردك؟» قلت: «لا. مع صديقين». قالت: «٣ شباب؟! لا بّد أنكم في حالة جوع دائمة». قبل أن أتمكّن من التعليق انطلقت بالعربة تختار من الرفوف أشياء كثيرة مختلفة وتكدّسها في العربة. كان في جيبي، وقتها، ٢٣ دولاراً و٢٥ سنتاً، فقط لا غير. عندما رأيتها تسحب ٢٤ ستيكا من طراز التي بون كاد يصيبني الإغماء. عبثاً حاولت إيقافها. إنطلقت كإعصار مستعجل في أنحاء السوپر ماركت. دجاج. سمك. أرز. كيك. آيسكريم. حليب. قهوة. شاي. امتلأت العربة، وسلمتني إياها، وانطلقت بعربة فارغة جديدة وأنا أتبعها كالأبله. عشاء تيلفزيوني مثلج. بيض. مكرونة. فواكه من كل نوع. امتلأت العربة الثانية. سلّمت

أمري إلى الله وقررت أن أتركها هي «والثندر بيرد» رهينة لدى الجهات المختصة في السوپر ماركت ريثما أذهب وأعود بدفتر الشيكات. لا أدري ماذا حدث لريثما، يا طبيب. لا أراها هذه الأيام. يبدو أن الجيل الصاعد من الكتاب والصحفيين لم يسمع بها. عندما مررنا بقسم الحساب وماكينات الدفع أحسست بقلبي كقلب قيس «كعصفورة في كف طفلٍ يسومها .:. ورود حياض الموت والطفل يلعبُ». فوجئت بابتسامات، وضحكات، وصرخات سعيدة تتعالى من كل مكان: «هاي سوزي!». «هاي ذير!» «هاو يو دُوِنغ سوزي؟» قفز عامل وأفرغ محتويات العربتين في حقائب بلاستيكية. وسار ومعه عامل آخر وضعا الحقائب في السيارة وانطلقنا نسابق الريح في ماشيه الهيذبى. لم تكن هناك ريح، ولكننا انطلقنا نسابقها. ربُمّا لهذا سبقناها. ثم وجدت لساني الذي أخذته القطّة. وهذا مجرد تعبير إنجليزي يدل على السكوت كما تعرف. وإلا فإنني لا أترك لساني بدون حماية أمام القطط، أو بقية الحيوانات الأليفة أو الكاسرة. قلت عندما وجدت لساني: «لم ندفع شيئاً! كيف؟». ضحكت وقالت: «ألم أخبرك؟ هذا السوپر ماركت يملكه أبي». قلت: «وهذه المشتروات؟!». قالت: «هديّة لك ولزميلَيْكَ في السكن». يحدثونك، يا حكيم، عن كرم العرب وبخل الأجانب. هذا، والله!، ما حدث. أشعلت، لسوزي السيجارة فاشترت لي أطعمة بأكثر من ٣٠٠ دولار. كرم على الطريقة البدويّة. فيه شيء من التبذير. وشيء من السفاهة. وكثير من طيبة القلب. وكان هذا، يا حكيم، في الزمانات، عندما كان الدولار دولاراً، وكانت أمريكا أمريكا، وكنت أنا شاباً عربياً في الثالثة والعشرين يوشك أن يحصل على الباجلور في علم الاجتماع. هكذا بدأت قصتي مع سوزي. ولكن هل انتهت أحداث هذا اليوم الذهبي المسحور؟ لم تنته. انطلقنا في ماشية الهيذبى حتى وصلنا إلى الشقّة التي أسكنها. من حسن الحظ، كان زميلا السكن موجودَيْن. فلنسمُّهما عنتر وشيبوب. لا! لم يكونا أخوَيْن. ولا كان أحدهما من أبطال المبارزة والثاني من أبطال الجري. مجرّد اسمين مستعاريْن. ذهبت إلى عنتر وشيبوب وطلبت منهما النزول لمساعدتي في حمل بعض المواد الغذائية. صرخ عنتر: «لن أنزل. احملها أنت بنفسك». وصاح شيبوب: «أطعمة؟ اشتريت كل ما نحتاج إليه أمس. أنا المسؤول عن الحسابات هذا الشهر ولن أسمح بشراء المزيد. إدفع القيمة أنت». بعد لأْيٍ، واللأْي، يا نطاسي، تعني المحنة والشدّة، نزلا معي. لن أنسى حتى أموت المفاجأة التي التهمت وجهيهما وهما يريان سوزي «والثندر بيرد» والطعام. أما أنا فتكلمت بكل برود، بكل قلاطة كما يقول أصدقائي المصريون: «عنتر! شيبوب! سلّما على سوزي!». قلتها وكأنني مارلون براندو، كأنني أتعرف على شقراء حسناء مثيرة سخيّة في الكافيتيريا كل يوم. جاءت معنا إلى الشقّة، وأعدّت لنا القهوة، هي التي أعدّتها لا نحن. دردشنا

بعض الوقت. ثم قالت بلا مقدمات: «أعرف مطعماً إيطالياً ممتازاً لا يبعد كثيراً عن هنا. فلنذهب جميعاً للعشاء هناك». لم يعترض أحد، وذهبنا إلى المطعم الإيطالي. فتك عنتر وشيبوب بالسپاجتي فتكاً بيضّ وجوه العرب في كل مكان. وخرجنا من المطعم مودّعين بالبسمات والضحكات دون أن يدفع أحد شيئاً. قلت: «والمطعم أيضاً من أملاك الوالد؟». ضحكت وقالت: «لا. ولكن صاحبه صديق أبي. ويشتري كل لوازم المطعم من السوپر ماركت. ويحصل على تخفيض كبير. ويرفض أن يدعني أدفع الحساب في مطعمه». لم يحدث قبل هذا اليوم، أو بعده، أن أهدتني امرأة أطعمة أو عشاءً مجانياً. قد يحدث هذا للآخرين، ولكنه لم يحدث معي سوى هذه المرّة اليتيمة. هل انتهت أحداث هذا اليوم الزبرجدي؟ لا! لم تنته. قالت: «أنا مدعوّة إلى حفلة. فلنذهب جميعاً». الحق، يا دكتور، أنني تردّدت. أولاً، لم يدعنا صاحب الحفلة، أو صاحبتها. وأنا، كنت ولا أزال، أؤمن بالمثل الخليجعربستاني: «من جا بلا عزيمة. قعد بلا حشيمة». ثانياً، كنت أتوجّس خيفة من تصرفات عنتر وشيبوب إذا دبّ دبيبها. قبل أن أتمكن من الاعتذار هتف عنتر: «فاين! فاين! ڤري جود آيديا!». وفي الوقت نفسه صرخ شيبوب «پارتي؟! لِتْ أسْ جو! لِتْ أس جو!». لا داعي لتفاصيل الحفلة. كانت حفلة عادية من حفلات الطلبة المعتادة في بيت من بيوت الفراتيرنيتيز. أنت تعرف، يا طبيب، هذه البيوت / الجمعيات حيث يعيش معظم طلبة الجامعة وطالباتها وحيث تدور معظم النشاطات اللاصفّية. كانت حفلة عاديّة، ولكنني لم أشعر بها، ولا سوزي شعرت. تركنا ضجيج البشر وصخب الموسيقى - كانت أمريكا، أيامها، في فترة انتقالية بين الروك والتويست - وذهبنا، هي وأنا، إلى مكان قصيٍّ في الحديقة. كانت أصداء الحفلة تصلنا، عالية حيناً، وخافتة حيناً. في مرحلة من المراحل، سمعنا عنتر يغني «عمّي يا بياع الورد!» ويترجمها ترجمة آنية: «أنكل! سِلْ أسْ روزيزْ!». وفي مرحلة أخرى، وصلنا صوت شيبوب يغنّي «ع اللومة اللومة اللومة!» بدون ترجمة، من حسن الحظ. طلع الصبح ونحن نتحدّث. نتحدث، فقط، يا سايكاترست! هكذا بدأت علاقتي بسوزي. الحق أقول لك، أنني أحببتها من اليوم الأول، ولا أبالغ فأقول من النظرة الأولى. وأظن أنها، بدورها، أحبّتني من اليوم الأول. كما لا يحدث إلاّ في القصص والأفلام. «قصّة حبّ»! لا بدّ أنك قرأتها. ورأيت الفيلم. أحياناً، أتصوّر أن المؤلف استشفط العديد من أفكارها استشفاطاً من قصتي مع سوزي. كانت سوزي، يانطاسي، تدرس الأدب الإنجليزي. وعن طريقها، تعرفت على عدد من عمالقة هذا الأدب، وعدد من أقزامه، وبعض روائعه وبعض تفاهاته. هل أخبرتك أني شاعر؟ بالتأكيد! حسناً! بدأت كتابة الشعر وقتها. في الثالثة والعشرين. متأخّراً بعض الشيء. «وجمال القريض بعد أوانهْ»، كما قال الپرنس

في حفل مبايعته أميراً للشعراء، الأحياء منهم والأموات، والذكور والسيّدات، وربّما الجنس الثالث أيضاً! وهذا يحدث كثيراً بين العرب. النبوغ المتأخّر. وهذه قضية شائكة. وأنا أحبّ القضايا الشائكة. لا شيء يعادل متعة إخراج الشوك بملقاط من الأصابع. إلا أنني، صدّق أو لا تصدّق!، لم أبدأ كتابة الشعر بلغة الضاد. كتبته بلغة الزِدْ. بالإنجليزية! لم أكتب الشعر بالعربية إلا بعد سنة أو سنتين من المحاولة الأولى. عقدة الخواجة؟ ربّما! بدأت محاولاتي بكتابة قصائد حُبّ لسوزي. هل تريد أن أُنشدك بعضها؟

ـ شكراً، يا پروفسور. في الملف نماذج منها.

ـ حسناً! في البداية، يا طبيب، كانت سوزي تسمّيني دريم بوت، تصوّر! قارب الأحلام! حتى دخلتْ عليّ ذات يوم فوجدتني أكتب قصيدة عنها، وكنتُ ذاهلاً بعض الشيء. قالت: «مالك تبدو كالپروفسور شارد الذهن؟». ثم كتبت عني قصيدة ساخرة عنوانها «الپروفسور». لا زلت أذكرها. هل تريد أن تسمعها؟

ـ القصيدة موجودة في الملف، يا پروفسور.

ـ هذا الملفّ كمقصورة ابن دريد التي حوت جميع المعاني. قصيدة ظريفة. هل أعجبتك؟

ـ جداً. هل تسمح لي بالاحتفاظ بنسخة منها؟

ـ بالتأكيد! بالتأكيد! ولكن لا تنسبها لنفسك وإلا قاضاك قسم وقوع الحافر على الحافر. كانت سوزي موهوبة جداً، يا حكيم. منذ كتبتْ عني تلك القصيدة، غيّرت اسمي إلى الپروفسور. أصبحت، منذ ذلك الحين، أرفض الرد على أي إنسان لا يستخدم هذا الاسم. بعد ذلك بمدّة، أصبحت پروفسوراً حقيقياً، ولكن تلك قصة أخرى ستجيئك في موضعها. بعد أن عرفتها بشهر أو نحو ذلك، تركتُ عنتر وشيبوب وانتقلت إلى شقة صغيرة، استديو كما يسمّي أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان الشقّة التي لا تحتوي على غرفة نوم مستقلة. وانتقلت هي، بدورها، من السرورتي إلى استديو. تعرف السرورتي؟ المقابل النسائي للفرتيرنيتي؟ بالتأكيد! كان مفتاح شقّتها عندي، ومفتاح شقّتي عندها. تذكر «قصة حب» والعبارة الشهيرة التي وردت فيها؟. «الحب يعني أنك لست في حاجة إلى الاعتذار أبداً». أنقل عني تعريفاً أفضل للحب. «الحب يعني استعدادك أن تعطي من تحبّ مفتاح شقّتك». وهذا، بطبيعة الحال، إذا كانت لديك شقّة. أما إذا لم تكن لديك شقّة، فمن الأفضل أن تنسى الحب وتركّز على تحسين أوضاعك المعيشية. هل أخبرتك أني أكره

الفقراء؟ لم أخبرك؟ ها أنذا أخبرك! لماذا؟ لأنهم يجعلونك تعيش بعقدة ذنب لا تتزحزح. أيامها، لم أكن أكره الفقراء. أيامها، كنت أحبُّ كل الناس. ورُبّما كل المخلوقات. وأظنك تتفق معي، يا حكيم، أن الذي يستطيع أن يحب العرب يستطيع أن يحبّ كل المخلوقات. هاه! هاه! مجرّد مداعبة. لا تأخذها مأخذ الجد. لا تقل لي إنني أكره نفسي. رب مداعبة قالت لصاحبها دعني. ودعنا أنت، الآن، من فرويد. دعني أحدّثك عن سوزي. لم نكن نفترق لحظة، ولا لحظة، إلاّ عند الضرورة. أرى في عينيك ذيّاك البريق. وأراك تهمّ بإشعال سيجارة. الجنس!! حسناً! حسناً! كان فعل الحب بيننا كل مرة انفجاراً بركانياً كونياً لذيذاً. لاحظ، يا نطاسي، الدقة في التعبير. هو انفجار بمعنى أنه حدث غير عادي، غير مألوف، يهزّ الأشياء الروتينية ويغيّرها. وهو بركاني بمعنى أنّه ينطلق من أعمق الأعماق ويحمل معه مختلف أنواع النيران والحمم. وهو كوني بمعنى أنه يبدّل نظرتك إلى الكون. يجعل الكون محلاً أليفاً صديقاً. وهو لذيذ، حتى لا تأخذ صورة البركان والحمم والانفجار حرفياً. المشاكل مع الحَرْفيين، يا طبيب، جزء من مأساتي. الحَرْفيون لا يفهمون المجاز ولا الإستعارة ولا التشبيه ولا الجناس ـ والجناس غير الجنس! ـ ولا بقيّة أدوات التعبير الفنّي. هم الذين دفعوا الناس إلى متاهات الغموض دِفعاً. لولا عدسة الكاميرا لما وُجد بيكاسو. أنا الذي قلت هذه الجملة المأثورة. حسناً! نعود إلى موضوعنا. لم نكن نعتبر ما يحدث بيننا فعل جنس؛ كنا نعدّه فعل حب. والجنس، وأنت سيّد العارفين، كثيراً ما يكون فعل كره، أو فعل انتقام، أو فعل قهر، أو فعل إثبات فحولة، أو فعل احتقار، أو فعل هواية. أجدادنا العرب أدركوا هذه الحقيقة عندما وضعوا لفعل الجنس مئات الأسماء. تستغرب؟ في لسان العرب، وحده، قرابة ٤٠٠ كلمة. وقد أحصى أحد الباحثين ١٢٠٠ كلمة. لا تتوقّع مني أن أسردها لك الآن. أطلبها في مظانّها. يكفي أن أشير إلى بعضها. جلخ. ودكّ. ودهك. وسفد. وسلق. ونشنش. وكبس. وطسَّ. وطخَّ. ومَعَج. ومَعَس. وفشّ. أظنك تتفق معي، يا حفيد فرويد، أن معَسَ وطخَّ لا يمكن أن تعتبر أفعال حُبّ. فرق شاسع بين أن تفضي إلى امرأة وتفضي هي إليك وبين أن تدكّها وتسلقها. حسناً! يكفي أن أقول عن سوزي إني عرفت أكثر من ألف امرأة قبلها وبعدها، ولم أرَ مثلها. لا تصدّق؟! تستكثر عليّ ألف امرأة؟! أنا البروفسور الشاعر الروائي القاصّ الفيلسوف رجل الدولة المفكّر عالم الاجتماع المنتج السينمائي الثري؟! إذن، ماذا تقول عن الشاعر الذي فصّل عباءته من جلد النساء وبنى أهراماً من حلماتهن؟ يخزي العين! صدقت! كم امرأة قُشّرت لبناء هذه الأهرام؟ مليون سيّدة، على أقل تقدير! لا يا حكيم! لا توجد

هذه الأهرام في الجيزة. ولا في أيّ مكان آخر. لا تكن حَرْفياً. هذه مجرّد مبالغة شعرية ممجوجة، شبيهة بمبالغات أبي حسيد. الذي زعم أن كلّ مراهقة تحيض بمجرّد رؤيته. وهذه صورة بشعة، فضلاً عن عنصر المبالغة الممجوج. المهمّ، أن القوانين هذه الأيام لا تجيز صنع العباءات من جلود النساء. ولا من جلود النمور. ولا من جلود التماسيح. لا تصدّق كل ما يقوله الشعراء ولكن لا تستكثر عليَّ ألف امرأة. سمعنا في التاريخ القريب من ادعى أنه ضاجع ١٠,٠٠٠ امرأة. وكان للمتوكل ٤٠٠٠ جارية، «وكان يطأ الجميع». بيَّض الله وجهه! يمدّها، والله!، المتوكّل! يطأ الجميع! المتوكّل مثلي الأعلى جنسياً. كان خليفة محبوباً. قيل إن عهده «أحسن من أماني الحب وأيام الشباب». وعندما كبر وأصبح عاجزاً عن المباشرة، أمر بصنع بركة من الزئبق، ينطرح فوقها على فراش رجراج مع المحظية ويترك للزئبق مهمّة تحريكه. فكرة جهنمية! أو، على الأصح، فكرة زئبقية! لا بدّ أن الزئبق كان متوفراً بكثرة أيام المتوكل، مثل بقية الأشياء. تصوّر عدد الترمومترات التي تستطيع صنعها من زئبق هذه البركة! الغريب أن البحتري وصف بركة المتوكل العادية في قصيدة مقرّرة على طلاب الثانوية من المحيط إلى الخليج ولم يصف البركة الزئبقية. ربما لأن البروتوكول يمنع من ذلك. وعندما مات المتوكل، يا طبيب، أصيب الجميع بالحزن. والمتوكل لم يمتْ ميتة طبيعية. مات قتيلاً في مؤامرة. شارك في تدبيرها ابنه. الذي كان المتوكل كثيراً ما يهينه على الملأ. ومن هنا تتبيّن خطورة إهانة الناس على الملأ، ولو كانوا أبناءك. وعندما مات رثته الجن بأبيات ركيكة جداً منها: «فالطير ساهمةٌ والغيث منحبسٌ .˙. والنبتُ منتقصٌ في كل إبّان. والسعر ينقُصُ، والأنهار يابسةٌ .˙. والأرضُ هامدة في كل أوطانِ». لا أدري لماذا غضبت الجن من نقص الأسعار. لقافة! ورثاه البحتري بقصيدة عامرة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني قلت إنني عرفت أكثر من ألف امرأة. لم أقل إني عرفتهن بالمعنى التوراتي. قلت إني عرفتهن، والسلام. منهن من عرفت معرفة عابرة، ومنهن من عرفت معرفة وثيقة. نعود إلى سوزي. الجنس لم يكن الجزء الأهم في علاقتي معها. الحب نفسه كان الذي يهمّ. كانت تسمّيني پروفسور. وكنت أسميها سوپر. إشارة إلى ذلك اليوم التاريخي، يوم السوپر ماركت. وان كانت سوپر، بمفردها، تعني ممتاز أو، في هذه الحالة، ممتازة. كانت تجيء إلى شقّتي وتنظّف وتطبخ. وأعود من الجامعة فأجد كل شيء في انتظاري. وكنتُ أذهب إلى شقّتها وأنظّف وأطبخ وتعود من الجامعة فتجد كل شيء في انتظارها. لم أصرخ فيها ولم تصرخ فيّ، قطّ. باستثناء الليلة المشؤومة التي سيأتيك خبرها. كنا نقضي معظم أوقات فراغنا مع الأدب. صدّق أو لا تصدّق! هي التي عرّفتني على

شكسبير. قبل أن ألتقي بها كان شكسبير مجرّد إسم، وعناوين مسرحيات غائمة. بعض خبراء الجوسپ يرون أن السوناتاز، وهي في رأيي أجمل شعر شكسبير، مكتوبة في غلام. والدليل؟ الدليل أن الإهداء إلى رجل، وأن في بعض الأبيات نصيحة بأن يتزوج الفتى قبل فوات الأوان. «هل أقارنك بيوم من أيام الصيف؟ أنت أحلى وأرقّ. فالرياح العنيفة قد تسحق براعم مايو الحبيبَة. وعمر الصيف قصير...». كِيْف تشوف يا نطاسي؟ هل من الممكن أن تكون هذه الكلمات الجميلة عن رجل؟

ـ واي نوت؟!

ـ صدقت! واي نُوت إنديد؟! أنا لا أصدّق ولا أكذّب. ولا أجزم ولا أستبعد. واعلم، يا حفيد فرويد، أن ٩٠٪ من الغزل في الشعر العربي منذ منتصف القرن العباسي وحتى بداية القرن العشرين غزل في مذكّر. وحتّى عندما يقصد الشاعر حبيبته يقول «حبيبي!». وحتى عندما يعني السمراء يقول الأسمر! انتشرت مفردات الغزل في المذكر حتى طبعت كل الغزل العربي بطابعها. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن سوزي أدخلتني عالم شكسبير عنوة. وأنا أصرخ وأصيح، كما يقولون. كانت تجرجرني إلى مسرحياته عندما تعرض في سان فرانسيسكو. الحق أقول لك، كنت أقضي وقتي في مشاهدة سوزي لا في متابعة المسرحيات. كانت انفعالاتها أكثر شاعرية من كلمات شكسبير. حوّلتني سوزي إلى خبير في شكسبير رغماً عني. حدثتني عن الأمريكية الحمقاء، ديليا بيكون، التي ظلّت تحوم حول مدفن شكسبير تحاول فتحه، حتى أصيبت بالجنون. كانت تريد أن تثبت أن فرانسيس بيكون، لا شكسبير، هو المؤلف الحقيقي لأعمال شكسبير. ولا تعتقد أنها قريبة لبيكون، فهذا مجرد إسم على إسم. ألّف شكسبير ٣٦ مسرحية، غير الأعمال الأخرى. وأروع مسرحياته، في رأيي المتواضع، هي «روميو وجولييت»، التي أوحت بآلاف الأعمال الفنيّة في كل اللغات. «سيّدتي! بذلك القمر البعيد المبارك أقسم. القمر الذي يغطّي بالفضّة قمم أشجار الفواكه. أوه! لا تقسم بالقمر. القمر المتغيّر. الذي يتغيّر كل شهر في مداره». ترجم صلاح عبد الصبور هذا المقطع شعراً فقال: «آه! لا تقسم على حبّي بوجه القمر. ذلك الخداع في كل مساء. يرتدي وجهاً جديداً». لاحظ أن شكسبير قال «أوْه!» بينما قال عبد الصبور «آه!». وقد تنبأ أبو حسيد بذلك حين قال: «أوّهْ بديلٌ من قولتي واها». ولهذا سُمّي المتنبّي. لكثرة تنبؤاته لا لادّعائه النبوّة. معظم القرّاء العرب لم يعرفوا أن عبد الصبور كان يترجم من شكسبير. معظم القرّاء العرب لم يفهموا عبد

الصبور خير شر. وخير شر تعني بْنوب. ولهذا نجح عبد الصبور نقدياً. واعلم، يا نطاسي، أن كل شاعر يكرهه القرّاء ينجح نقدياً. والعكس بالعكس. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا شكسبير. أهمل النقاد شكسبير قرنين كاملين. اعتبروه مجرد «مشخّصاتي». وعادوا إليه على مضض. بعد «روميو وجولييت» أعتبر «عطيل» أجمل مسرحياته. العربي الغيور! المُوْر! «ابنتك والمور يصنعان الآن وحشاً بظهرين». ومعنى هذا، يانطاسي، أنهما يلعبان السحّ الدّح أمبو. أوّل مرة قابلت فيها والد سوزي كنت على وشك أن أحييه بهذه العبارة. ثم خشيت العواقب. قالت سوزي إنه لم يكن ليفهم المقصود على أية حال. كنت كثيراً ما أداعب سوزي، وتداعبني، بعبارات من مسرحيات شكسبير يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها. أدخل وهي تطبخ، وأستنشق الهواء، وأقول: «هناك شيء متعفّن في دولة الدانمارك». وبدلاً من أن تغضب ترد عليَّ: «سوف أمتدح أيَّ رجلٍ يمتدحني». وعندما ينظر إليها أحد بإعجاب كنت أقول لها: «وجهك كتاب يقرأ فيه الرجال أشياء غريبة». وكانت تقول على الفور: «مزّقوه لشعره الرديء! مزّقوه لشعره الرديء!». وكما عرّفتني سوزي على شكسبير، عرفتني على جيمس جويس. الذي قابلته في باريس، كما سبق أن أخبرتك. والد الرواية الحديثة. التي لا تبدأ ولا تنتهي. ولا يوجد فيها عقدة. ولا أخيار ولا أشرار. ولا راوية ولا مُعلّق. حيث تتناثر في السطر الواحد عشرات الإيماءات والألغاز. الحداثة التي اكتشفها العرب الشهر قبل الفارط. قالت لي سوزي إنه لا يمكن لأحد أن يتذوّق «يوليسس» ما لم يكن مُلمّاً بالتاريخ والفلسفة والتراث الإغريقي والأديان المقارنة وعلم النفس وكل ما يمكن معرفته عن إيرلندا. «مطلب عسير يا سوپر!». هذا ما قلته، وقتها، وأقوله الآن. قال لي ناقد عربستاني، مرّة، إنه قرأ «يوليسس» في ليلة واحدة واستوعبها. كذاب بن ٦٠ كذاباً! رغم كل محاولات سوزي، لم أستطع أن أتجاوز مائة صفحة. استغرقت كتابة «يوليسس» ٧ سنوات من العمل المتواصل، ليل نهار، غير ساعات السكر التي كانت، بدورها، مخصّصة للتفكير، كحولياً، في الرواية. وقال جويس مرّة لأحد المعجبين إنه ما دام قد قضى ٧ سنوات في كتابتها فعلى من يريد الاستمتاع بكل مغاليقها أن يقضي ٧ سنوات في قراءتها. فورجت إت جيمس! «يوليسس» رواية غريبة جداً، يا حكيم. ظلت ممنوعة في أميركا حتى سنة ١٩٣٣ وفي بريطانيا حتى سنة ١٩٣٧. بسبب بذاءتها. تصفّحتها بحثاً عن البذاءة فلم أرَ شيئاً. باستثناء صفحة مقزّزة عن التغوّط. بداية الأدب الواقعي، ربّما. والأدب تعني التواليت في خليجعربستان. كانت سوزي معجبة بالرواية إلى حدّ الهوس. كانت عضوة في نادي أصدقاء جيمس جويس، فرع سان فرانسسكو. هناك نواد

كهذه في مختلف عواصم الدنيا. صدّق أو لا تصدق! تصوّر أنه كتب عن هذه الرواية أكثر من ٣٠٠٠ كتاب وبحث جامعي. وأنا لم يكتب عن أعمالي شيء. حظوظ يا حكيم. لا أدري لماذا كانت سوزي تحب جويس. سوزي كانت صادقة. وتحبّ الصدق في الآخرين. وكانت ترى أن «يوليسس» أصدق رواية في الأدب الإنجليزي. ألف صفحة عن يوم واحد في دبلن، ويهودي، وزوجته التي تخونه، وطالب الطب. لا يكاد يوجد في دبلن يهود ومع ذلك فبطل الرواية يهودي. اللوبي الصهيوني؟! لا! لا! كان جويس يحبّ أن يأتي بالعجائب، ومن العجائب وجود يهودي بين الكاثوليك الدبالنة الذين لم يكونوا أكثر البشر تسامحاً. وأبو حسيد، بدوره، كان يحب العجائب. وكانت العجائب تحبّه. وقد وصف هذه العلاقة العجائبية فقال: «إنّي لعمري قصدُ كلِّ عجيبةٍ ∴ كأنّي عجيبٌ في عيون العجائب». رواية «يوليسس» من أولها إلى آخرها «سِتريم أوف كونشسنس». كيف تترجم هذا إلى العربية؟ تدفق المشاعر؟ تداعي الأفكار؟ ما أنا بصدده الآن! أنا لست ناقداً، يا حكيم، ومع ذلك أقول إن رواية «يوليسس» لم تعجبني. كانت سوزي تقرأ لي صفحة بعد صفحة وأنا كالأطرش في الزفة. ربّما لأني لم أقرأ الأسطورة اليونانية الأصلية التي كان بطلها يوليسس. أنا أكره اليونان، وأكره أساطيرهم كما سبق أن قلت لك. وقد أحسن السَّيّاب صنعاً عندما شرح في الهوامش الأساطير اليونانية المذكورة في شعره. أما الجواهري فقد أساء في هوامشه لأنّه كان يشرح البيت الواحد بأكثر من ٩٩ سطراً. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا جويس. كانت ابنة جويس مصابة بالشيكيزوفرينيا. إسمها لوسي. وكانت ابنة ديجول متخلّفة عقلياً. وكذلك أخت جون كندي. الأمر الذي يؤكّد الصلة بين العبقرية والجنون، إن كانت في حاجة إلى تأكيد. وإذا كانت «يوليسس» تستعصي على الفهم، فرواية جويس التي تلتها، «فينجانز وَيْك»، أدهى وأمرّ. استغرقت كتابتها ١٧ سنة. أحياناً، كان جويس يقضي شهريْن في كتابة فقرة واحدة. تصوّر! لم يفعل كاتب عربستاني هذا عبر التاريخ. حتى المصابون بالإمساك الفِكري. وجويس اللئيم كتب هذه الرواية وهو يعلم علم اليقين أن أحداً لن يفهمها. في لحظة من لحظات التجلّي أسرّ بهذه الحقيقة لبعض من كان معه. كتب هذه الرواية لنرفزة النقّاد والقرّاء، وجعلهم يتحدثون عنها إلى الأبد. إذا قال لك إنسان، أي إنسان، إنّه فهم الرواية فقل له إنه كاذب في وجهه ـ والمسؤولية عليّ. وأبو حسيد الخبيث كثيراً ما يفعل ذلك. نرفزة النقّاد والقرّاء والتلبيس عليهم. والهدف هو أن يستمرّ الحديث عنه. إسمع: «وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ∴ بأن تسعدا، والدمع أشفاه ساجمه». هل فهمت شيئاً؟ ولا أنا. ولا سيف الدولة.

ولا ابن جنّي، حامل أختام الشاعر. ولا تسألني لماذا سمّوه ابن جني فأنا لم أشهد ولادته. أو اسمع: «أحادٌ أم سداسٌ في أحادِ .. لييلتنا المنوطة بالتنادي». نونسنس! كان يفعلها عامداً متعمداً لإغراء الناس بالحديث عن الأبيات «المُشكلة». أمّا أنا فعندما أمرُّ ببيت من هذا النوع أضحك وأقول: «إلعب غيرها يا أبا حسيد! قديمة!». سوف أعترف الآن اعترافاً مُذهلاً. تعرفت على أبي حسيد عن طريق سوزي. لم أكن أسميّه أبا حسيد أيامها. لم أسمّه هذا الاسم إلاّ بعد أن رأيته شخصياً كما سيجيك بالحكي. لا أقصد أن سوزي دلّتني، مباشرة، على المتنبّي. أقصد أنني عندما بدأت أتعرّف على الأدب الإنجليزي عبْر سوزي شعرت بتأنيب الضمير لجهلي الأدب العربي. بدأت أذهب إلى مكتبة الدراسات العربية والإسلامية في الجامعة وأقرأ أمهات الكتب. حلوة أمهات! أفضل من آباء. وعثرت على ديوان المتنبّي. وقرأته. ثم أعدت قراءته. حتى حفظته بيتاً بيتاً. هل تريد أن أنشدك، الآن، قصيدة أو قصيدتين؟

- لا يا بروفسور. الله يخلّيك!

- حسناً. كنت أنوي أن أترجم قصائد من ديوان المتنبّي بالاشتراك مع سوزي. كانت سوزي تحب الأبيات التي أترجمها لها من شعره بين الحين والحين. خصوصاً بيته: «أنتِ منا.. . فتنتِ نفسكِ.. لكنك عُوفيتِ من ضنى واشتياقِ». كنت كثيراً ما أداعبها قائلاً: «أنت منا يا سوبر!». لم يُترجَمْ ديوان المتنبي إلى الإنجليزية حتى هذه اللحظة، يا نطاسي، مع أن كثيراً من الغثاءات ترجمت. رُبّما لصعوبة ترجمته. وربما بسبب الحسد الذي يتعقّب أبا حسيد في حياته ومماته. كما عرّفتني سوزي على كاتبي الروائي المُفضّل جون شتاينبك. أنا لا أحب المباهاة، يا حكيم. ولكني قرأت جلَّ ما كتبه عباقرة الروائيين من روس وفرنسيين وأمريكيين وبريطانيين وعرب. ويبقى شتاينبك كاتبي المفضّل. الروائيون الروس يذبحونك ذبحاً بالتفاصيل. «الحرب والسلام»، رائعة من روائع الفكر البشري. ولكن ٤ صفحات في وصف بدلة بيير و٣ صفحات في وصف ضحكة ناتاشا شيء يطفّش. شتاينبك لا يُفصّل إلاّ فيما ندر. ولا تحتاج إلى أن تكون موسوعة بشرية لتفهم ما يريد أن يقول. وكان مِنّا. أعني أنه ذهب، بدوره، إلى جامعة ستانفورد، ولكنه لم يتخرج. ضع هذا في قائمة معلوماتك التي لا تضرّ ولا تنفع. كانت سوزي تأخذني إلى الأمكنة التي تدور فيها أحداث رواياته ومعظمها في مونتري ما غيرها. أخذتني إلى المزارع التي كتب عنها «عناقيد الغضب». روايته الأثيرة عندي هي «شارع التعليب»، وهذه ترجمة حرفية ركيكة للاسم الإنجليزي «كانيري رو».

الترجمة، دائماً، خيانة للأصل كما قال كبير المترجمين الفوريين في الأمم المتحدة.
بلغ من إعجابي ببطل الرواية، دوك، أن سوزي أخذت تسمّيني دوك حتى طلبت منها العودة إلى اسمي القديم. كنت أبكي وأنا أقرأ معها «عن الجرذان والرجال». شخصية العامل الأبله تستدعي الشفقة. لسبب غير مفهوم، يحب الروائيون الكتابة عن البُله. خذ أبله دستوفيسكي، أشهر البُله. أو الزين بطل «عرس الزين»، الذي لم يكن أبلهاً عادياً بل كان فيه شيء لله. أو محدودب نوتر دام الذي لم يكن أذكى قارع جرس في التاريخ. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا حياتي مع سوزي. حياة نادرة، ليس فيها لحظة واحدة مملّة كما يقولون. نقضي اليوم في مرفأ الصيادين في سان فرانسسكو. والغد في مزارع شتاينبك. في الأسبوع الذي يلي، ننطلق في الصحراء. إلى أريزونا. نقضي عدة أيام في معسكر من معسكرات الهنود الحمر. أجمع أنا المعلومات عن عاداتهم وتقاليدهم، وتُسجّل سوزي أناشيدهم وأهازيجهم. بلا سابق إنذار، نسرع إلى لوس أنجلس حيث تُمثّل مسرحية من مسرحيات شكسبير في الهواء الطلق. وسوزي، عبر هذا كله، تضحك وتمزح. ويقف الناس مذهولين أمام ابتسامة كولجيت. أمام الشعر البرتقالي. أمام الألعاب الناريّة. أمام الغمّازتين. ومع ذلك لم يعاكسها أحد قط. لم يصفّر لها أحد. كان الإعجاب مشوباً بالاحترام. كان حولها سور مكهرب غير مرئي يحميها. كانت هناك إعلانات تحذيرية غير مكتوبة. ـ «أنظر ولا تلمس!». «لا تضيّع وقتك!» «هذه الفتاة لا تحب سوى فتى واحد!». وكنت أنا فتاها. الذي تحبّه. «كيف أحبك؟ دعني أحصي الطرق.. أحبك حتّى يصبح حبك حاجتي اليومية الهادئة في ضوء الشمس» اليزابيث براوننج. كانت هناك محطة إذاعة في سان فرانسسكو تبث ساعتين من الشعر بعد منتصف الليل. تصوّر يانطاسي! ساعتان من الشعر في أمريكا. كان اسم البرنامج «الغيمة التاسعة»، وكنا نستمع إليه كلما أُتيحت لنا الفرصة. وكان مقدّم البرنامج يعشق قصيدة «كيف أحبك؟». كنت أنا فتى سوزي الوحيد. الذي تطبخ له بلا تأفف وتغسل قمصانه بلا تذمّر. وتتحمل كل نزواته العربية. وما أكثر النزوات العربية: «سوبر! سوف تجيء الشلّة الليلة للعشاء». كان هذا يكفي. إنذار قبل ساعتين من الهجوم. أسألك، يا طبيب، أتوجد فتاة أمريكية تقبل بهذا؟ في الماضي أو الحاضر أو المستقبل؟ لم تكن سوزي تحتج. تعدّ الطعام ويأتي العربان ويلتهمونه. تعوّد عليها كل أصدقائي، وتعوّدتْ عليهم. تخرّجتْ سوزي وحصلت على الباجلور في الأدب الإنجليزي. تخرجت قبلي بشهور. أوّاه! كم كنتُ فخوراً بها، وبروبها الجامعي، وبشعرها الهارب من القبّعة الجامعية. ومن الذي ألقى خطاب التخرج؟ شتاينبك. بعينه! ذهبنا، سوزي وأنا، وسلّمنا عليه بعد

الحفل. ووقّع على برنامج الحفل. لا يزال توقيعه عندي، في مكان ما. بدأت سوزي تحضّر للماجستير في الأدب المقارن. كانت تنوي أن تكتب رسالة الماجستير عن وجوه الشبه بين شكسبير والمتنبّي. تصوّر! فتاة من سان فرانسسكو. يملك أبوها الملايين. هل أخبرتك أن أباها يملك شبكة من محلات السوبر ماركت تمتد عبر كاليفورنيا كلّها؟ نعم! نعم! شيلنج سوبر ماركتز! فتاة حسناء شقراء انتُخبتْ، عندما كانت في التاسعة عشرة، ملكة جمال پالو ألتو. تسابق الريح في «ثندر بيرد» حمراء. طائر الرعد الذي كان الهنود الحمر يقدّسونه. وتحبّني! وتنوي أن تكتب رسالة عن المتنبّي! قلت لك إن هذا لا يحدث إلاّ في القصص أو الأحلام أو الأفلام. الحقيقة أنه لا يحدث حتّى في القصص والأحلام والأفلام. ولكنه حدث لي، يا دكتور. عندما كانت الحياة رائعة ومثيرة وجميلة وبريئة. وكنت أحلم بولايات عربية متّحدة. وبمجتمع عربي نبيل. وتعرفتُ على فتاة حسناء أدخلتني إلى عالمها. فتحتْ كلّ الأبواب المؤدّية إلى دنياها وسمحتْ لي بالاقتراب. استضافتني في جسدها وقلبها وعقلها. عرّفتني على السيمفونيات. وسيمفونية، يا نطاسي، مأخوذة من الكلمة اللاتينية سيمفونيا، وهي بدورها مشتقة من جذر لاتيني يعني الصوت الجماعي. ضع هذا كلّه في قائمة معلوماتك التي لا تنفع ولا تضرّ. عرّفتني على سيمفونيات موزار الخمسين. لا! لا! لا داعي للمبالغة. لا أعرف من هذه السيمفونيات إلاّ تلك التي ألّفها في السنوات الأخيرة من حياته. وهي أحسن أعماله، كما يقول أهل الخبرة، وأنا لستُ أحدهم. وعرفتني على بيتهوڤن وسيمفونياته التسع التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. شأنها شأن أبي حسيد. ونونية ابن كلثوم التي «ألهت بني تغلبِ عن كل مكرمة». ثم جاء شوبرت بسيمفونياته الثماني وزَاحَم بيتهوڤن. وترك السيمفونية الناقصة. الكثير يعتقدون أن السيمفونية الناقصة لبيتهوڤن، والحقيقة أنها لشوبرتْ. عفواً، يا حكيم. أنا لا أحاول استعراض معلوماتي الموسيقية. أنا، إذا أردتَ الصراحة، وحتّى إذا لم تردها، حمار موسيقى. وحمار كرة قدم. وحمار بيسبول. وحمار أشياء كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى. حقيقة الأمر، أني كنت أذهب إلى السيمفونيات إرضاءً لسوزي. وكثيراً ما كنت أنام خلالها. باستثناء سيمفونيات بيتهوڤن. لا أحد يستطيع النوم خلال سيمفونيات بيتهوڤن إلا بيتهوڤن نفسه الذي لم يكن حادّ السمع كما لا يخفاك. وكانت سوزي، يا حكيم، تطبع لي أوراق التيرم بيبر. على كثرة مواهبي، لم أتعلّم الطباعة، حتّى بعد ظهور الورد پروسسر. تستطيع أن تعتبرني حمار تكنولوجيا. كانت تطبع لي كل شيء. حتّى مراسلات جمعية الطلبة العرب التي كنت رئيسها في تلك الفترة. كان الخبثاء من الأصدقاء يسمّونها الفِرسْت ليدي. وعندما استضافتْ جمعيتنا مؤتمر الطلبة

العرب الذين يدرسون في الولايات المتحدة تفوّقَتْ سوزي على نفسها. أنا لا أعرف المقصود بهذا التعبير. لا أدري كيف يتفوّق المرء على نفسه. سمعته، لأول مرّة، وأنا أشاهد مسرحية ليوسف بك وهبي. سمعت أحد المشاهدين يقول: «تفوّق يوسف بيه على نفسه». وقرّرت أن أستعمل التعبير. وها أنذا أستعمله! تفوّقتْ سوزي على نفسها خلال المؤتمر. تولّتْ تنظيم كل شيء. وأنا أعني كلَّ شيء. الحجز في الفنادق والموتيلات. الاستقبال في المطار ومحطّات القطار. إستعانت بموظفين من شركة أبيها، واستعانت بعدد من صديقاتها. وتولّتْ كل اللوجستكز. تعرف اللوجستكز يا حكيم؟ بالتأكيد! كلمة من الكلمات التي أوقفت حمار السدنة الخالدين في العقبة. وهذا مجرّد مثل. السدنة الخالدون ليس لهم حمار. ولو كان لهم حمار لأعادوا تسميته المرفاس أو المنهاق. عندما يصل الدور إلى الكلمة، بعد حوالى قرنين، فسوف يسمّونها اللجسسة، أو الجستكة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنك تعرف الجهد الذي يبذل في تنظيم المؤتمرات. رتّبت سوزي كل شيء. ولم تكن تشعر بتعب. أو تشكو الجهد. أو تتوقّع كلمة ثناء. كانت تبتسم طيلة الوقت. هل تعرف من حضر ذلك المؤتمر؟ مصطفى العقّاد. أي نعم! أيْ نعم! مصطفى العقّاد الذي أصبح، فيما بعد، مخرجاً ومنتجاً مشهوراً. أيامها، لم يكن مشهوراً. كان طالباً يدرس السينما في جامعة جنوب كاليفورنيا، يو. إس. سي. واعلم، يا طبيب، أننا، طلبة ستانفورد، كُنّا نحتقر بقية جامعات أمريكا، ونحتقر جامعات كاليفورنيا على وجه الخصوص، ونحتقر يو. إس. سي بصفة أخصّ. جامعة الأغنياء والمرفهين والمدلّلين ولاعبي كرة القدم. الجامعة الوحيدة في أمريكا التي اختارت نيكسون ضد كينيدي. جميع طلابها وأساتذها رجعيون. لم يعرف بينهم ليبرالي واحد. ولم يكن فيها سوى قسمين محترمين: قسم السينما، وقسم طبّ الأسنان. أما في بقية الأقسام فتنجح إذا كنت تدفع بالتي هي أحسن. كان مصطفى العقّاد يدرس في قسم السينما. وكان يحلم بإخراج فيلم عن السيرة النبويّة، وفيلم عن صلاح الدين، وفيلم عن عمر المختار. ومرّت الأيام، وحقق مصطفى العقاد حلمين من أحلامه. أخرج فيلم «الرسالة» وفيلم «عمر المختار». وتكبّد من الخسائر في سبيل إخراج الفلمين ما تكبّد. هناك بليون مسلم، يا طبيب. ويظهر أروع فيلم عن الإسلام ويفشل تجارياً. تصوّر! إضطرّ مصطفى العقاد إلى التحول إلى أفلام الرعب وجنى ثروة لا بأس بها من مسلسل «هالوين» الذي ظهر منه حتى الآن حوالى دزينة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن مصطفى العقاد حضر المؤتمر وشاهد سوزي. إذا كنت لا تصدّقني إسأل مصطفى العقاد. إسأله عن الفتاة الشقراء التي رتبتْ مؤتمر الطلبة العرب في سان

فرانسسكو. يوم كان هو طالباً كبير الأحلام. أسأله عن صديقة بشّار الغول. التي تنبأ لها بمستقبل باهر في هوليود إذا أرادت تجربة حظّها هناك. ومرّت الأيام، يانطاسي. وتخرجتِ أنا. وبدأتُ أحضّر للماجستير في علم الاجتماع المقارن. واقترحتْ سوزي أن يكون موضوع رسالتي تأثير البيئة الاجتماعية في شعر المتنبّي. تصوّر! مرّت سنتان كاملتان على تعرّفي عليها. مرّتا كدقيقة. كثانية. هذا ما دعاني إلى اختراع نظريتي في النسبية. هل بقي شيء مثير وممتع وجميل ورائع لم نفعله خلال السنتين؟ أشك في ذلك. زُرنا معظم الولايات بالسيّارة. قضينا أسبوعاً كاملاً في «دزني لاند»، «وضحكنا ضحك طِفلَيْن معاً». شاهدنا كل العروض المسرحية الناجحة في برُودوي بنيويورك. سافرنا إلى المكسيك، وتسكّعنا في حانات تيوانا. عشنا شهراً كاملاً في كوخ يطل على بحيرة تاهو. قضينا أسبوعين في يوسميتي پارك. زرنا البيت الأبيض والكونجرس بمجلسيْه. تتبّعنا مغامرات مارك توين، على الطبيعة، في المسيسيپي. كانت سوزي فتاة لا تتكرّر، يا طبيب. تصحو من نومها وتبدو كما لو كانت خارجة لتوّها من أعظم صالون تجميل في العالم. لم تكن تستخدم أيّ مساحيق أو أصباغ. لم تكن تلبس شيئاً سوى بنطلون الجينز، إلاّ عندما تكون مضطرة. ويُخيل إلى من يراها في البنطلون أنها ترتدي لباساً أسطورياً من السفاير. تعرف السفاير؟ ابن عم الزبرجد. لم تكن تتصرف تصرّف فتاة ثرية. ولولا «الثندر بيرد» لما طاف ببال أحد أنها أغنى من غيرها. لم يكن المال يهمّها. هكذا كانت حياتنا، يا طبيب. «هو عمر واحد عشت به .. كلَّ أعمار الورى مجتمعات». لا! لم يقل هذا أبو حسيد. وكيف يمكن أن يقوله وهو لم يحب أحداً سوى نفسه؟ وربّما سيف الدولة. قاله ناجي، الذي سوف أحدثك عنه فيما بعد. كانت حياتنا رحلة في ضمير السعادة حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة...

ـ ليلة الانهيار العصبي؟

ـ الانهيار العصبي؟! أيّ انهيار عصبي؟! عمّاذا تتحدث؟! أنا لم أصب بانهيار عصبي قطُّ! قط! قط! قط!..

ـ تيك أت إيزي، يا پروفسور، تيك أت إيزي. أنا أردّد ما قرأته في الملف.

ـ آه! الملف! لا تصدّق كل ما تقرأه في هذا الملف. أو في أيّ ملف آخر. أو في أيّ مطبوعة. أو في أيّ مخطوطة. ولا تصدّق كل ما تسمعه من الناس. حتى أنا أحياناً أكذب. كذبات بيضاء وعند الضرورة. ولا ضرورة هنا. ولا حاجة بي إلى الكذب. صدّقني إذا قلتُ لك إني لم أصبْ بانهيار عصبي. سوف أروي

لك، بالتفصيل، ما حدث في تلك الليلة المشؤومة وأترك لك الحكم. بدأت القصّة في يوم عيد ميلادها، الثالث والعشرين. كانت من مواليد مارس، ١٥ مارس على وجه التحديد. واحتفلنا معاً بعيد الميلاد. بدأنا في السادسة صباحاً، بداية مبكّرة بعض الشيء. مررنا على أطلال شارع التعليب واستعدنا ذكرى دوك. ثم انطلقنا إلى مرفأ الصيادين في سان فرانسسكو. حيث أعددتُ لها مفاجأة. رحلة بحرية. هل هناك أنسب من أن تحتفل فتاة من برج الحوت بعيد ميلادها في البحر؟ فكرة نيّرة. ومعظم أفكاري نيّرة. كانت رحلة تاريخية. لم نعد إلاّ بعد منتصف الليل، محمّلين بالكثير من السمك، والكثير من النشوة، وأشعة من ضوء القمر. أخبرتْني أنها ستقضي اليوم التالي مع والديْها. لم تستأذني. أخبرتني. هل الحب يعني أنك لست في حاجة إلى استئذان؟ بالتأكيد! لم يكن بيننا تملك أو امتلاك. كانت هناك واجبات عليَّ أن أقوم بها، وكانت تفهم ذلك. وكانت عليها واجبات، وكنت أتفهّم ذلك. لم يكن في علاقتنا ذلك العذاب اليومي المقيم. «أين كنت؟!». «لماذا تأخرت؟!». «كنت مع من؟!». «أصحابك كل ليلة؟!». «تذهب وتتركني بمفردي؟!». «هل نسيتني؟!». «هل تغيّرت؟!». أرادتْ أن تقضي اليوم مع أسرتها، وهذا كل ما كان هنالك. كنت أعرف والديها بطبيعة الحال، معرفة لا بأس بها. الحقَّ أقول لك، كانا يستلطفانني أكثر مما كنت استلطفهما. كان اسم أبيها ريتشارد، وكنت أسمّيه دِكْ، على الطريقة الأمريكية. وكان اسم أمّها مارجريت وحوّلته الطريقة الأمريكية إلى مارجي. حسناً! قضت سوزي اليوم بأكمله مع دِكْ ومارجي. عادت إلى شقّتي بعد التاسعة مساءً بدقائق. وبدأت أحداث الليلة المشؤومة.

ـ كيف بدأت؟

ـ بغتة! وبعنف! وبلا إنذار! اقتربتْ منّي وقبّلتني كالمعتاد. وقالت كالمعتاد: «مِسدْ يو بروفسور». وكالمعتاد، أجبتها: «لوف يو سوبر». لفتَ نظري شيء كان يبرق بشدّة فوق جيدها. تجمّدتُ. تجمّدتُ تماماً. كان الشيء الذي يبرق فوق جيدها نجمة داود مطرّزة بالماس. عندما استطعتُ أن أتحدّث قلت بصعوبة بالغة: «سوبر! ما هذا؟». قالت بعفويتها المعتادة: «هذا؟ هدية من أمّي وأبي. ماذا بك؟ تبدو على وشك الإغماء». قلت: «نجمة داود؟!». قالت: «بطبيعة الحال». هنا أخذت أصرخ: «سوزي! سوزي! أنتِ يهودية؟!». شحب وجهها، ثم احمرّ، ثم عاد إلى لونه الطبيعي، وقالت بهدوء: «يهودية؟ طبعاً! هل كُنت تجهل ذلك؟!». عندها، يا دكتور، بدأت أفقد السيطرة على أعصابي. لا داعي للتهويل واستخدام

ألفاظ مخيفة مثل الانهيار العصبي والشيكيزوفرينيا والجنون. هذه مبالغة ممجوجة. مثل مبالغات أبي حسيد. ولا يوجد ما هو ممجوج أكثر منها. فقدتُ السيطرة على أعصابي، يانطاسي، ولكنني لم أفقد عقلي. صفعتها. فُوجئتُ بها تقع على الأرض. لم أكن أتصوّر أن صفعة واحدة يمكن أن ترمي فتاة شابّة قوّية على الأرض. وتدافعتْ كلماتي، وكأنّها طلقات من مدفع رشاش: «يهودية؟! يهودية؟! يهودية؟! ولا تقولين لي! ولا تخبرينني! تسمعينني أسبّ إسرائيل وألعن الصهاينة وأنت صامتة؟! تطبعين خُطبي في تأييد القضية الفلسطينية ولا تتكلمين؟! هل أنت جاسوسة إسرائيلية؟! هل أنت عضوة في «بناي برث» وانتدبوك لمعرفة أسرار الطلبة العرب؟!». وقفتْ سوزي. ولأوّل مرة في تاريخ العلاقة بيننا ارتفع صوتها حاداً كالسيف، قاطعاً كالسيف: «لم أخدعك. ولم أكذب عليك. هل سألتني؟ لو سألتني لأجبتك. كنت واثقة أنك تعرف. كلّ الناس يعرفون أن أسرة شيلنج يهودية». رفعت يدي، وصفعتُها صفعة ثانية أقوى من الأولى. ولم تسقط هذه المرّة. إيّاك أن تتصور، يا طبيب، أنّي أؤمن بالعنف. أنا إنسان متحضّر. من أنصار الحوار مع الرجال والنساء. كانتْ هذه المرّة الأولى والأخيرة التي ضربت فيها إمرأة. صفعتُها، وانطلق طوفان الكلمات: «كلّ الناس يعرفون أنك يهوديّة إلاّ أنا؟! الغبيّ الأوحد! الحمار الأوحد! يهودية وشقراء؟! يهودية واسمها سوزي؟!». ظهرتْ على عينيْها نظرة احتقار قاتل. أشعرتْني أني لا شيء. لا شيء. مجُرّد ثور هائج. بدأتُ القصّة وأنا ثور هائج وانتهتْ وأنا ثور هائج. مع الفارق الكبير بين البداية السعيدة والنهاية الشقية. ضربتْ نظرة الاحتقار سياج حماية حولها. لم يعد بوسعي الاقتراب منها. وانطلقتُ أحطّم كل شيء في الشقّة. كل شيء. التيلفزيون، الستائر، الأطباق، زجاج النوافذ. خرجتْ سوزي دون أن تقول كلمة واحدة، وسمعتُ صوت «الثندر بيرد» تبتعد. مضيت أحطّم ما تبقّى في الشقة. فجأة، فُتح الباب ودخل ٣ من رجال البوليس. أشهر رئيسهم مسدّسه، وقال: «تعال معنا!». قبل أن أتمكّن من المقاومة أحاط بي الآخران ووضعا قيداً في يديّ ثم سحباني سحباً إلى الشارع. وجدتُ نفسي في سيارة البوليس. ثم وجدتُ نفسي داخل قسم البوليس، والرجلان يدفعانني داخل زنزانة. رفستُ أحدهما في ركبته دون تفكير. إلاّ أنني وجدت نفسي على الأرض. لا أدري كيف. عندما حاولت النهوض أهوى الرجل الآخر على مؤخرة رأسي بعصاه البلاستيكية. فقدتُ الوعي. لا أدري كم قضيت في هذه الحالة.

ـ صحيتْ على بكره. الساعة عشرة. الملفّ يقول هيك.

ـ قد يكون هذا صحيحاً. عندما أفقتُ من الغيبوبة قيل لي إن هناك زائراً يودّ التحدّث إليّ. اقتادني الحارس إلى غرفة صغيرة. هناك وجدت ريتشارد، أعني دِكْ، أعني والد سوزي في انتظاري. مدَّ يده وصافحني ثم قال: «هناك خبر سيِّىء. سيِّىء جداً. انقلبتْ سيارة سوزي. وماتتْ في الحادثة» بدأتْ الدنيا تغيم أمامي. بدأتُ أفقد الوعي شيئاً فشيئاً. جاءتني كلماته وكأنّها صادرة من أعماق حلم بعيد: «كانت حاملاً. في الشهر الثالث. هل كُنتَ تعرف ذلك؟» هنا، يا طبيب، أغمي عليّ. ثم أفقتُ وأنا فاقد الذاكرة. أصبتُ بالأمنيزيا على حدّ تعبيركم معشر الأطباء النفسيين. لا أذكر شيئاً مما مرَّ بي بعدها. كلُّ ما أذكره أني صحوت لأجد أمامي الدكتور جونسون.

ـ حاولتَ الانتحار في الزنزانة. ضربتَ الجدار برأسك. وحاولتَ قطع شرايين يدك. ثم امتنعتَ عن الطعام والشراب. حتى اضطروا إلى نقلك إلى مصحة مونتري.

ـ من هم؟

ـ أصدقاؤك. كلُّ أصدقائك. ودِكْ ومَارجي.

ـ لا أذكر، يا دكتور. لا أنفي ولا أؤكدّ. كل شيء جائز، كما تعرف كلّ العجائز. الناس تحت تأثير الصدمات يتصرّفون بشكل عفوي. أليس كذلك؟ ومع ذلك لا يتحوّلون إلى مجانين. لا يمكن أن نعتبر ردود الفعل الانفعالية انهياراً عصبياً. أليس كذلك؟ تكلّم يا دكتور! لماذا تصمت؟ هل تعتقد أني أصبت بإنهيار عصبي حقيقي؟ هل تعتقد أني كنت أعاني من الشيكيزوفرينيا؟ هل تعتقد أنني جننت؟ هل تعتقد أني لا أزال مجنوناً؟ تكلّم يا دكتور!

ـ تيك إت إيزي يا بروفسور! الملفّ يقول إنك ضربت الدكتور جونسون.

ـ الملفّ! الملفّ! هل أنت مجنون تصدّق كل شيء؟

ـ ماذا حدث إذن؟

ـ حدث أن الدكتور جونسون استفزّني.

ـ كيف استفزّك؟

ـ قال لي: «لقد قتلت سوزي الأمريكية اليهودية أيها العربيّ القذر!».

ـ حرام عليك، يا بروفسور. الدكتور جونسون ما قال هيك.

ـ رُبّما لم يقله بلسانه. قاله بملامح وجهه. خلاص! خلاص! خلاص!

ـ شو خلاص يا پروفسور؟

ـ لا أودّ الحديث عن سوزي. ولا عن المصحّة. ولا عن الدكتور جونسون. خلاص! أودّ الحديث عن موضوع آخر.

ـ أوكي! إحكي!

ـ أودّ أن أتحدث عن تجربتي الوزارية.

ـ وايْ نوت؟

ـ حسناً! حسناً! تولّيتُ وزارة الشؤون الهامة كما سبق أن أخبرتك. وأتيتُ وأنا أنوي إصلاح البيروقراطية وتهذيبها وتشذيبها. استعملت أسلوب دِكي المكّار. لا تعرف ما هو أسلوب دكي المكّار؟ سوف أحدثك عن ذلك، فيما بعد. إذا إجا على بالي. ولكن يكفي أن أقول لك هنا إن الأسلوب يعتمد على مبدأ «تغدّا بهم قبل أن يتعشوا بك». ألّفت ٥١ لجنة. في مكتب الوزير وحده. وتركت اللجان تتصارع. وبدأت أنا أتّخذ القرارات.

ـ ٥١ لجنة؟ يخزي العين!

ـ خذ، عندك، بعض الأمثلة. «لجنة تصوير الوزير». «لجنة توزيع صور الوزير». «لجنة بث أخبار الوزير». «لجنة الردّ على الرسائل التي تصل إلى الوزير». «لجنة شراء كتب الوزير». «لجنة بيع كتب الوزير». «لجنة مقابلات الوزير». «لجنة مراقبة أعداء الوزير». «لجنة تلميع بشوت الوزير». «لجنة إرضاء قرائب الوزير». «لجنة صدّ الإشاعات الموجّهة ضد الوزير». «لجنة بثّ الإشاعات لصالح الوزير». «لجنة خطب الوزير». «لجنة نكت الوزير». «لجنة...

ـ يكفي! يكفي!

ـ أوكي! يو جوت ذا آيدا! تنازع البيروقراطيون، وأصبح الوزير فعّالاً. بدأت الأمور بداية تبشّر بالخير. ثم ارتكبت خطأً فادحاً. شكلت «لجنة افتتاح مشاريع الوزير». وبدأت هذه اللجنة ترتب لي احتفالاً عند افتتاح كل مشروع. تدريجياً، بدأت أستلذّ العملية، ثم أنتشي بها، ثم تحوّلتُ، في النهاية، إلى مدمن إدماناً تاماً. كنت أحتاج إلى عشرة مشاريع في اليوم لإشباع إدماني. هل تعرف ماذا كان الناس يسمونني؟

ـ شو؟

ـ الفتّاحة!

ـ منيحة! ولشو افتتاح المشاريع بنفسك؟

ـ الإعلام، يا عزيزي النطاسي، الإعلام. هذا عصر الإعلام. الكلمة المقروءة والصورة المرئية. الصورة أهم شيء. إذا لم يرني الناس على صفحات الجرائد أفتتح مشروعاً، كل يوم، فماذا سيقولون؟ «البروفسور كسلان!». «البروفسور مشغول بشِعره». «البروفسور هائم مع معجباته». ولكن الإفتتاحات تجبر الأعداء قبل الأصدقاء على الإعتراف بنشاط المرأ. هكذا كان الأمر في البداية. مجرّد ضجيج إعلامي. ثم تحوّلت المسألة إلى إدمان لا يختلف عن إدمان الهيروين.

ـ فظيع!

ـ صدقت!

ـ وشو المشاريع اللي كنت تفتتحها؟

ـ سؤال وجيه! بدأت بالفنادق الكبرى ٥ نجوم. ثم نزلت إلى ٤ نجوم فثلاث فنجمتين فنجمة فشمعة فعود كبريت. بعد أن انتهت الفنادق، بدأت أفتتح المطاعم. عندما انتهت، بدورها، بدأت أفتتح شوايات الدجاج والشاورمائيّات. وكانت لديّ خطبة لكل افتتاح، وكنت أميل إلى السجع في خطبي. عند افتتاح شوّاية كنت أقول: «شعوري، اليوم، هو شعور أيّ مواطن ذي لجاجة. يحسّ الحاجة. إلى التهام دجاجة». وكنتُ أقول عند افتتاح شاورمائية: «شعوري، اليوم، هو شعور أي مواطن يحبّ الشاورماء. وخاصة في ليالي الشتاء. إذا نامت المَرَة الخرقاء. قبل تحضير العشاء». لم يعد هناك المزيد من الشوايات والشاورمائيات. فانتقلت إلى افتتاح محلات البنشر.

ـ عفواً! شو يعني البنشر؟

ـ سؤال جيّد! البنشر هو تحريف كلمة البنكجر الإنجليزية. التي تعني، كما يعرف حضرة جنابك، الثقب أو الخرق أو الخزق. ومحلات البنشر تصلح كفرات السيارات المصابة بثقوب أو خزوق أو خروق. ولا تسألني ما هي الكفرات فإنها الدواليب. وكنتُ عندما أفتتح محلاً من هذه المحلاّت أقول: «شعوري، اليوم، هو شعور أيّ مواطن أقشر. إذا أصابه بنشر». لم تبقَ محلات من أي نوع لافتتاحها. وهنا ضربت البيروقراطية ضربتها. اقترحت عليّ إنشاء «لجنة زيارات الوزير المفاجئة». ووافقت، من سوء حظي. بدأت أقوم بزيارات تفتيشية مفاجئة لا يعرف عنها أحد سوى رؤساء تحرير الصحف المحليّة ومراسلي وكالات الأنباء الدولية.

ونجحت الزيارات نجاحاً هائلاً. ثم ما لبثَتْ أن تحوّلت، هي الأخرى، إلى إدمان يومي. مرة، يا طبيب، تسلّلت متنكراً على هيئة جرسون ودخلت إلى مطعم شعبي وفاجأت الطباخين ووجدت بعض الصراصير في المطبخ. إتّخذتُ قراراً فورياً بإعادة صباغة المطعم بأكمله باللون الأخضر. وهكذا ضربت عصفورين، أو صرصورين، بحجر. غيّرت لون الصراصير البنّي المقرف إلى لون أخضر زاه. وأعدت تسمية المطعم، وأعدت افتتاحه. وذات يوم، يا دكتور، تنكّرتُ على هيئة عامل ودخلت شاورمائية واكتشفت أن الشاورماء تصنع من لحوم القطط...

ـ البسينات؟! يا عيب الشوم!

ـ صدقت! هل تعرف ماذا فعلت؟ هل تعتقد أني وقفت مكتوف اليدين؟ كلاّ! ثم كلاّ! أمرتُ، فوراً، بتغيير إسم الشاورمائية إلى «شاورمائية المُواء». كان هدفي أن يعرف الزبائن ماذا يستهلكون. هذا ما يُسمّى في بلاد الخواجات كستومرز پروتكشن.

ـ وسمجت لهم بالاستمرار؟

ـ كبّر عقلاتك، كما كان الحاج حسين، رحمه الله، يقول لي دائماً. بعد تغيير الاسم لم يعد لشاورمائية المواء من زبائن سوى الكلاب. أنظر ما حدث. هذا ما يُسمّى في علم البيولوجي سلسلة الغذاء. أكلت الكلاب شاورماء القطط فسمنت وتربربت وتختخت فأكلها الشراقصة...

ـ عفواً! شو يعني الشراقصة؟

ـ الشراقصة، يا حكيم، هم خدمنا وخادماتنا المجلوبون من الشرق الأقصى والمجلوبات. وهكذا ضربت عدة عصافير، وقطط وكلاب، بحجر واحد. خلت الشوارع من القطط لأنّ الكلاب أكلتها. وخلت الشوارع من الكلاب لأنّ الشراقصة أكلتها. بقي الشراقصة. الحقيقة أني بدأت التفكير الجدّي في إنشاء شاورمائية باسم «شاورمائية الشرق الأقصى» تتخصص في...

ـ پروفسور! پروفسور! هل يمكن تغيير الموضوع؟

ـ بكل سرور! استمرّت زياراتي المفاجئة حتّى انتهت نهاية محزنة. تستطيع أن تقول نهاية مأساوية.

ـ شو صار؟

ـ دخلتُ قسم الطوارىء في المستشفى الرئيسي بعد منتصف الليل متنكراً على هيئة سيّدة حامل في الشهر السابع. اختطفني المرضون وأسرعوا بي إلى غرفة

العمليات. قبل أن أستطيع أن أفتح فمي لأقول: «أنا معالي الوزير، يا حيوانات!» وضعوا كمّامة على فمي وبنجّوني. وفتحوا بطني. لم يجدوا جنيناً بطبيعة الحال. ولكنهم استغلّوا الفرصة فاستأصلوا كل ما يمكن استئصاله من الأعضاء الوزارية. استأصلوا الزائدة واللّوزتين والجيوب الأنفية والمرارة والبنكرياس والقولون والبروستات والطحال وكادوا أن يستأصلوا الأعضاء الحساسة لولا أن البنج نفد واستيقظت.

ـ فظيع!

ـ صدقت! اضطررت إلى ملازمة الفراش عدة شهور. وهنا ضربت البيروقراطية ضربتها الثانية. «ضربة كانت من معلّم ․․․ خلّت «الوزير» يبلّم». مع الاعتذار للعندليب الأسمر. هل أخبرتك أن العندليب الأسمر كان صديقي؟ لم أخبرك؟ أووه! كان من أعزّ أصدقائي ثم بدأت العلاقة بيننا تسوء بسبب المنافسة على قلب شاعرة خليجعربستانية حسناء اسمها...

ـ عفواً يا پروفسور!

ـ حسناً! حسناً! حسناً! لا تكن نرڤوزاً ولا نرڤازاً ولا نرڤيزاً. استدعت البيروقراطية مستشاراً قانونياً عمره قرن ونصف من مصلحة الجمارك الخديويّة وكلّفته بوضع نظام قانوني جديد للوزارة. أعدّ صاحبنا نظاماً يربط كل شيء بموافقة الوزير. وعندما أقول لك كل شيء فأنا أعني كل شيء. إيڤري ثنج! كنتُ طريح الفراش عندما بدأ السقف يخرّ معاملات. بنيتُ سقفاً جديداً مُصفّحاً بالحديد المسلّح وبدأ السقف المسلّح يخرّ معاملات بدوره. وجاءت الأوراق تترى. وتترى تعني تتتابع وتتلاحق. مناولة، وبالبريد، وبالفاكساء، وبالتلكساء. وانشغلت، ليل نهار، بتوقيع القرارات الوزارية. هل رأيت قراراً وزارياً يا حكيم؟

ـ لا.

ـ إذن إليك الصيغة. من يدري؟ فقد تصبح وزيراً ذات يوم. حدثت في التاريخ أشياء أغرب من هذه. هاه! هاه! مجرد مداعبة بريئة. «إن وزير الشؤون الهامة. بعد الإطلاع على المادة ٦٧٨٥٤٣٢١٦٢ من نظام الوزارة. وبناء على ما اقتضته مصلحة العمل. وبعد الاطلاع على مذكرة وكيل الوزارة رقم ٧٣٢١٥٤٤٣ أ/ب/ج/د/حـ/ط/ي/هـ/و/ز. يقرر ما يلي: يُسمح للموظّف مستعجل بن عجلان العجيلان باستخدام أسانسير الوزارة لمدة لا تزيد على دقيقتين وبارتفاع لا يتجاوز ٤ طوابق ولمرّة واحدة. توقيع. البروفسور. صورة للوكيل للإحاطة. صورة

لكبير مهندسي الوزارة لإشعار صغير مهندسي الوزارة لإشعار مهندس الأسانيسر باعتماد مضمونه. صورة للموظف مستعجل بن عجلان العجيلان. صورة لإدارة شؤون الموظفين. صورة للإدارة المالية. صورة لمؤرخ الوزارة. صورة للعلاقات العامة».

- ركوب الأسانسير بدّو قرار وزاري؟ حاجة يا پروفسور!

- كل شيء. التدخين. طرقعة الأصابع. حك الرأس. اللعب بـ. . . حسناً! اللعب والسلام! شراء دبّوس. شراء جريدة.

- وليش ما فوّضت الصلاحيات؟

- سؤال ذكي! تفويض الصلاحيات يحتاج إلى حد أدنى من النشاط. وقد كنت وقتها طريح الفراش. عاجزاً عن المشي. عاجزاً عن الحركة الحقيقية. عاجزاً عن كل شيء ما عدا التوقيع. وقّعت بيدي اليمنى حتّى أصيبت بالحكّة. ثم وقّعت بيدي اليسرى حتى أصيبت بالتقرّح. ثم وقّعت برجلي. ثم وقّعت بأسناني. ولكن التوقيع لم يزعجني. التوقيع عملية آلية. ما آذاني هو الضغط الشديد الذي تعرض له مخّي نتيجة اتخاذ القرار. قرارات! قرارات! لا تستهن بالقرارات الوزارية، يا حكيم. هذه القرارات تمسّ مصالح الناس بشكل مباشر. تؤثّر على حياتهم اليوميّة. قرارات! قرارات! هل أسمح لهذا الموظّف باستخدام دورة المياه أم أتركه لمصيره المنتن؟ هل أسمح لهذا الموظف بقصّ شعره أم أدعه يتخنفس؟ هل أوافق على شراء ١٢ مظرّفاً أم أرفض؟ قرارات! قرارات! زادت القرارات، وزاد التفكير وزاد الضغط حتّى انفجر مخّي ٦٠ حتة. واضطررت إلى السفر إلى جون هوپكنز لإجراء عملية زرع مخ وإعادة. . .

- حاجة يا پروفسور! ما في عملية زرع مخّ!

- إذا عرفت السبب، بطل العجب. هل تريد أن تعرف السبب؟

- معلوم.

- إذن لا بد أن أعود فأستأنف قصتي مع مصحّة مونتري. حتى نصل إلى حكاية المخّ المزروع. أوكي؟! نعود إلى حيث تركنا القصّة. قلتُ لك إن الدكتور جونسون اتهمني بقتل سوزي. تلميحاً أو تصريحاً. لن أدخل في جدال معك. وقلت أنت إنني اعتديت عليه بالضرب. لا أذكر هذه الواقعة. ذاكرتي حديدية ولكنها مبتلاة بثقوب هنا وهناك. ثقوب سوداء. بلاك هولز! كتلك التي يمكن أن تستشفط كرتنا الأرضية في أي لحظة. صاحبكم فرويد يستطيع تفسير ظاهرة

النسيان الجزئي. يستطيع تفسير كل شيء باستثناء نومه مع أخت زوجته. الذي أذكره تماماً أني طلبت مغادرة المصحّة. وجاء عنتر وشيبوب ومجموعة من الأصحاب يحاولون إقناعي بالبقاء. تعرف الجمل المعتادة. «أنت تعبان بعض الشيء». «أنت بحاجة إلى قليل من الراحة». «كلها أسبوع أو أسبوعان». «كانت صدمة كبيرة جداً. صدمة هائلة». «ستخرج بمجرد أن ترتاح أعصابك». تعرف هذه الملطّفات. لا بد أنها مرّت عليك ألف مرة. وربّما استخدمتها ألف مرة. رفضت بكل عناد. أردت مغادرة المصحّة فوراً. أنت تعرف القانون في أمريكا. لا تستطيع أي مصحة نفسية أن تبقي أحداً فيها إلاّ بإرادته الحرّة أو بقرار من المحكمة. والأسباب؟ الأسباب معروفة لدى حضرة جنابك. لئلا يتخلّص الناس من الأقارب غير المرغوب فيهم بتهمة الجنون. «الوالد خرّف. لماذا لا نضعه في المصحّة ونتصرّف في أمواله؟». «الوالدة جُنّت. فلنضعها في المصحّة ونسترح منها». «الوليّة مصابة بكآبة نفسية. نرميها في المصحّة ونلعب على حلّ شعرنا». التخلّص من المزعجين ظاهرة معروفة في كل زمان ومكان. خصوصاً في العالم العاشر. وميّ زيادة وضعت هنا بتهمة الجنون كما سبق أن أخبرتك. وكانت الآدمية عاقلة. المهمّ أني رفضت البقاء وأصرّ الدكتور جونسون على بقائي. لم يبقَ إلاّ أمر المحكمة. حُدّدتْ جلسة لنظر القضيّة. تأمل، يانطاسي، عجائب الأقدار. أصبح موضوع عقلي أو جنوني قضية تبتّ فيها محكمة. ذهبنا في الصباح إلى الكونتي هاوس في پالو التو وهناك، في قاعة كبيرة، انتظرنا دورنا. كانت المجموعة تتكون من الدكتور جونسون وممثل عن البوليس وعنتر وشيبوب ودك ومارجي وعسكرياتك المشكوك في سلامة قواه العقلية. بعد نصف ساعة أو نحوها دخل حاجب وقادنا إلى غرفة المحكمة. على المنصّة، جلس قاضٍ أشيب وقور الملامح. نظر إليّ وقال: «أنت تعرف لماذا أنت هنا؟». هززت رأسي، إيجاباً، ولم أتكلم. أضاف القاضي: «وتعرف أنني سأتّخذ القرار الذي أراه في مصلحتك وفي المصلحة العامّة؟». هززت رأسي صامتاً. قال: «أودّ أن تخبرني بنفسك، وبكلماتك أنت، عما حدث». قلت: «عرفتُ الليالي قبل ما صنعتْ بِنا ... فلمّا دهتنا لم تزدْنا بها علما». إلتفت القاضي إلى شيبوب وسأله: «ماذا قال؟». ردّ شيبوب: «استشهد ببيت شعر قديم». قال القاضي: «ما معناه؟». رد شيبوب: «معناه لا جديد تحت الشمس». قال القاضي: «هذا صحيح. إلى حدّ معين فقط». ثم التفت القاضي إليّ، وسألني: «ماذا حدث في الليلة التي ذهبت فيها إلى القسم؟»، قلت: «وكنتُ قُبَيْلَ الموت أستعظم النوى ... فقد صارت الصُغرى التي كانت العُظمى». قال القاضي لشيبوب: «ماذا قال؟». قال شيبوب: «استشهد ببيت شعر آخر لم أفهم معناه». وهنا تدخّل الدكتور جونسون مخاطباً

القاضي: «يا صاحب الشرف! من الظواهر المعروفة في الشيكيزوفرينيا أن يرفض المريض التعاون». نظرت إلى الدكتور جونسون شزراً ولم أتكلّم. سألني القاضي: «هل تعرف المستر والمسز شيلنج؟». قلت: «كأنَّ بنيهم عالمون بأنني .·. جَلوبٌ إليهم من معادنه اليُتما». قال القاضي لعنتر: «ماذا قال؟». ردّ عنتر: «لم أفهم يا صاحب الشرف». هنا نظر القاضي إليّ، وقال: «أنت تتكلم الإنجليزية جيداً. ردّ عليّ بالإنجليزية». هززت رأسي. قال القاضي: «فلنبدأ من البداية. ما اسمك؟». قلت: «يقولون لي ما أنت في كل بلدة؟ .·. وما تبتغي؟ ما أبتغي جلَّ أن يُسمى». إلتفت القاضي إلى شيبوب وسأله: «ماذا قال؟». رد شيبوب: «أعتقد أنه قال إنّه يرفض الإفصاح عن أسمه ومهنته». عندها بدأ القاضي يغضب: «إسمع! إسمع! إسمع أيها الشابّ! لقد نفد صبري. إذا رددت عليّ بعد الآن بلغة غير الإنجليزية فسوف أعتبر تصرّفك إهانة للمحكمة وآمر بحبسك. هل فهمت؟!». قلت: «فهمت». قال: «هذا أفضل. هل تريد الآن أن تخبرني باسمك؟» قلت: «يا صاحب الشرف! اسمي سوپر ماركت!». نظر القاضي إلى الدكتور جونسون الذي رسم على وجهه أمارات حزن عميق مصطنع وهز كتفيه تعاطفاً مع ورطة القاضي. إلتفت القاضي إليّ وقال بحدّة: «أيها الشابّ! سوف أتخذ قراري في ضوء إجاباتك. ولهذا أنصحك ألاّ تلعب ألعاباً معي». قلت: «يا صاحب الشرف! لم أحاول أن ألعب. كنت أعني ما أقول. أنا سوپر ماركت! والمستر شيلنج سوپر ماركت! وكل من عنتر وشيبوب ورجل البوليس هذا والدكتور جونسون سوپر ماركت! وحتّى أنت، سيّدي القاضي، أنت سوپر ماركت!» تنهّد القاضي وقال: «حسناً! سوف أمنحك فرصة أخيرة. ماذا تعني عندما تقول إن كل واحد منا سوپر ماركت؟». قلت: «يا صاحب الشرف! أعني، بالضبط، ما أقوله. خذ نفسك سيدي القاضي. خذ شعرك الأشيب. هذا قسم الشامپو. خذ نظارتك. هذا قسم الأواني الزجاجية. خذ أنفك. هذا قسم. . .». وهنا قاطعني القاضي وبدأ يملي على كاتب المحكمة: «بناء على السلطة الممنوحة لي من ولاية كاليفورنيا قرّرت إبقاء المريض بشّار الغول في مصحّة مونتري تحت إشراف الدكتور نورمان جونسون على أن تتم مراجعة وضعه في المحكمة بعد ٣ شهور». هكذا، يا نطاسي، عدت إلى المصحّة. وبدأ زميلك الدكتور جونسون صراعه التاريخي الجبّار لاستخراج كل الفضائح والقبائح من عقلي الباطن. «أين ولدت؟». «حيث يلتقي الرمل بالماء». «في بلدة بترولية؟». «في بلدة حارّة». «كم عمرك الآن؟». «ولك اللحظة التي أنت فيها». «هل لديك أخوان وأخوات؟». «نعم». «كم عددهم؟». «لم أحصهم مؤخراً. ٧ أخوان و٦ أخوات. أو ربّما العكس». «من أمّ واحدة؟.» «من ٣

أمهات». «وعدد أشقائك؟». «٣ أخوان. وأختان. أو ربّما العكس». «هل تذكر طفولتك؟». «أذكر لمحات من هنا وهناك». «هل كانت طفولة سعيدة؟». «لا بأس بها. طفولة عادية مثل طفولة معظم الناس». «كيف تعرف أن طفولة معظم الناس عادية؟». «هذا مجرد رأي». «إسمع يا مستر الغول...». «إسمي الپروفسور». «حسناً! إسمع يا پروفسور! لا أريد منك آراء. أريد معلومات». «أوكي!». «كيف كانت علاقتك بأمك؟». «كانت عادية». «ماذا تقصد بكلمة عادية؟». «أقصد مثل علاقة كل الأبناء بكل الأمهات». «ولكنك لا تعرف عن علاقة كل الأبناء بكل الأمهات». «هذا صحيح». «إذن ماذا تقصد، بالضبط، عندما تقول إن علاقتك بأمك كانت عادية؟». «أقصد، بالضبط، أنها كانت تعاملني مثل معاملة بقيّة أخواني وأخواتي». «تقصد الأشقاء؟». «نعم. غير الأشقاء لم يكونوا معنا في المنزل. كان لكل أم وأولادها بيت منفصل». «أوه! أوه! هذا مهمّ! مهمّ جداً!». «ما هو المهم؟». «المنافسة بين الأخوان». «أيّ منافسة؟». «ألم تقل لي إن كل أم كانت تسكن مع أولادها في بيت منفصل؟». «نعم». «ألم يؤدِّ هذا إلى نشوء منافسة قويّة بين الأخوان؟». «لم ألاحظ». «ألم تلاحظ أي مشاكل؟». «لا شيء سوى المشاكل العادية». «ماذا تقصد بالمشاكل العادية؟». «مشاكل اللعب والمزح والشجار». «الشجار؟! هل كان إخوانك يضربونك؟». «كان الذين يكبرونني يضربونني، وكنت أضرب الذين يصغرونني». «أوه! هذا مهم جداً! هل كان الضرب مبرّحاً؟». «لا. صفعة هنا. ركلة هناك». «هل كنت تشعر أن أخوانك يكرهونك؟». «لا. إلاّ عندما نتشاجر». «هل كانت هناك مشاجرات كثيرة؟». «لا. لا تزيد عن المعتاد في كل أسرة». «ماذا تقصد بالضبط؟». «أقصد، بالضبط، أننا لم نتشاجر كل يوم أو كل أسبوع. رُبّما مرّة كل شهرين». «هل حدثت علاقة جنسية بينك وبين أخوانك؟». «عفواً؟!». «سمعت السؤال». «لا. لم تحدث أي علاقة جنسية بيني وبين أخواني». «هل حدثت علاقة جنسية بينك وبين أخواتك؟». «عفواً؟!». «أجب على السؤال». «لا. لم تحدث أي علاقة جنسية بيني وبين أخواتي». «هل كنت تتمنّى لو حدثت علاقة جنسية بينك وبين أخواتك؟». «لا». «ماذا عن أمك؟». «ماذا عنها؟». «هل كنت تشعر برغبة جنسية نحوها؟». «نحو أمي؟!!!». «نعم. نحو أمك». «لا». «هل أنت متأكّد من ذلك؟». «١٠٠٪. مشاعري نحو أمي كانت أفلاطونية خالصة». «وماذا عن أبيك؟». «مشاعري نحو أبي كانت، بدورها، أفلاطونية خالصة. لم أشعر برغبة جنسية نحو أبي قط». «لا. ليس هذا قصدي من السؤال. أقصد كيف كانت مشاعر أبيك نحو أمك». «كان بينهما الكثير من المودّة». «أقصد الجنس». «دكتور جونسون! هل

تعتقد أنني وأخواني ولدنا بالمراسلة؟». «أوه هذه نقطة مهمّة جداً! فلنتحدث الآن عنك». «تفضّل!». «متى شعرت بالرغبة الجنسية لأول مرة؟». «قبل البلوغ بفترة». «متى وصلت سن البلوغ؟». «في الثانية عشرة. أو نحوها». «ومتى شعرت بالرغبة الجنسية لأول مرة؟». «في العاشرة أو نحوها». «هل تقصد أنك لا تتذكر أنك لم تشعر برغبة جنسية قبل العاشرة، أو تقصد أنك متأكّد أنه لم تكن هناك رغبة جنسية قبلها؟». «أقصد أنني لا أتذكر». «من المحتمل أن تكون قد شعرت بالرغبة الجنسية قبل ذلك. ونسيت الآن». «من المحتمل». «كيف بدأت تشعر بالرغبة الجنسية؟». «بدأت أحبّ اللعب مع البنات. وكنت أكره ذلك». «هل تقصد بالبنات أخواتك؟». «لا. أقصد الخادمات». «أوه! أوه! هذه نقطة مهمّة جداً! كان في بيتكم خادمات؟» «نعم». «كم كان عددهن؟». «لا أذكر الآن على وجه التحديد». «أذكر العدد التقريبي». «كان هناك ٣ عجائز. و٣ متوسطات في السن. و٣ أو ٤ مراهقات». «يا للسماء! يا للسماء! يا للسماء! هل أنت من أسرة حاكمة؟». «أنا من أسرة محكومة». «هل أنت من أسرة أرستقراطية؟». «أنا من أسرة خضيرية». «لم أفهم المقصود». «الخضيرية لا ينتمون إلى قبيلة من القبائل المعروفة». «كنت أظن أن كل من في منطقتكم من القبائل». «هذا وهم شائع». «هل يزعجك أنك من أسرة غير قبلية؟». «لا». «لماذا كان لديكم هذا العدد الهائل من الخادمات؟». «دكتور جونسون! لم يحدث هذا في سان فرانسيسكو هذه الأيام. حدث في بلدة حارّة حيث يلتقي الرمل بالماء. قبل الحرب العالمية الثانية. كانت أسرتي تعمل بالتجارة. تستطيع اعتبار المسألة نوعاً من الضمان الاجتماعي». «حسناً! كنت إذن تلعب مع خادمة مراهقة عندما شعرت بالرغبة الجنسية لأول مرة؟». «نعم». «هل تذكر اسمها؟». «نعم». «ما إسمها؟» «منوّر. أعني منيرة». «وماذا فعلت عندما شعرت بالرغبة؟». «لم أفعل شيئاً. استمرّ اللعب». «ماذا كنتما تلعبان». «الغميضة. يضع الواحد منا على عينيه غطاء ويحاول اصطياد الآخر». «وعندما يصطاده يبدأ في تلمسه؟». «تماماً». «وكيف كانت اللعبة تنتهي؟». «عندما تُستدعى مَنوّر أو أُستدعى أنا». «هل كان في البيت خدم ذكور؟». «نعم». «كم عددهم؟». «يماثل عدد الإناث. تقريباً». «هل تحرّش بك أحد منهم؟». «لا». «هل تحرّشت أنت بأحد منهم؟» «لا». «وماذا عن منوّر؟». «ماذا عنها؟». «هل كنت تحبّها؟». «كنت أحب أن ألعب معها». «متى كانت تجربتك الجنسية الأولى؟». «تقصد الجماع؟». «لا. أقصد الإنزال». «عندما كنت في الثانية عشرة أو نحوها». «هل كانت التجربة مع منوّر؟». «لا. منوّر تركت المنزل في هذه المرحلة وتزوجت». «أوه! أوه! أوه! تزوّجت منوّر؟! تزوّجت منوّر؟!». «نعم. لم كل هذه الدهشة؟».

«كم كان عمرها عندما تزوجّت؟». «كانت في الخامسة عشرة. أو نحوها». «هل رأيتها بعد أن تزوجت؟». «نعم». «كم مرة؟». «أكثر من ٣٠ مرة. كانت تزورنا، بانتظام، وتحضر معها طفلتها». «أوه! هذه نقطة مهمّة جداً! تزوّجت وأنجبت في الخامسة عشرة؟». «عندما أنجبت كانت في السادسة عشرة، أو نحوها». «هل تذكر اسم طفلتها؟». «نعم». «ما اسمها؟». «زينبو. أعني زينب». «هل حدث شيء بينك وبينها خلال زياراتها». «بيني وبين الطفلة؟!». «لا. بينك وبين الأم». «لا. لم يحدث شيء بيننا منذ تركت الخدمة وتزوجت». «هل شعرت بالغيرة عندما تزوجت مَنوُر؟». «لا». «وكيف تفسّر هذا؟». «كنت وقتها ألعب مع خادمة ثانية». «هل تذكر اسمها؟». «نعم». «ما اسمها؟». «اسمها فوتي. أعني فاطمة». «هل فوتي هي الخادمة التي حدثت معها تجربتك الجنسية الأولى؟». «لا». «مع من حدثت؟». «مع خادمة ثالثة». «هل تذكر اسمها؟». «نعم». «ما اسمها؟». «زهروه. أعني زهرة». «عجيب! عجيب! علاقات جنسية مع ٣ فتيات! وكل هذا قبل البلوغ!». «كانت المسألة لعباً في لعب، يا دكتور جونسون». «ليتني ألعب لعباً كهذا كل يوم. هاه! هاه! مجرد نكتة. هل من الممكن أن تحدثني عن زهروة؟». «كانت في الرابعة عشرة، أو نحوها». «أريد العمر بالضبط». «لم تكن لدينا، وقتها، شهادات ميلاد. كل شيء عندنا كان تقريبياً، ولا يزال». «حسناً! كانت أكبر منك». «نعم». «هل تستطيع أن تقول إنها اغتصبتك؟». «لا. لم تغتصبني». «هل تستطيع أن تقول إنك اغتصبتها؟». «لا. لم أغتصبها». «إذن كيف حدث ما حدث؟». «كنا نلعب». «الغميضة؟». «لا. كنا نلعب لعبة مريض وطبيب». «أوه! أوه أوه! تعرفون هذه اللعبة في بلادكم؟ إصبر! إصبر! أود تسجيل كل التفاصيل. هذا يثبت صحّة ما ذهب إليه فرويد من تشابه الألعاب الجنسية في كل الحضارات». «لا أعرف الكثير عن فرويد ونظرياته». «إذن كنتما تلعبان لعبة مريض وطبيب؟». «نعم». «هل تذكر من كان الطبيب؟». «نعم». «من كان الطبيب؟». «كنت أنا الطبيب». «أوه! أوه! هذه نقطة مهمّة جداً! لماذا كنت أنت الطبيب؟ لماذا لم تكن هي الطبيبة؟». «دكتور جونسون! أيامها لم يكن في بلدتنا طبيبات. كان كل الأطباء من الرجال». «آه! آه! لا تتصوّر الأبعاد النفسية لهذه الجملة. كان كل الأطباء من الرجال! لا بُدّ من عمل بحث مُوسّع. هل تعتقد أنه لو كان هناك طبيبات في بلدتكم لكان من الممكن أن تكون زهروة الطبيبة في اللعبة؟». «سبق أن طلبت منّي عدم إبداء آراء». «توشيه! توشيه! ماذا كنتما تفعلان عندما حدث ما حدث؟». «كنت أفحصها». «أين؟». «في المطبخ». «أقصد أيّ مكان من جسدها؟». «كل مكان». «وماذا كانت هي تفعل؟». «كانت تريني

مواضع الألم». «هل كانت تتألم؟». «دكتور جونسون! كنا نلعب. لم تكن هي مريضة متألّمة. ولم أكن أنا طبيباً». «بطبيعة الحال! بطبيعة الحال! ثم ماذا حدث؟». «لم يحدث شيء. استمرّ الفحص». «إلى متى؟». «إلى أن انتهت العملية». «تقصد العملية الجنسية؟». «أقصد العملية الجراحيّة». «أوه! أوه! كانت هناك عملية جراحية أيضاً؟». «نعم. كنت أتظاهر بفتح بطنها ثم إغلاقه. ثم تشفى. وتقوم. وتنتهي اللعبة». «أوه! أوه! لا تتصوّر الدلالات الجنسية والنفسية لكلامك. تجربتك تؤكد صحة نظريات فرويد كلها». «الحمد للّه!». «متى كانت تجربتك الجنسية الفعلية الأولى؟». «تقصد الجماع؟». «نعم. الجماع». «عندما كنت في السادسة عشرة. أو نحوها». «مع من كانت؟». «مع خادمة أخرى». «من المراهقات؟». «لا». «من العجائز؟». «لا. من المتوسطات». «وكم كان عمرها؟». «لا أدري. في حدود الثلاثين». «وهل اغتصبتك؟». أستحلفك بالله!، يا دكتور ثابت. أنا أعرف أنك لست متديّناً ولكني أعتقد أنك تؤمن بالله.

ـ معلوم.

ـ أستحلفك، بالله!، هل يجوز هذا؟ في أي شرع؟ في أيّ ملّة؟ هل يجوز أن تنتهك حرمة أسراري على هذا النحو المهين؟ هل يجوز لإنسان أن يمد أظافره في أعماقي ويستخرج منها كل المخبوءات؟ هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

ـ تفضل.

ـ هل سبق لك أن اغتُصبت جنسياً؟ أعني بواسطة رجل؟

ـ لا.

ـ ولا أنا. ولكني أملك مكتب محاماة ودعني أخبرك أن كل الشرائع، كلها بدون استثناء، تعتبر الاعتداء الجنسي أخطر أنواع الاعتداء. أخطر من الاعتداء على الحياة نفسها. هل تعرف السبب؟ لا تعرف السبب رغم أن أكل عيشك من الجنس؟ حسناً! دعني أخبرك. دع عنك النظريات السوسيولوجية التي تتكلم عن نقاء الدم ورغبة الذكور في السيطرة. السبب الحقيقي في شدة العقوبة أن الجريمة الجنسية، بالفعل، أخطر الجرائم. لماذا؟ لأنها تعتدي على أخصّ الخصوصيات، على أعمق الأعماق، على عورة العورات إذا أردت الدقة. الرجل الذي يغتصب امرأة قد لا يؤلمها جسدياً ولكنه يتغلغل، بدون وجه حق، إلى أعماقها فيلوّثها. يهتك العورة، عورة العورات! وهل تعرف ما هو أبشع من الاعتداء الجنسي؟ الاعتداء النفسي! ما تفعلونه أنتم معشر الأطباء النفسيين. تتغلغلون، بدون وجه حقّ، إلى عورة العورات. لا تكتفون بتعرية

الجسد وإنّما تريدون تعرية الروح. تمتد أيديكم إلى كل الفتحات، ومنها تتسلّلون إلى كل المحظورات. هل يجوز هذا؟ وبأمر محكمة؟ من الذي سمح للقاضي أن يقرّر أنني أعاني من الشيكيزوفرينيا؟ أو، إذا أردت الدقة، «كآبة نفسية حادّة ممتزجة ببعض أعراض البارانويا وبعض مظاهر الشيكيزوفرينيا؟». لأني غضبت من بقائي أعمى مدّة سنتين؟ لأني حطّمت بعض الأثاث الذي أملكه؟ لأني دافعت عن كرامتي؟ لهذا أُجبر على دخول مصحة نفسية، وأجبر على الإجابة على أسئلة قذرة؟ عفواً دكتور ثابت! أسئلة قذرة! من الذي سمح للدكتور جونسون بسرقة طفولتي على هذا النحو؟ بتشويه علاقتي مع أبي وأمي وأخواني وأخواتي؟ وكيف تحولت حياة الطفل من اللحظة التي يصحو فيها إلى اللحظة التي ينام فيها جنساً، والمزيد من الجنس، ولا شيء غير الجنس؟ أين ذهبت ضحكات الطفولة؟ هل كانت كلها نداءات جنسية مبطّنة؟ أين ذهبت ساعات اللهو البريئة؟ هل كانت كلها مقدّمة للألعاب الجنسية التي سحرت الدكتور جونسون؟ وبعد الجنس، يا حكيم، يأتي دور سوزي. وبعد سوزي، يأتي دور الجنس. «هل يمكن أن نتحدث الآن عن سوزي؟». «لا أودّ الحديث عن سوزي». «لماذا؟». «بيكوز ذا سكاي إز هاي». «لا تودّ الحديث عنها لأنك تعاني من تعذيب الضمير». «لا أعاني من تعذيب الضمير». «إذن لماذا لا تودّ الحديث عنها؟». «لا أودّ الحديث عنها لأني لا أودّ الحديث عنها». «أنت تعتبر نفسك مسؤولاً عن وفاتها. أليس كذلك؟». «لا». «كيف تفسّر وفاتها؟». «وفاتها لا تحتاج إلى تفسير. ماتت لأنّ أجلها انتهى. ماتت في يومها». «أنتم المحمديين...». «عفواً! نحن نسمّي أنفسنا المسلمين». «حسناً! أنتم المسلمين تنسبون كلّ ما تفعلونه إلى القدر، وتعفون أنفسكم من كل مسؤولية. أليس كذلك؟». «لا». «ماذا تعني؟». «أعني أننا نؤمن بقضاء الله وقدره ونؤمن بحرية الإرادة». «قضاء الله وقدره وحرية الإرادة نقيضان. كيف يمكن الجمع بين النقيضين؟». «نحن أحرار ضمن مشيئة الله». أيامها، يا نطاسي، لم أكن قد قرأت شيئاً عن إشكالية الحرية والقدر. لم أطّلع على آراء الجبرية ولا المعتزلة ولا الأشعرية ولا كتابات ابن تيمية ولا توفيقات سانت توماس. الآن، بعد سنين طويلة مع هذه النظريات وغيرها، لا يزال موقفي هو الموقف الذي عبرت عنه بعفوية كاملة للدكتور جونسون «نحن أحرار ضمن مشيئة الله». إلا أن زميلك السايكاترست لم يقتنع. واستمرّ الاستجواب. «ألا تعتبر نفسك مسؤولاً، ولو بدرجة بسيطة، عن موت سوزي؟». «لا. سوزي كانت ستموت في اللحظة نفسها حتّى لو لم تحدث المشاجرة». «ولكن المشاجرة كانت لها علاقة مباشرة بموتها». «دكتور جونسون، كيف تعرف ذلك؟». «أنا الذي أسأل الأسئلة». «حسناً! لم تكن للمشاجرة أي علاقة بموتها. لم تمت من الضرب. ماتت في حادث سيارة». «ماتت في حادث سيارة لأنّها

كانت غاضبة ومنفعلة على أثر تصرفاتك». «ماتت لأن ساعتها حانت». «أنتم المحمديّين. . .». «سبق أن قلت لك إننا نسمّي أنفسنا المسلمين». «حسنا! حسناً! أنتم المسلمين تعلقون كل أخطائكم على مشجب القدر». «لم يكن هناك أيّ خطأ من جانبي». «ألا تعتبر ردّ فعلك عنيفاً وعدوانياً؟». «لا. كان رد فعلي طبيعياً في ظل الظروف». « لم يكن ذنب سوزي أنها ولدت يهودية». «كنت أعتقد أنك تؤمن بحرية الإرادة!». «لا تغيّر الموضوع!». «لم أغضب لأنها يهودية». «ما الذي أغضبك إذن؟». «أغضبني أنها خدعتني. أنها أخفت هذه الحقيقة عني». «هل تكره اليهود؟». «لا. أكره الصهاينة». «وما الفرق؟». «الفرق أن اليهودية دين. والصهيونية مذهب سياسي». «لماذا لا تعترف أنك تكره اليهود؟». «أنتم الذين تكرهون اليهود. في الجامعة، لا يُسمح للطلبة اليهود بدخول الفراتيرنيتيز المسيحية». «هذه تفرقة في طريقها إلى الزوال». «لا تزال موجودة حتّى هذه اللحظة». «لم تخبرني عن سبب كرهك لليهود». «سبق أن قلت لك إني لا أكره اليهود». «لماذا تكره الصهاينة إذن؟». «لأنهم اغتصبوا فلسطين. سرقوها من أهلها وشردوهم». «ولكن الله منح اليهود فلسطين. هذا ما تقوله التوراة». «كل كتاب حجّة على من يؤمن به». «ألا تؤمنون معشر المحمديين. . . أعني معشر المسلمين بالتوراة؟». «نؤمن بالتوراة الأصلية. ونعتقد أن معظم ما في التوراة المتداولة حالياً من صنع أحبار اليهود». «أوه!. هذه نقطة مثيرة! مثيرة جداً! تعرّض فرويد لهذا في كتابه عن موسى وديانة التوحيد». «لم أقرأ الكتاب». «فلنعد إلى سوزي». «فلنعد!». «لماذا غضبت عندما اكتشفت أنها يهودية؟». «لأني شعرت أنها استغفلتني». «ألا تعتقد أنها أخفت الحقيقة عنك خوفاً من أن تفقدك؟». «لا أعرف لماذا أخفت الحقيقة عني». «هل سبق أن سألتها عن دينها؟». «لا». «لماذا لم تسألها؟». «افترضت أنها مسيحية». «إذن فأنت تكره اليهود». وهكذا، يا حكيم، دواليك. سوزي. الجنس. اليهود. الجنس. سوزي. العقل الباطن. الأم. الأب. الطفولة. التحرّش. الأحلام. الجنس. اليهود. الكوابيس. سوزي. التحرش. العقل الباطن. عقدة الذنْب. عقدة الاضطهاد. سوزي. اليهود. هل سمعت عن كافكا، يا حكيم؟ بالتأكيد. بعض قصصه حُوّلت إلى أفلام سينمائية سقطت، بجدارة، في شباك التذاكر. ونجحت نقدياً، بطبيعة الحال! كافكا كان كاتباً نمساوياً. وكان يهودياً. بطبيعة الحال! ظاهرة غريبة بعض الشيء. الرجلان اللذان صاغا الحضارة الغربية في القرن العشرين، وبالتالي أثرا على الحضارة في كل مكان، يهوديان. ماركس وفرويد. ما قصة اليهود؟ لماذا لا يتركون العالم في حاله؟ ولماذا لا يتركهم العالم في حالهم؟ وكافكا اليهودي ترك أثراً هائلاً على الأدب الغربي، وبالتالي، على الأدب في كل مكان. مع أنه كان يعتقد أن قصصه لا تستحق النشر. وكثير منها لم

يُنشر إلا بعد موته. إذا أردت أن تفهم عالم كافكا، يا طبيب، فاذهب إلى مصحة نفسية. لا تذهب طبيباً؛ إذهب مريضاً. هل تعرف قصة كافكا الشهيرة «التحول»؟ الموتامورفيسس؟ الشابّ الذي نام وصحا ليجد نفسه وقد تحوّل إلى حشرة كريهة قبيحة مجروحة؟ تصوّر شعوره! مجرّد خيال مريض؟ لا! كان هذا، بالضبط، هو شعوري. نمت إنساناً، وصحوت حشرة كريهة قبيحة مجروحة. في مصحة عقلية. مع فارق وهو أنه في قصة كافكا لم يستجوب أحد الحشرة عن تاريخها الجنسي وعن مشاعرها نحو اليهود. سمعت بقصة كافكا المشهورة الأخرى «المحاكمة»؟ إنسان بريء يجد نفسه في قاعة غريبة يحاكمه قضاة غرباء بتهمة لا يعرفها. وفي النهاية يحكم عليه بالإعدام. تصوّر! لا يعرف الجريمة ولا المكان ولا الزمان ولا القضاة. مجرّد خيال مريض؟ لا! كان هذا، بالضبط، هو شعوري. مع فارق هو أن صاحبنا المحكوم عليه بالإعدام لم يتعرض لأسئلة قذرة. هل تعرف قصة كافكا الشهيرة الثالثة «القلعة»؟ في هذه القصّة يحاول البطل أن يحصل على رضا «هم» الذين يحكمون من القلعة. لا يعرف من «هم»، ولا يعرف ما يسعدهم، أو يسخطهم. كل ما يعرفه أن مصيره متوقف، نهائياً، على مزاجهم. مجرّد خيال مريض؟ لا!. حسناً! أعتقد أن الصورة بدأت تتضح أمامك. كنت أعيش في عالم كافكاوي أو كافكائي. لا أعرف كيف أستردّ شكلي البشري. ولا أعرف كيف أخرج من قاعة المحاكمة. ولا أعرف ماذا سيفعله بي حكّام القلعة. ذات يوم، يا حكيم، بعد ساعات من الاستجواب الطويل ثرت. أدّى الضغط إلى الانفجار. لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت.

ـ يقول الملف إنك قلت للدكتور جونسون «أيها اليهودي القذر!». ثم صفعته، ثم حاولت أن تهرب من المصحّة.

ـ كنت أعرف أنه لم يكن يهودياً فلماذا أسميه اليهودي القذر؟ لا تصدق كل ما يقوله الملف. صدقني أنا. انفجرت ولا أدري ماذا حدث بعدها. في اليوم التالي، يا صديقي النطاسي، حصل الاغتصاب الأعظم. الانتهاك الأكبر. العدوان الأغشم.

ـ خير؟

ـ شر! الصدمات الكهربائية.

ـ آه! كانت أسلوباً شائعاً وقتها. هلأ مابنستعملها.

ـ وماذا ينفعني هذا الكلام الآن؟ ماذا ينفعني بعد أن غيّرت الصدمات الكهربائية حياتي تغييراً تامّاً ونهائياً؟

ـ كيف؟ تأثيرها، عادة، لا يتجاوز عدة أسابيع.

ـ لم أكن حالة عادية. رُبّما لأني لم أكن، في الأساس، إنساناً عادياً. لا تتعجّل الأمور. سوف أروي لك كل شيء. في البداية، لم يكن هناك سوى الاغتصاب الأعظم. إغتصاب المخّ عن طريق الكهرباء. صُعّد العدوان على خصوصياتي إلى ما لا نهاية. سُمح لشيء غريب بأن يتغلغل في خلايا المخّ ويعبث بها كيفما شاء. لم يعد الاغتصاب مجازاً. أصبح حقيقة. واقعة مادية كما يقول القانونيون. أستحلفك، بالله، يا دكتور! هل يجوز هذا؟ هل يجوز انتهاك مخ الإنسان، أثمن ما لدى الإنسان؟ شعراء العرب كانوا يتكلمون عن القلب والكبد والضلوع. ولكننا الآن في نهاية القرن العشرين، ونعرف معرفة يقينية أن مستودع كل المشاعر، كلها، هو المخّ. دعني أذكّرك ببعض الحقائق، يا نطاسي. في المخ ما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ مليون خلية. في أقل من كجم ونصف من المواد المخاطية يوجد كل هذا العدد من الخلايا. وهناك ٢٥,٠٠٠ وسيلة اتصال بين هذه الخلايا. أخرج الكلكيليتور من جيبك واحسب. أحصِ عدد الاتصالات في الثانية الواحدة. هل يعرف أحد ما يمكن أن يحدث إذا سلطت تياراً كهربائياً على هذه الشبكة الحساسة؟ أليس الإعدام أهون من هذا العبث؟

ـ تيك إت إيزي، يا پروفسور. شي مرّ وراح.

ـ مرَّ وراح؟! أصبر حتى تسمع الحقيقة التي هي أغرب من كل خيال. دعني أبدأ من البداية. في صباح اليوم التالي للانفجار، في تمام العاشرة صباحاً، قدم الدكتور جونسون إلى غرفتي ومعه ٤ ممرضين غلاظ شداد، يرتدي كل منهم رداء أبيض. كل هذا البياض! وصف أمل دنقل بياضاً يشابهه. سمعت عن أمل دنقل؟

ـ عفواً! ما سمعت عنها.

ـ عنها؟! هذا رجل! شاعر من أعظم شعراء العرب في القرن العشرين. ومن الذي سمع عنه، حتى تسمع أنت؟ حسناً! قال أمل دنقل: «كان نقاب الأطباء أبيض. لون المعاطف أبيض. أردية الراهبات. الملاءات. لون الأسرّة. أربطة الشاش والقطن. قرص المنوّم. أنبوبة المصل. كوب اللبن. كل هذا البياض يشيع بقلبي الوهن. كل هذا البياض يذكّرني بالكفن!». لا غرو، فقد كتب أمل دنقل هذه القصيدة وهو مريض بالسرطان ينتظر الموت في معهد الأورام بالقاهرة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن الدكتور جونسون ابتسم ابتسامة أفعوانية بيضاء، وقال بلهجة لزجة: «إبرة صغيرة، يا پروفسور. لو سمحت». قلت: «لا أحتاج إلى إبرة». قال: «إبرة صغيرة. وسوف تشعر بتحسن كبير». قلت: «لا أحتاج إلى تحسّن». نظر إلى الزبانية نظرة ذات معنى، ونظر إليّ نظرة ذات معنى، وقال بلهجة ناعمة: «يا پروفسور! أرجو أن تتعاون معنا». «السلاح ما عليه مراجل»، كما يقول أصدقائي اللبنانيون، وقد كان

الجماعة مُسلّحين بالكثير من الإبر. تعاونت معه. غرز الإبرة الصغيرة في العِرْق. وكان التأثير سريعاً وفعالاً. تحولتُ فوراً، إلى تمثال من الجليد، يحسّ ولكن لا يستطيع تحريك أي عضو من جسده. حملني الزبانية من سريري إلى نقّالة بيضاء وساروا بي عبر الحدائق والقاعات إلى غرفة صغيرة، بيضاء هي الأخرى. هناك ربطوني ربطاً محكماً، وشبكوا يديّ ورجليّ ورأسي بأسلاك مربوطة بجهاز يشبه جهاز الأشعة. لا أدري لماذا أروي لك هذه التفاصيل. أنت تعرف الجهاز جيّداً. وتعرف الروتين جيّداً. غرز الدكتور جونسون إبرة صغيرة ثانية في العرق. ثم فقدت الوعي، تقريباً. ثم أحسست بأعظم ألم عرفته في حياتي. ألم لا يطاق ولا يوصف. لا أزال أرتعد حتى هذه اللحظة وأنا أتذكّره. شعرت بنار تدخل من أذنيّ إلى رأسي ثم تتسلّل إلى قدميّ. شعرت بشيء يهزّني بعنف. شعرت بمنشار يقضم عظامي. شعرت بأسناني تصطك. ثم فقدت الوعي، تماماً. أفقت بعد ساعات في غرفتي وأنا في حالة يرثى لها من الإعياء والكآبة والصداع. كان الصداع قاتلاً، يا حكيم. مرت بي ممرضة فسألتها عما فعلوا بي ذلك الصباح. قالت وهي تبتسم «صدمة كهربائية! لا تخف. سوف تشعر بتحسّن كبير». نفس الكلام سمعته، فيما بعد، من الدكتور جونسون: «بعد ٥ صدمات ينتهي الكورس. وتشعر بالتحسن». قلت: «ماذا تقصد بالتحسّن؟». قال: «آه! سوف تشعر براحة. ستحسّ أنك إنسان جديد. ستختفي أعراض الغضب. ستزول حالة الثورة. سنواصل التحليل وأنت في استرخاء كامل». بهذه السهولة، يا سايكاترست، يتمّ افتراس مخّ الإنسان. بهذه البساطة، يا حفيد فرويد، تُدمر ٢٥,٠٠٠ رسالة تروح وتغدو بين ١٠,٠٠٠ مليون خلية. أستحلفك بالله! هل هذا يجوز؟

ـ تيك إتْ إيزي يا بروفسور! مش محرزة المسألة.

ـ مش محرزة؟! هل جربت الصدمة الكهربائية يا دكتور؟

ـ لا.

ـ إذن، لا تتكلّم عمّا تجهل. «لا يعرف الشوق إلا من يكابده». ولا الصدمة الكهربائية. في الأيام التي تلت العدوان الأغشم على مخي كنت في حالة كآبة لا تُصدّق. كآبة لو وُزِّعت على كل سعداء العالم لقتلتهم حزناً. وعندما انتهى الكورس كنت قد تحولت إلى شبه إنسان، ذكرى إنسان. زومبي. تعرف الزومبي؟ بالتأكيد! زومبي لم تستخرعه سحرة الڤودو ولكن استخرعته الصدمات الكهربائية. كنت أفكر قبل أن أنام في أفضل وسيلة للانتحار. صدّقني عندما أقول لك إنني كنت، فعلاً، أنوي الانتحار. غير أن الانتحار في المصحّات النفسية صعب جداً، كما يعرف حضرة جنابك. بل يكاد يكون مستحيلاً. لا توجد سموم ولا مسدسات ولا

سكاكين ولا حبال ولا كباريت. ذات ليلة، يا حكيم، وكانت أفكار الانتحار تراودني بضراوة، نمت مُجهداً وأفقت لأجد نفسي في عالم الجنّ.

ـ قصدك أنك حلمت أنك في عالم الجن؟

ـ لم أحلم، يا عمّي. كنت هناك فعلاً. لن أدخل معك في نقاش الآن. سوف تقتنع فيما بعد. صدّقني! وجدت نفسي في عالم الجنّ أمام شهاب بن شهاب بن شهاب خاقان الجن الخضيرية.

ـ شو ها الاسم؟

ـ هذا اسمه، يا طبيب، هذا اسمه. لم أسمّه أنا. ولم أكن أعرف أن في الجن قبيلية وخضيرية. وكل من الطرفين يحكمهم خاقان. كان الجن يرقصون حولي. الذكور يرقصون رقصاً شبيهاً بالدبكة، والإناث يرقصن رقصاً شبيهاً بالتوست.

ـ كيف أشكال الجن؟

ـ سؤال وجيه! لا تصدّق ما تقرأ في الكتب المنتشرة هذه الأيام. «مقابلة صحفية مع جنّي». «أسرار عالم الجنّ». كلام فاضي! محاولة لركوب الموجة. إذا أردت الحقيقة، أشكال الجن لا تختلف كثيراً عن أشكال الإنس. لا يوجد سوى خلاف بسيط في بعض التفاصيل.

ـ مثل شو؟

ـ لا تصدّق ما يردّده الناس من أن عيون الجنّ مشقوقة بالطول. وكذلك لا تصدّق ما يقال عن الجنيّات بالنسبة. . . حسناً! تعرف المقصود! لا يختلف وضع العيون ولا وضع الأشياء الأخرى عن وضعها في الإنس. تريد أن تعرف الفروق؟ حسناً! أولاً، جميع الرجال في عالم الجنّ صلع مرد لا ينبت شعر في رؤوسهم أو وجوههم. أما نساء الجن فشعورهن طويلة جداً، ويغطّي أجسامهن زغب خفيف. ثانياً، أحجام الجن، رجالاً ونساءً، تقلّ عن أحجام البشر طولاً وعرضاً، بما لا يقل عن الثلث. ثالثاً، أنوف الجنّ وآذانهم مقفلة تماماً، لا ثقوب فيها، وهذا ينطبق على النساء وعلى الرجال. ولكنهم يسمعون جيداً ويشمّون جيداً بواسطة الذبذبات. لم أر سوى الجنّ الخضيرية. قد تكون أشكال الجن القبيلية مختلفة. المهم، أنني وجدت نفسي في مضارب الجن الخضيرية بقرب شهاب بن شهاب بن شهاب الذي مال عليّ، وقال: «أهلاً وسهلاً! أهلاً وسهلاً! إعلم، يا پروفسور، أني أردت مصاهرة خاقان الجن القبيلية لتحقيق السلام الإجتماعي بين الجن. إقترحت عليه أن أزوّج ابنتي دفّاية ابنه كبريتان. إلا أنه رفض. قال إنه لا يزوج ابنه خضيرية.

عندها، يا بروفسور، غضبت غضباً شديداً وأقسمت أن أزوج ابنتي أول إنسي خضيري أعثر عليه.» قلت: «نِعمَ الانتقام يا خاقان». قال «هل أنت موافق؟». قلت: «هل لي خيار في المسألة؟». قال «نعم. نحن معشر الجن الخضيرية نؤمن بالديمقراطية». قلت: «وأين المحروسة؟» قال: «هناك. في منتصف حلقة الرقص». قلت: «تعني تلك المقرطقة القرثع الصهصلق المهزاق؟». قال: «وصفتها فأجدت الوصف. ماذا تقول؟». قلت: «حُبّاً وكرامة!». قال «إذن اتفقنا؟». قلتُ: «هناك مشكلة فنية». قال: «خير؟». قلت: «جنابكم خاقان الجن الخضيرية. وأمّا أنا فمجرّد إنسي خضيري عادي. أخشى ألا تكون هناك كفاءة في النسب». ضحك الخاقان حتى بدت له سن نارية كان يخفيها وقال: «عيّنتك، الآن، شيخ شمل بني خضير من الإنس. واللي في أمّه خير يعارض!». هنا، يا طبيب، استخفّني الطرب فوثبت واقفاً ومن شدة انفعالي نسيت ما كنت أنوي أن أقول، فأنشدت: «إذا غضبتْ عليك بنو خضيرٍ ∴ وماء البحر نملأه سفينا. ملأنا البرَّ حتّى ضاق عنا ∴ فلمّا كلَّ متني كلّمتني. إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ∴ أقلّي اللوم عاذل والعتابا». هنا قام جنّيّ متحذلق وصاح: «سيِّدي الخاقان! هذا الشعر خُربطْ بُرْبط» قلتُ: «سيّدي الخاقان! من هذا الملقوف؟» قال: «مراسل هيئة الإذاعة البريطانية، القسم العربي. ونحن نجامله حتى لا يشوّه سمعتنا في المحافل الدولية». التفت الخاقان إلى المراسل وقال له: «إذن، هات الشعر الصحيح». وقف المراسل وأنشد: «إذا ما غضبنا غضبةً لهبيَّةً ∴ فإن فساد الرأي أن تتردّدا. كأنَّ مثار النقع فوق رؤوسنا ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل». هنا لم أتمالك نفسي فصرخت «هذا، والله!، هو الخُربُطْ بربط». قال الخاقان لمدير بروباجندائه، وهو جنّيّ سمين «ذلق اللسان يقول ما لا يفعل» اسمه شعلة الذكاء المتّقدة: «ماذا ترى يا شعلة؟». قال: «أرى، سيدي الخاقان، أن تأمروا بإستدعاء شاعر الخيمة الخاقانية فيفصل في الموضوع». قالَ الخاقان: «هاتوه!». جاء شاعر الخيمة الخاقانية، وأوضح له شعلة الذكاء المتّقدة ما حدث ففكر طويلاً، ثم قال: «سيدي الخاقان! ما قاله الانسي خُربطْ بربط. وما قاله المراسل خُربطْ بربُطْ». قال الخاقان: «إذن، أعد الأموز إلى نصابها». قال شاعر الخيمة الخاقانية: «أمّا الإنسي فكان من الواجب أن يقول: «إذا غضبتْ عليك بنو خضيرٍ ∴ سلوا قلبي غداة سلا وتابا. ملأنا البرَّ حتى ضاق عنّا ∴ كعنفقة الفرزدق حين شابا. إذا بلغ الرضيعُ لنا فِطاماً ∴ لعلَّ على الجمال له عتابا». وهنا تعالت الصيحات من كل مكان: «صحَّ لسانك! صحَّ لسانك!». ومضى شاعر الخيمة الخاقانية قائلاً: «وأمّا المراسل فقد كان المفروض أن يقول: «إذا ما غضبنا غضبة مُضَريّة ∴ فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدم. كأن مثار

النقع فوق رؤوسنا .·. أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم؟» تعالت الصرخات: «أعد! أعد!». أراد شاعر الخيمة الخاقانية أن يعيد إلا أن الخاقان التفت إلى الحجّاب وقال: «أرجعوا الشاعر إلى قفصه». سار الحجّاب بالشاعر، والتفتّ أنا إلى الخاقان أسأله: «لماذا تضع الشاعر في القفص؟». قال: «أخاف يعوّر راسنا». قلت للخاقان: «ليس عندي مهر سوى هذه الساعة السويسرية ماركة موڤادو». قال الخاقان «مقبولة!». ثم قال: «هذه وليمة عرسك. ماذا تشتهي من الأطعمة؟» قلت: «تعجبني العكيسة. فإن لم تتيسّر فالولوقة. فإن تعذرتْ فالبج ماك». قال الخاقان: «هاتوا الجيف كوك». جاء الجيف كوك وقال له الخاقان: «أخرج العكيسة من الديپ فريز. وضعها في المايكروويف وأحضرها لصهري شيخ شمل بني خضير». قال الجيف كوك: «صار!». بعد العشاء حضر مطوّع الجن وعقد قراني على دقّاية. قال الخاقان: «خيمتك هناك. وستزفّ عروسك إليك بعد أن ينام الإنس فوقنا وتخفّ الجلبة. أمّا الآن فاذهب إلى عيادة الدكتور صخونة الذي سوف يزوّدك ببعض المعلومات الهامّة». قابلت الدكتور صخونة الذي رحّب بي وقال: «دعني، أولاً، أشرح كيف تم الاتصال بك. هناك خلية في مخّ كل إنسي رقمها ٦٦٦٦٦٦١. إذا تخدّرتْ بأيّ سبب من الأسباب أمكن الاتصال بين الإنس والجن. وقد أدّت الصدمات الكهربائية التي تعرضت لها إلى حدوث خدر في هذه الخليّة. ولدينا مراصد تراقب هذه الحالات. بمجرّد أن رصدت حالتك أبلغت الخاقان الذي أمر المباحث بإحضارك». قلت: «دكتور صخونة! أنا متخوّف قليلاً من مسألة الزواج هذه». ضحك الدكتور صخونة وقال: «مفهوم! مفهوم!. الاتصال الجنسي بين الإنس والجنّ له لذة عظيمة تفوق الوصف ولكنه لا يخلو من آثار جانبيّة». قلت: «آثار جانبية؟ هوّنا!». قال الدكتور صخونة: «إصبر! المسألة بسيطة. بالنسبة للإنسي تترك المعاشرة حروقاً مؤلمة في أماكن حسّاسة». قلت: «ولْ! هوّنا!». قال: إصبر! تأخذ هذا المرهم وتستعمله موضعياً فتزول الحروق في الحال». قلت: «هانت!» قال: «أمّا بالنسبة للجنيّة فإنها بعد المعاشرة تصاب بنوبات هيستيرية قويّة من الضحك الشديد». قلت: «ولْ! هوّنا!». قال: «إصبر! علاجها ميسور. تفرك أذنها اليمنى مرتين فيتوقف الضحك». قلت «هانت!». بعدها، يا طبيب، عدت إلى خيمة الزفاف، وبعد قليل جاءت دقّاية. كل ما أستطيع قوله هو أنها إسمٌ على مسمّى. تم كل شيء حسب تعليمات الدكتور صخونة. في الصباح، دعاني الخاقان إلى الإفطار وقال: «ماذا تشتهي يا صهري الحبيب؟» قلت: «البكيكة. فإن لم تتيسَّر فالبسيسة. فإن لم توجد فالشكشوكة» قال الخاقان: «هاتوا البكيكة». ثم ابتسم وقال: «كيف قضيت ليلتك؟». قلت: «أدام الله سيدي الخاقان. بأهنأ حال وأنعم

بال». قال: «وكيف وجدت عروسك؟» قلت: «خير عروس. تدفىء الضجيع وتروي الرضيع». قال: «إعلم، يا صهري العزيز، أن دفّاية تستعد لامتحانات الإعدادية. وأرى من المناسب أن تعود إلى عالم الإنس حتى تتفرّغ لمذاكرتها». قلت: «أمرك مطاع سيدي الخاقان. ومتى أرى دفّاية مرة أخرى؟». ضحك الخاقان، وقال: «أذكر قول شاعركم: «ربّما تجمعنا أقدارنا ∴ ذات يوم بعد أن عز اللقاء». ذات يوم!». أفقت وأنا في فراشي في المصحّة. بطبيعة الحال، لم أجد ساعتي. لأنني تركتها هناك.

ـ حلم ظريف يا پروفسور. ظريف جداً.

ـ سمِّه حلماً إذا شئت. كان حقيقة بالنسبة لي. وفي الليلة الثانية، حدث شيء لا يقل غرابة. غفوت وصحوت فوجدت نفسي في عالم الروح.

ـ عفواً؟!

ـ في عالم الروح، يا طبيب. وجدت نفسي أمام بوّابة كبرى، ووجدت أمام البوّابة رجُلاً في انتظاري. ما إن رآني حتى هتف: «أهلاً بالپروفسور!». قلت: «من الرجل؟». قال: «أنا الذي نظر...» قلت: «لا تكمل! لا تكمل! ماذا تفعل هنا؟». قال: «والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ ∴ والأسى لا يكون بعد الفراقِ». عندها، قرّرت أن أسميّه أبا حسيد. قلت: «إسمع يا أبا حسيد! أنا أحفظ شعرك بيتاً بيتاً فلا حاجة بي إلى أن أسمعه منك». قال: «وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي». قلت: «لله درك لولا تواضعك الشديد. ما الذي جاء بي إلى هنا؟». قال: «إعلم، يا پروفسور، أن في المخّ خليّة...» قاطعته: «لا تكمل! لا تكمل! هذه الخلية رقمها ٦٦٦٦٦٦١...». قال «وهمت! تلك خليّة الجنّ. أما خليّة الأرواح فرقمها ٦٦٦٦٦٦٢. وإذا تخدّرت لأي سبب من الأسباب أمكن لأرواح الموتى أن تتصل بروح الحيّ». قلت: «ومراصدكم رصدت أن هذا حدث في مخي على أثر الصدمات الكهربّائية». قال: «واعجباه! كيف عَرفت؟». قلت: «الألمعيّ الذي يظن...». قاطعني غاضباً: «لا تستشهد بشعر أحد غيري وإلاّ أطحت رأسك بهذا الريموت كونترول». قلت «تيك إتْ إيزي! وحدّثني عن قصّتك مع خولة». ضحك حتّى بدت له سنّ كافورية كان يخفيها، وقال: «خولة؟! سامح الله الأستاذ شاكر! ورّطنا في قضية خولة. حقيقة الأمر أني لم أكن أحبها. كانت تحبّني من طرف واحد. هل تريد، يا پروفسور، أن تعرف سرّاً خطيراً؟». قلت: «أي والله!» قال: «وتعاهدني على كتمانه؟» قلت: «لا والله! سوف أبثّه بثّاً يثب الجبال ويخوض البحار». قال: «جود! إعلم أن حبيبتي الحقيقية هي أم سيف الدولة».

قلت: «آر يوكدنج؟!» قال «هذه هي الحقيقة، يا پروفسور». قلت: «كيف تحبّ عجوزاً في سنّ أمّك؟». قال: «عقدة أوديب!». قلت: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!». قال: «إعترفتُ بهذا في قصيدتي عنها ولم يفطن أحد». قلت: «تعني إشارتك إلى الوجه المكفّن بالجمالِ؟». قال: «وغير هذا. نصيبك في حياتك من حبيبٍ. بعيشك هلِ سلوت فإنّ قلبي .·. وإن جانبت أرضك غير سال. حَصانٌ مثل ماء المزن. كتومُ السرّ. لاحظ كتوم السّر! عينٌ مقبّلة النواحي. ومع ذلك لم يفهم النقّاد. أنا أعتقد أن كلّ النقاد حمير». قلت: «سامحك الله يا أبا حسيد». قال: «خذ معك هذا التيلفزيون وعن طريقه نستطيع التواصل. متى شئت أنت أو شئت أنا». صحوت، يا طبيب، في فراشي في المصحّة. والتيلفزيون بجانبي.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ حسناً! سوف يأتيك البرهان. المهمّ أني بعد هاتين التجربتيْن أصبحت مُحمّلاً بالحياة بعد أن كنتُ متُخَماً بالَموت. تفتحتْ أمامي آفاق جديدة، وتحدّيات جديدة، وإمكانيات جديدة. كُلّ هذا كان مخزوناً في مُخي وحرّكته الصدمات الكهربائية. حرّكته عن طريق الخطأ. بعد قرن أو قرنين سوف نصل إلى فهم أفضل للمخ وطاقاته. وعندها قد نتمكّن من التخاطب مع الأرواح والجنّ بلا صعوبة. لا تقُل لي «ثبت علميّاً» أو لم «يثبت علميّاً». حتّى قرننا هذا كان من الثابت علميّاً أنه يستحيل على جسم أثقل من الهواء أن يطير. وقد صدق أبو حسيد حين قال: «كلُّ ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهلٌ فيها إذا هو كانا». وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أني رجعتُ إلى المصحّة منتعشاً بالأمل. وضعتُ خطة محكمة للخروج. كان من الضروري أن أقنع الدكتور جونسون أن أسئلته المتواصلة قد كشفت كل العقد والأسرار والمخاوف المدفونة في عقلي الباطن. بدأت أصوغ إجاباتي على النحو الذي يريده. وأخترع القصص والمغامرات ولا أبالي. أتيتُ بوقائع جنسية لم تقع. ورويت حكايات مفزعة عن كره أمّي وأبي لي. وتحدثت عن منافسة قاتلة بيني وبين أخواني وأخواتي. وأقنعته أني أتحسّن يوماً بعد يوم. في هذه الأثناء نشأت صداقة بيني وبين عدد من نزلاء المصحّة. كان صاحبي المفضّل هو جيم، الذي يسمّيه الجميع «مستر يونيڤرس» لأن الكون كان شغله الشاغل. هل تعرف حجم الكون يا نطاسي؟

ـ معلوماتي قليلة.

ـ معلوماتك أقل من قليلة. ومعلوماتي. ومعلومات كل إنسان. لا يعرف حجم الكون إلاّ الذي خلقه. وما نعرفه عن حجم الكون يؤدّي إلى الذهول. في

حالة جيم أدّى إلى الجنون. كان لا يتحدّث إلاّ عن هذا الموضوع. كان يقول لي: «تصوّر سرعة الضوء يا پروفسور! تصوّر شعاعاً منطلقاً من القمر بسرعة الضوء؛ سوف يصل إلى الأرض في أقل من ثانيتين. تصوّره قادماً من الشمس؛ سوف يصل في ٨،١٧ دقيقة. تصوّره قادماً من منتصف مجموعتنا الشمسية؛ سوف يصل في ٢٧٧٠٠ سنة. بسرعة الضوء يا پروفسور! تصوّره قادماً من مجموعة أندروميدا، وهي أبعد نقطة يمكن للعين رؤيتها؛ سوف يصل في ٢٣٠٩٠٠٠ سنة. تصوره قادماً من أبعد جرم فضائي معروف؛ سوف يصلنا في ١٣,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة. تصوّره»...

ـ عفواً يا پروفسور! هيدي معلومات مضبوطة؟!

ـ يبدو ذلك. كان صاحبنا يستشهد بكتب الفلك. ماذا عنك، يا حكيم؟ هل سبق أن فكّرت في حجم الكون؟

ـ بتريد إنجنّ مِثل صاحبك؟

ـ لا! أريد أن تخشع أمام عظمة الخالق. البديع الذي أبدعَ هذا الملكوت. حيث يسافر الضوء، الضوء يانطاسي!، بلايين السنين ويظلّ في ركن صغير من أركان الكون. تصوّر أن يأتي زعيم سياسي ويدّعي أنّه يتكلم باسم الله عزَّ وجل! أو أن تأتي جماعة سياسية وتدّعي أنها تمثّل الله على هذه الأرض! تصوّر الجرأة! كل هذا الجلال وكل هذا الجمال! يقشعرّ جسدي إذا فكرت في الكون فكيف إذا فكّرت في خالقه؟ لا نعرف حجم الكون، يا حكيم، ولا نعرف تاريخه. من العلماء من قال إن تاريخه في حدود ١٣ بليون سنة. ومنهم من قدّره بضعف ذلك العدد. تخمينات. الله وحده العالم. ومع هذا، يا حكيم، ما أكثر الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. يحكمون على كل إنسان. ويبتّون في كل قضية. ويفتون في كل معضلة. تصوّر غرور هذا المخلوق الذي يعيش في مجموعة شمسية يحتاج الضوء إلى أكثر من ٢٧٠٠٠ سنة لكي يصل إلى منتصفها، وهناك غيرها مليون مليون مجموعة شمسية أخرى، أقول تصوّر غرور هذا المخلوق الذي يعيش في هذا الكون الشاسع ويعتقد أنه يعرف كل شيء. سبّحْ لخالق هذا الملكوت، يا دكتور، واركعْ واسجدْ واخشعْ. «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون». وعظمة الكون لا شيء أمام عظمة الخالق. لو قدّر الناس الله عز وجل حق قدره ما جَرأ إنسان...

ـ عفواً يا پروفسور! هل من الممكن أن ترجع إلى «المستر يونيڤرس»؟

ـ بكل سرور. كان جيم يعمل بشركة طيران پان أميركان. كان مهندساً يتولّى

الإشراف على أجهزة الطائرة أثناء الرحلة. وذات ليلة صيف، كانت الطائرة فوق المحيط الباسيفيكي، وكانت السماء صافية، عندما رأى جيم جسماً مُشعّاً يبدو ويختفي. يقترب من الطائرة ثم يبتعد. إعتقدَ أنه رأى طبقاً طائراً قادماً من الفضاء الخارجي. بعدها، بدأ يهتمّ بالفضاء. بدأ يزور المراصد. بدأ يقرأ كتب الفلك. ثم استحوذ حجم الكون على تفكيره ولم يدع مجالاً لأي شيء آخر. كان يحدّق في السماء طيلة وقته. لو كان في كاليفورنيا صوفيون لقالوا إنه مجذوب أو درويش وربّما كانوا قدّسوه. ولكن كاليفورنيا كانت تخلو من الصوفيين. كانت تخلو في تلك الأيام على أيّ حال. إقترحتْ عليه زوجته المجيء إلى المصحّة، ووقّع بإرادته الحرّة موافقاً على البقاء. لم تكن تظهر عليه أي علامة من علامات الجنون. كان إنساناً طبيعياً مثلي. عفواً! أقصد مثلك. ولكنه كان يقضي كل لحظة من لحظات صحوه في أحاديث عن الكون، وكل لحظة من لحظات نومه مسافراً في أرجاء الكون. كان يرى نفسه في الحلم شُعاعاً طائراً من مجرّة إلى مجرّة. ثم تعرفتُ على القسّيس. الموضوع حسّاس بعض الشيء. كان قسيساً كاثوليكياً، والموارنة، في النهاية، كاثوليك. وأنا لا أودّ أن أقول شيئاً يسيء إليك.

- خذ راحتك.

- المواضيع الدينية تثير الجدل. ولولا أن الحكي جرَّ بعضه حتى وصلنا إلى القسّيس لما تطرقت إليها. إسمع وأنت ريلاكسد. ولا تأخذ أيّ شيء أقوله مأخذاً شخصياً. أنا أروي ما كان دون زيادة أو نقصان. دخل القسّيس المصحّة على إثر حادثة مأساوية. أحبَّ راهبة. «وكان ما كان ممّا لست أذكره». وحملت الراهبة وانتحرت. وانفجرت الفضيحة. وطُرد القسّيس من الكنيسة الكاثوليكية. وأصابه انهيار عصبي. ودخل المصحّة. هناك بعض الشبه بين دخوله ودخولي. أليس هذا ما يدور في ذهنك الآن؟

- نعم.

- هل تعتقد أن سوزي انتحرت؟

- لا.

- لماذا تستبعد الانتحار؟

- تقرير البوليس، وهو من ٥٠ صفحة تقريباً، لا يشير إلى هذا الاحتمال. حادث انقلاب بسبب السرعة. ذات إز أول!

- ولماذا كانت تسوق بسرعة؟ أليس هذا دليلاً على ما تسمّونه معشر الأطباء النفسيين الرغبة في الموت؟

ـ يبدو من شخصيتها، كما وصفتها أنت، أنها كانت أبعد ما تكون عن التفكير في الموت. كانت مليئة بالحياة.

ـ إذن، كيف تفسّر ما حدث؟

ـ أكسدنت!

ـ هل أخبرتُكَ أنها كانت حاملاً؟

ـ قلت لي إن والدها قال لك هذا. والتقرير يؤكّد صحّة كلامه.

ـ كيف يمكن التأكّد؟

ـ كان هناك تشريح.

ـ ربّما كان هناك خطأ.

ـ ممكن. أنلايكلي!

ـ إذن، فأنت تعتقد أني المسؤول عن حملها ثم عن موتها؟

ـ ما قلت هيك! متى قلت هيك؟!

ـ ماذا تعتقد؟

ـ بخصوص حملها، لا أدري. أنتَ أعرف منّي. بخصوص موتها، كانت المسألة أكسِدنت. ليش عم بتسأل كلّ هذه الأسئلة؟ هل تعاني من تأنيب الضمير؟

ـ تأنيب الضمير؟! لا! تأنيب الضمير؟! لا ثم لا! عمّاذا كُنّا نتحدّث؟

ـ عن القسيس.

ـ أحسنت! إثر أصابته بالانهيار العصبي ألحد القسّيس. أصيب بكل أنواع الهرطقة والتجديف. كان يقف خطيباً في المصحّة يومياً ويقول: «أنا الأب. وكانت هي العذراء. وكانت تحمل إبني الأوحد. الذي كنت أنوي إرساله ليخلّص البشرية من الذنوب. كنتُ أنوي افتداء البشر بإبني. أمسح الخطيئة الأصلية التي وُلِد الجميع وهم يحملونها، بإستثناء العذراء المطهّرة. ولكن الشيطان أفسد كل شيء. أغرى العذراء بالانتحار. ذهبتْ العذراء. وذهب الإبن. من يخلّص العالم الآن؟ من يفتدي البشر؟». كثيراً ما كان نزلاء المصحّة من المتديّنين يغضبون ويطلبون منه السكوت، وأحياناً يشتمونه، وقد يضربونه. إلاّ أنّ المعارضة لا تزيده إلا حماسة. كان يقف من جديد، ويصرخ: «الشيطان تقمّص البابا! هو الذي طردني من

الكنيسة. الشيطان هو البابا! عرفت الشيطان من الإشارات التي احتواها الكتاب المقدّس. وكنت أنوي أن أذهب إلى روما وأصارع الشيطان فوق الجبل. ولكنّهم وضعوني في هذا المكان. حبسوني هنا بأمر الشيطان». الحقيقة، يا حكيم، أنه دخل المصحّة بأمر من المحكمة، مثلي تماماً. كان يستريح، قليلاً، ثم يقف ويصيح: «أحذّركم من الشيطان. إنّه في كل مكان. يطلّ عليكم من كل نافذة. ويتربّص بكم خلف كل باب. إحملوا معكم صورتي لتحميكم من الشيطان. بمجرّد أن يظهر لكم الشيطان أبرزوا صورتي. صورة الأب». حالة محزنة جداً، يا دكتور. كان يقضي الساعات الطوال يتحدّث على هذا النحو. وحينما لا يجد جمهوراً، كان يخطب بمفرده في الحديقة. ذات يوم، وجدته تحت شجرة، صامتاً على خلاف العادة. اقتربت منه وقلت: «سيّدي! هل تسمح لي بالحديث معك؟». نظر إليّ بتمعّن، وقال: «هل أنت من أتباع شيطان روما؟». قلت: «لا. أنا مسلم». قال: «مسلم؟ لم أر مسلماً من قبل». قلت: «ها أنذا أمامك». قال: «هل يكره المسلمون شيطان روما؟». قلت: «لا نحبّه كثيراً». إبتسم ثم ضحك وقال: «حسناً! حسناً! لم يتسلّل الشيطان إليك. تسرّني معرفتك. يسرّني الحديث معك». قلت له: «سيّدي...». قاطعني: «سمّني يا أبي! ما اسمك يا بنيّ؟» قلت: «اسمي البروفسور، يا أبي. حدّثني عن العذراء». تنهّد القسيس وقال: «إذن، فأنت تصدّقني؟». قلتُ: «أصدّق أنها كانت عذراء. وأنها كانت حاملاً بابنك». قال: «وما أدراك؟». قلت: «إنَّ المصائب يجمعن المصابينا». نظر إليّ باهتمام متزايد وسأل: «كانت لك، بدورك، عذراء؟ وكانت حاملاً بابنك؟» أطرقتُ وقلتُ: «شيء من هذا القبيل». قال: «هل كنت تنوي إفتداء العالم بابنك؟» قلت: «بصراحة، يا أبي، لم أكن أعرف أنها حامل. لم نكن متزوجين، ولم نكن نفكّر في الإنجاب. تستطيع أن تعتبر ما حدث مُجرّد خطأ». صمت القسّيس وهزّ رأسه، وقال: «لا توجد أخطاء في الخليقة يا بُنيّ». قلت: «لا أتكلّم عن الخليقة. أتكلّم عن سوزي وعنّي» قال: «كانت سوزي، إذن، عذراء؟». قلت: «نعم يا أبي». قال: «يصعب العثور على عذراوات هذه الأيام. حتّى داخل الكنيسة». قلت: «لا أستطيع التعليق يا أبي». قال: «هل تهاجمك الأحلام المزعجة يا بُنيّ؟». قلت: «نعم. وأنت يا أبي؟» قال: «وأنا يا بُنيّ». قلتُ: «أنا أكذب على الدكتور جونسون يا أبي. أخترع له أحلاماً وهمية». ضحك القسيس وقال: «غفرتُ لك خطيئة الكذب يا بُنيّ. وأنا، أيضاً، أكذب على طبيبي، الدكتور هامر. إختاروا لي طبيباً كاثوليكياً. قلت له: «إسمع يا بُنيّ! أنا القسيس. أنا الذي أستمع إلى الاعترافات وأغفر للمذنبين. لن أعترف لك بشيء. أنت الذي يجب أن تعترف لي». «عمّاذا كُنّا

نتحدّث؟». قلت: «عن الأحلام يا أبي.» قال: «قصّ علي حلمك يا بُنيّ». قلت: «أحلم بالهولوكاست يا أبي». قال «الهولوكاست؟! هل مات أحد من المسلمين في الهولوكاست؟!». قلت: «لا. ولكن مات الكثير منهم في محاكم التفتيش». قال: «محاكم التفتيش؟ لا تزال قائمة حتَّى هذه اللحظة. هي التي فصلتني بأمر الشيطان. حدّثني عن حلمك يا بُنيّ». قلت: «أرى نفسي في صحراء شاسعة مترامية الأطراف كالصحراء التي قدمتُ منها. لقد ولُدِتُ حيث يلتقي الرمل بالماء يا أبي. يبدأ الحلم وأنا وحيد في الصحراء. بغتة، يبدو أمامي طفل صغير يحبو على الرمل. يحبو بسرعة كبيرة. يمرُّ عليّ وعندما يراني يبتسم، ويقول: «هاي داد!». ثم تظهر من خلفه سوزي. تحبو هي، أيضاً، بسرعة هائلة. أحبو وراءها وأنادي «سوپر!...». قاطعني القسيس وقال: «ماذا تقصد بسوپر؟». قلت: «كنت أسمّيها بهذا الاسم يا أبي. اسم الدلع. أنادي: «سوپر! إلى أين أنت ذاهبة؟» ترد عليّ «ذاهبة بإبنك إلى المحرقة». أقول لها: «أيّ محرقة يا سوپر؟». تقول: «تعال. وتفرّج». نحبو نحن الثلاثة بسرعة عظيمة. فجأة، تمتلىء الصحراء بهياكل عظمية. آلاف. ملايين. وعلى كل هيكل عظمي نجمة داود ماسية. فجأة، تشتعل النار في الهياكل العظمية. ويحترق الطفل. وتحترق سوزي. وأصحو من النوم وأنا أتصبّب عرَقاً وأبكي. يهاجمني هذا الحلم كل ليلة. كل ليلة يا أبي». بدتْ على وجه القسّيس علامات حزن حقيقي، وهزّ رأسه متعاطفاً، وقال: «حلم مزعج يا بُنيّ. حلم مزعج. يكاد يكون مثل حلمي». قلت: «حدّثني عن حلمك يا أبي». قال: «إسم العذراء ماري كما تعرف. تبدو لي ماري في الحلم وهي ترتدي ثياباً بيضاء يشعّ منها النور. وعلى رأسها هالة من الضياء. يحيط بها الملائكة. ويتصاعد الترتيل. تحمل بين يديها طفلاً نورانياً جميلاً. تقترب مني وأنا على المنبر في الكنيسة وتقول لي: «هذا هو ابنك المُقدّس أيها الاب!» هنا تزداد حدّة الترتيل. وينبعث غناء ملائكي. ويقوم جمهور المؤمنين ويقتربون من الطفل، ويقبّلون يديه ورجليه، ويضمّخونه بالعطور. أحمل الطفل وأقول للمؤمنين: «أنظروا! ها هو قد جاء! الفادي!». ويرتفع الغناء الملائكي. فجأة، أسمع صرخة. ألتفت فأجد العذراء وقد طعنت نفسها بالصليب الذي كانت تلبسه. أهرع إليها فأجدها في النزع الأخير. أباشر طقوس الوفاة، وهي تهمس: «اهتمّ بالإبن أيها الأب. أمّا أنا فقد متُ فداءك. مِتُّ لأغسل ذنوبك». ثم تغمض عينيها. أبحث عن الطفل فلا أجده. ألتفتُ إلى المصلّين وأسألهم: «أين ذهب إبني؟ إبني الأوحد الذي كان معي منذ الأزل؟ إبني الذي جاء ليفتديكم؟». لا يردّ عليّ أحد. أبدأ في البكاء: «إبني! إبني! إبني!». فجأة، يسقط شمعدان من سقف الكنيسة محدثاً ضجّة هائلة. من

حطام الشمعدان يخرج شيطان روما. يتجه نحوي وفي يده صليب هائل. يقترب مني ويُدخل طرف الصليب في قلبي. أحسّ بألم فظيع يا بُنيّ. أصحو وأنا أصرخ». كان هذا، يانطاسي، حُلمي وحلم القسيس. هل قرأت كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد؟

- معلوم!

- سؤال سخيف! لا يصبح الواحد منكم سايكاترست إلاّ بعد قراءة كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد. هل تذكر أطرف كابوس في كتابات فرويد؟

- لا.

- إذن دعني أروي لك أطرف كابوس مّر بي في كتب التراث.

يقوم البروفسور إلى الرفّ ويعود وفي يده كتاب ضخم يقلّب صفحاته ويقول:

- هذا كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي. يقول المؤلف في مقدمته، بدون تواضع كاذب كالمنتشر هذه الأيام، إن في الكتاب «ما تشنف بذكره الأسماع. وتقرّ برؤيته العيون. وينشرح بمطالعته قلب كلّ محزون». يروي صاحب «المستطرف» أنّ امرأة شكت زوْجَها إلى القاضي وطلبت الطلاق لأنه يبول في الفراش كل ليلة. قال الزوج للقاضي: «يا سيّدي! لا تعجل عليّ حتّى أقصّ عليك قصّتي. إنني أرى في منامي كأنّني في جزيرة في البحر، وفيها قصر عال، وفوق القصر قبّة عالية، وفوق القبّة جمل، وأنا على ظهر الجمل، وأن الجمل يطأطىء برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيتُ ذلك بلت من شدّة الخوف». لما سمع القاضي كلامه بال في ثيابه وقال للمرأة: «يا هذه! أنا قد أخذني البول من حديثه، فكيف بمن يرى الأمر عياناً؟».

- كابوس ظريف فعلاً. ألطف من كوابيسك. وكوابيس القسيس.

- ومليء بالرموز الفرويدية. كيف تفسّر هذا الحلم لو كان صاحبنا البوّال مريضاً يتعالج عندك؟

- كيف تفسّره أنت، يا بروفسور؟

- أنا؟! حسناً! دعني أفكر. الجزيرة إشارة إلى الوحدة والشعور بالعزلة. والقصر العالي يرمز إلى تطلعات غير واقعية. والقُبّة شيء مستدير مليء، وأنت تعرف معنى الأشياء المستديرة المليئة عند عمّك فرويد. والجمل إشارة واضحة إلى

الجنس. يكفي أن تتذكر كيف أصبحت كلمة الفحل دليلاً على القوة الجنسية. والجمل يُحاول ولا يقدر. هناك، بالتأكيد، مخاوف تمنع صاحبنا من ممارسة الجنس مع زوجته. لهذا السبب، ربّما، طلبت الطلاق!

ـ برافو پروفسور! هل يمكن أن نعود إلى المصحّة؟

ـ لم أنته من موضوع الأحلام. أنتم معشر الأطباء النفسيين تعتقدون أن فرويد أول من تنبّه إلى الرموز الجنسية التي تنطوي عليها الأحلام. أليس كذلك؟

ـ نعم.

يقوم البروفسور إلى الرفّ ويحضر كتاباً ثانياً، ويقول:

ـ هل سمعت عن كتاب «تفسير الأحلام الكبير» لابن سيرين؟

ـ لا.

ـ بطبيعة الحال! لأنه لم يكن مُقرّراً ضمن منهج البكالوريا هنا ولا ضمن منهج علم النفس في أمريكا. ماذا تقول لو أخبرتك أن ابن سيرين سبق فرويد إلى كشف الدلالات الجنسية للأحلام. سبقه بقرون طويلة؟

ـ شو ها الحكي؟!

ـ ها الحكي مضبوط! إسمع ما يقوله ابن سيرين عن الأرض في الحلم «وتدلّ على المرأة إذا كانت ممّا يدرك حدودها ويُرى أوّلها وآخرها، وتدلّ على الأمة والزوجة لأنها تُوطأ وتحرث وتبُذر وتُسقى فتحمل وتلد وتضع نباتها إلى حين تمامها». ويضيف أنه «إذا كان الذي رأى الحلم طالباً للنكاح كانت الأرض زوجة، والحفر افتضاضاً، والمعول الذكر والتراب... دم عذريتها». واسمع ما يقوله ابن سيرين عن الكوّة، وهي الفتحة الصغيرة: « ونظر إنسان من كوّة بيته يدل على مراقبة فرج زوجته أو دبرها». واسمع ما يقوله عن الأبواب: «وأبواب البيوت معناها يقع على النساء. فإن كانت جدداً فهن أبكار، وإن كانت خالية من الأغلاق فهن ثيّبات». واسمع ما يقول عن الحفرة: «ربّما دلّت على الأم الكافلة المربّية». وما يقوله عن البئر: «ربما دلّت على زوجته لأنه يدلي فيها دلوه وينزل فيها حبله في استخراج الماء، وتحمل الماء في بطنها». واسمع ما يقول عن الحمام: «يدلّ على المرأة لحلّ الإزار عنده... وهو كالفرج». واسمع ما يقوله عن المحبرة: «قال أكثر المعبّرين أن الدواة زوجة ومنكوح... والقلم ذكر». هذه مجرّد أمثلة. وأنتم تعتقدون أن فرويد هو أول عبقري فهم معنى البئر والحفرة.

ـ مش قليل يا بروفسور! مش قليل!

ـ صدقت! مش قليل! كثير جداً! سَبَق فرويد إلى الدلالة الجنسية للأحلام، وسبق ينج إلى الذاكرة الجماعية. ولكن من سمع عن ابن سيرين؟ من سمع عن كتابه؟ هل هناك طبيب نفسي عربي واحد قرأ الكتاب؟ أستحلفك بالله! ألا تعتقد أن الأحلام العربية ستجد تفسيراً أفضل لو أَخَذَتْ بعين الاعتبار بيئة الحالم وخلفيته الحضارية؟ أليس هذا أدق علمياً من أخذ رموز لا معنى لها عند العرب ومحاولة تفسير أحلامهم في ضوئها؟

ـ معك حق!

ـ طبعاً معي حق! عقدة خواجة حتَّى في الأحلام! لا يوجد بحث علمي واحد عن تفسير الأحلام عند ابن سيرين. صدّقني! قمت باستقصاء. فكّرتُ ذات يوم في كتابة رسالة عن الموضوع. كانت مجرد فكرة عابرة. عمّاذا كنا نتحدث؟

ـ عن أصدقائك في المصحّة.

ـ حدثتك عن «المستر يونيڤرس» والقسيس. بقيتِ المديرة. أغرب الشخصيات. كانت مديرة مدرسة ثانوية. ثم حوكمت بتهمة ممارسة الجنس مع ٤٠ تلميذاً، ٤٠ قاصراً. هل تعرف أنه من الناحية القانونية لا تستطيع المرأة أن تغتصب الرجل؟

ـ لم أكن أعرف.

ـ حسناً! ضع هذا في قائمة معلوماتك التي لا تضرّ وقد تنفع. إلاّ أن المسألة قد تتغيّر مستقبلاً. الآن، في الغرب على أية حال، يمكن أن تُحاكم المرأة بتهمة التحرش الجنسي بالرجل. من يدري، فقد يمكن غداً محاكمتها بتهمة الاغتصاب. المديرة لم تُتّهم باغتصاب الطلبة؛ اُتهمتْ بإفسادهم. الحق، يا حكيم، أنها كانت جميلة ومثيرة، رغم أنها تجاوزت الأربعين.

ـ شو صار في المحاكمة؟

ـ ما يحدث، عادة، في أمريكا إذا كان المحامي ذلق اللسان. أقنع المحلّفين أنها مضطربة نفسياً، وبدلاً من إرسالها إلى السجن، أُرسلتْ إلى المصحّة لتُعالج على نفقة الولاية.

ـ يقول الملف إنه صار بينك...

ـ صار، يا عمّي، صار! أكثر من ٣٠ مرّة إذا أردت الحساب. وكم كان

سرور الدكتور جونسون عظيماً عندما أخبره أحد جواسيسه أنه شاهدنا مُتلبّسين. أعني بلا ملابس! أعطته الواقعة ذخيرة لا تنتهي من الأسئلة. أعتقد أن الدكتور جونسون كان يشتهيها ولكنّ تقاليد المهنة تمنع مثل هذه العلاقة، كما يعرف حضرة جنابك. كان لعابه يسيل وهو يسأل عن التفاصيل. وقد أمطرته بالتفاصيل. الواقع أنها لم تكن مجنونة. كانت شبقة. لا تصبر عن الرجال. نيمفومانياك، كما تقولون معشر الأطباء النفسيين. ووجدت نفسها في مدرسة ثانوية. تصوّر دراكيولا مديراً عاماً لبنك الدم! أو تصوّر الذئب رئيساً لمجلس إدارة شركة الأغنام! إلا أن الأغنام لم تتذمّر. أخبرتني أنها، عبر السنين، نامت مع أكثر من ٨٠٠ طالب من طلبتها. غير أن البوليس لم يستطع إثبات التهمة إلا مع ٤٠ طالباً.

ـ ٨٠٠؟ وتقول إنها طبيعية؟!

ـ لم أقل إنها طبيعية. قلت إنها لم تكن مجنونة. وأضفتُ أنها شبقة. ماذا ستفعل أنت، يا طبيب، لو كنت، لا سمح الله، أنثى شبقة محاطة بأوسم المراهقين؟

ـ أشوف لي شي شغلة ثانية. بعيد عن القاصرين.

ـ قاصرون وبالغون! كانت تعتبر ما تقوم به جزءاً من العملية التربوية. العملية التربوية، يا نطاسي، معقّدة جداً. لا تقلّ في تعقيداتها عن عملية السلام. وتحتاج إلى إجراءات بناء الثقة. ومفاوضات مباشرة بين الطرفين. كانت تقول إنها مسؤولة عن تعليم طلبتها كل شيء من الجغرافيا إلى الجنس. قرّرت أن تتولى تدريس الجنس بنفسها. هل تعرف كيف تم اكتشاف أمرها؟

ـ كيف؟

ـ الغيرة! كانت مدرّسة الرياضيات معجبة بطالب في فصلها. كابتن فريق كرة القدم في المدرسة. وأنت تعرف، يا حكيم، أن كرة القدم الأمريكية لا تُلعب بالقدم. كما أنك تعرف أن هناك كارزما جنسية تحيط بكل من يلعبها. حسناً! كانت مدرّسة الرياضيات معجبة بالكابتن الذي كان معجباً بالمديرة التي كانت تعطيه دروساً خصوصية بعد انتهاء الدوام. «جُننّا بليلى وهي جُنّت بغيرنا» سبق أن شرحت لك أهميّة هذا البيت في شرح الظواهر النفسية. إكتشفتْ مدرِّسة الرياضيات العلاقة، وتقدمت بشكوى إلى البوليس، وانتهى الأمر بالمحاكمة ثم بالمصّحة. عندما تركت المصحّة كانت المديرة تعكف على كتابة كتاب عن مغامراتها. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. لا بُدّ أن الكتاب أصبح بِستْ سِلرْ.

ـ وكيف تركتَ المصحّة يا بروفسور؟

ـ سؤال ممتاز! عندما حان أوان العودة إلى المحكمة كنتُ قد أقنعت الدكتور جونسون أنَّ رحلاته في عقلي الباطن انتهت بشفائي التامّ. أصبحنا، شيئاً فشيئاً، صديقينْ. أصبحتْ أسئلته مصدر متعة بعد أن كانت مصدر إزعاج. وكان هو فخوراً بالكنز العربي الذي اكتشفه، الكنز الذي يؤكّد صحّة كلّ كلمة قالها فرويد. ذهبنا إلى القاضي نفسه. وبدأتُ أنا الكلام: «يا صاحب الشرف! أحبّ أن أعتذر عمّا بدر مني في المرة الماضية. كنتُ أعاني من كآبة نفسية حادّة». ابتسم القاضي بارتياح واضح وقال: «وهل تشعر بتحسّن الآن؟». قلت: «شكراً يا صاحب الشرف! لقد نجح الدكتور جونسون في كشف العُقد التي سبّبتْ لي الكآبة. تستطيع أن تقول إنّه أعطاني نظّارة مكنتني من رؤية نفسي والعالم من حولي». نظر القاضي إلى الدكتور جونسون وقال: «تستحق التهنئة، يا دكتور. حقّقتَ معجزة. كانت حالته في المرّة الماضية سيّئة. سيّئة جداً». إبتسم الدكتور جونسون في حياء مصطنع، وقال: «عمل معي بروح التعاون التام حتّى وصلنا إلى هذه النتيجة. أقترح الآن، يا صاحب الشرف، أن توافق على خروجه من المصحّة. ولقد اتّفقت معه على أن يزورني في عيادتي الخارجية مرّة في الأسبوع لمتابعة الحالة». قال القاضي: «أوافق بكل سرور». قبْل أن نخرج من الغرفة استدعاني القاضي إلى منصّته، وقال: «أيها الشّاب! كنتَ في المرّة الماضية تستشهد بشعر شاعر عربي قديم. ما اسمه؟». قلت: «المتنبّي». قال: «لماذا كنت تستشهد بشعره؟». قلت: «نحن العرب نستشهد بشعر المتنبّي بمناسبة وبلا مناسبة شأننا شأن الإنجليز مع شكسبير». قال القاضي: «هل قال شيئاً في القضاة؟». قلت: «قال: «يا أعدل الناس إلاّ في معاملتي ∴ فيك الخصام وأنتَ الخصم والحكم»». قال: «لا يجوز أن يكون الإنسان خصماً وقاضياً». قلت: «هذا، يا صاحب الشرف، ما قصده المتنبّي». قال: «وماذا كان يعمل؟» قلت: «كان شاعراً». قال: «أقصد ماذا كانت مهنته». قلت: «كان يريد أن يصبح حاكم ولاية». قال: «مثل حاكم كاليفورنيا مثلاً؟». قلت: «مثلاً!». قال: «وهل نجح في تحقيق هدفه؟». قلت: «لا». قال: «لماذا؟». قلت: «في تلك السنة اكتسح الحزب الديمقراطي الانتخابات». قال القاضي: «آيْ سي! آيْ سي! حسناً أيها الشابّ! حظاً سعيداً!». خرجت، يا طبيب، من المصحّة وواظبتُ على زيارة الدكتور جونسون. كان هناك علاج جماعي، جروپ ثيرپي. كنا ٩ في المجموعة، ٥ نساء و٤ رجال. لا تتصوّر كم كنت أستمتع بالنقاش. هل قرأت مجموعتي القصصية «خمّارة الفأر الأبيض»؟

ـ لا.

ـ ولا مجموعتي الأخرى، «كوابيس سان فرانسيسكو؟».

ـ لا.

ـ حسناً! كُلّ القصص في المجموعتين عن شخصيات التقيت بها في الجلسة الأسبوعية. كان معنا رجل يخاف ركوب الأسانسير، وكنا نخصّص الكثير من الوقت للعثور على سبب خوفه. وكانت معنا فتاة حسناء تقضي نصف وقتها في ابتلاع الشيكولاطاء والنصف الثاني في الاستفراغ. وكنا نسمّيها «الپرنسيس». وكان معنا رجل يخاف ركوب الطائرة. تقول لي «سو وت»؟! تقول لي «الكثيرون يخافون ركوب الطائرة»! صدقت! مطرب الملوك والأمراء كان يخاف ركوب الطائرة. ولعلَّ العدوى انتقلت إليه من معلّمه الپرنس الذي زعم أنه يركب الليث ولا يركبها ويرى «ليث الشرى أوفى ذِماماً». أنا أشكّ في قدرة الپرنس، أو أي شاعر آخر، على ركوب ليث الشرى، أو أيّ ليث آخر. المشكلة، يا حكيم، أن الذي كان يخاف ركوب الطائرة كان كابتن طائرة!

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ ولا حاجة ولا محتاجة! هناك دراسات تثبت أن رُبع الطيّارين في أمريكا يذهبون إلى كابينة القيادة وهم مخمورون لأنهم يخافون الطيران.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ وأزيدك من الشعر بيتاً! ورُبع الجرّاحين في أمريكا يدخلون غُرَف العمليات وهم تحت تأثير مُخدّر من نوعٍ أو آخر لأنّهم يخافون إجراء العمليات.

ـ من أين تأتي بهذه الإحصائيات، يا پروفسور؟!

ـ موجودة. إبحث عنها وستجدها. المهمّ أن هذا الطيّار كان يخاف الطيران. ولا أدري هل كان يفضّل ركوب ليث الشرى، لأني لم أسأله. وكانت معنا عجوز ترفض دخول الحمّام لأنّها تخاف أن يطعنها أحد على طريقة «سايكو». المهمّ، يا طويل البقا والسلامة، أنني بعد خروجي من المصحّة واصلتُ دراستي بستانفورد. قررت صرف النظر عن الماجستير والذهاب، مباشرة، إلى الدكتوراه. أنت تعرف أن هذا ممكن، وإن كان من الأسلم التقاط الماجستير في الطريق. كتبت رسالة الدكتوراه عن: «الصدمات الكهربائية والأصل العرقي: دراسة مقارنة». هل اطّلعت على الرسالة؟ لم تطّلع عليها؟ طُبعَتْ عدّة مرات. تعتبر مرجعاً في بابها أو، على الأقل، كانت مرجعاً ذات يوم. أجريتُ مقابلات مع ألف شخص تعرّضوا للصدمات الكهربائية. كانوا من ٥ فئات عِرقية: أمريكان بيض، وأمريكان سود،

وهنود حمر، وعرب، ومكسيكيين. وكان السؤال المطروح: هل يتغيّر تأثير الصدمات بتغيّر الأصل العرقي. وكانت النتائج مذهلة. تستطيع أن تقرأ الرسالة. ولكن لا بُدّ من تحذيرك. الدراسة مملّة جداً لأنها تحتوي على كافة الشروط المطلوبة في رسائل الدكتوراه كافّة: الإحصائيات، الإستبيانات، الرسوم البيانية، الملاحق، واللغة التي لا يفهمها أحد غير الطالب والأستاذ المشرف. كان الدكتور جونسون معجباً بالرسالة إعجاباً بالغاً. حقيقة الأمر أنني أهديتُها إليه. من الممكن أن تهدي رسائل الدكتوراه في أمريكا. في الرسالة كل شيء عن تأثير الصدمات الكهربائية، باستثناء إمكانية الاتصال بالجنّ والأرواح والكائنات الفضائية.

- الكائنات الفضائية؟!

- حدثت هذه التجربة في آخر ليلة قضيتها بالمصحّة. سوف أحدثك عن ذلك بعد لحظة. كانت فترة إقامتي بالمصحّةِ أهمّ فترة في حياتي. عكست الكثير من القيم، وقلبتِ العديد من المفاهيم.

- صرت تكره أمريكا والغرب والخواجات؟!

- هذا تسطيح. تعرف معنى تسطيح؟ لا تعرف؟ توقّعت ذلك! هذا من التعبيرات المستخرعة مؤخراً مثل تأطير وأدلجة ومأسسة ودمقرطة. تسطيح تعني معالجة الأمر بسطحية. أعتقد أن هذا معناها. لا! لم أبدأ في كره الغرب. بدأت أتعرّف على جوانب من الحضارة الغربية لم ألاحظها من قبل. خذ، مثلاً، الحقوق والضمانات التي يتمتع بها المواطن الأمريكي. بدأت أعيد النظر فيها منذ أمرت المحكمة بحبسي في المصحّة.

- يا پروفسور! أنت أجبرتَ القاضي. لم تدع له أيّ خيار.

- غير صحيح! زُجَّ بي في المصحة ظلماً وعدواناً. وتعرّضت لاعتداء نفسي خطير على عقلي الباطن. ثم جاء الاعتداء الكهربائي على خلايا مخي. الاغتصاب المخي.

- تيك إتْ إيزي، يا پروفسور!

- ثم حكاية الجنس! فرويد على العين والراس! ولكن ٨٠٠ طالب، يا حكيم. المسألة زادتْ حبتينْ!

- يا پروفسور! لا تصدّق كل شيء! كانت المرأة تبالغ. هذه ظاهرة نفسية معروفة.

ـ ربّما! ولكنني مقتنع أن المديرة لم تكن تكذب. قضتْ ٢٠ سنة في التدريس وكانت كل سنة تفسد، أعني تدرّب، ما لا يقل عن ٤٠ طالباً. لا تحتاج المسألة إلى كالكيليتور! هذه حضارة متفسّخة تماماً، يا طبيب. متفسّخة جنسياً. ألا ترى ذلك؟

ـ بس أنتَ نمتْ معها، يا پروفسور!

ـ تلك قضيّة أخرى، مختلفة تماماً. كنتُ في حالة نفسية غير مُستقرّة. وَخُذْ موضوع الخوف. هذه حضارة خائفة جداً.

ـ شو قصدك؟

ـ في المصحّة لاحظت أن كل الناس خائفون. «المستر يونيڤرس» خائف من حجم الكون الهائل. القسيس خائف من شيطان روما. أعني من الشيطان. المديرة خائفة من أن تفقد اهتمام الذكور بها. الدكتور جونسون خائف من بقاء سرٍّ واحد بعيداً عن متناول يده. القاضي خائف من عربي ينشد شعر المتنبي في الكاونتي هاوس. الجميع خائفون. وكنت أنا أخوف الجميع.

ـ إذن، ألا ترى أن الخوف هو الذي دفعك إلى تصوّر أشياء وقعت في عالم الجنّ وفي عالم الروح؟ الخوف يحدث أشياء غريبة، يا پروفسور. أشياء مذهلة. خصوصاً عندما يكون الخوف غير طبيعي. عندما نجهل أننا خائفون. عندما يصبح الواقع مخيفاً يبحث الإنسان عن السلام في واقع يختلف تماماً عن الواقع الذي يعيشه. هل لاحظت ما حدث لك في عالم الجن؟ حُلّت مشكلتك الجنسية ومشكلتك القبلية. . .

ـ عفواً يا دكتور! لم تكن عندي مشكلة جنسية ولا مشكلة قبلية.

ـ حسناً! حسناً! حُلّتْ كل مشاكلك. كُنتَ مليئاً بالمشاكل ورجعت بلا مشاكل. أليس الخوف من المشاكل هو الذي يدفع الناس إلى أحضان المشعوذين منذ الأزل وإلى الأبد؟ البحث عن الوهم المريح في عالم من الواقع المزعج.

ـ براڤو، دكتور ثابت، براڤو! صدّقني أنني بدأت أفقد الثقة في قدرتك على الكلام. فسّرتَ حكاية الجنّ، فكيف تفسّر حكاية الأرواح؟

ـ واضحة. لا تحتاج إلى تفسير. الوحدة. بعد غياب سوزي أصابتك وحشة قاتلة. لم يكن حولك أحد. كنتَ محاطاً بالأعداء من كل جانب. الدكتور جونسون، الممرّضون، البوليس، والقاضي. وكنتَ في حاجة إلى أصدقاء. وجاء المتنبّي. الشخص الذي تعرفه لأنك تحفظ شعره بيتاً بيتاً. لماذا لم يستقبلك إنسان غيره في عالم الروح؟

ـ حسناً! حسناً! حسناً! «خذ ما تراه ودعْ شيئاً سمعت به»، كما قال أبو حسيد. سوف أجعلك الآن ترى المتنبي بنفسك.

ـ حاجة يا پروفسور!

يقوم الپروفسور ويذهب إلى جهاز تيلفزيون متوسّط الحجم ويضغط على زرّ. بعد ثوان تظهر على الشاشة صورة رجل غاضب ينظر إلى الپروفسور، ويقول: «ألم أقل لك، مراراً وتكراراً، ألاّ تطلبني إلاّ عندما تكون بمفردك؟». يبتسم الپروفسور ويقول: «يا أبا حسيد! ليس هنا أحد غير طبيبي الدكتور سمير ثابت». يردّ الوجه الغاضب من الشاشة: «أنا أكره الأطباء منذ قال لي الطبيب: « . . . أكلت شيئاً .ֹ. وداؤك في شرابك والطعامِ». أنا ذاهب الآن». ثم يختفي الوجه. وتظلم الشاشة. يلتفت الپروفسور إلى الدكتور سمير ثابت ويقول:

ـ حسناً! هل صدّقت الآن؟! هل اقتنعت؟ رأيتَ المتنبي بعينك. وسمعته بأذنك.

يستغرق الدكتور سمير ثابت في ضحك طويل، ثم يقول:

ـ المتنبّي؟! هيدا محمود المليجي!

يضحك الپروفسور بدوره، ويقول:

ـ شبه فظيع! وهذا كثيراً ما يزعج أبا حسيد. يأتيه بعض المعجبين في عالم الروح يطلبون توقيعه ثم يغضبون عندما يكتشفون أنه ليس المليجي.

ـ حاجة يا پروفسور!

ـ رأيت المتنبي بعينك، يا دكتور!

ـ ڤيديو محضّر وجاهز!

ـ ڤيديو؟ أين الڤيديو؟ هذا جهاز تيلفزيون عادي. إفحصه بنفسك. وغير موصّل بالكهرباء!

ـ يشتغل بالبطارية.

ـ لا توجد بطاريّة، يا حكيم. هذا تيلفزيون الأرواح الذي أخذته من المتنبّي في المصحّة. والمتنبّي هو الذي كان معنا الآن.

ـ حاجة يا پروفسور! الأجهزة الآن تعمل كل شيء!

ـ ماذا أقول؟ رأيتَ بعينك ولا تزال غير مقتنع. «وليس يصحّ في الأذهانِ شيءٌ .ֹ. إذا احتاج النهار إلى دليل». لا تريد أن تصدق؟! أنت حرّ! هذه مشكلتك أنت. كل ما قلته صحيح ١٠٠٪. والأغرب منه ما حدث ليلة مغادرتي المصحّة.

ـ ماذا حدث؟

ـ أفقت فوجدتُ نفسي في سفينة فضائية صغيرة. ممتلئة بالآلات الغريبة. لم أرها من الخارج، رأيتها من الداخل. كان حولي ٦ كائنات فضائية. أوضحت لي الكائنات أنه عندما تتخدر الخلية رقم ٦٦٦٦٦٦٣ في المخ يمكن للكائنات الفضائية أن تتّصل بالبشر. لم يكن هناك كلام. كان كل حوارنا بالتليپاثي.

ـ وكيف أشكال الكائنات؟

ـ كان هناك ٥ ذكور على هيئة جرادات، وأنثى على هيئة فراشة. هذه ليست الأشكال الحقيقية. لا توجد أشكال حقيقية لأن الكائنات عبارة عن ذبذبات. الكائنات من كثافة تختلف عن كثافة البشر. ما رأيته عبارة عن صورة ذهنية. أخبرتني الكائنات أنها من كوكب بعيد جداً في الفضاء الخارجي. من هذه الكواكب التي جنّنت صاحبنا «المستر يونيڤرس». وقالت إن سكّان الكوكب يراقبون ما يدور في الأرض. وإن لديهم محطات إرسال بشرية تبثّ المعلومات اليهم. وإنهم قرروا جعلي واحداً من هذه المحطات على أثر ما ألّم بمخّي بعد الصدمات. فتحتْ الكائنات الفضائية، ليلتها، رأسي وزرعت في مخّي جهاز إرسالٍ يبث مباشرة إلى الفضاء الخارجي. هل تذكر ما حدث عندما انفجر مخّي ٦٠ حتّه؟. قلت لي إنه لا توجد عملية زرع مخّ. الآن أستطيع أن أخبرك أنه توجد عملية كهذه. جاءت الكائنات الفضائية وأجرت عملية زرع المخّ. جلبت المخّ معها من الفضاء الخارجي. وسبّب المخّ المزروع لي بعض المشاكل التي سأحدّثك عنها فيما بعد.

ـ لا أصدّق كلمة واحدة!

ـ أنت حر!

ـ وشو عملت بعد ما خدت الدكتوراه من ستانفورد؟

ـ سؤال ممتاز! بدأت المرحلة الأكاديمية في حياتي الحافلة. إلتحقتُ بالبنك الدولي الذي أرسلني، ضمن مخططه لإنقاذ العالم العاشر من التخلّف والشوفينية، إلى جامعة طومبكطاء. كنت مجرد أستاذ مساعد. يساعد أستاذ الكرسيّ. يحمله إلى الكرسيّ ويضعه فيه. وينظّف الكرسي قبل جلوسه. وكان أستاذ الكرسي عجوزاً خَرِفاً أمّياً ولكنه عُيِّن لاعتبارات قبلية. لا تستهن بالاعتبارات القبلية، يا دكتور. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن جامعة طومبكطاء كانت جامعة ناشئة تعاني نقصاً شديداً في أعضاء هيئة التدريس. وكُلّفت بتدريس مختلف المواد. كنت أدرّس الشعر العربي والموسيقاء والفسيولوجياء والجيولوجياء والتدبير المنزلي وتاريخ القبائل

العدنانية والقحطانية ومواداً أخرى كثيرة. كنت أدرّس كل شيء. هل تريد أن تسمع ما كنت أقوله في محاضرة الشعر العربي؟

ـ هات لنشوف!

ـ حسناً! كانت المحاضرة تجري على هذا النحو. إعلموا أن الشعر ديوان العرب. واعلموا، قبل ذلك، أن العرب ٤ أنواع: العرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب المستخضرة، والعرب المستنصرة. أما العرب العاربة فهم الذين كانوا يسكنون داخل الدروازة قبل سنة ١٥١٥م. وأمّا العرب المستعربة فهم المتجنسون الذين حصلوا على العروبة بموجب المادة صفر من الدستور الدائم المؤقّت. أما العرب المستخضرة فهم الخضيرية الذين أصبحتْ شيخ شملهم في ظروف لا أستطيع أن أرويها لكم. أما العرب المستنصرة فأنتم يا الربع في ذا، يا من أصبحتم عرباً ببركة صديقي جمال عبد الناصر. واعلموا أن الشعر ديوان العرب العاربة. أمّا العرب المستعربة فلا ديوان لهم غير ديوان الموظّفين. أمّا العرب المستخضرة فديوانهم المخضّرات، وهي قصائد خضراء يعلّقها الخضيرية في سوق الخضرة. أمّا أنتم يا معشر العرب المستنصرة فديوانكم ملفّات الجامعة العربيّة. واعلموا أنّ في اشتقاق كلمة شعر عدّة نظريات. أهمّها النظرية التي تذهب إلى أن الشعر مستمدّ من الشعير. والشعير محصول ترعاه الحيوانات في العالم الأوّل ويرعاه الشعراء في العالم العاشر. وقد استند أصحاب هذه النظرية إلى عدّة مؤشرات. منها قول امرىء القيس: «تطاول الليل علينا دمّون ∴ دمّونْ! إنا معشر شعيرونْ». ولا تسألوني عن دمّون فهذا نون أوف يور بزنس. ومنها أن الشعر يجوّده الشعير. وقد رُوي عن الأصمعي أنه قال: «رأيت في حيّ من أحياء العرب فتى يقرض الشعر، فأنشدني، فوجدت في شعره ركاكة ولكاعة، فنصحته بترك الشعر، ثم لقيته بعد حول، فأنشدني، فوجدتُ في شعره جزالة وطلاوة، وصفاء ديباجة، وحسن تخلص، ومسك ختام، فسألته: «ما عدا ما بدا؟». قال: «قدمت على الخليفة فمدحته بأبيات أعجبته فوكّل بي قيّم الإسطبل يعلفني الشعير مع الخيول كل صباح، وما زال ذلك ديدني، حتى أصبح شعري كما سمعت». فما زلت بعدها أوصي كل شاعر بالشعير». إلاّ أن نظرية الشعير لم تعدم من يعارضها، ومن أشهر هؤلاء صديقي الدكتور طه حسين الذي قال في كتابه الموسوم: «في الشعير الجاهلي» ما نصّه: «وإنك لتعجب أيّما عجب، وتستغرب ما طاب لك أن تستغرب، وتأخذ عليك الحيرة أقطار نفسك، وتتملك جوارحك تملّكاً، وأنت ترى الأستاذ بلانشير يذهب مذهب القائلين إنّ الشعر مُستمدّ من الشعير. وأنت، بعد، تعرف أن

صاحبك يميل إلى مذاهب الأساتذة الفرنسيين، في رفق حيناً وفي عنف أحياناً، راضياً عن منهجهم مطمئناً إلى عدالتهم، وهو قليل الرضا نادر الاطمئنان. إلاّ أن الأستاذ بلانشير أسرف على نفسه وعلى رهطه وعلى مريديه، وهو يركب هذا المركب الصعب ركوباً، ويقتحمه اقتحاماً، على غير أناة وبشيء غير قليل من النزق. وإنّ صاحبك على ما يعتلج في فؤاده ويختلج من حب لصحيفة «الطّان» وكل ما يطنّ فيها ومن يطّن فيها، من بلانشير ورصفائه، ليغالب هوى نفسه مغالبة، ويدفعها إلى الحق دفعاً شديداً، حتّى لتعجب من حب نفسه معاداة الحق، يصطنع ذلك كله اصطناعاً، فينتهي إلى أن رأي الأستاذ بلانشير هراءٌ أو قريبٌ من الهراء، أو مختلطٌ بالهراء اختلاطاً، أو ملتصقٌ به التصاقاً. ولك، بعد، أن تعتبر ما ذهب إليه صاحبك شططاً من الرأي، ولك أن تعدّه رأياً من الشطط. ولكن صاحبك عوّدك ألا يأبه بك أو برأيك، أو برأي أبيك وأمك إن كان لمثلهما، وقد أنجباك، رأي. كيف تكون تسمية الشعر مستمدة من الشعير والعصر الجاهلي لم يعرف الشعير كما بيَّن الأستاذ مرجليوث؟ أتتوقع من عاقلٍ أن يؤمن بشعير جاهلي لم يره ولم يلمسه ولم يأكله ولم يهضمه؟ لامرىء القيس أن يتغزل في الشعير، وللمعلّقات المزعومة أن تثني على الشعير وآكليه وشاربيه، ويبقى مذهبي أن كل ما وصل إلينا من شعير منسوب إلى الجاهلية إنما هو نخالة انتخلها الرواة في العصرين الأموي والعباسي».

الدكتور طه حسين يشكّ في كل شيء، ولنا أن نشك في أنه قال ما قال حتى ولو وجدناه في كتبه. ومن الباحثين من رأى أن كلمة الشعر مستمدة من الشعور، بدليل أنه ثبتْ علمياً، أن بعض الشعراء لا يخلون من بعض المشاعر الإنسانية. وقد رفض صديقي سي عباس محمود العقاد، الشهير بالأستاذ، هذا الرأي رفضاً حاسماً إذ قال في كتابه الموسوم «ساعة في صالوني» ما نصه: «ليس للشعراء مشاعر. حاشاي وابن الرومي». ومن النقّاد من رأى أن الشعر مستمدّ من الشَعْر. بدليل تغزّل الشعراء بشَعْرهم. ولقد نذكر هنا وفرة المتنبّي الشهيرة. وشعر نزار قباني الأشقر. وهذه مبالغة، فشعره عسلي باهت. أما الشعراء الذين لا يتحدثون عن شَعرهم فهم من الصُلْع. ويكفي أن نتذكّر في هذا المجال صورة البرنس الشهيرة التي تلمع فيها صلعته «كعذارى أخفين في اليمّ بضّاً .·. سابحاتٍ به، وأبدين بضّا». أمّا أنا فأذهب مذهب القائلين إن الشعر مستمد من الشعيرية. والشعيرية هي المعكرونة التي اتبعت ريجيماً قاسياً فتحولت إلى عيدان كعيدان السقاء. وهذا لقب والد المتنبي ودليل على صحة النظرية. وإن كان البعض صحّف اللقب فتوهم أن والد المتنبي كان رئيس مجلس إدارة شركة مياه الكوفة. وأتحدّى من يثبت لي أنه رأى شاعراً لا يحب الشعيرية ولا يسرف في التهامها. هذا والشعراء، فاعلمنّ،

أربعة. فشاعرٌ يتقن فن البمبعة...

- عفواً، يا بروفسور! شو يعني البمبعة؟

- البمبعة، يا دكتور، هي أن يقول الشاعر: «إمباع!» «إمباع»! وشاعر يجيد علم المرقعة...

- وشو يعني المرقعة؟

- المرقعة هي الصفاقة. تستطيع أن تقول إنها قريبة من الغلاظة. «وشاعر أشعر منه الضفدعة ∴ وشاعرٌ من حقه أن تفلعه...»

- شو يعني تفلعه؟

- تفلعه تعني أن ترميه بحجر في رأسه حتى يدمى. تبطحه. هل تريد أن تسمع نموذجاً من محاضراتي الأخرى؟

- لا يا بروفسور. دخيلك!

- حسناً! هل تريد أن تعرف كيف أصبحت فُل بروفسور؟

- أوكي!

- مرّت الأيام والشهور وعندما انقضت سنة كاملة على تعييني بالجامعة تقدّمت إلى المجلس العلمي مطالباً بترقيتي إلى أستاذ مشارك.

- سنة؟ العادة ٥ سنين!

- جامعة طومبكطاء، يا حكيم، كانت ناشئة ومستعجلة بعض الشيء، ولا تنس ظاهرة الطفل المعجزة. تحدث في أفضل الجامعات. تقدمتُ، إذن، إلى المجلس العلمي المشهور بحياده العلمي ودقّته العلمية وموضوعيته العلمية. إستدعى المجلس العلمي لجنة علمية خارجية مكوّنة من أستاذ كرسي من جامعة هاڤانا للتضامن بين الشعوب اللاتينو آسيو إفريقية ومناوئة الاستكبار العالمي...

- العمى! كل هيدا إسم جامعة؟

- نعم! لم أسمّها أنا. سمّاها الرفيق فيديل وهو لا يحب الاختصار. وأستاذ كرسي من جامعة الرفيق الدكتور لومومباء للمحبّة والمودّة والصداقة بين الشعوب عاشقة السلام. وأستاذ كرسي من جامعة ديكسي المتخصّصة في منح درجات الدكتوراه للنوابغ العرب عن طريق الاستشعار عن بعد بأشعة الليزر. حضرت هذه اللجنة العلمية الدولية وفحصت إنتاجي العلمي بالميكروسكوب والكات/ سكان.

تقدّمت بخمسة كتب ضخمة. «الخبز والقِذر؛ الباقلاء في الشعر العربي: مخطط بنيوي».

ـ عفواً! شو يعني الباقلاء؟

ـ الباقلاء هي الفول. كما في قولك أكلتُ فُولاً مُدمّساً. و«المعدة والقلم؛ الباقلاء في الشعر العربي: مقاربة رومانسية»، و«الورقة والملعقة؛ الباقلاء في الشعر العربي: استكناه واقعي». و«المثقّف والخبّاز؛ الباقلاء في الشعر العربي: تحليل بسيكولوجي». و«الجوع والإبداع؛ الباقلاء في الشعر العربي: دراسة ميدانية». حصلت على درجة أستاذ مشارك مع مرتبة الشرف الأولى. وأصرَّ أستاذ جامعة ديكسي على منحي درجة دكتوراه عن طريق الاستشعار عن بعد بأشعة الليزر فقبلتها بسرور وترحيب. بعد أن أصبحت أستاذاً مشاركاً تحسّنت الأمور بعض الشيء. أصبحت أشارك الأستاذ الماصة...

ـ عفواً! شو يعني الماصة؟

ـ الماصة، يا حكيم، هي طاولة المكتب. ولا أدري، والله!، كيف اشتقت. رُبّما من الامتصاص. ذلك أن الموظفين الذين يجلسون وراء الماصات كثيراً ما يمتصّون من جيوب مراجعيهم. لا أدري، والسلام. وأصبحت أشارك الأستاذ الراتب والقهوجي. كل شيء ما عدا زوجته الدردبيس التي أوضح قرار المجلس العلمي أن مبدأ المشاركة لا يشملها. ومرت الأيام والشهور. وانقضت سنة كاملة أخرى. وتقدّمت إلى المجلس العلمي مطالباً بترقيتي إلى أستاذ كامل متكامل مكُمّل أكمل. قُلْ پروفسور! لا تقاطعني الآن! قلت لك إن الجامعة كانت ناشئة، وكان الناس في عجلة من أمرهم. إستدعى المجلس العلمي لجنة علمية خارجية مكوّنة من أستاذ كرسي من جامعة مقاديشو للبحوث البستمولوجية. وأستاذ كرسي من جامعة الرئيس الفيلد مارشال الدكتور موبوتو سي سي كوكو ومعنى الإسم الديك الذي يقهر كل الدجاجات ـ ولا تسألني لماذا اختار الإسم فلعل الفيلد مارشال يحب أكل الدجاج ـ للعلوم الكوزمولوجية. وأستاذ كرسي من جامعة پاناماء للدراسات الموزيولوجية. إجتمعت اللجنة لفحص إنتاجي بالأشعة فوق البنفسجية. كنت قد تقدمت بخمسة كتب ضخمة. الكتاب الأول اسمه: «أبعاد الآماد؛ الباقلاء والأدب: دراسة بستمولوجية سوسيولوجية بيولوجية فسيولوجية مترولوجية جيولوجية كزمولوجية ميثولوجية..».

ـ حاجة يا پروفسور!

- براڤو، دكتور ثابت، براڤو! هذا، بالضبط، ما قالته اللجنة بمجرّد إطلاعها على الكتاب. اكتفت به. قالت: «قم! فأنت فلُ پروفسور!». وهكذا، يا حكيم، أصبحت پروفسوراً حقيقياً. على أثر ذلك مات أستاذ الكرسي من الغيرة والحسد. وأصبحت أنا أستاذ الكرسي. وقرّرت ألا أفارق الكرسي ما حييت. وأوصي بدفنه معي بعد موتي. أصبتُ بعقدة الكرسي. وعقدة الكرسي، يا نطاسي، عقدة خطيرة لا تقلّ في خطورتها عن عقدة الخواجة. أصبحت أصطحب الكرسي معي حيثما ذهبت. هذا الكرسي الذي أجلس عليه الآن هو نفس الكرسي الذي أنا أستاذه.

- شوها الحكي؟

- قدمتُ طقم كنبة هدية لكل عضو من أعضاء المجلس العلمي. وعقد المجلس دورة استثنائية وقرّر أن يسنّ تقليداً جديداً بمقتضاه يحقّ لأستاذ الكرسي أن يأخذ كرسيه معه. على فكرة، ألم تلاحظ أن هناك أشخاصاً في عواصم العالم العاشر يمشون بكراسي فوق ظهورهم؟

- لاحظت.

- ألم تسأل نفسك عن السبب؟

- لا.

- إذن، دعني أخبرك. هؤلاء أساتذة كراسي يضطرون إلى حمل كراسيهم معهم حتى لا يجلس عليها الأساتذة المساعدون والمشاركون. وهذا، يا طبيب، تخلّف تكنولوجي. في جامعات الغرب، حلّوا المشكلة حلاً إلكترونياً. إذا جلس على الكرسي إنسان غير أستاذ الكرسي أصيب فوراً بلسعة مؤلمة في مؤخرته. نحن متخلفون في كل شيء، حتّى في الكراسي. في هذه الفترة، حصلت على الدكتوراه في الفقه.

- أنت؟ من وين؟

- أنا! من جامعة طومبكطاء!

- دكتوراه في الفقه من طومبكطاء؟!

- نعم، يا حكيم، نعم! كانت جامعة ناشئة وشديدة الطموح. تمنح الدكتوراه في كل المجالات. كان هناك قسم للفقه وكنت، بالمناسبة، أنا رئيس القسم.

- منحت حالك الدكتوراه؟

ـ لا! كنت أرتدي قبعتين منفصلتين: قبعة رئيس قسم الفقه، وقبعة طالب الدكتوراه. صدقني أنها كانت دكتوراه نزيهة جداً.

ـ وشو موضوعها؟

ـ موضوعها «اجتهادات الإمام ابن حزم الأندلسي».

ـ وكيف شفت الحياة الأكاديمية، يا پروفسور؟

ـ أوه! أعجبتني إلى حدّ القتل. أيْ أعجبتني قتلاً. أو قتلتني إعجاباً. حياة ظريفة. وأظرف ما فيها المجالس. مجلس المادّة. مجلس المنهج. مجلس الفرع. مجلس القسم. مجلس الكلية. مجلس الجامعة المتوسط. مجلس الجامعة العالي. مجلس الجامعة الأعلى. مجلس الجامعات. وهذا كله غير المجلس العلمي والمجلس الثقافي ومجلس الترجمة ومجلس النشر ومجلس غير المتفرغين و. . .

ـ حاجة يا پروفسور!

ـ إعلم، يا طبيب، أن هناك ما لا يقلّ عن ألف مجلس في الجامعة المتقدمة وأضعاف ذلك العدد في الجامعات المتخلفة. وأظرف ما في هذه المجالس أنها لا تفعل شيئاً سوى إعادة اختراع العجلة. تكرار نفس القرارات. خذ، مثلاً، تعيين عميد. أعني تعيين معيد. أعني تعيين عميد. حسناً! الإجراءات، في الواقع، متشابهة. يجتمع مجلس القسم وبعد نقاش مرير أكاديمي موضوعي هادىء يقرّر تعيين طالب الطلّاب المطلاب الحاصل على البكالوريوس مع مرتبة الشرف الأولى معيداً في القسم. ثم يجتمع مجلس الكليّة فيتخذ نفس القرار. ثم مجلس الجامعة المتوسط فالعالي فالأعلى. نفس القرار! وبعد كل هذه المجالس لا يتمّ التعيين إلا بقرار من مدير شؤون الموظفين بعد موافقة الممثل المالي. لا تعرف ما هو الممثل المالي؟ هذا موضوع يطول شرحه، وهو ليس موضوعنا الآن. موضوعنا ما تمتاز به الحياة الجامعية من تسلسل رائع وتدرّج منطقي وهرمية أخّاذة. وإذا كانت المجالس ظريفة، فأظرف منها ما يدور فيها من نقاش. ألف ساعة من الكلام المدوّي حول تسمية مادة. هل نسميها: «الشعر في العصر العباسي الأول»؟ لا! نسمّيها: «العصر العباسي الأول والظاهرة الشعرية». لا! نسمّيها: «الأدب في العصر العباسي الأول مع التركيز على الشعر». قلت مرّةً: «يا دكاترة! ماذا في الإسم؟ قال شكسبير: «الوردة بأي اسم آخر. . .». ولم أستطع إكمال كلامي فقد واجهتني نظرات احتقار كادت تمحقني محقاً. وألف ساعة لمناقشة الالتماس المُقدَّم من المعيد طالب الطلّاب المطلاب المبتعث للدراسة في جامعة ديكسي والذي يرجو فيه الموافقة

على تغيير عنوان رسالة الدكتوراه من: «تحقيق مخطوطة الفسيفسائي الموسومة: العلاقة بين الباه والدكتوراه» إلى «تحقيق المخطوطة وتوثيقها وتصحيحها والتعليق عليها». وألف ساعة لمناقشة الطلب المقدّم من سيادة الأستاذ المشارك الدكتور بحّاث بحّاثة المبحاث لحضور مؤتمر فول الصوايا في جامعة شيكاجو. ألف ساعة لهذا. وألف ساعة لذاك. وكل شيء في الجامعة بالساعة. ونظام الساعات نما وترعرع حتى أصبح نظام السنوات. وقد ينمو ويترعرع في المستقبل فيصبح نظام القرون. والحياة الأكاديمية، يا نطاسي، أروع من رائعة. والمخلوقات الأكاديمية مخلوقات من نوع متميّز. يتحدثون فلا يفهمهم أحد، لأن أفكارهم فوق مستوى الدهماء والرعاع والسوقة. ويمضون جلّ أوقاتهم في الكيد لبعضهم البعض فيكفون العالم الخارجي شرهم وخيرهم، واللي ما فيه شرّ ما فيه خير، كما قال بدوي لمّاح. وهم يشعرون بحسرة وجودية لأن الحظّ اختار للمناصب العليا البله والبلداء تاركاً النوابغ والعباقرة في الحرم الجامعي يهيمون من مجلس إلى مجلس وجباههم مغضنة بوطأة التفكير الدائم في القرارات المصيرية المتعلقة بتعيين هذا المعيد وابتعاث ذاك المعيد. لا تستهن بالقرارات الجامعية، يا طبيب! تستطيع أن تعتبر الجامعة واحة من الأمان والثبات والاستقرار في عالم متغيّر مضطرب حائر. نصف دول العالم تموت من الجوع وجامعاتها تعلن حالة الطوارىء استعداداً لترقية أستاذ مساعد إلى أستاذ مشارك. العالم يبحث مشاكل التنمية وثورة الاتصالات والمواصلات والثورة المعلوماتية والجامعات تبحث مخطوطة الفسيفسائي. لماذا ذكّرتني، يا طبيب، بتلك الأيام الحلوة؟ أيام المجالس والنقاش واللجان. آه! اللجان! كدت أنسى اللجان. مع أني كنت عضواً في كل لجنة منها. لجنة الأرقام السّرية. ولجنة الأرقام العلنية. ولجنة تحويل الأرقام السّرية إلى العلنية. والعكس بالعكس. ولجنة وضع الأسئلة. ولجنة ختم المظاريف. ولجنة فض المظاريف. ولجنة التصحيح. ولجنة الرأفة. ولجنة القسوة. اللجان في كل مكان، كما قال من قال. كانت فترة ذهبية من العمر. قبل أن تفقد الحياة براءتها. وأتلوّث بجرائم المال. آه! المال! سوف أحدثك الآن عن رحلتي من الفقر إلى المال. ولكن قبل ذلك أودّ أن أحدثك عن المال نفسه. «المال يرفع سقفاً لا عماد له ∴ والفقر يهدم بيت العزّ والشرفِ». كما قال ناظم من أهل العزّ والشرفِ. «فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ∴ ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده»، وهذه من تعميمات أبي حسيد غير العلمية. وحب المال هو جذر كل شرّ، كما يقول إنجيلكم. «حتى الكلاب إذا رأتْ ذا ثروةٍ ∴ خضعتْ لديه، وحرّكت أذنابها. وإذا رأتْ يوماً فقيراً عابراً ∴ نبحتْ عليه، وكشّرتْ أنيابها». وهذا افتراء على الكلاب التي تتعرّف على الناس عن طريق الشمّ. والنقود ليس لها رائحة. هل

تعرف من أطلق هذا المثل؟ لا تعرفه؟ الأمبراطور الروماني ڤيسپاسيان الذي فرض ضريبة على المراحيض. فاحتجّ البعض على هذه الضريبة المنتنة، فجاء الأمبراطور بقطعة نحاسية من العملة المُحصّلة من ضريبة المراحيض ووضعها عند أنف المحتجّ وأطلق كلمته المشهورة. ولهذا أنا أستغرب الأخبار التي تتحدث عن غسيل النقود. رُبّما تغيّرت رائحتها منذ أيام الأمبراطور المراحيضي. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا الافتراء على الكلاب. ردّ صديق سي عباس محمود العقّاد هذه الفرية حين قال في معلّقته الشهيرة في رثاء كلبه الشهير بيجو: «أبكيك! أبكيك وقلَّ الجزاءُ .:. يا واهب الودّ بمحض السخاءْ. يكذب من قال طعامٌ وماءْ .:. لو صحّ هذا ما مَحَضْتَ الوفاءْ. لغائبٍ عنك وطفلٍ رضيع». العاطفة مؤثرّة، والشعر ركيك. لو قال لك أحد إنه يمكن للشاعر المطبوع أن يقول: «لو صحّ هذا»، فابصق في وجهه وما جاك عليّ. وإن كنتُ لا أعرف ما هو الشاعر المطبوع. الظاهر أن المقصود هو الشاعر الذي تطبع دواوينه بكثرة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا المال. وقد كان أبو حسيد يحبّ المال حُباً جَمّاً. وكان يعزو حبّه إلى بائع البطيخ الذي عرض عليه بطيخة بسعر مرتفع وعرض على ثريّ نفس البطيخة بسعر منخفض مُتطوّعاً، فوق ذلك، بحملها. لا تصدّق كل ما يقوله أبو حسيد. الناس مفطورون على حب المال، بصرف النظر عن أسعار البطيخ. سوف أروي لك الآن جوانب شيّقة عن رحلتي من الفقر إلى الثروة. رحلة غريبة بعض الشيء. أنا لم أبدأ ثرياً، يا طبيب. بدأت مكافحاً في سبيل الثراء. ثم جاء الثراء من أغرب السبل. ودون أن أتوقّعه. والأهمّ من ذلك، دون أن أستحقّه. وما أقلّ الذين يعترفون أنهم لا يستحقّون ما يملكون. ولكنني أعترف بكل حريّة. وأنفق بكل سخاء على مختلف القضايا ولا أبالي. إيزي كوم إيزي جو، كما قال أحد الأمريكان في لاس ڤيجاس. «ومن فتح البلاد بغير حرب .:. يهون عليه تسليم البلاد». وهذا شبيه بشعر أبي حسيد، وكثيراً ما ينسب إليه، ولكنه ليس من شعره. كما ينسب إليه البيت الجميل الذي يقول: «ستألف فقدان الذي قد فقدته .:. كإلفك وُجدان الذي أنت واجدُ». وهذا، بدوره، ليس من شعره. وهذا ليس موضوعنا. موضوعنا كفاحي في سبيل الثروة. بعد أن شربت الحياة الجامعية حتى الثمالة، قررت تركها وبدء حياة تجارية. فكرت في استثمار مواهبي الفكرية التي صُقلت في الجامعة. قررت الهجرة إلى الشمال لجمع المال عن طريق تأليف القصص البوليسية المحشوّة بالفضائح الجنسية، أو طبع صحيفة مهاجرة من صحف الابتزاز. انتظرت حتى بدأ موسم الهجرة إلى الشمال وامتطيت طائرة .بي. أو. ايه. سي. طارت بي من واحة الفسيفساء وحطّت في مطار هيثرو الدولي. وجدت على مكتب الجوازات رجلاً

بشوشاً تبدو عليه علامات الطيبة والصلاح. بدأني فقال: «من الزول؟». قلت: «وما الزول؟». قال: «الزلمة». قلت: «البرو بن الفَسَوْر، شيخ شمل بني خضير». قال: «كيف جئت؟». قلت: «على طائرة بي. أو. ايه. سي. وتحتي مضيّفة أوجّهها جنوباً أو شمالا». ضحك الزول، وقال: «ما هكذا روينا البيت». قلت: «أيّ بيت؟!». قال: «نِڤر مايند! لماذا قدمت؟». قلت: «أنوي الهجرة إلى الشمال». قال: «ليه بقى؟!». قلتُ: «أبحث عن ثرواءْ». قال: «ولِمَ؟». قلتُ: «لأني وجدت الناس يحتقرون الفقيرا». ضحك مرّة أخرى، وقال: «ما هكذا روينا الشطر». قلت: «تروون أشعاركم ميتاً عن ميت وأرويها طازجة من فم الحصان».
قهقه حتى بدت له سن بندر شاهيه كان يخفيها، وسأل: «هل لديك ڤيزاء معتبرة؟». قلت: «هاهي ذي مختومة بحبر ختم موظف قنصلية صاحبة الجلالة البريطانية». قال: «أكثرت المضافات. وهذا منتقد في سوق ادجاور رود. هذا من علل الفصاحة». قلت: «أنا، ولا فخر، معلول فصاحياً». قال: «ذكّرك الله بالشهادة! معلول على وزن ممنوع. دعني أراجع قائمة الممنوعين». قلت: «كُن ضيفي!». ضغط الزول البشوش على زرّ أضاء محسابه بألوان فاقعة أخذ يتأملها ثم نظر إليّ وقال: «إسمك الحقيقي مصطفى سعيد. أليس كذلك؟». قلت: «إسمي الحقيقي البروْ بن الفَسَوْر». قال: «إطلعْ من دول، يا نمس». قلت: «وما النمس؟». قال: «نِڤر مايند! أنت مصطفى سعيد!». تنفّست، في محاولة مدروسة لضبط أعصابي، ثم ابتسمت ابتسامة اصطناعية، وقلت: «يا أخا الاميجريشن!...». قاطعني وقال: «فشرت! أنا أخو المايجريشن!». قلت: «عفواً! اللي ما يعرفك يجهلك. يا أخا المايجريشن! هَبْ جدلاً ـ والخضيرية قوم جدلون ـ أنني مصطفى سعيد. رغم أن أمه، والله! لم تلدني ولا سرّني، والله!، أنّها ولدتني. هب أنني مصطفى سعيد. لِمَ تحول بيني وبين الدخول وعندي ڤيزاء معتبرة؟». قال: «إعلم، يا رحمك الله!، أنّ مصطفى سعيد مفسد في الأرض. يأتي إلى الشمال مهاجراً، فيغتصب نصف نساء الشمال، ويذبح النصف الآخر، ويروي مغامراته لروائيين يؤلفون عنها كتباً تسيء إلينا في المحافل الدولية». صرخت: «يمدّها، والله!، مصطفى سعيد! بَيَّض الله وجه مصطفى سعيد! لطالما اغتصب أهل الشمال أرضنا اغتصابا. وانتهبوا ثرواتنا انتهابا. ولقينا منهم بؤساً وعذابا». قال: «لا تكثر من سجع الكهان. فهو منتقد في مجلس لوردات البريطان». قلت: «يا أخا الأميجريشن!..» قاطعني: «أنا أخو المايجريشن!». قلت: «يا سيدي! غلطنا في البخاري يعني؟! يا أخا المايجريشن! إن لم تسمح لي بالهجرة إلى الشمال، فأين أطلب الرزق؟». أطرق صاحبنا مُفكّراً ثم قال: «عليك

بأكل الخبز الحافي». قلت: «لست من الشطّار». قال: «هاجر في أقاليم الليل والنهار». قلت: «حاولت، يا عافاك الله!، فوجدت أن الفيزاء لا تمنح إلاّ لمن يشرب كوكتيل صدمة الحداثة». قال: «فَلِمَ لَمْ تطفحه؟». قلت: «سكر «الحداثة» جيد .·. وخمارها صعبٌ شديد». فكّر صاحبنا ملياً ثم قال: «إذهب فتاجر في مملكه السنبلة». قلت: «حاولت، يا رفعك الله!، فرفضوا إعطائي الفيزاء». قال: «ولِمَ؟». قلت: «لأني رفضتُ الجلوس في القنصلية منتظراً أن يأتي الذي لا يأتي». قال: «آي سي! لماذا لا تسرح على بوابات العالم السبع؟». قلت: «حاولت، يا شرّفك الله!، فأعطتني ترافك وَرَدن سمينة مُخالفة أسمن». ضحك صاحبنا، وضرب كفّاً بكفّ، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله! هل أخبرك أحد أنك منحوس؟ إذهب فتاجر في قناديل أم هاشم عسى أن تشملك ببركتها». قلت: «إعلم أن القناديل هذه الأيام لا بركة فيها. تعمل بالبطارياء». قال: «أملك الوحيد الآن، هو مدن الملح. إنطح أهلها فهم أجواد، يضيفون القادمين من أقصى البلاد، ولا يبخلون عليهم بمال أو زاد». قلت: «جُزيت خيراً! زوّدني قبل سفري بعض النصائح». قال: «حباً وكرامة! تذكّر أن الثلج يأتي من النافذة. ولا تنسَ أن المجانين لا يركبون القطارات. ولا تنتظر موت الرجل الوحيد على الأرض. وأنت، يا أخا الخضيرية، فانصحني». قلت: «والشيخ إن قوّمته من زيغه .·. لم يقم التثقيف منه ما التوى. كذلك الغصن يسيرٌ عطفه .·. لدناً، شديد غمزه إذا عسا. من ظلم الناس تحاموا ظلمه .·. وعزَّ عنهم جانباه، واحتمى». قال: «أحسنت! زدني!». قلت: «ما أنعم العيشة لو أن الفتى .·. يقبل منه الموت أسناء الرشا». قال: «آه! آه! آه! ليت الأستاذ قال هذا» قلت: «أيّ أستاذ؟». قال: «نِفر مايند! انصرف، يا هداك الله!، راشداً قبل أن تهبط طائرة الجمبو الهندية فعلى متنها شخصيتان غريبتان». قلت: «جود دِيْ!». رجعت أدراجي على الطائرة، ومن الفسيفساء انطلقت في أخدود التيه على حصاني الأبجر متقلّداً سيفي الصمصام حتى وصلت إلى إشارة كتب عليها: «إنتبه! مدن الملح أمامك! لا ترشّ الماء حتّى لا تذوب المدن». وجدت سوراً كبيراً مصنوعاً من الملح ومزيناً بالجواهر والأحجار الكريمة يحيط بالمدن، ولا توجد فيه سوى بوابة واحدة. أمام البوابة وجدت رجلاً بديناً قصيراً أصلع يضع على عينيه نظارات طبيّة سميكة، وأمامه عدد من الأجهزة. قلت: «السلام عليكم يا صليعان!». قال: «وعليكم السلام. من الزلمة؟». قلت: «البرو بن الفَسوز». قال: «إبن الفسوة؟!». قلت: «واحدة بواحدة. كان حراً فانتصرَ. البروْ بن الفَسوز». قال: «إسم منكر! سأتصل الآن بمنظَمة استئصال الأسماء المنكرة فتأتي وتستأصله». قلت: «لا تتعب نفسك. حاولت، مراراً

وتكراراً، تغيير اسمي فلم أفلح. قيل لي في الأحوال المدنية إن الموظفين المختصّين أدخلوا إسمي في الكومبيتر ولا يعرفون الآن كيف يفتحون الكومبيتر ليستخرجوا إسمي منه». قال: «يا للعجب! أما كانت لديهم فتّاحة علب السردين؟!». قلت: «كانت. وضاعت». تنهّد الرجل بحرقة، وقال: «لطالما نصحت سكان مدن الملح ألاّ يشتروا كومبيتراً إلاّ ومعه دليل الاستعمال، لو يطاع لسمينٍ قصير أصلع أعشى أمر! من أيّ العرب أنت؟». قلت: «أنا شيخ شمل بني خضير. وأنا، فوق ذلك، أسلطهم لساناً، وأعظمهم كِرشاً، وأتوقهم إلى الباه، وأحرصهم على الشرهاء». قال: «العمى! أقصد أهلاً وسهلاً». قلت: «فمن حضرة جنابك؟». قال: «أنا سيادة الدكتور مالح مليح الملحوني، خريج جامعات أنقرة وبرلين وباريس، وطبيب مدن الملح، ومأذون أنكحتها، ورئيس أمنها، ومالك أفخم فنادقها، وفيلسوفها، ومؤرّخ أمجادها». قلت: «وجع! أقصد يا حيْهلا. فمن أيّ العرب أنت؟». قال الملحوني: «كنت من أكابر عرب الثورة ثم أصبحت من أكابر عرب الثروة، ولم أغيّر مبادئي قيد شعرة». قلت: «يا سيادة الدكتور! هذا، والله!، هو التوفيق. فأين ذهب أهل مدن الملح؟». قال: «خرجوا إلى البراري والوديان يقنصون الجراد، ويحترشون الضبّ، ويحبلون للجربوع». قلت: «صيد حلال، وتسلية بريئة، وهواية نافعة فحق شنهو لم تذهب معهم؟». قال: «وما حق شنهو؟». قلت: «حق شنهو يعني لَشو». قال: «بقيت أحرس المدن من أيّ عدوان غاشم يشنه عدوّ غادر». قلت: «فما لي لا أرى معك سلاحاً؟». قال: «معي هذه النبّاطة...».

- عفواً، يا پروفسور! شو يعني النبّاطة.

- النبّاطة هي الفلاّتية.

- وشو يعني الفلاّتية؟

- الفلاّتية هي المغيّطة.

- وشو يعني المغيّطة؟

- المغيّطة هي النبلة.

- وشو يعني النبلة.

- النبلة هي النقّيفة. فهمت؟ الحمد لله! «... معي هذه النبّاطة أشاغل بها العدوّ وأدير رقم ٩٩٩ على هذا الرزراز النقّال فتقبل سيارات النجدة من كل

مكان». قلت: «فما هذه الأجهزة؟» قال: «هذا ترمومتر أقيس به حرارتي كل ساعة. وهذا جهاز فحص السكّر، أفحص به سكّري كل ساعتين. وهذا جهاز ضغط الدم أفحص به ضغط دمي كلّ ٣ ساعات. وأسجّل هذه المعلومات في هذا الدفتر الضخم». قلت: «حق شنهو؟». قال: «إعلم أن هذا الدفتر المنفوخ يضمّ خلاصة نظرياتي، وزبدة فلسفاتي، وموجز تجاربي، وحصاد أفكاري، وأنا أسجّل فيه المعلومات الطبيّة ليعرف القرّاء الكرام أني كتبته وأنا في كامل قواي البدنية». قلت: «ما شاء الله! وماذا ستسمّي المحروس؟». قال: «خنيفس! خوفاً عليه من الحسد». قلت: «خنيفس؟ ألا تخشى منظمة استئصال الأسماء المنكرة؟». ضحك سيادة الدكتور الملحوني حتى بدت سنّ له ملحية كانِ يخفيها، وقال: «ترجّل. واجلس على هذا الرمل المالح الأصفر المريح. وأخبرني لِمَ جئت». جلست، وقلت: «أتيتُ أطلب الرزق في مدن الملح». قال: «هل تلعب البلوت وتدخّن الجراك؟». قلت: «لا. ألعب الساكسيفون وأدخّن القنّب دون أن أستنشقه». قال: «ما دام ذلك كذلك، فلِمَ لم تبحث عن عمل في البيت الأسود، وكر الدبابير المسمومة؟». قلت: «حاولت يا سيادة الدكتور فسقطت في الامتحان الصحّي. نقص كبير في ڤيتامين و». هزّ الملحوني رأسه وقال: «أخطر الأمراض! أخطر الأمراض!». قلت: «أما من قِرى؟!». دفع الملحوني إليّ بصحن ورقي عليه ٣ جرادات مُخلّلات سابحات في مستنقع من الطوباسكو، وقال: «إنطح زادك!». قلت: «من الجراد فررت. أما من قعود عنود شرود ما احتلم ولا اغتلم سُقي القيمتو وأطعم الكليجة حتى أصبح شحمه كالدمقس المُفتل يؤتى به الساعة فيجزر فيصنع لنا من لحمه شِقف وكفتاء؟». قال: «ما من!». قلت: «إذن، أما من نجدي هرفي سقي ماء نساح وأُطعم الحنيني بالفستق حتى ألحم وأشحم واقتربت بطنه من الأرض يؤتى به الآن فينحر فيصنع لنا منه كبساء؟». قال: «ما من!». قلت: «إذن، أما من ديك روماني بدين فروزن يؤتى به التوّ فيملأ برزُ العم بن وما تيسّر من الكمأة والزبيب ويترك في هذه الشمس التي تذيب «دماغ الضب والضبُّ ذاهلُ» حتى ينضج فنفترسه «هنيئاً مريئاً غير داء مخامر؟»». «قال: «ما من!» قلت: «إذن، والشيء بالشيء يذكر، أما من عُكرة ضبّ مملوحة مقشورة يؤتى بها الحين فتبهّر وتعجّن وتُطجن فيصنع لنا منها مزّاء؟» قال: «ما من!». قلتُ: «فأين ذهب كرمكم يا أحفاد حاتم طيّ وعرْوة بن الورد؟». قال سيادة الدكتور: «إعلم أننا طوّرنا الكرم بما يتمشّى مع النافع من تقنية العصر». قلت: «وكيف كان ذاك؟ جُعلت فداك!». قال «أصبح الواحد منا يعطي ضيفه رقم كردت كارده ويحيله إلى فندق الماريوطاء فيأكل الضيف ما يشتهي. ويحوّل الحاسوب قيمة الفاتورة إلى بنك المضيف. وفي

هذا قال شاعرنا: «وإني لألقى الضيف إن جاء جائعاً .·. برقم كردت كاردي. . . ولا أتبسَّم». قلت: «بشاشة وجه المرء خيرٌ من القرى». قال الملحوني: «كان زمان!». قلت: «فما رقم كِردت كاردك فقد أضرَّ بي الجوع؟». قال: «وما حاجتي إلى كردت كارد وأنا أملك رابع بنك في العالم؟». قلت: «ما اسمه؟». قال: «بنك الثقة العمياء». قلت: «عاشت الأسامي!». قال: «أتريد أن أفتح لك حساباً راكداً أم جارياً؟ وتروم استثماراً مشروعاً أم مشبوهاً؟». قلت: «وما الفرق بين الاستثمار المشروع والاستثمار المشبوه؟». قال: «فرق هائل. في قسم الاستثمار المشروع لا نوظّف إلاّ من صحّت عقيدته وزكّاه العمدة. أما في قسم الاستثمار المشبوه فنوظّف السيخ والهندوس. بل إنك قد تجد في هذا القسم بعض الرافضة». قلت: «الرافضة؟! إلى هذه الدرجة؟! ولكن ألا يوجد اختلاف بين طبيعة الاستثمار المشروع وطبيعة الاستثمار المشبوه؟». قال: «ما دخل طبيعة الاستثمار في المسألة، يا خضيري؟!». قلت: «أسحب السؤال وأعتذر. وأرجو أن تمنحني، لاعدمتك!، سفتجه على بنك العامر بمبلغ ١٠,٠٠٠ فرنق من عملة سويسراء الصعباء». قال: «لا! ولا كرامة!». قلت: «إذن فامنحني، بأبي أنت وأمي!، دفتر سفاتج سياحية مجموعها ٥٠٠٠ دولار من فئة الدولار الواحد». قال: «لا! ولا كرامة!». قلت: «لا قرى ولا شرهاء؟! فكيف أحصل على رزقي في مدن الملح؟». قال: «بم تتاجر؟». قلت: «أتسبّب بشنطة سامسونايت. ومشكلتي أني لا أعرف ضبط قفلها فأتركه على صفر. صفر. صفر فيأتي الخنشل وأنا نائم فيفتحونها ويسرقون ما فيها». تنهّد سيادة الدكتور الملحوني تنهيدة حرّكت أطراف كرشه وقال: «طالما نصحتكم معاشر الأعراب ألا تشتروا شنطة سامسونايت إلاّ ومعها دليل الاستعمال، لو يطاع لفيلسوف أمر. وماذا في شنطتك الآن؟». قلت: «معي لوز لصنع سويق اللوز. وبودراء طراثيث لعلاج الحكّة. وإقط مثلج لعلاج الإسهال. وعسل مركّز لعلاج السكّر. وأعواد جنسنج أصلية من الدبدبة لإرجاع الشيخ إلى صباه». ضحك الملحوني، وقال: «أما عن سويق اللوز فقد ـ قال الشاعر العربي: «تجنّبْ سويق اللوز، لا تقربنّه .·. فإن سويق اللوز أودى أبا جهم». قلت: «ومن هو أبو جهم؟». قال: «مش مهمّ! وأمّا عن بودراء الطراثيث فقد قال جالينوس: «وإياك بودراء الطراثيث إنها .·. إذا لامست جلداً أصيب بأكزما». أمّا الأقط المثلّج فقد قال عنه أرسطو: «ولا تأكل الأقط المثلّج إنه .·. إذا دخل الأمعاء أعقب فالجا». وأمّا. . .». هنا قاطعته: «وهل يعرف أرسطو العربية فيقول هذا البيت؟». قال الملحوني: «قرأته بنفسي في كتاب «الأخلاق» ترجمة أستاذ الجيل». قلت: «وهل يعرف أستاذ الجيل اليونانية فيترجم عنها؟». قال: «ترجم شاعر النيل «البؤساء»

وهو لا يعرف حتى بونجور». قلت: «يجوز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم. ماذا عن بقية المواد يا سيادة الدكتور؟». قال: «بضاعة مزجاة! نحن هنا لا نستعمل العسل المركز في علاج السكر بل نستعمل الصبر والمرّ والحلتيت والاهليلج». قلت: «وما الاهليلج؟». قال: «عشب برّي شوكي يرعاه مرضى السكر في عياداتنا التخصصية. أما الجنسنج فنحن لا نستخدمه إلاّ لأباعرنا في موسم الضراب». قلت: «جنسنج للبعارين؟! هذا، والله!، هو البطر. لي، فوق ما ذكرت، مواهب أخرى. فأنا أستخرج الجنّ من المصروعين، وأزيل الثآليل بشعر الخيل، وأُنادم الأشراف، وفي أوقات فراغي أعلّم الورعان مبادىء التفحيط، وأصلّح دشوش الساتلايت». نظر إليّ سيادة الدكتور الملحوني باستغراب يشوبه شيء من الحسد الخفيف وقال: «أمّا عن الجنّ فقد استخرج أخصائيونا من مرضانا نصف مليون جنّي، معظمهم لا يحمل الإقامة. وأما عن الثآليل فقد انقرضت منذ بنينا المرصد وكففنا عن عدّ النجوم. أما عن منادمة الأشراف فلا، والله!، ما نادمت شريفاً هنا ما دمتُ حيّاً، ولكني أسمح لك بمنادمة الأرذال. وأما عن ورعاننا فهم يخرجون من بطون أمهاتهم وفي يد الواحد منهم مفتاح سيّارة ودكتوراه في التفحيط. أما عن تصليح الدشوش فهذه مهمّة يتولاّها عندنا الشراقصة». قلت: «زادكم الله يا أهل مدن الملح من فضله! لي، أعزّ الله الطبيب المفكّر المؤرخ الفيلسوف، بعد ذلك كله حرفة. أذهب إلى براري الماكوستان فأصطاد الوغدان بالشوزن فأعلّمهم قيادة البعارين وأعرضهم، للبيع أو الإيجار، في سباقات الهجن». قال: «لا! لا! لا! هذا يتعارض مع حقوق الإنسان». قلت: «إسمع أيها المدبغ...» قال: «وما المدبغ؟» قلت: «المدبغ هو المسدر». قال: «وما المسدر؟». قلت: «كلمة من غريب البحّارة. تعني ممتلىء القوام. إسمع أيها المدبغ! حقوق الإنسان لا تنطبق إلاّ على الإنسان الأبيض. لا تنطبق على وغدان الماكوستان. ولا عليّ. ولا عليك». غضب الملحوني غضباً شديداً، وصرخ: «حمّى تسلقك! أنا أبيض من شقّ اللفت. أنا أبيض من القطن سمين التيلة. أنا أبيض من اللبنة قبل أن يعتورها الزيت». قلت: «إسمع يا دبدوب! والدبدوب هو المدبغ. اللون الأبيض ليس واقعة مادية؛ اللون الأبيض حالة ذهنية». هنا وقف طبيب مدن الملح وصرخ صرخة طرزان مدوّية انشقّ بسببها بنطلونه، ثم صاح: «وجدتها! وجدتها! وجدتها! وجدتها!». قلت مدهوشاً: «ماذا وجدت يا بعيج البنطال؟!». قال: «فكرة كتابي المركزية التي كنت أبحث عنها كل هذه السنين. من الآن فصاعداً سوف يكون اسم كتابي «اللون الأبيض حالة ذهنية». وجدتها! وجدتها!». قلت: «ويت آ مينيت! ويت آ مينيت! هذه الفكرة مسجّلة باسمي في أضابير محكمة العدل الدولية ولا يجوز لك أن تسرقها». قال:

«ارفدني الفكرة يا شيخ شمل بني خضير». قلت: «لا! ولا كرامة! يا صليعان!» قال: «إذن، أشتريها منك». قلت: «أنت الآن تتكلم. أريد نظّارة شمسية كونتاكت لنز. وزنّوبة ماركة بالي. وساعة يد ماركة سواش. وعطراً رجالياً ماركة ڤرساجي». إبتسم الملحوني، ودسّ يده في جيوب مختلفة وأخرج النظارة والزّنوبة والساعة والعطر. وقال: «إنصرف راشداً» قلت: «وماذا عن طلب الرزق؟». قال: «آه! طلب الرزق! إذهب إلى كونسلتنت أند كونسلتنت واطلب المشورة». قلت: «خذ القليل من البخيل وذمّه!» قال «كيف قلت؟». قلت: «لا جُزيتَ خيراً من بدين لئيم كنجوس» قال: «وما الكنجوس؟». قلت: «إبحث عنها في إلياس أنطون الياس». إمتطيت، يا حكيم، حصاني الأبجر، وتقلّدت سيفي الصمصام، ووضعت ساعة السواش في يدي، وركّبت النظارة فوق بؤبؤي، وتضمّخت بالعطر، وارتديت الزنوبة...

ـ عفواً يا پروفسور! شو يعني زنّوبة؟

ـ الزنوبة، يانطاسي، حذاء بلاستيكي خفيف كونڤرتبل. ولا أدري من أين جاءت التسمية. لعلّها من مجمع السدنة الخالدين. انطلقت في الدهناء حتى وصلت إلى خيمة تخفق الأرواح فيها، وقد كُتب عليها بالنيون القرمزي: «كونسلتنت أند كونسلتنت أند كونسلتنت. لصاحبه الدكتور مشير مستشار الاستشاري. دكتوراه في النحو من جامعات مالطة. استشارات في كل شيء. ومساهمات عقارية. ومضاربات أسهم». دخلت الخيمة وقلت: «السلام عليكم. أيكم مشير مستشار الاستشاري؟». قال صوت في الظلام: «الدكتور!» قلت: «آسف! أيكم الدكتور مشير مستشار الاستشاري؟». قال الصوت: «ما في الخيمة سواي». قلت: «قبّح الله الملحوني وكونتاكت لنزه. أخشى أن تكون قد خدشت شبكيّتي». قال الدكتور: «خذ روث تيس أزرق وأخلطه ببول ديك أعور...». قلت: «مهلاً! مهلاً! لم أجيء لعلاج عيني». قال: «فلم جئت؟». قلت: «أطلب المشورة في البزنس». قال: «سل ما بدا لك». قلت: «أريد، سيّدي الدكتور مشير مستشار الاستشاري، أن أكون ثرياً في أسرع وقت ممكن. وأريد أن يكون ثرائي حلالاً زُلالاً بلالاً». قال: «وما بلالا؟». قلت: «جئتك مستشيراً. ولم أجئك مؤدّباً». قال: «عندك نقطة». قلت: «فما ترى؟» قال: «أرى أن تأخذ وكالة المرصيدصاء». قلت: «طارت الطيور بأرزاقها». صرخ الكونسلتنت: «سبحان الله! سبحان الله! طيور تطير بسيارات؟!». قلت: «هذا مثل يا سيّدي الدكتور. كلمة تنقال. ألم يدرسوكم أمثال الأعراب في جامعات مالطة؟». قال: «إذن، فعليك بوكالة الطويطاء».

قلت: «طارت الطيور بأرزاقها. ولا تقل لي، رحم الله والديك،: «سبحان الله! طيور تطير بسيارات»، أقصد أن الوكالة مأخوذة». قال الكونسلتنت: «لحظة من فضلك!». وضغط على زرّ كومبيتر شخصي ماركة ماكنتوش وظل يردّد: «افتح يا شونجْ جمْ! افتح يا شونج جمْ!» حتى أضاءت الشاشة. تأمّلها ملياً ثم نظر إليّ ضاحكاً، وقال: «أبشر! أبشر! وكالة الأسلحة الذريّة لم يأخذها أحد. انطح رزقك! ونصيبي فايف پرسنت من العمولاء». قلت: «فايف پرسنت؟! ده بعدك! ون پرسنت!» قال: «حسناً! تو پرسنت! آخر كلام!» قلت: «أوكي دوكي. والدفع بعد القبض». قال: «صار!». طرتُ، يا حكيم، بالكونكورداء إلى واشنطن دال سين، عاصمة الاستكبار العالمي، وطلبت مقابلة وزير الدفاع. رُتّبت المقابلة على عجل، وقال لي ناموس الوزير الخاص: «إعلم يا شيخ شمل بني خضير أن وزير الدفاع هو الذي طوّر تكنولوجيا طائرة الشبح. وهو كثيراً ما يستعين بهذه التكنولوجيا خلال مقابلاته مع العربان. تذكّر أنه موجود في المكتب ولو لم تره». قلت: «العرب ما خلّوا شي!». دخلتُ المكتب وأنا أهزج: «هاي! هاي مستر سيكريتري!» سمعت صوتاً يقول: «هاي! سِت داون!». جلست على أول كرسيّ أمامي فأحسست بيد تدفعني في ظهري، وسمعت صرخة: «سنْ أوف آ بج! جلست عليّ أيها البدويّ الأعمى!» قلت: «وكيف أراك وأنت مستشبح؟!». ضحك الوزير، وضغط على زرّ خفيّ، وبدأ يظهر للعيان تدريجياً حتى اكتمل. قال: «وت كان آي دو فور يو؟». قلت: «أنا من بُغية الوزير وكنزٌ .·. من كنوز الوزير ذو أرباح». قال: «كتْ آوت ذا بُل شِت!» قلت: «حسناً! حسناً! لا تكن نرفْوزاً ولا نرفْازاً ولا نرفْيزاً. إعلم أيها السيّد الوزير الأدميرال الشبح أني من أكثر عملاء السي. آي. إيه. إخلاصاً، وأشدهم ارتمائية، «وما أنا بالباغي على الحب رشوة...». قاطعني الوزير: «تبغي ولاية يا كلكجي؟!»...

ـ عفواً يا پروفسور! شو يعني كلكجي؟

ـ كلكجي في لغة خليجعربستان الدارجة تعني مكّار أو محتال وهي مشتقة من أصول هندية بدليل أنه لا يخلو فيلم هندي من كلكجي أو أكثر.

ـ غريبة! لم أسمع الكلمة في أمريكا.

ـ ولا أنا! لم يقل الوزير كلكجي، يا عمّي. ترجمت ما قاله الوزير. قال: «تبغي ولاية يا تركِسْتر؟!». ضحكت حتى بدت سن لي خضيرية كنت أخفيها وقلت لنفسي: «قبّح الله أبا حسيد! حوّل العرب إلى ظاهرة صوتية طمّاعة وأساء إلى سمعتنا في المحافل الدولية». قلت للوزير: «حفظ الله ولاياتكم لكم. لا أريد

سوى قنابل ذريّة أسرح بها في عواصم الضاد فأفيد وأستفيد». ضحك السيد الوزير الأدميرال الشبح حتى اختفى مرة أخرى، وعاود الظهور تدريجياً، وقال: «لكنك لا تستطيع ضبط القفل إلا على صفر. صفر. صفر. فينهبك الخنشل». قلت: «قاتل الله الملحوني! بطنه ما هو جراب لحد! تعلّمت الآن، سيّدي الوزير، ضبط القفل على ٢.٢.٢». قال: «تو لَيْت!» قلت: «ولِمَ؟». قال: «إعلم، يا شيخ شمل بني خضير، أننا وقّعنا على ملح١ فقضينا على ثلث الترسانة الذريّة. ووقعنا على ملح٢ فأجهزنا على نصفها. ونحن الآن بصدد التوقيع على ملح٣». قلت: «بالملح يُصلَحُ ما يُخشى تغيُّره ∴. فكيّف بالملح إن حلّتْ به الغِيَرُ». قال «وت إز ذات؟». «قلت: بيت حفظته في مدن الملح. وما العمل الآن؟». قال: «السوس! السوس متخلّفون في كل شيء. كانوا خلفنا في صناعة الأسلحة الذريّة وهم الآن خلفنا في تدميرها. إذهب إليهم فقد تجد بعض القنابل معروضة للبيع». امتطيت، يانطاسي، طائرة أيرفلوطاء وحططت في مطار روسكو. بادرت أول عسكري رأيته بالهتاف: «بزنس! بزنس! خذني إلى وزير الدفاع». أخذني العسكري على موترسيكل إلى مكتب الوزير وهناك قال لي ناموسه الخاص: «إنتظر نصف ساعة. واشرب هذه الڤوطكاء. وسوف يكون الوزير معك بمجرد انتهائه من تدمير البرلمان». قلت: «تدمير البرلمان؟! خطوة مباركة، وحركة تصحيحية، وقضاء مبرم على ديمقراطية عميلة». قال الناموس: «لا يا بعير! الوزير يدمّر البرلمان من أجل ترسيخ الديمقراطية». قلت: «صدق من قال: «العلم بحر». أين الڤوطكاء؟». هنا دخل الوزير فقفزت أمامه منشداً: «حسم «القصف» ما اشتهته الأعادي ∴. وأذاعته ألسن الحُسّادِ. وأرادته أنفسٌ حال تدبيرك.. ما بينها... وبين المُرادِ. ولعَمْري! لقد هُزِزت بما قيل.... فأُلْفيتَ أوثق الأطوادِ. وأشارتْ بما أبيْتَ رجال ∴. كنت أهدى منها إلى الإرشاد. هذه دولة المكارم.. والرأفة... والمجد.. والندى.. والأيادي. كُسِفت ساعة، كما تكسف الشمس،.. وعادت ونورها في ازدياد». عندما سمع الوزير هذه الأبيات تهللت أساريره، واهتزّ طرباً وتنحنح للقرى، وقال: «أيها الرفاق سابقاً! أملأوا كرش هذا الشاعر الصحراوي ڤوطكاء». إنقضّ عليَّ الرفاق سابقاً، وفي يد كل منهم برميل هائل يخرج منه خرطوم أشدّ هولاً. قلت: «سيّدي الوزير! الرحمة! لا أستطيع أن أتفاوض مع حضرة جنابكم وأنا مڤوطك». قال: «ولكني هدمت البرلمان وأنا مڤوطك». قلت: «ومن لي بكرش هضوم للڤوطكاء ككرشكم؟». قال: «كذلك كانت. وما زالت»، قلت: «سيّدي الوزير! أريد أن أشتري بعض الأسلحة الذريّة السوسية». قال: «أبركها ساعة! ٥ بلايين دولار مقابل ٥ قنابل ذريّة». هنا انفجرت ضاحكاً حتى سالت الدموع من

عينيّ. قال: «أضحك الله سن شيخ شمل بني خضير. أين النكتة؟» قلت: «أنا، رغم مشيختي، لا أملك شروى نقير. تستطيع، سيّدي الوزير المارشال، أن تقول إنني على الحديدة». قال: «تقصد أن جنابكم مفلس؟!». قلت: «ـ إعلم، سيدي الوزير المارشال، أنَّ للفقر أحوالاً فصّلها الثعالبي النيسابوري. إذا ذهب مال الرجل قيل أنزف وأنفض. فإذا ساء أثر الجدب والشدة عليه وأكلت السنة ماله قيل عصّب. وإذا قلع حلية سيفه للحاجة والخِلّة قيل أنقح. فإذا أكل خبز الذرة وداوم عليه قيل طهفل. فإذا لم يبق لم طعام قيل أقوى. فإذا ضربه الدهر بالفاقة قيل أحرم وألفج. فإذا لم يبق له شيء قيل أعدم وأملق. فإذا ذلّ في فقره حتى لصق بالدقعاء وهي التراب قيل أدقع. فإذا تناهى سوء حاله قيل أفقع. تستطيع، سيدي مدّمر البرلمان، أن تقول إني مفقع». قال: «مفقعون يضيّعون وقتهم مع مفقع! لولا خوفي أن تطلب بنو خضير دمك لعلقتك من قبّة البرلمان سابقاً. أيها الرفاق سابقاً! اصفعوه مائة صفعة، واسحبوه على وجهه، وضعوه على أول بعير طاكسي متّجه إلى سمرقند سابقاً». فعل الجلاوزة اللئام كلَّ هذا. قلت لنفسي: «هذا جزاء امرىءِ يتعامل مع الدول العظمى اللاحقة والسابقة. لأجربنّ التعامل مع الدول الميديم والزغننة». سافرت، يا حكيم، إلى الماكوستان وحططتُ في عاصمتها زنداباد. وقفت في الميدان حتّى مرَّ بي موكب وزير الدفاع فصرخت بأعلى صوت: : «شباش! شباش! اكسِفورد فِرند! انتيلكتشول!». قال الوزير: «عليَّ بالرجل!». قلت: «سيدي الوزير الجنرال! سوف أوجز إيجازا. دون أن ألغز إلغازا. وأبرز المسألة إبرازا. وأتوقع أن تنجز إنجازا». قال لحرسه: «إرموا هذا البدماش ورا دروازا». قلت: «غمزني الشيطان. وغلبني سجع الكهان. فاستمع لي الآن». قال: «وت كان آي دو فور يو؟». قلت: «ما رأيك، سيّدي الوزير الجنرال، أن تعطيني القنبلة الذريّة الإسلامية فأبيع نصفها، وألقي نصفها الآخر على الكندوستان فيضيع دم الكندوستانيين بين بني خضير». قال الوزير: «أنترستنج آيديا!». هنا، يا حكيم، اقترب منه مخبر سرّيّ، وقال: «اكسلانسي! هذا هو الصيّاد الذي يرمي الوغدان بالشوزن في براري الماكوستان». قال: «أتتكَ بحائنٍ رجلاه». قلت: «الرحمة يا طويل الشوارب!». قال لمن حوله من عضاريط رعاديد: «خذوه فاصفعوه صفعا. ثم اخلعوا ثيابه خلعا. ثم اشلعوا ضلوعه شلعا. ثم اقلعوا أسنانه قلعا». أطلقت، يا حكيم، ساقيّ للريح، وكانت الريح عاصفة، أخذت أوجّهها جنوباً وشمالاً حتى حططتُ على سور الصين العظيم. وقفت على الدروازة الكبرى، وصرخت: «يا معشر الشيناويه! يا معشر الشيناويه! شيخ شمل بني خضير جاءكم يبغي القِرى والبزنس». ما كدت أنتهي من صراخي حتّى أقبل عليّ

فتى صيني في مقتبل العمر، لم يتجاوز السابعة والثمانين، وقال: «مرحباً بالضيف! مرحباً بالشيخ!». أخذني إلى دار فسيحة نظيفة، وسقاني الشاي الأخضر، وذبح لي بطة سمينة كانت ترعى الجنسنج في الردهة. ثم قال: «وت كان آي دو فور يو؟». قلت: «أريد موعداً مع كبير الشيناوية». قال: «كبيرنا أيها الفتى شيخ شمل بني خضير مشغول بالسباحة في الأنهار». قلت: «فمع نائبه؟». قال: «موعدك غداً في قاعة الشعب العظمى». ذهبنا في الصباح الباكر، ومشينا قرابة ٢٥ فرسخاً في القاعة، حتى وصلنا إلى طرفها، فوجدنا نائب كبير الشيناويه، وهو شاب في ميعة الصبا، لم يتجاوز التسعين إلاّ بشهور ما إن وقع نظري عليه حتى صرخت: «أبا «الصين»! ذا الوجه الذي كنتُ تائقاً ∴ إليه، وذا اليوم الذي كنت راجيا. لقيت المروري والشناخيب دونه ∴ وجُبت هجيراً يترك الماء صاديا». قاطعني نائب الكبير قائلاً: «وت كان آي دو فور يو؟». قلت: «إعلم أيها السيد النائب أنني شيخ شمل بني خضير، شاب مثقف متسبّب، خريج جامعات كاليفورنيا، أصلح لمنادمة الأشراف، وأروي نوادر الأعراب، وأستخرج الجن..». قاطعني النائب: «كت أوت...». قلت: «لا تكمل! لا تكمل! بإيجاز غير مُخلّ ولا مُملّ جئت أبغي وكالة القنابل الذرية الصينية». أطرق النائب، ثم سكن، ثم نام، ثم صحا، ثم أطرق، ثم قال: «القنابل الذريّة؟! إعلم، يا ولداه، أن الحرب شرٌّ ودمار. والأسلحة هلاك وفناء. واعلم أنَّ الإشعاع الذريّ يلوّث الجو. ويهدّد غطاء الأوزون. ويغضّن وجوه الصغار والكبار. وقذف الآخرين بالقنابل الذريّة يؤذي مشاعرهم ويجرح عواطفهم. وقد يؤدّي إلى إصابتهم بصدمة عصبية، وحروق من الدرجة الثالثة. ونحن في الصين قوم مسالمون مع استثناءات طفيفة لا تكاد تذكر هي حرب كوريا وحرب ڤيتنام والثورة الثقافية وإخلاء الميادين العامة من اختناقات السير. نحن قوم مزارعون. ما رأيك في أن نعطيك وكالة الشاي الأخضر، فإنه يزيل البخر، ويطيّب النفس. ويشرح الخاطر؟ أو وكالة الثوم، فإنه يذهب القولنج، ويرطب البلغم، ويفتح الشهية؟ أو وكالة الجنسنج فإنه نافع للصفراء، مجرّب للصداع، موصوف للصلع؟». قلت: «جئت السيد النائب مسترزقاً ولم أجىء مستشفياً». قال: «فانصرف راشداً!». تركت الصين، يا حكيم، وأنا أقول لنفسي، صدق أبو حسيد! «أما في هذه الدنيا كريمٌ ∴ تزول به عن القلب الهمومُ؟. أما في هذه الدنيا مكانٌ ∴ يُسَرُّ بأهله الجار المقيمُ؟». خطرت ببالي وأنا أطير فوق رومانياء فِكرة تاريخية. قلت: «لأدهمن العدو الصهيوني في عقر داره. لأطلبن حقي بيدي في دويلة العصابات. لأزورنّ الدولة المزعومة بنفسي ولأحرجنّها». راقت لي الفكرة، يا نطاسي، فهجمت على كابتن القيادة وأشهرت زنوبتي في وجه الكابتن

الروماني وقلت: «إيراب! تيرورست! فندامنتالست! هايجاكنج! خذني إلى مطار تل أبيب وإلاّ فجرت الطائرة ومن فيها بهذه الزنوبية!». ذعر الكابتن، وأوصلني إلى مطار تل أبيب. بمجرد نزولي، قُلت لمخبر الموساد الذي كان يرتدي بالطو أسود، ونظارة سوداء، وطاقية سوداء، ويقرأ نسخة سوداء من «معاريف»، : «خذني، فوراً، إلى رئيسك!». أخذني المخبر السري إلي قيادة الموساد السريّة. دخلت إلى غرفة الرئيس، وقلت: «شالوم! يا جناب الجنرال موشيه بن نمرود بن عادياء، رئيس الموساد». قال: «واعجباه! كيف عرفت رُتبتي واسمي ووظيفتي؟ هذه معلومات سريّة لا يعرفها إلا رئيس الوزراء. وحماته». قلت: «أمّا الرتبة فعلى كتفك. وأما الإسم والوظيفة فعلى جيبك». قال: «ما أعظم ذكاءكم الفطري معشر الأعراب! و ما أقوى حاسة الملاحظة لديكم!». قلت: «إمدح البدوي وخذ عباته». قال: «وت كان آي دو فور يو، يا عدوّ اليهود؟!». قلت: «سامحك الله يا موشيه! أنا عدوّ اليهود؟! أنا؟! «أليس لليهودي عيون؟ أليس لليهودي أيد وأعضاء وأبعاد وإحساس وعواطف ومشاعر؟ ألا يأكل نفس الطعام، ألا تجرحه نفس الأسلحة؟ ألا يتعرّض لنفس الأمراض، ألا يتعالج بنفس الوسائل، ألا يسخن بالصيف نفسه، ويبرد بالشتاء نفسه، شأنه شأن المسيحيّ تماماً؟ ألا ندمى إذا جرّحتمونا؟ ألا نضحك إذا دغدغتمونا؟ ألا نموت إذا سمّمتمونا؟ وإذا أسأتم إلينا ألا نسعى إلى الانتقام؟»». ضحك الجنرال حتى بدت له سن سامية كان يخفيها وقال: «عِش رجباً تر عجبا! إعرابي يتمّثل بشكسبير! تعلمت هذا من سوزان شيلنج». ما إن سمعت اسم سوزي، يا حكيم، بعد هذه السنين، حتّى دارت بي الأرض، ولم أفق إلاّ بعد أن رشّ الجنرال على وجهي ماء الورد المشوب بالهيل والزعفران. قلت: «كانت عميلتكم!». قال «نحن لا نبحث هذه الأمور مع الأعاريب. «ليس الأعاريب عند الله من أحد»». قلت: «ما أوجه الحضر المستحسنات به ∴ كأوجه البدويّاتِ الرعابيب. حُسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية ∴ وفي البداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ. أين «اليهود» من الآرام ناظرة ∴ وغير ناظرةٍ، في الحسن والطيبِ؟» قال: «كت أوت. . .». قلت: «حسناً! حسناً! قدمت في بزنس. أريد أن أشتري قنبلة ذريّة إسرائيلية أسرح بها في عواصم الضاد، فأتمرزق وأتمخرج». قال: «لا مانع من حيث المبدأ». قلت: «البَلا في التفاصيل! ألا تخاف أن يقذفها المشتري عليكم؟». ضحك الجنرال وقال: «إسمع يا بعير! العرب يكرهوننا ولكنّهم يكرهون بعضهم البعض أكثر ممّا يكرهوننا». قلت: «صدقت وإنك لكذوب!». قال: «ولكن قبل موضوع القنبلة أودّ أن أبحث معك المشروع الشرق أوسطي. إعلم، أيها البروفسور شيخ شمل بني خضير، أن حكماء صهيون

قرّروا، بحكمتهم، أن مسألة السلام مسألة وقت. وعندما ينفجر السلام فنحن نريد أن يكون سلاماً حقيقياً يؤدّي إلى محبّة حقيقية وتجارة حقيقية وإزدهار حقيقيّ ورخاء حقيقيّ. واعلم، أيها البروفسور شيخ شمل بني خضير، أنه لا رخاء بدون تكامل. ولا تكامل بدون تقسيم عمل. ولا تقسيم عمل بدون نظرية المزايا النسبية. ودعني أشرح الموضوع بضرب بعض الأمثلة السهلة التي يمكنك استيعابها. خذ موضوع السفن والطائرات. أنتم معشر العربان لديكم خبرة هائلة تراكمت عبر القرون في التعامل مع سُفن الصحراء، البعارين. إذن، نترك لكم البعارين ونأخذ نحن الطائرات. خذ موضوع السُبَح. أنتم معشر العربان تقودون العالم كله في عدد السبح التي تباع لديكم. إذن، نتنازل نحن عن السبح، رغم ما فيها من أرباح هائلة، تقديراً لميزتكم النسبية في صنعها وتسويقها، ونكتفي بأجهزة الكومبيتر. خذ موضوع البترول والبرتقال. أنتم لديكم خبرة كبيرة في البترول، ونحن لدينا خبرة عظيمة في البرتقال. إذن، تأخذون أنتم البرتقال، ونأخذ نحن البترول». قلت: «لحظة! لحظة! أليس المفروض أن نأخذ نحن البترول وتأخذون أنتم البرتقال؟». قال: «نعم! نعم! هذا هو المفروض طبقاً للنظرية. ولكن البترول أسود اللون، كريه الرائحة، مضطرب السعر، يلوّث البيئة، ويدنّس الآفاق الصافية. أمّا البرتقال فجميل المنظر، شذيّ العُرف، يقوي البروستات، ويقاوم الكولسترول، وينفع في علاج الصدفية. ولهذا فسوف نضحّي في سبيل السلام ونعطيكم البرتقال». قلت: «يا جناب الجنرال! أنا لم أقم بزيارتي التاريخية المفاجئة في طلب السلام. هذه مهمّة الرؤساء المؤمنين التاريخيين. أما أنا فمجرّد شريطي يبحث عن قنبلة ذريّة». قال: «حسناً! سوف نعطيك القنبلة. مقابل ٥٠ كلجم من لحمك وشحمك تؤخذ، الآن، عن طريق الجراحة». قلت: «٥٠ كلجم من لحمي وشحمي؟! لا بدّ أنك تمزح، يا موشيه». قال: «لا أمزح». قلت: «وماذا تفعلون بلحمي وشحمي؟». قال: «ندرسه دراسة علمية دقيقة في مركز الجامعة العبرية لتحليل البعارين والبدوان، ونتوقّع أن نحصل على نتائج هامة تحدد مسار عملية السلام». قلت: «وماذا عني؟». قال: «تنصرف بعد أسبوع وفي شنطتك قنبلة ذريّة. وقد أصبحت أرشق وأخف وأظرف.». قلت: «شكراً يا جناب الجنرال! هوّنا!». قال: «خروج الحمام مش زي دخوله». ما إن أنهى الجنرال جملته حتى سقطت من السقف حول الباب شبكة حديديّة جعلت الخروج مستحيلاً. قال: «إمّا أن توافق على الصفقة أو أبقيتك ٩١ سنة في سجن من سجوننا الأرضية بتهمة الغزل في شارب هتلر». قلت: «هذه، والله!، النشبة!». ضاقت الدنيا أمامي، وشعرت بكآبة نفسية حادّة فيها بعض أعراض البارانويا ومظاهر الشيكيزوفرينيا. بغتة، سمعت صوتاً هاتفاً في

أذني: «إصرخْ: «يا تهامي!» إصرخْ: «يا تهامي!» الآن!». صرخت بأعلى صوتي: «يا تهامي! يا تهامي!». قبل أن أنتهي من الصرخة تطاير سقف المكتب شَذَر مَذَر. وهبط منه رجل وقور يرتدي بدلة عسكرية، وعباءة بيضاء، وعمامة خضراء، تحيط به سحابات من البخور. التفت إليّ وقال: «أنا الفريق ركن تهامي متهوم التهامي، من أولياء الله الصالحين، أهل الخطوة». قلت: «أهلاً وسهلاً بالفريق الصالح...». قاطعني: «الفريق ركن!». قلت: «أهلاً وسهلاً بالفريق ركن الصالح». ما إن رأى الجنرال الفريق ركن الوليّ حتى أصيب بذعر شديد، وانتابته الرجفة، وأخذ يستعطف: «سامحني يا تهامي! الرحمة يا تهامي! لم أكن أعرف أنه محسوب عليكم». بصق الفريق ركن الوليّ بصقة خفيفة على الجنرال، وقال لي: «تعلّق بعباءتي، يا بُنيّ». تعلّقت بعباءة الوليّ وانطلقنا نجوب أجواز الفضاء. قال: «أين تريد؟». قلت: «مشير مستشار الاستشاري». قال: «الكونسلتنت؟!». قلت: «ما غيره!». بينما كنا نخترق الغمام قلت: «سيّدي! لم أكن أعرف أن الأولياء لهم رتب عسكرية». ضحك العبد الصالح، وقال: «لنا رُتب. ولكنها غير عسكرية. أنا، مثلاً، رتبتي وتد». قلت: «وتد؟! ما شاء الله! ولماذا ترتدي بدلة عسكرية وتسمّي نفسك الفريق ركن؟». قال: «نحن أهل الحقيقة نعتمد التقية في التعامل مع أهل الشريعة. عملي في القوات المسلّحة مجرد وسيلة لإخفاء العلاقة مع المحبوب». قلت: «ولماذا تريد إخفاء العلاقة؟». قال: «خوفاً من الوهّابية. الوهّابيّة لا يحبون الصوفية. هل أنت من الوهابيّة؟». نظرت إلى الأرض التي يفصل بيني وبينها آلاف الأمتار وقررت الامتناع عن التعليق. إلاّ أن العبد الصالح كرر السؤال. قلت: «سيدي العبد الصالح الفريق ركن الولي الوتد! كيف أكون من الوهّابيّة وأنا شيخ الطريقة الخضيرية؟!». قال: «ما شاء الله! من أتباع الخضر؟! ما هي رتبتك يا بُني؟». قلت: «أحبو على مدارج الطالبين. وأحلم بروضة الواصلين». قال: «أدركت، الآن، أنك من العارفين». وهنا انحطّ العبد الصالح منحدراً نحو الأرض ووقف بي عند خيمة «كونسلتنت أند كونسلتنت أند كونسلتنت». التفتُّ إلى الفريق ركن الوتد لأشكره فلم أر سوى سحائب البخور تعبق في البرية. دخلت على الدكتور مشير مستشار الاستشاري الذي ما إن رآني حتّى هبَّ واقفاً وصاح: «الحذيّة!». صحت بدوري: «أبشر بالعطيّة!». طوى الطمّاع ثوبه وقال: «صُبَّ الدريهمان في الثوب!». انقضضت عليه، وصفعته ٥٠ صفعة. وسحبته على وجهه ٥ مرات حول الخيمة، وقلت: «هذا نصيبك من الغنيمة ولو زادوا لزدناك». قال: «ماذا حدث؟». رويت له ما دار بالتفصيل، وقلت: «بم تنصحني الآن؟». قال: «لحظة!». ضغط على زرّ كومبيتره، وهو يردّد

«إفتح يا بيتزا! إفتح يا بيتزا!» قلت: «في المرة الماضية كنت تقول: «إفتح يا شونج جم!». لم غيرت الجملة؟». قال: «أبدّل الكود بين الحين والحين خوفاً على المانيو من الڤيروسات، ولكن هذه أمور فنيّة تستعصي على الخضيرية». تأمل الاستشاري الشاشة مليّاً، ثم قال: «هناك ٣ أنواع من الأسلحة البيضاء لا يوجد لها وكلاء مُسجّلون. سكاكين الجيش السويسري. والسيوف اليمانية. والسيوف الكندوستانية». مشيت عنه، وعندما وصلت إلى باب الخيمة التفتُّ، وقلت: «وماذا عن العمولاء؟». قال: «لا أريد شيئاً. هذه نصيحة لوجه الله». قلت: «كثّر الله خيرك». امتطيت، يا دكتور، طائرة سويس إير حطّت بي في مطار زيورخ، ومن هناك انطلقت في طاكسي إلى مكتب الكولونيل موڤنجبك، مدير العلاقات العامة في الجيش الفيدرالي السويسري. دخلت عليه، ووجدته متمنطقاً بسكين من سكاكين الجيش السويسري، فأنشدته: «أكولونيولٌ؟ أم قرن شمس هذا؟ ∴ أم ليث غابٍ يقدم الأستاذا؟. شِمْ ما انتضيت فقد تركت ذبابه ∴ قطعاً، وقد ترك العباب جذاذا. غادرت أوجههم بحيث لقيتهم ∴ أقفاءهم وكبودهم أفلاذا». قال الكولونيل: «كت آوت. . .» قلت: «وي! يا! داكو! يا ول! بونجور مسيو لا كولونيل! جُوتي مورجَن هِرْ أوبسْت!». قال: «وتْ كان آي دو فور يو؟». قلت: «أريد، سيّدي الكولونيل، وكالة سكاكين الجيش السويسري». قال الكولونيل: «يحرّم القانون السويسري على الأجانب ممارسة التجارة». قلت: «ما هذا بكرم ضيافة». قال: «وأزيدك من الشعر بيتاً! ويحرّم القانون السويسري على الأجانب تملّك مربط عنز في جنيف وضواحيها. ويحرّم عليهم شراء مصانع الساعات. ويحرّم عليهم الإقامة في البلاد أكثر من ثلث ساعة. ويحرّم عليهم رمي قشور الفصفص. . .».

- عفواً يا پروفسور! شو يعني الفصفص؟

- الفصفص، يا نطاسي، يعني القضامة. «ويحرّم إصطحاب المربيّات الشرقصيات إلى منتجعات التزلج». قلت: «ألا يحرّم القانون على الأجانب وضع مصاريهم في بنوككم؟». ضحك الكولونيل ولم يجب. قلت: «لو علم الله فيكم خيراً يا أهل سويسراء ما حرمكم المنافذ البحرية، ولا جعل حرس البابا منكم، ولا ابتلاكم بالحياد السلبي، ولا بلبل ألسنتكم بعدة لغات رسمية، ولا جعلكم من سكنة الكانتونات، ولا جعل رزقكم في أبرد ما عندكم». أخرج الكولونيل من جيبه علبة شيكولاطاء صغيرة ماركة نسطلاء، وقال: «مصّ هذه الشيكولاطاء وسوف يتحسّن مزاجك». أخذتها قائلاً: «خذ الحفنة من اللحية العفنة!». قال:

«كيف قلت؟». قلت: «أو رڤوار! آوڤي دزَنَ! شاو پامپينو!». جاء، يا حكيم، دور السيوف اليمانية. أرسلت تلكساء إلى صديق يماني مثقف شاعر متسبّب. قلت فيه بعد الديباجة: «أثمة أمل في الحصول على وكالة السيوف اليمانية فأنا أشتهي أن أتاجر بها؟». ردَّ عليَّ متلكساً: «الظروف الراهنة تمنع تصدير السيوف». تلكست: «ماذا تقصد بالظروف الراهنة؟». قال: «الوحدة التاريخية، والديمقراطية، والوئام والسلام». قلت: «العذر عند كرام الناس مقبولُ». لم يبق أمامي سوى السيوف الكندوستانية. امتطيت، يا نطاسي، طائرة إيركندوستان، وجلست في مقعد في الترسو. بعد الإقلاع، أتتني مضيفة كلحاء ملحاء بصحن ورقيّ، وقالت: «إذهب بهذا الصحن إلى الفِرْست كلاس. واطلب رزقك هناك». قلت: «أشحذ الطعام من الركّاب في الفِرْست؟!». قالت: «تشحذ!». قلت: «واذلاّه يا بني خضير!». قالت: «كثير من الرجال المقدسين في كندوستان يشحذون حتّى يتعوَّدوا على انكسار النفس والتواضع ويعزفوا عن ملذّات الدنيا». قلت: «آنستي الكلحاء الملحاء! أنا لستُ من الرجال المقدسين. أنا بزنسمان! تستطيعين اعتباري من الرجال المدنسين. ثم إن نفسي مكسورة بطبيعتها، وأنا متواضع بالفطرة، ولم أصل هذه المواصيل إلاّ بحثاً عن ملذّات الدنيا». قالت: «ليش سوّي جنجال أنتَ؟!». قلت «قال عنترة: «ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّه ∴ حتى أنال به كريم المأكل». قالت: «إذن، فاشحذ مستر عنترة!». ما زلنا في شيل وحطّ، والطائرة تشيل وتحطّ، حتى وصلنا مطار أولد دهلي. من المطار انطلقت في دراجة طاكسي إلى مكتب وزير الصناعات الحربية الكندوستانية. وما إن دخلت عليه حتى صرختُ: «مَنْ مبلغُ الأعراب أني بعدها ∴ جالست رسطاليس والإسكندرا؟. ومللت نحر عِشارها... فأضافني ∴ من ينحر البدر النضار لمن قرى؟. وسمعتُ بطليموس دارسَ كتبه ∴ مُتملّكاً.. مُتبدّياً.. متحضّرا؟» قال: «كت آوت..» قلت: «حسناً! حسناً! أريد وكالة السيوف الكندوستانية». قال: «وماذا ستفعل بها؟». قلت: «أبيعها في بلاد العُربِ التي هي أوطاني من الشام لبغدان ومن مصر إلى يمنِ..». قال: «ألا يوجد خوف من إعادة تصديرها إلى الماكوستان؟». قلت: «ماكوستان؟! ماكوستان؟! لم أسمع بهذا الإسم من قبل. إسم مطعم؟ أو بقالة؟». بدت علامات الارتياح الشديد على وجه الوزير، وهنا تقدّم مخبر سرّي لئيم خبيث وقال للوزير: «سِرْ! بعيني هذه السّرية اللئيمة الخبيثة رأيتُ هذا الرجل يفاوض وزير الدفاع في الماكوستان». قال لمن حوله: «خذوه فاصفعوه صفعاً...». لم أدعه يكمل العبارة، وأطلقت ساقيَّ للريح، وكانت من نوع المون سون، ولم أقف إلاّ عند خيمة الاستشاري. إستقبلني الدكتور وهو يضحك: «أبشر! أبشر! مات أبوك!

وتولّى المكتب توزيع التركة. ونصيبك ربع مليون دولار». قلت: «أبموت أبي تبشرني يالكع؟!». قال: «إعلم أن فرويد قال إن الرجل لا يصبح رجلاً إلاّ إذا مات أبوه». قلت: «عليكَ وعلى فرويد اللعنة!».

ـ عفواً، يا پروفسور! هل صحيح ما قاله؟

ـ نعم. قال فرويد ذلك.

ـ أعرف أن فرويد قال ذلك يا پروفسور!! أسألك عن نصيبك من التركة.

ـ نعم. كان نصيبي من التركة ربع مليون دولار. وتذكر، يا حكيم، أن هذا قد كان في الزمانات. قبل اكتشاف الأوبك والتضخم والأفشور بانكنج. يوم كان ساندوتش الفلافل بفرنك، وساندوتش الشاورماء بربع ليرة، والمشوار من بيروت إلى بحمدون الضيعة بورقة. كان المبلغ ضخماً جدّاً. وبدأت أنفقه بحماسة. حتى انتهى في شهور.

ـ في شهور؟! كيف؟!

ـ آه! هذا يأخذنا إلى قصّتي مع فرحة ربيع.

ـ فرحة ربيع؟! المطربة المشهورة؟! كنت تعرفها؟!

ـ أعرفها؟! تزوّجتها!

ـ أنت، يا پروفسور، تزوجت فرحة ربيع؟! كيف؟ متى؟

ـ أي نعم! تزوجتها. ولا تكن عَجِلاً، ولا عجولاً، ولا معجالاً. كانت أيامها جميلة، خارقة الجمال. كم عمرها الآن.

ـ في السبعينات تخمين؟

ـ «آه مما فعل الدهر بنا!»، كما يقول ناجي. كانت فرحة أجمل إنسانة رأيتها في حياتي. بعد سوپر. كانت شقراء. أعني أنها كانت شقراء حقيقية، لا مصبوغة. خضراءَ العينين، ملفوفة الخصر، ناهدة الصدر، حاضرة الابتسامة. قصتي معها لا تخلو من غرابة. رأيتها، أول مرّة، في ملهى من ملاهي بحمدون. كنت فتى مراهقاً أقضي الصيف في الجبل مع أسرتي. كنت في الخامسة عشرة، أو نحوها. وكانت فرحة أكبر مني قليلاً، بسنتين أو ثلاثة. لم تكن معروفة وقتها. كانت تخطو الخطوة الأولى من مشوارها الفنيّ. كانت تأتي مع فرقة الحراسة المكوّنة من أبيها وأمها وعدد من أقاربها. كانت الفرقة تتفوّق، عدداً وعُدّة وإقداماً وقيادة وتدريباً

وانضباطاً، على الفرقة ١٦. تذكر الفرقة ١٦؟ ما يُسمّى، هذه الأيام، شرطة النجدة. وكان المعروف عن فرحة أنها عذراء ومستقيمة. شريفة في كباريه؟ إشكالية؟! يمكن للشرف أن يكون مسألة نسبية. كنت أتطلّع إلى فرحة من بعيد، وأحلم. كانت تظهر على المسرح في منتصف الليل تماماً. وتغني أغنيتين وتختفي. وكنتُ أعود إلى المنزل، وأفتح الشبّاك، وأتأمل غابات الصنوبر حتى يطلع الفجر. لا تستهن بغرام الخامسة عشرة، يا نطاسي. أيامها، لم أكن أكتب الشعر. كنت أكتفي بالشوق والتفكير وأشياء أخرى لا تخفى على الفطنة. لا أعتقد أنها لاحظتني. مجرّد مراهق في ملهى مزدحم. كنت أحبّها بكل عنف المراهقة. الحُبّ من جانب واحد أعنف أنواع الحُبّ، وربّما كان أخلدها. والسبب؟ السبب أنّه لا توجد في هذا الحبّ منافسات، ولا مشاحنات، ولا مشاجرات، ولا إمكانية للفتور، ولا احتمال للملل، ولا أمل في الفراق. الحبّ من جانب واحد هو الحب پاراكسلانس، الحب النموذج، الحُبّ في شكله البريء الأصلي. انتهت الصيفيّة وبقيت صورة فرحة مطبوعة على جدران قلبي. عندما قُسْطِرَتْ فيما بعد، قال المقسطرون إنهم رأوا صورتها بوضوح. ثم تفرَّقَتْ بنا الطرق. ذهبتُ إلى أمريكا، وتعرَّفت على سوزي، وحصلت على الدكتوراه، وقمت بواجبي في تعليم البشرية، وحاولت أن أرتزق من التجارة، ثم تُوفّي أبي وترك لي ربع مليون دولار. قررت أن أنفق المبلغ في بيروت. كنت أحبّ بيروت كما يحبها كل عربي. وإذا كانت عاصمة كل عربي هي زوجته فبيروت عشيقة كل عربي. هل قال نزار قباني هذا قبلي؟! مش مهم! المهمّ أن الملاحظة صحيحة، بصرف النظر عن قائلها. وحتّى نزار قبّاني تطلع بإيدو كل ٢٠ سنة ملاحظة صحيحة واحدة. كنت، هنا، في بيروت عندما رأيت فرحة في ملهى ليلي شهير. كانت قد كبرت، بعض الشيء. أصبحت في العشرينات، بدايتها أو نهايتها. لا أدري. ولا تثق بامرأة تخبرك عمرها الحقيقيّ، كما قال أوسكار وايلد. وكانت، في هذه الأثناء، قد اشتهرت كثيراً. مثّلتْ في عدد من الأفلام واحتلّت صورها أغلفة المجلات. واكتشفت، ويا للغرابة!، أنني لا أزال أحبّها. حاولت، بكل وسيلة، أن ألفت نظرها إليّ. كنت أجلس في الطاولة الرئيسية الأمامية كل ليلة. ثم بدأت حرب الخليج الأولى. حرب الشمبانيا. ظهر منافس خليجعربستاني حاول، بدوره، لفت نظرها إليه. وبدأت المعركة. يرسل ٢٠ زجاجة شمبانيا فأرسل ٤٠. حتى انهزم عندما بدأت أرسل ٢٠٠ زجاجة. بترول العرب للعرب، وشمبانيا الفرنسيين للعرب. حرب الفقاقيع التي سحقت فيها عدوّي سحقاً. أصبحت فرحة تبتسم لي. ثم تضحك. ثم تعرّفتُ عليها، وعلى أبيها وأمّها وبقية أفراد فرقة الحراسة، التي شاب بعض أعضائها وزاد

عددها. وبدأنا نخرج معاً، أعني المجموعة بأكملها. كنا نحجز المطعم كلّه. في هذه الفترة، بدأت أكتب كلمات أغانيها. كل أغنيات فرحة التي اشتهرت تلك الأيام كانت من تأليفي. ولكني، بطبيعة الحال، لم أفصح عن اسمي الحقيقي. كنت أسمّي نفسي «بلبل المحطّة»، «وصداح البسطة»، «وزيز الوادي». خذ، مثلاً، «على دلعونا» و«يا أبو الزلف»...

ـ عفواً يا پروفسور! هذي أغاني فولكلور قديمة.

ـ نعم! نعم! لا أنكر ذلك. ولكني طوّرتها وعصرنتها وحدّثتها. هل تعرف الفرق بين الحداثة والتحديث؟ لا تعرف؟ هذا ما توقّعته! هذا حديث يطول. كما طالَ طريق أبي حسيد عندما سأل وهو بنجد: «أطويلٌ طريقنا أم يطولُ؟»، وهو أدرى. في هذه الفترة، يا حكيم، بدأتْ فرحة تلميحات الخطوبة والزواج. وتجاهلتُ التلميحات ما وسعني التجاهل. ثم طلب أبوها عقد مؤتمر قمة ثنائي بيني وبينه، وعُقدت القمة في مقهى ما بقرب الملعب البلدي. وأوضح الأب أن ابنته عذراء وشريفة وأنها لا تستطيع الاستمرار في مقابلتي خوفاً على سمعتها. وقال إن عليّ، إذا كنت صادقاً في حب فرحة، أن أتقدم لخطبتها، وإلاّ فإن عليَّ أن أتركها كولد تيركي. وهذا، كما يعرف حضرة جنابك، يعني التخلّي عن عادة إدمانية بغتة ومن دون مقدّمات. كنت صادقاً في حبّي، والصدق في الحب مثل الصدق في أيّ شيء آخر، مسألة نسبية، وتقدّمت لخطبتها. تبيّن أن السيّد الوالد، الصهر العزيز، الحسيب النسيب، مفاوض بارع آلا كيسنجر. كما اتّضح أن لديه معلومات بالغة الدقّة عن وضعي المالي. بين المهر، وأطقم المجوهرات، والملابس، والڤيلا التي اشتريتها لفرحة في خلدة، تطاير كل ما كان لديّ تقريباً. ومع ذلك كنت سعيداً غاية السعادة. كنت أمشي على الغيوم، وهذا مجرّد تعبير وإلاّ فإنني أشكّ أن الغيوم تستطيع أن تتحمّلني. إختفت الرقابة العائلية بمجرد كتب الكتاب، وبدأنا نخرج بمفردنا. عندها أدركت، يا طبيب، لماذا يهيم الرجال حُبّاً بالشهيرات.

ـ لماذا، يا پروفسور؟

ـ سؤال وجيه! والجواب مُعقّد بعض الشيء ولكن يمكن تبسيطه. القوة، يا حكيم، القوة! فتّش عن القوة! پورْ! القوة التي تفسد، والتي تفسد بصفة مُطلقة عندما تكون مطلقة. وقد قال هذه الجملة اللورد اكتون، وإن كانت تنسب، خطأً، إلى هوبز، وقد تنسب إلى تشرشل. عندما تكون حبيبتك امرأة مشهورة يعشقها جميع الرجال تكون أنت قد حققت انتصاراً عظيماً على جميع الرجال. على الملايين! في كل مكان كنا نذهب إليه كان الناس يتجمهرون حول فرحة يطلبون توقيعها.

ـ وما بتنزعج إنت؟

ـ أنزعج؟ على العكس، كنت أحسّ بشعور لذيذ بالقوّة. يَوز! كل هؤلاء يعشقون هذه المرأة، وهذه المرأة لي أنا. إذن، أنا أعظم من كل هؤلاء! كانت فرحة أول امرأة شهيرة في حياتي، ولكنها لم تكن الأخيرة. قد أحدّثك عن الأخريات إذا إجا على بالي. خذ، على سبيل المثال، ب. ب.

ـ مين ب. ب؟!

ـ ولو؟! نسيت ب. ب؟! بريجيت باردو. القنبلة الفرنسية الشقراء.

ـ أنت عرفت بريجيت باردو، يا پروفسور؟

ـ أي نعم! وكان ذلك منذ سنوات قليلة. لم تكن ب. ب. وقتها في فورة الصبا. تستطيع أن تقول إنها كانت في ميعة الكهولة. كنت أمتطي حماراً فارهاً. . .

ـ حمار؟!

ـ أيْ نعم! دونكي إبن دونكي! كنت أمتطي حماراً فارهاً في سان تروپيز، على الشاطىء اللازوردي، المنطقة التي يعرفها حضرة جنابك جيداً، عندما بدأ حماري ينهق بشدّة، ويجري وراء حمارة فرنسية حسناء. سرعان ما لحق حماري بالحمارة، وتبينّ أن على ظهر الحمارة شقراء عليها مسحة من جمال غابر. التفتتْ إليّ وقالت: «بيل أوم! ڤوزا ڤيه ليز آن؟». هنا لاحظت أنها بريجيت باردو.

ـ عفواً، يا پروفسور! شو قالت؟

ـ كنت أعتقد أنك تفهم الفرنسية، يا نطاسي، باعتبارها لغة أمّك الرؤوم.

ـ ما فهمت شي! الأكسنت فظيع!

ـ الأكسنت؟! هذه أكسنت بريجيت باردو. سبق أن أخبرتك أني أفصح من يتحدّث الفرنسية باستثناء ديجول. حسناً! قالت: «أيها الرجل الوسيم! هل تحبّ الحمير؟» قلت لها: «وي! وي!». ابتسمت، وقالت: «ولم؟». قلت: «إعلمي، يا مدام بريجيت، أني وُلدتُ حيث يلتقي الرمل بالماء، في بلدة مشهورة بالحمير شهرة بوردو بالنبيذ، ونيس بالورود، وفرنسا، عموماً، بالثوم». هنا ضحكت ضحكة فيها غنج ذكّرني بعهود جمالها، وقالت: «بلدة مشهورة بالحمير؟ حدّثني عن حمير بلدتكم». قلت: «إعلمي، يا مدام بريجيت، أن حمير بلدتنا أضخم حمير في العالم، وأوسم حمير في العالم، وأفحل حمير في العالم. وبلدتنا تنتج جميع أنواع الحمير. الحمار الأسبورت، الحمار الكونفرتبل، الحمار أبو بابين، الحمار ١٢ سلندر، حمار العائلة، حمار السباق، وحمار النكاح». وهنا ضحكت وقالت: «حمار النكاح؟!».

قلت: «وأزيدك شوق! عائلتي، بالذات، تشتهر بالفحولة، فحولة رجالها، وفحولة حميرها». قالت: «أوه! لا! لا!». في هذه الأثناء، كان حماري قد فقد الأمل في وصل حمارتها، وبدأ ينشد: «دُهيت بهذا الحب منذ هويتُ ∴ وراثت إرادتي فلست أريثُ. كلِفتُ بإلفي منذ عشرين حجّة ∴ يجول هواها في الحشا . . ويعيثُ. ومالي من برح الصبابة مَخلصٌ ∴ ولا لِيَ من فيض السقام مُغيث. وغيَّر منها قلبها لي نميمةٌ ∴ نماها أحمُّ الخصيتين خبيثُ. وما نِلتُ منها نائلاً غير أنني ∴ إذا هي راثتْ رثتُ حيث تروثُ».

ـ شو هالشعر، يا پروفسور؟!

ـ شعر حمار.

ـ حاجة، يا پروفسور! شعرك أنت؟

ـ سامحك الله! شعري أنا؟! حقيقة الأمر أنه من شعر حمار من حمير الجنّ، وإذا لم تُصدقني فارجع إلى «التوابع والزوابع». ترجمتُ هذه الأبيات الحمارية لبريجيت فُسرّت سُروراً عظيماً، ونظرتْ إلي وغمزتْ، ثم قالت: «اتبعني إلى منزلي. هناك مفاجأة سارة تنتظرك». تبعتها وأنا أمنّي النفس بأشياء لا تخفى على الفطنة. كانت هناك، بالفعل، مفاجأة، إلاّ أنها لم تكن سارة. ما إن دخلت معها حديقة منزلها حتى تجمّع حولنا أكثر من ٥٠٠ حمار وحمارة جمعتهم ب. ب. من كل مكان لتربيتهم وإغداق الحب عليهم. أحاط بي الحمير، هذا يلحسني، وهذا يقبّلني، وهذا يركلني، وهذا ينشدني شعراً. أطلقت، يا حكيم، ساقيَّ للريح، حتى حطتّ بي على متن حماري الذي التفت إليّ وضحك ناهقاً. قلت: «إشمت أيها الخبيث! فأنا مثلك: «وما نلت منها نائلاً غير أنني ∴ إذا هي راثت رثت حيث تروثُ». عمّاذا كنا نتحدّث؟

ـ عن فرحة ربيع.

ـ صدقت! دعني أختصر. جاء الفرح. كان أعظم فرح شهدته بيروت في تاريخها. غنّت فيه صباح وغنّى فريد الأطرش ووديع الصافي وغنت ماريّا كالاس . . .

ـ ماريّا كالاس؟ اليونانية؟

ـ أي نعم! غنّت، ليلتها، بالعربية. غنّت، بطلب خاصّ مني، «إسقنيها، بأبي أنت وأمّي». وحضر الحفل أكابر الناس. جاء صديقي كميل شمعون. وصديقي سامي بك الصلح. وصديقي الحاج حسين. وصديقي رشيد أفندي.

وصديقي صائب بك الذي كان يقال عنه، في تلك الأيام، «ما بيصاقب. إلا صائب». جاء كل الوجهاء والأعيان وعدد لا بأس به من السوقة والدهماء. وعدد محترم من المغاتير...

- عفواً، يا پروفسور! شو يعني المغاتير؟

- المغاتير مجموعة من سيّدات الطبقة العليا يتحجّبن حجاباً كاملاً ويهجمن على حفلات الزواج من غير دعوة.

- لشو؟

- لقافة، يا طبيب، لقافة! واللقافة هي الفضول وحبّ الاستطلاع اللي ما إلو طعمة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا الفرح. كان الفرح في هوتيل سان جورج. يوم كان أعظم فندق في العالم. يلتقي في باره أمهر الجواسيس. وأعظم المراسلين. وأكبر المهرّبين. وترتّب في أروقته نصف انقلابات العالم العاشر. وثلاثة أرباع البراطيل التي تقدّم إلى الجهات المختصّة. بعد الحفل، انتقلنا إلى الجناح الفخم المطلّ على البحر. إرتدت فرحة قميص نوم وردياً، وجاءت في زوبعة من العطور، ولسبب لا أدريه طلبت مني أن أنشدها شعراً. منتهى الرومانسية! قلت: «لو كنت أستطيع أن أكتب بالحروف جمال عينيك، وأحصي بالأرقام مظاهر الروعة فيك، لقالت العصور القادمة: «هذا الشاعر يكذب! مثل هذه اللمسات السماوية لا يمكن أن تصافح وجوه البشر». عندها، سوف تصبح أوراقي المصفرّة بفعل السنين موضع تندّر. شأنها شأن المسنّين الذين يمتازون بطول اللسان لا بالصدق. سوف يصبح ما تستحقّينه مجرَّد خيال من شاعر جانح، مجرد وزن جامح في قصيدة عتيقة». قالت: «شعر مين هايدا؟». قلت: «شعر شكسبير، تقبريني!». ولم أجد من الملائم أن أضيف أن هناك احتمالاً قوياً أن يكون شكسبير كتبه عن غلام. قالت: «بدّي شِعر عربي!». قلت: «تِكرمْ عينك!». لا بُدّ أنك تتفق معي، يا طبيب، أن هذه عاطفة قومية تستحقّ التقدير خصوصاً في مثل هذا الموقف. قلت لنفسي: «هذي حزَّة من حزّات أبي حسيد».

- عفواً، يا پروفسور! شو يعني حزَّة؟

- حزَّة تعني وقت. أي هذا وقت المتنبي. بدأت أترنّم بصوت جهوري أجش دافىء: «تحملُ المسكَ من غدائرها الريح، .. وتفترُّ عن شتيتٍ بَرودِ. هذي مهجتي لديك لحيني .·. فأنقصي من عذابها. أو فزيدي. شيب رأسي، وذلتي، ونحولي .·. ودموعي. على هواك شهودي». هنا، يا نطاسي، بدأت المأساة.

ـ المأساة؟ خير؟

ـ شر! التفتّ فإذا بدفّاية منطرحة بيني وبين فرحة.

ـ دفّاية؟! مين دفّاية؟!

ـ هل نسيت؟ زوجتي الجنيّة! كانت فرحة ترتدي قميص نومها الوردي، وتهز رأسها طرباً مع أبيات أبي حسيد، وتستعدّ لطلاق أشهر عُذريّة في تاريخ لبنان، عندما انطرحت دفّاية بيني وبينها. فرحة لم تر دفّاية لأنّ خلايا مخها لم تتعرّض لصدمات كهربائية وهذا ما عقّد الأمور أكثر فأكثر. بدأت دفّاية تغنّي في أذني: «إشتقتُ إليك فعلّمني ألاّ أشتاق». قلت بغيظ حاولت إخفاءه: «رجاءً! رجاءً! إذهبي الآن وعودي في وقت آخر». ظنَّتْ فرحة أني أخاطبها هي، فصرخت: «أذهب الآن؟! ليلة زفافنا؟! وأعود في وقت آخر؟!». قلت: «يا فرحتاه! لم أكن اتحدّث معك. كنت أتحدّث مع دفّاية». بدأت فرحة تبكي وتتأوّه: «دفّاية؟! دفّاية؟! هل أنا مثلّجة حتى تحتاج إلى دفّاية ليلة دخلتنا؟!». هنا، بدأت دفّاية تمارس حقوقها الزوجية معي. فرحة، كما أخبرتك، لم تر دفاية، ولكنها كانت تراني. أخذت تصرخ: «شو عمتعمل؟! شو عمتعمل يا أزعر؟!». بمجرّد انتهاء دفّاية بدأت أشعر بالحروق إلاّ أن دفاية أعطتني المرهم فهدأ الألم. ثم بدأت دفّاية تضحك. حاولت فرك أذنها اليمنى لتسكت، إلاّ أنها لم تمكنّي من أذنها. أصبح الموقف تراجيكوميديا: دفّاية تضحك، وفرحة تبكي، وأنا أجري. وصل الجنجال إلى أسماع فرقة الحراسة التي كانت تعسكر في نفس الطابق تحسّباً لأيّ طارىء. دخلت الفرقة الجناح وبدأت فرحة النشيج: «المجرم! النذل! يخونني ليلة الدخلة! أمام عيني! يخونني مع دفّاية!». أصرَّ السيد الوالد على طلاق فوري، ودفع فوري لمؤخّر الصداق. إنصرفت فرقة الحراسة بفرحة، وبالبقية الباقية من رصيدي في البنك. واستمرّت دفّاية تضحك بأعلى صوتها حتى فقدت أعصابي وحاولت قتلها. هل حاولت قتل جنيّة تضحك يا حكيم؟

ينظر الدكتور سمير ثابت إلى البروفسور ويقهقه، ولا يجيب.

ـ وأنت، أيضاً، تضحك؟! تظنّ أن المسألة مسلّية. ليس من السهل قتل جنيّة تضحك، خصوصاً إذا كانت أخفّ منك وزناً وأسرع حركة وتستطيع اختراق الجدران. لا أطيل عليك الكلام. في اليوم التالي وجدت نفسي في هذا المكان التاريخي، في العصفورية.

ـ يقول الملفّ إنك حاولت الانتحار، يا بروفسور.

ـ لم أحاول الانتحار يا عميّ. لماذا أحاول الانتحار؟ هل أنا من حمير بريجيت باردو؟ كنتُ في أوج السعادة، في ليلة زفافي، فلماذا أحاول الانتحار؟ كنت أريد قتل دفّاية.

ـ بس أنت زتّيْت حالك من البلكون.

ـ ما زتّيت حالي يا عمّي. كانت دفّاية تقف بأطراف أصابعها على جدار البلكونة، وتمدّ لسانها لي، وتضحك. هجمت عليها، وألقيت بثقلي على الحاجز الذي لم يُصمّم لتحمّل مثل هذه الهجمات. إنهار الحاجز، ووجدت نفسي أهوي إلى مياه البحر الأبيض المتوسّط الذي طلب منه البرنس، لأسباب لم يستطع أحد العثور عليها حتى الآن، أن يبتلع جميع مائه. من حسن الحظ، لم يسمع البحر نصيحة البرنس وإلا كنت فطست. شاءت المقادير أن أسقط بقرب فيلبي الابن الذي كان، وقتها، يتمتّع بوصلة سباحة مبكّرة مع السفير السوفييتي. ذعر الرجلان عندما أبصراني لأنهما تصوّرا أني قذيفة بشرية أطلقتها السي. آي. إيه عليهما، ولاذا بالفرار. ما إن ارتطمت بالماء، حتى أصبت بالإغماء. جاء رجال الإسعاف، وظنوني ميّتاً، ونقلوني إلى هوتيل ديو. هناك، طلعت دفّاية من الجدار، وبدأت تضحك حتى أفقت من الإغماء، واستمرّت تضحك. إعتقد الأطباء أنني أنا الذي كنت أضحك لأنهم لم يروا دفّاية. قرروا أنني جُننت. وهكذا انتهى بي المطاف هنا، تحت إشراف الدكتور ألبير زعتر. تبعتني دفاية وظلت تضحك حتى كاد الدكتور زعتر يُجنّ. ثم اختفت فجأة. وبدأت معاناتي مع الدكتور زعتر. بدأ الاستجواب. وكان طبعة ثانية مصغّرة ومنقّحة من استجواب الدكتور جونسون. «لماذا حاولت الانتحار، يا بروفسور؟». «لم أحاول الانتحار، يا دكتور زعتر». «ولكنك ألقيت بنفسك من البلكون». «لم ألقِ نفسي. انهار الحاجز فسقطت». «لماذا انهار؟». «لأني هجمت عليه». «هجمت عليه لأنك كنت تحاول الانتحار». «هجمت عليه لأني كنت أحاول الإمساك بدفّاية». «دفّاية؟!». «نعم. دفّاية. زوجتي الجنيّة». «حاجة، يا بروفسور! هل تتوقّع مني أن أصدّق هالحكي؟». «سمعتها تضحك بنفسك». «كنت أنت الذي تضحك، يا بروفسور». «كيف كان بإمكاني أن أضحك وأنا أتكلّم معك؟». «حيلة قديمة من حيل المشعوذين المسرحية. ڤينترولينكوزم». «لا أعرف ما هو الڤينترولينكوزم. ولستُ مشعوذاً مسرحياً». «لنرجع إلى موضوعنا. لماذا حاولت الانتحار؟». «لم أحاول الانتحار. كنت أحاول الإمساك بدفّاية». «إسمع، يا بروفسور! دعنا من قصص الجنّ المسلّية. هل عجزت عن مضاجعة فرحة؟». «لم أعجز عن مضاجعتها». «إذن، هل قضيت وطرك منها؟». «لا».

«لماذا؟». «لأني لم أحاول. لم أبدأ. إنطرحت دفّاية بيني وبينها على الفراش قبل أن يحدث شيء». «لماذا لا تعترف بالحقيقة؟ لقد حاولت الانتحار لأنك عجزت عن مضاجعة زوجتك ليلة الدخلة لأنك مصاب بالعجز الجنسي». «يا دكتور! يا دكتور! كانت دفّاية تقضي وطرها مني. لم يكن هناك عجز جنسي». «هل تريد مني أن أصدّق هذا الكلام الفارغ عن زوجة جنيّة؟». «هذا كلام صحيح». «أريد أن أرى الجنية بعيني». «لا تستطيع أن تراها». «لماذا؟». «لأنَّ مُخك لم يتعرض لصدمات كهربائية». «كثير من المرضى يُعالَجون بالصدمات الكهربائية ولا يرون الجن». «هذا صحيح. لأن الصدمات لم تؤثّر على خلية المخ رقم ٦٦٦٦٦٦١». «شو هاالخليّة؟». «هذه هي الخليّة التي تنظّم الإتصال بين الإنس والجنّ». «هل تتوقّع مني أن أصدق هذه الترّهات؟». «أنت حرّ يا دكتور. صدّق ما تشاء». «لنرجع إلى موضوعنا. متى بدأت تعاني من العجز الجنسي؟». «لم أعرف العجز الجنسي قط. مشكلتي العكس تماماً. مثل الخليجعربستاني الذي وصل إلى مطار هيثرو الدولي، وكتب في خانة الجنس: «زايد شوي». . «ماذا تقصد؟». «أقصد أني مُبتلى بقوة جنسيّة فوق المُعدَّل». «هاه! تعويض!». «تعويض عن ماذا؟». «عن مشكلتك الحقيقية. العجز الجنسي». «دكتور زعتر! إذا كنت لا تصدقني أحضر لي الآن ممرّضة وشاهد بنفسك». «منيحة! عجزت مع فرحة ربيع وتقدر مع ممرضة؟! منيحة!». «دكتور زعتر! أرجوك! صدّقني!». «متى بدأت تشعر بالعجز الجنسي؟». «سبق أن أخبرتك أني لم أشعر بالعجز الجنسي قطّ». «حسناً! حدّثني عن تجربتك الجنسية الأولى». وجدت من حسن السياسة، يا سايكاترست، أن أجاري زميلك السايكاترست، اعترفت بأنني حاولتُ الانتحار لأنني عجزت عن افتضاض بكارة فرحة ربيع. واخترعت كل القصص التي شعرت أنه يودّ سماعها. قلت له إنني بدأت أواجه الحقائق وبدأت أشعر بتحسّن كبير. سُرَّ زميلك النطاسي وقرّر بعد أسابيع معدودة أنه نجح في علاجي تماماً وأن بإمكاني مغادرة العصفورية. في ليلتي الأخيرة. هنا حدث شيء عجيب جداً.

ـ خير؟!

ـ خير! عدت إلى سفينة الكائنات الفضائية. وفتحت الكائنات مُخي، وغيّرت جهاز الإرسال. ثم قدمت لي شيكاً بمبلغ ألف مليون دولار مقابل استئجار مُخي ٥ سنوات.

ـ شو؟ شو؟ شو؟ شو؟

ـ هذا ما قلته وقتها بالضبط. بليون دولار! مليار! ووعد بربع مليار في أول

كل سنة ميلادية يدخل تلقائياً حسابي في أي بنك أختاره. شرحتُ للكائنات أن هذا مبلغ ضخم جداً، يتعذّر عليّ قبوله لأني لم أستحقّه. أوضحتْ الكائنات أن الحصول على المال لا يشكل أي صعوبة في ضوء التطور العلمي في كوكبهم. أوضحت لي أن بوسعها إيجاد المال في البنك لحظة صرفه عن طريق تكثيف المواد الكيمائية التي تتكون منها الأوراق المالية. لم أستطع فهم الشرح ولكن اقتنعت أن المال غير مسروق، رزق حلال بعبارة أخرى. ثم جاءت المفاجأة الثانية.

ـ خير؟!

ـ لا أدري! قد تكون خيراً وقد تكون شرّاً. أوضحت الكائنة الفضائية الأنثى، الفراشة، لي أنها ترغب في ممارسة الحب معي. سألتها إذا كان هناك خيار. ردّت بالنفي. كل هذا يدور بالتيليپاثي. عندها أنشدتُ قول أبي حسيد: «وإذا لم يكن من «السكس» بُدٌّ .:. فمن العجز أن تكون جبانا».

ـ المتنبّي قال هيك؟! السكس؟!

ـ أبو حسيد قال الموت ولم يقل السكس. ولكني أطوّر شعره ليتناسب مع النافع من تقنية العصر. باختصار، مارست الفراشة معي الحب.

ـ وكيف كان شعورك؟

ـ يستحيل التعبير عنه بالكلمات. شيء مماثل لممارسة الحب مع مولّد كهربائي عملاق. أو مع صاعقة. أو مع مايكرو ويف. بعد أن انتهت الفراشة قالت لي إنها الآن أصبحت زوجتي بموجب قوانين الفضاء الخارجي.

ـ شو ها الحكي؟

ـ ها الحكي مضبوط! دقّاية وفراشة! بين حانا ومانا ضيّعنا لِحانا! وقالت لي أيضاً، إنني، نتيجة المعاشرة، سوف أتمكن من سماع بعض ما يرسله جهاز الإرسال إلى الفضاء الخارجي. لن يكون لي خيار. أحياناً، تدخل بعض المعلومات مخي. سوف تذهل عندما أخبرك ببعض الأشياء التي عرفتها عن هذا الطريق.

ـ خبّرني!

ـ جايّك بالحكي! كل شيء في مكانه. المهمّ، يا طبيب، أني وجدت نفسي، في سن الثلاثين، واحداً من أغنى الرجال في العالم. وكما يفعل كلّ الأغنياء، كان أول شيء سعيت إليه هو مضاعفة ثروتي. بدأت في استئجار مجموعة من المحامين وخبراء المال والاقتصاد. ووزّعت استثماراتي في مختلف أنحاء العالم. وبدأ الدخل

يتدفّق. ولكني لم أتنكّر لمبادئي القديمة. وضعت لنفسي هدفين رئيسيين: نهضة الأمة العربية، وتدمير إسرائيل. ووضعت لنفسي هدفاً شخصياً هو مطاردة السعادة.

ـ مطاردة السعادة! كيف يعني؟!

ـ ولو يا حكيم؟! ولو يا ابن العم سام؟! لا تعرف مطاردة السعادة؟ پيرسيوت أوف هاپنس! ألم تسمع التعبير من قبل؟

ـ معلوم.

ـ معلوم ونص! جاء في إعلان الاستقلال. ورد باعتباره حقاً من حقوق الإنسان الرئيسية. أعني الإنسان الأمريكي. ليس حقاً دستورياً بل حقاً ـ فوق ـ دستوري، باعتبار إعلان الاستقلال هو الذي قاد، فيما بعد، إلى الدستور. وطارد الشعب الأمريكي السعادة. عن طريق إبادة الملايين من الهنود الحمر. وإعطاء كل مغامر مهاجر آلاف الفدادين المسروقة منهم. وعن طريق استشفاط أعظم العقول في العالم، مثلك وشرواك، وإذابتها في قدر الصهر، ذا ملتنج پوت. طارد الشعب الأمريكي السعادة عن طريق العنف. أعظم المجتمعات عنفاً في التاريخ. أكثر من مائة مليون أمريكي يملكون السلاح. الشعب الترسانة. وأكثر من مليون أمريكي وراء القضبان. عدد سكان دولة من دول هذه الأيام. الشعب السجن. حمل السلاح حق دستوري من حقوق المواطن الأمريكي. ومطاردة السعادة حقّ ـ فوق ـ دستوري. والسعادة طريدة لا بدّ من مطاردتها كما يُطَارد الأشرار. والمطاردة تحتاج إلى أسلحة. وكل ما حققه الشعب الأمريكي حققه عن طريق العنف المسلّح. التوسّع في كل اتجاه. المصير الواضح. الحرب الأهلية. دبلوماسية البارجة. مبدأ مونرو. العنف أمريكي أكثر من فطيرة التفّاح، كما قال زعيم ملوّن أمريكي عنيف ذات يوم. تستطيع أن تختصر الحضارة الأمريكية، إذا كان بالإمكان أن تسميها حضارة، في كلمتين: السعادة العنيفة. أو العنف السعيد. لم يسبقني أحد، يا دكتور، إلى اختزال الحضارة الأمريكية في كلمتين. رغم وجود ملايين المؤلفات عن أمريكا. لم يلاحظ أحد قبلي الارتباط بين هذين الحقين العجيبين: مطاردة السعادة وحمل السلاح. أنا، بكل تواضع، أرى حلقات بين الأشياء لا يراها الآخرون. العنف السعيد، هذه هي أمريكا! لا شيء في بلاد عمّي وعمك سام يجيء عفوياً، أو بهدوء، أو بالطيب كما تقول في عربستان. لا شيء! كل شيء يجيء بالعنف. ولكن الأمريكان لا يسمّون العنف عنفاً. لا أحد يسمّي الأشياء بأسمائها إلا الأتقياء والأغبياء. أهل أمريكا يسمّون العنف منافسة، كومپيتيشن. كلمة ظريفة!

كلمة سكسي! الطفل، منذ دقيقته الأولى في المدرسة، يجب أن ينافس أقرانه. وهذا يعني أن عليه أن يضربهم قبل أن يضربوه. أعدّ باحث عربستاني/ أمريكي دراسة طريفة عن هذه المسألة. مقارنة بين الأسرة الأمريكية والأسرة العربستانية فيما يتعلق بالعنف المدرسي. في أمريكا، عندما يعود الطفل إلى أمّه مضروباً باكياً توبّخه بشدّة قائلة: «إذهب غداً واضرب الذي ضربك. واحذر أن يعرف أبوك أنك ضُرِبت أو بكيت». أما في عربستان، فتستقبل الأم ابنها المضروب الباكي بالضمّ والدموع، وتقول: «ضربوك يا حبيبي؟ مين ضربك؟ بكره أبوك يروح معاك ويضربه». هذه المقارنة البسيطة تغنيك عن آلاف المراجع. فرق شاسع جداً، يا أخا فرويد، بين مجتمع يشجّع أطفاله على ضرب الأطفال الآخرين ومجتمع يشجعهم على الشكوى للسيّد الوالد. الذي يضرب المعتدين من الأطفال. وربّما ضرب آباءهم وأمهاتهم. والمعلّمة والناظر فوق البيعة! الأب العربستاني الشهم المدافع عن كرامة إبنه المصفوعة. ومقابل ذلك، لا يطلب من الابن شيئاً سوى إلغاء شخصيته تماماً وتقديس أبيه. على خلاف الأب الأمريكي، غير الشهم. الذي لا يخوض معارك ابنه. ويتوقع من ابنه أن يدافع عن نفسه بنفسه. وإذا ضربه الآخرون ولم يضربهم كان معنى هذا أنه سيسي أو ومپ. هل رأيت مشاجرة في أمريكا، يا حكيم؟ بالتأكيد! لم أجد مثيلاً للمشاجرة الأمريكية في عنفها وضراوتها. عقد باحث أمريكي/ عربستاني مقارنة طريفة بين المشاجرة الأمريكية والمشاجرة العربستانية. في أمريكا، تتم المشاجرة، بحد أدنى من الكلام وحد أقصى من الفعل. وتتطلب وقوف المتفرّجين على الحياد التام. ولا تنتهي إلا بانهزام أحد الطرفين وصراخه «يا عمي!». أما المشاجرة في عربستان فعلى النقيض تماماً. حدّ أقصى من الصراخ وحد أدنى من الفعل. بصقة أو ربما كف!. ولا بدّ أن يتدخّل المتفرجون، فوراً، لفضّ الاشتباك. وتنتهي المشاجرة بدون انتصار أو انهزام. هذه المقارنة، بدورها، تغنيك عن قراءة آلاف الكتب. فرق شاسع جداً، يا أخا فرويد، بين لكمة تدخلك المستشفى سنة ومجرّد سباب فارغ. كما اكتشف البدوي القديم الذي قال: «أوسعتهم سبّاً وأودوا بالإبلْ». وفي منطق العنف لا توجد مُثُل. لا توجد فروسية. إذا استطعت أن تنتصر بعضلاتك وحدها فلا بأس. وإذا استطعت أن تنتصر عن طريق ترتيب حلف ضد خصمك فلا بأس أيضاً. وإذا استطعت الانتصار عن طريق إدخال شيء في عضو من أعضاء خصمك الحساسة فهم زين! هَمْ راي!

ـ شوها الهجوم على أمريكا، يا پروفسور؟!

ـ هذا ليس هجوماً. هذا تحليل موضوعي هادىء. أمريكا بلد العنف المُسمّى منافسة. بلد المعافسة. وهذه كلمة نحتُّها الآن، ارتجالاً، من كلمتي العنف والمنافسة. لا بُدّ من تسجيلها في أضابير محكمة العدل الدولية. حتى لا يدّعيها صديقي هيكل كما ادعى «زوار الفجر» «والقوة الأعظم». وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن المجتمع الأمريكي نجح في الوصول إلى تعريف جامع مانع للسعادة. أما بقية البشر فلا يزالون يستفتون الفلاسفة وقارئات الفنجان. وما هو التعريف الأمريكي؟ السعادة هي النجاح المادي الذي يحققه الإنسان عن طريق المنافسة. أعني عن طريق المعافسة.

ـ هذا تشاؤم، يا بروفسور! وتحامل على أمريكا.

ـ لا تشاؤم ولا تحامل. إذا كان هذا شأن المجتمع الأمريكي فالمجتمعات المتقدّمة الأخرى أطقع. ولا تسألني عن معنى هذه الكلمة فلن أقول لك معناها. أترك الأمر لخيالك. شقاء أينما تلتفت. صورة تدعو إلى اليأس.

ـ عفواً، يا بروفسور! أنا مش معاك! العالم يتقدم كل يوم. يتطوّر كل ساعة.

ـ هل تعتقد، يا دكتور، أن التاريخ يسير في خط مضطرد نحو الأفضل؟

ـ بكل تأكيد.

ـ وما هو الدليل على ذلك؟

ـ هل تحتاج المسألة إلى دليل؟ قارن بين وضع الإنسان اليوم ووضعه قبل ألف سنة. زاد معدل الحياة. تضاعف عدّة مرات. انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال. اختفت الأوبئة والطواعين. زالت المجاعات. انتشر التعليم. المواطن العادي، اليوم، يتمتع بأشياء لم يحلم بها أكبر ملك في الماضي.

ـ آه، يا طبيب! «أنت تذكرني بشبابي». كما قال صديقي جمال عبد الناصر لصديقه معمّر القذافي طبقاً لرواية صديق الجميع هيكل. كنت، ذات يوم، مثلك. كنت أظنّ أن البشر يسيرون نحو الأفضل. ثم صحوت من نومي. خذ ما حدث في هذا القرن، القرن الذي بلغ فيه التطور ذروته. بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، سقط أكثر من ٧٠ مليون إنسان قتيلاً. أضف الحروب الفراطة، وسوف يرتفع الرقم إلى ١٠٠ مليون إنسان. أين التقدم يا سايكاترست؟! هتلر قتل أولاد عمنا بالغاز. لا يهمّ العدد. مليون أو ٦ ملايين. قتل الناس بهذه الطريقة عمل إجرامي بشع. «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً». هذا ما يقوله القرآن الكريم. وتقوله العدالة. وتقوله الفطرة

السويّة. والعم ستالين قتل عشرة ملايين فلاح جوعاً. وما فيش ديكتاتور أحسن من ديكتاتور!

ـ هذا جانب واحد من الصورة، يا پروفسور. جانب سياسي. جانب مظلم جداً. هناك جوانب أخرى مشرقة.

ـ أين هذه الجوانب؟ ما الفائدة في أن يطول عمر الإنسان حتَّى يصبح مكروهاً منبوذاً يقضي أيامه الكئيبة في مأوى المسنّين؟ إنخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال؟صحيح! ولكن ثلث الأطفال في الغرب، الآن، غير شرعيين. أولاد حرام! يربيهم الأب وحده أو الأم وحدها. أي مستقبل ينتظر هؤلاء الأطفال؟ والإيدز يهدّد الملايين في أفريقيا وحدها. وتقول لي إن الأوبئة انتهت! وفي كل دقيقة يموت طفل في العالم من الجوع...

ـ من أين تأتي بهذه الإحصائيات، يا پروفسور؟!

ـ الإحصائيات دقيقة وموجودة في كل مكان، ولكنك تفضل أن تتجاهلها. تفضّل أن تحيا في وهم التقدم نحو الأفضل. أبو حسيد كان يعتقد أن الأوائل أسعد من الأواخر. وبرّر هذا تبريراً غريباً بعض الشيء: «أتى الزمان بنوه في شبيبته ∴ فسرَّهم... وأتيناه على الهَرَم» حقيقة الأمر، أن الأب الهَرِمْ يُدلّل أبناءه أكثر مما يدللهم الأب الشاب. كيف دخلنا في هذه المتاهات؟

ـ كنت تقول لي إنك عندما أصبحت واحداً من أغنى رجال العالم وضعت لنفسك هدفاً شخصياً هو مطاردة السعادة.

ـ صدقت! وضعت لنفسي الهدف ووقعت في حيرة. ماهي السعادة؟! حاول كل الفلاسفة وكل الشعراء وكل الأدباء الإجابة على هذا السؤال ولم يوفق أحد، حسب علمي المحدود، باستثناء أصدقائي وأصدقائك الأمريكان. وأبو حسيد أدلى بدلوه بين الدلاء. عزا السعادة في أكثر من قصيدة إلى البلادة. «يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن». «تصفو الحياة لجاهل أو غافلٍ». «ذو العقل يشقى في النعيم بعقله». ولكن إيّاك أن تصدق كل ما يقوله أبو حسيد. لو كان صادقاً في نظرية البلادة لما قال: «لولا العقول لكان أدنى ضيغم ∴ أدنى إلى شرفٍ من الإنسان»

ولما قال: «وأنفسُ ما للفتى لُبُّه ∴ وذو اللبّ يكره إنفاقه»؛ وقد قال أبو حسيد هذا البيت الأخير عندما طلب منه أمير كان ينادمه أن يشرب الخمرة، وما أكثر ما كان الأمراء الذين ينادمهم أبو حسيد يطلبون منه أن يسكر. هذا يحلف بالطلاق. وهذا يعد. وهذا يتوعّد. والمسألة تحتاج إلى تفسير. لم هذا الإصرار

الغريب على إسكار أبي حسيد؟ هل كان السكر يحوّله إلى إنسان ظريف ينثر المُلح والنوادر؟ هل كان يأتي بغرائب الفحش والمجون من الشعر المرتجل عندما يسكر؟ القضية تحتاج إلى توضيح. ديوانه مليء بقصص عن هذه الرغبة العارمة في إسكاره. وأبو حسيد يرفض، ويرتجل من الاعتذارات ما يكاد يفوق اعتذاريات النابغة صاحب المرأة التي تناولته واتقتهم باليد، وتلك قصة سكسي ولكن هذا ليس مجالها. لم يحلّل الأستاذ شاكر النزعة إلى إسكار أبي حسيد. ولا الأستاذ العريض. ولا حتى صديقي الدكتور طه حسين الذي تتبع سقطات أبي حسيد كأنّ أمّه قد نطحته. أمّ أبي حسيد، حسب علمي، لم تكن تنطح. ولكن هنا إشارة إلى قصة أخرى ظريفة. سأرويها لأنها قصيرة. قصة الأعرابي النّهم الذي أوغل في جدي على مائدة الخليفة، فقال له أحد المعلّقين السياسيين: «إنك لتأكله كما لو كانت أمّه قد نطحتك». فردّ عليه الأعرابي: «وإنك لتشفق عليه كما لو كانت أمّه قد أرضعتك». وهذا الردّ من الأجوبة المسكتة. والأعراب مشهورون بالأجوبة الفورية المسكتة التي يفبركها الرواة على أقلّ من مهلهم. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا السعادة. وأبو حسيد لم يكن الوحيد الذي ربط بين الذكاء والتعاسة. الفيلسوف الجرماني كانت قرّر أنّ السعادة «ليست مثلاً من المُثل المتعلقة بالعقل، ولكن بالخيال». وهذا كلام كُبارية معناه: «ما لذة العيش إلاّ للمجانين». وصاحبكم جبران يقول على لسان نبيّه لسكّان أورفليس إن السعادة بنت الشقاء. الغريب أن أحداً لم يلقّب جبران بالمتنبيّ رغم أن نبيّه كان يوزع الحكم بالدزينة على الرجال والنساء. وفيروز لم تكتف بغناء شعر جبران بل غنّت مقاطع من نثره. مقاطع من كتاب «النبي». وأنا لا يعجبني النثر المُغنّى حتّى ولو غنّته مدام فيروز. ومدام فيروز رغم أنها سفيرة كل العرب إلى الكواكب والنجوم والأجرام السماوية الأخرى لا تغنّي إلا لشعراء من لبنان أو من الشام. أمّا بقية الشعراء العرب فلا تغني إلا للأموات منهم. وهذه نزعة عنصرية بغيضة من مدام فيروز. وقد تبعتها في هذه النزعة مدام ماجدة الرومي قنصلة العرب لدى الكواكب والنجوم والأجرام السماوية الأخرى. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن جبران قال إن السعادة بنت الشقاء. حلوة دي؟! اسمع بنفسك. واطرب: «ثم قالت امرأة: «حدّثنا عن الفرح والحزن». وأجاب: «فرحكم هو حزنكم عندما ينزع قناعه. والبئر التي ينبع منها ضحككم كثيراً ما تكون طافحة بدموعكم. وكيف يكون الأمر غير ذلك؟ كلّما غاص الحزن في وجودك، كلّما زاد الفرح الذي يمكن أن يحتويه. أليست الكأس التي تضمّ بيدك هي نفس الكأس التي احترقت في فرن صانع الفخار؟ أليس العود الذي يهدهد روحك هو نفس الحطب الذي قطعته السكاكين؟». من

حسن الحظ أن مدام فيروز لم تغنّ هذا المقطع. ولا مدام ماجدة. والسعادة ليست أمراً مضحكاً، كما أعلن أحد الدبالنة من القساوسة، أو، على الأصح، أحد القساوسة من الدبالنة. وكيتس قال إنّ السعادة تجبرنا على أن «نعلن الحداد في سماء الصيف. وتفسد غناء العنادليب». وَلْ! إذا كان هذا ما تفعله السعادة فماذا يفعل الشقاء؟! هناك عشرات النظريات، يا نطاسي، السعادة بنت الإيمان. السعادة بنت الشك. وهذه نظرية صديقي طه حسين وإن كان لم يعبّر عنها بهذا الوضوح. السعادة بنت الشجاعة. السعادة بنت المعرفة. السعادة بنت الطموح. السعادة بنت القناعة. ما رأيك أنت يا سايكاترست؟

- رأيي؟ في أي موضوع؟

- في موضوع السعادة.

- السعادة هي الرايت موتيڤيشن. كيف تعبر عن هذا باللغة العربية؟

- آه! دعني أفكر. الدوافع الصحيحة. النوايا السليمة. التحفيز. فهمان عليك! ما علاقة هذا بالسعادة؟

- عندما يكون لديك الرايت موتيڤيشن تجد نفسك وقد انغمست في ممارسة الحياة من غير نظريات. تجد نفسك وقد شغلت كل طاقاتك وإمكانياتك.

- آي سي! غسلوا دماغك في أمريكا، وما حدّش سمّى عليك، كما يقول أصدقائي المصريون. سلف فلفلمنت! سلف أكشوالايزاشنْ! سلف ريلآيزاشن! سِلفْ امپروڤمنتْ! شنشنات العم سام! إسمع، يا صديقي الطبيب النفسي الحاذق، كل هذه الكلمات الطنانة مستخرعات تسويقية لإنعاش الاقتصاد الأمريكي. حقق طموحاتك! والمستفيد صانعو السّيارات. وسّع مداركك! والمستفيد ناشرو الكتب. إعرف نفسك! والمستفيد أساتذة اليوجا. خدّروا الفرد الأمريكي بوهم تحسين الذات. لو زال الوهم لتوقف الاقتصاد الأمريكي فوراً.

- عفواً، يا پروفسور! كل هذا انترستنج! ڤيري، ڤيري انترستنج! نظريات حلوة! ولكن هل من الممكن أن نعود إلى قصة حياتك؟

- آه! يا للفضول! يا لحب الاستطلاع! قصتي أعظم قصة! جايّك بالحكي، يا طبيب. سوف أروي لك كل شيء. بالتدريج وبالتسلسل. مع شيء من الإستطراد بين الحين والآخر. على الطريقة الجاحظية. سمعت عن الجاحظ؟ بالتأكيد! كان مقرّراً عليكم في منهج البكالوريا. ولو أنني لا أظن أنهم قرّروا عليكم كتابه عن المفاخرة بين الغلمان والجواري. كتاب فرويدي على كيفك. الجاحظ دودة الكتب.

الذي مات صريعاً تحت كتبه. نهاية رائعة لعاشق كتب. هل تعرف أن الجاحظ كان من أئمة المعتزلة؟

ـ لا.

ـ هل تعرف المعتزلة؟

ـ قرأت عنهم قليلاً.

ـ أمّا أنا فقرأت عنهم كثيراً. أحياناً يسمّونهم روّاد المدرسة العقلية، وهذا اسم مضلّل بعض الشيء، فالآخرون ليسوا من المجانين. وكل واحد راضي بعقلو وما حدا راضي برزقو. و«كدعواكِ، كلٌّ يدعي صحة العقل»، كما قال أبو حسيد. وأحياناً يسمّونهم روّاد حرية الإرادة. وهذا بدوره إسم مضلل بعض الشيء. عندما وصلوا إلى السلطة فرضوا آراءهم على الناس بالعنف. أين ذهبت حرية الإرادة؟ طارت الحرية من الشباك عندما دخلت السلطة من الباب. يَوَر! القوة التي تفسد! تحوّلت المدرسة العقلية إلى مدرسة قمعية. والسّلطة تحدث أشياء غريبة، يا حكيم، في الناس وفي المبادىء. تبدو النظرية رائعة في كتاب وتتحول إلى مشانق وسجون في التطبيق. المعتزلة كانوا فرقة من فرق المسلمين. لم يكونوا ملائكة كما يرى أنصارهم، ولا كانوا شياطين كما يرى خصومهم. شطّوا، وقادهم الشطط إلى مواقف خاطئة. شطّوا في مسألة العدل فأرادوا أن يطبقوا على الخالق معايير المخلوق. قالوا إن العدل يوجب على الله سبحانه وتعالى أن يعذب مرتكبي الكبائر الذين يموتون قبل التوبة. وهذا كلام منكر، يا دكتور. منكر جداً! يكاد يصل إلى الكفر. لولا أنّني لا أكفّر أحداً من أهل القبلة. خذ موضوع الذنوب. الخالق يعرف عنها ما لا يعرفه المخلوقون. إذا عفا عفا بعدل وإذا عذّب عذّب بعدل. «يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء». كلمات واضحة كل الوضوح يفهمها حتّى الأطفال. ومع ذلك رفض المعتزلة أن يفهموها. لو أنهم آمنوا أن عدل الله يعني أن تكون كل أعماله عدلاً لما دخلوا في هذه المتاهات، وجرّوا خلفهم الفكر الإسلامي. «لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها». وهذا الوُسْع لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى. لا يعرفه البشر. البشر مضطرون إلى الأخذ بالظاهر أمّا الباطن فلا يعلمه إلاّ الله. مع تقدّم العلم الحديث أصبحنا ندرك عن الفروق بين البشر ما لم نكن ندركه في الماضي. ندرك الآن، مثلاً، أن بعض الأشخاص يُولدون بقابلية للإدمان مطبوعة في الجينات الموروثة. جرعة واحدة من الكحول. ويصبح الواحد منهم مدمناً. هل يمكن، يا نطاسي، أن نعامل الشخص الذي ابتلي بالإدمان بعد جرعة واحدة كما نعامل من يعصي الله عمداً وعن سبق إصرار؟ لا يمكن. ولكننا لا

نستطيع أن نعرف الفرق. الله وحده الذي يعرف. وأنتم معشر الأطباء النفسيين تتحدثون الآن عن شيء اسمه الجنون المؤقت. المحاكم في أمريكا تبرىء المتهم من جريمة القتل إذا ثبت أنه ارتكبها وهو تحت تأثير جنون مؤقت، ولو كان أفلاطون زمانه. حسناً! لا يمكن أن يُعامل القاتل المجنون مثل القاتل الطبيعي. الفرق قد يخفى على البشر، بل إنه كثيراً ما يخفى على البشر، ولكنه لا يخفى على خالق البشر. عذاب الخالق عدل، ومغفرته عدل. وكما شطّ المعتزلة في مسألة العدل، شطوا في مسألة الذات والصفات. واضطروا إلى التأويل. وكان يسعهم ما وسع الصحابة. وشطوا في مسألة القدر. أو مسألة الحرية. فقالوا إن العبد يخلق أفعاله. وهذا تعبير بذيء فضلاً عن أنّه غير صحيح. نحن أحرار ولكن ضمن قدر الله وقضائه. وشطوا في مسألة القرآن. لم يقفوا عند اعتباره كلام الله كما وقف كل المسلمين قبلهم، ورأوا أنّه مخلوق. وهنا انطبقت أجندتهم الدينية مع أجندة المأمون السياسية. والمأمون كان شخصية غريبة جداً، يا حكيم. تستطيع أن تعتبره من أغرب الشخصيات في تاريخ الإسلام. كان المأمون يحلم بأن تتحقّق على يديه وحدة الناس، من كل الأجناس والألوان والمذاهب والأديان. بدأ فحاول تذويب الفوارق بين السنة والشيعة. عيّن الإمام علي الرضا ولياً لعهده ولبس السواد، شعار الشيعة. وحاول تذويب الفوارق بين العرب والفرس. ولم ينجح. لم يثق فيه لا السنة ولا الشيعة. ولا العرب ولا الفرس. ومع ذلك اتسع طموحه فحاول إذابة الفوارق بين الأديان. وأنشأ بيت الحكمة للمؤاخاة بين الدين والفلسفة. وتلقّف نظرية المعتزلة في خلق القرآن وتبناها. وكان هدفه أن يضعف من تأثير القرآن في نفوس المسلمين. ما دام القرآن مخلوقاً فيجب أن تسري عليه القوانين التي تسري على بقية المخلوقات. وأوّلها أنه لا كمال لمخلوق. اضطهد الإمام أحمد بن حنبل وأقام محاكم تفتيش. لماذا التوحيد بين الأديان؟! قلت لك إنه شخصية غريبة جداً. جاء بعد ذلك الأمبراطور أكبر في الهند وأوجد ديناً جديداً مقتبساً عن عدة أديان، وبنفس الهدف.

- شو ها الحكي؟

- ها الحكي مضبوط! وعلى خلاف المأمون الذي كان مثقفاً جداً، كان الأمبراطور أكبر أمياً لا يقرأ ولا يكتب. ومع ذلك،كان بلاطه يعجّ بالأدباء والشعراء والمفكرين والفلاسفة. خطرت بباله فكرة توحيد البشر على عقيدة واحدة. ألّف لجنة أعضاؤها مسلمون وهندوس ومجوس ومسيحيون، وعهد إليها بصياغة الدين الجديد الموحّد. وأنتجت اللجنة ديانة سمّاها الأمبراطور «التوحيد الإلٰهي». إلا أن المحاولة فشلت. كما فشلت محاولة المأمون. وتمسك أهل كل ديانة بديانتهم.

أنا أرى، يا طبيب، أن مثل هذه المحاولات تطرّف في التسامح، إذا جاز التعبير. يكفي التعايش بين العقائد ولا داعي للدمج والتوحيد. والماسونيون، بدورهم، يتبنّون فكرة التحرر من كل الأديان، والإخاء التام بين البشر. وأنا لا أثق في الماسونيين ولا في مبادئهم. إذا كانت هذه المبادىء نظيفة، فلماذا لا تعلن على الملأ؟ لماذا الطقوس والألقاب والخناجر في الظلام؟ أنا لا أثق في أيّ مبدأ سرّي. ولا في أيّ حزب فيه مامبو جامبو. . .

- عفواً يا بروفسور! عفواً يا بروفسور! يكفي استطراداً! هل يمكن أن نرجع إلى قصتك؟

- يمكن! يمكن! ولكن الاستطراد جزء أساسي من أسلوبي. ومن أسلوب الجاحظ. لا تكن نرڤوزاً ولا نرڤازاً ولا نرڤيزاً. خذ حبة ڤاليوم باطمئنان. واقرأ الفاتحة للجاحظ. وتعاطي الڤاليوم ليس جريمة تعاقب عليها القوانين. وعدد الذين يتعاطون الڤاليوم وغيره من المهدئات عدد محترم. في أمريكا، واحد من كل ثلاثة يتعاطى هذه المهدِّئات، وفي أوربا واحد من كل أربعة.

- إحصائياتك، يا بروفسور، سوف تدفعني إلى الجنون!

- إحصائيات تدفع سايكاترست إلى الجنون؟! هذه، والله!، هي ثالثة الأثافي. ولن أشرح لك، الآن، ما هي ثالثة الأثافي. هل تعتقد أني أفبرك الإحصائيات؟! لا مصلحة لي في ذلك. الإحصائيات موجودة. ولكن من يقرأها؟ طلاب الدكتوراه، والذين أعدّوا الإحصائيات، وشركات التأمين، وعدد محدود من الصحفيين. وعلى ذكر الصحفيين، فأنت، بلا شك، تعرف أن الصحفيين في أمريكا أكثر الفئات المهنية إدماناً للكحول. وربما خارج أمريكا أيضاً. ولكن خارج أمريكا لا توجد إحصائيات. لا بُدّ أن هناك أسباباً وجيهة وراء إدمان الصحفيين الكحول.

- ما فكّرت بالموضوع.

- بالتأكيد! أيام العم فرويد لم تكن هناك صحافة تذكر. أمّا الآن فالصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب، والمتاعب تؤدّي إلى التوتر، والتوتر يدفع إلى الإدمان. كما أن الصحافة هي السلطة الرابعة. ولا شك أن وجود إنسان في السلطة الرابعة سوف يؤدي إلى شعور بالغيرة الشديدة من أولئك الذين يتربّعون على مراكز في السلطات الثلاث التي تسبق سلطته، والغيرة تؤدّي إلى التوتر، والتوتر يدفع إلى الإدمان. ثم إن الصحفيين يطلّعون على كل الفضائح، فضائح السياسيين

والممثلين ورجال الأعمال، فيصابون بالحسرة لعدم وجود فضائح لديهم شخصياً، والحسرة تؤدّي إلى التوتر، والتوتر يدفع إلى الإدمان. الأعجوبة ليست أن يدمن الصحفيون؛ الأعجوبة أن يبقى أحد منهم صاحياً. وهناك، بلا ريب، عدد لا يُستهان به من الصحفيين غير المدمنين وأنا أعرف بعضهم. ولو عرفتهم، يا نطاسي، لتمنيت لو كانوا مدمنين. وأنا أتكلم عن الإدمان بموضوعية، وألاحظ أن كل البشر مدمنون، من نوع أو آخر. كل البشر يدمنون الطعام والشراب والهواء. وكل البشر، لو تُتاح لهم الفرصة، يدمنون الترف والرفاهية. ومعظم البشر يدمنون الشاي والقهوة. ولا شك أن كثيراً منهم سيُصابون بالهلع لو عرفوا أنهم يدمنون الكافيين، خصوصاً إذا كانوا من المتزمّتين. ولكننا، أنا وأنت، نعرف أنهم مدمنون. الإدمان أشكال وأنواع وأرناق. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! شو يعني أرناق؟

ـ سؤال جيّد! أرناق جمع رنق. والرنق بالخليجعربستانية تعني صنف. وأظن أن أصل الكلمة إيراني. وأنا لا أحب الإيرانيين. ولكني لا أرى ضيراً من دخول بعض كلماتهم إلى اللغة العربية، خاصة إذا درجت على الألسن وصارت جزءاً من الحوار اليومي. اللغة، يا حكيم، كائن حيّ يتطوّر وفق قوانينه الخاصة. يقتبس كلمة من هنا، وكلمة من هناك. ولا يحتاج إلى إذن من مجمع السدنة الخالدين. ولا من الدكتور نحوي المعرب. ولا من الپروفسورة قاعدة اللغوية. وتذكّر أن سيبويه، بجلالة قدره، لم يكن من بني أسد ولا حتّى من بني نمير. كان خضيرياً، مثلي وشرواي. بل كان أسوأ من خضيري. كان من الأعاجم. والفرق بين الأعجمي والأعجم هو فرق في الدرجة. كان ربعنا العرب يعتقدون أنهم وحدهم بين مخلوقات الله القادرون على الكلام. أمّا بقيّة المخلوقات فهم صنفان. العاجزون عن الكلام نهائياً، وهؤلاء هم العجماوات. والذين يرطنون رطانة غير مفهومة وهؤلاء هم الأعاجم. واحذر أن تعتقد أن هذه نزعة عنصرية لدى العرب. كل المجتمعات القديمة كانت تعتقد أنها، وحدها، القادرة على الكلام. عمّاذا كنّا نتكلم؟

ـ نسيت! والله نسيت!

ـ حسناً! سوف أذكّرك. كنا نتكلّم عن الجاحظ. الجاحظ كان من أئمة المعتزلة. ولكنه لم يكن متطرفاً في آرائه. كان يتمتع بحسّ دعابة متطوّر جداً. لا يمكن الجمع بين التطرّف وحسّ الدعابة. وهذه جملة مأثورة أنا أوّل من قالها. ولولا أنني أؤمن بالطريقة العلمية في البحث لقلت إنها نظرية. أو لادّعيت أنها قانون. ولكني أكتفي باعتبارها مُجرّد مقولة. جرّبها، وستجد أنها صحيحة. وأنا

أقصدِ بحسّ الدعابة قدرة الإنسان على الضحك من نفسه. والجاحظ كان أستاذاً في هذا الباب. أنا أرفض اعتبار أيّ إنسان يستطيع أن يضحك من نفسه متطرّفاً. المتطرفون، من كل جنس وملة ورنق، لا يضحكون من أنفسهم. أبداً! يضحكون من الآخرين. ويهزؤون بهم، وينبزونهم بالألقاب، ولكنهم لا يضحكون من أنفسهم. أبداً! دلني على مرة ضحك فيها هتلر أو ستالين أو آية...، بلاها هايدي!، من نفسه وسوف أعطيك مليون دولار عداً ونقداً.

ـ عليه العوض!

ـ صدقت! لا تجد متطرفاً يضحك من نفسه؛ وأيّ إنسان يضحك من نفسه ليس متطرفاً. إستخدم هذا المعيار عند الضرورة. إذا شككت في كون إنسان ما متطرفاً أو غير متطرف، اسأله بأدب: «سيدي! هل سبق أن ضحكت من نفسك؟». إذا صفعك أو بصق في وجهك أو رمقك بنظرة مسمومة فاجزم أنه متطرف. أما إذا قال: «يووووه!». فاجزم أنه غير متطرف. الاختبار، أحياناً، ضروري. كثير من الذين يدعون أنهم متطرفون يفعلون ذلك لأسباب سياسية إنتهازية وهم، في دخيلتهم، من أكثر الناس تسامحاً. وكثير من المتطرفين، لأسباب سياسية إنتهازية، يخفون تطرفهم ويحاولون الظهور بمظهر المتسامحين. تذكّر هذا المعيار في التفرقه بين المتطرفين والمتطارفين...

ـ عفواً، يا بروفسور! شو يعني المتطارفين؟

ـ المتطارفون هم الذين يدّعون أنهم متطرفون. مثل المتشاعرين والمتعالمين والمتجاهلين. أبو حسيد لم يضحك من نفسه قط. ولكنه ضحك من بقيّة البشر. الذين فكّر جدياً في امتطائهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا. ولا أدري كيف كان ينوي امتطاءهم جميعاً. مئات الملايين! ولا كيف سيكون شعور سعيد بن عبد الله وقد دخل عليه أبو حسيد ممتطياً كلَّ الناس بعد أن حوَّلهم إلى بعارين. أبو حسيد كان دائم السخرية من ممدوحيه، ومنهم هذا أبو البعارين. باستثناء سيف الدولة. لم يسخر من سيف الدولة قط. حتّى بعد أن ساءت العلاقة بينهما. والرابطة بين أبي حسيد وسيف الدولة كانت معقّدة جداً. شأنها شأن العلاقة بين التوائم جميعاً. وأبو حسيد كان يعتبر سيف الدولة توأمه النفسي. ولهذا أحبَّ أم سيف الدولة. وأحبّته أخت سيف الدولة. وحقد عليه ابن عم سيف الدولة. وحاول ابن العم الآخر قتله. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن أبا حسيد كان متطرّفاً بدليل أنه يرفض الضحك من نفسه. بخلاف المعرّي. الذي كان دائم السخرية من نفسه. حتّى عندما يزعم أنه آتٍ بما لم تستطعه الأوائل. أو يطلب منك أن تلقاه لتعرف

منه الأمور الصحائح. كل هذا من قبيل السخرية من الذات. كان المعرّي يقوله وهو يبتسم. ولكن الابتسامة لا تظهر في الكتاب. روى أحد الرحّالة الذين مرّوا بالمعرّة، وقتها، أن المعرّي كان ملك المعرّة. إذا صح ذلك، وقد حدثت في التاريخ أشياء أغرب من هذا، فلا شك. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى قصة حياتك؟ رجاءً!

ـ حسناً! حسناً! سوف أعود إلى قصتي. وستُشبع فضولك. وسوف تسمع الغرائب. ولكن دعني أنهي موضوع المعتزلة. ولا يمكن إنهاء موضوع المعتزلة بدون التعريج على أبي الحسن الأشعري الذي حاول التوفيق بين السلفيين والمعتزلة. أراد أن يعمل كومپرومايز. أراد أن يكحّلها ولكنه، للأسف الشديد، عماها. اتخذ موقفاً وسطاً في مسألة الصفات فلم يُرضِ المعتزلة ولا السلفيين. وأراد أن يخفّف من غلّو المعتزلة في قضية خلق العبد أفعاله فنفى عن الفرد أيّ قدرة على فعل أيّ شيء. بنَوبْ! خير شرّ! وأتى بنظرية الكسب التي لم يفهمها أحد. وإذا كنت أنا لا أفهم الشيء، فورجت ات! وجاء تلميذه حجّة الإسلام الغزالي فأكمل الكحل. وأكمل العمى! النار لا تسّبب الحرق، مجرّد عادة. والثلج لا يسبب البرودة، مجرّد عادة. ولم يكتفِ بذلك فجاء بتهويمات الصوفية، فوق البيعة! وبين كسب الأشعري، وعادة الغزالي، وفتوحات ختم الأولياء راحت نظرية السببية ملح. راحت وطي! وبدون نظرية السببية لا يمكن أن يتحقق أيّ تقدّم علمي. نبقى إلى الأبد مع الأوتاد والأقطاب والأبدال. ولكنّ الله قيض لهذه الأمة بطلين، ابن حزم الأندلسي وابن تيمية الحرّاني، أنقذا نظرية السببية وأدخلاها غرفة الإنعاش. ولا تزال هناك. عمّاذا كنا نتكلم قبل أن نخوض في بحار علم الكلام؟

ـ عن مطاردة السعادة.

ـ أحسنت! ثم أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا. إسمح لي الآن، أن أنهي فلفستي المتواضعة عن السعادة. يمكن تصنيف كل نظريات السعادة ضمن قِسمْين رئيسيْين. القسم الأول يذهب إلى أن السعادة تعني قهر اللذة وكبت الرغبات. تستطيع أن تعتبر هذا المذهب مدرسة المفكّرين القدامى. أما القسم الثاني فيذهب، على العكس، إلى أن السعادة هي ممارسة اللذة وإشباع الرغبات. وهذا هو مذهب المفكّرين المحدثين في القرنين الأخيرين. هناك استثناءات ولكنها لا تستحقّ الذكر. عندما قرّرت مطاردة السعادة أوليت الموضوع قسطاً كبيراً من الاهتمام وانتهيت إلى أن خير الأمور الوسط. لا إفراط ولا تفريط. لا بوهيمية ولا رهبانية. حقيقة

الأمر، أني في تلك الفترة كنت مهتماً بالهدفين القوميين أكثر من اهتمامي بالهدف الشخصي. قرّرت استخدام الأسلوب العلمي في تحقيق نهضة العرب وتدمير إسرائيل. تذكّرت أيام ستانفورد. رأيت أن أفضل وسيلة للحصول على إجابات علمية هي الاستعانة بمركز تفكير، ثنك تانك كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان. وأنشأت بالفعل مركزي تفكير. الأول يبحث كيفية النهوض بالأمة العربية. والثاني، يبحث كيفية تدمير إسرائيل. إستغرق تكوين المركزين بعض الوقت. كان لا بدّ من اختيار علماء ذوي كفاءة وخبرة ونضج. من العرب، بطبيعة الحال. أعطيت كل مركز فترة سنة لإعداد تقرير. ثم التحقت بمعهد لندن للدراسات الشرقية والأفريقية أستاذاً زائراً. أو شبه أستاذ زائر.

ـ وهناك تعرّفت على عفراء شمالي؟

ـ لا أودّ الحديث عن عفراء.

ـ لماذا؟

ـ بيكوز ذا سكاي إز هاي!

ـ لأنك تشعر بتأنيب الضمير؟

ـ لا أشعر بتأنيب الضمير.

ـ بماذا تشعر، إذن؟.

ـ لا أشعر بشيء.

ـ بسّ أنت عمّ بتعيّط! لشو بتعيّط؟!

ـ هذا ليس عياطاً، يانطاسي. هذه دموع تنساب بوقار من ناظريّ. وسببها؟ سببها الذكريات. لا أقصد ذكريات العقل الباطن حيث تزدحم عقد الأم والأب بتحرشات الجدّ والخال. أقصد ذكريات العقل الواعي. الذكريات التي نتذكّرها! التي لا تسبّب لنا كوابيس أو مخاوف أو شكوكاً. ميموريز! الذكريات التي قال عنها البرنس: «والذكريات صدى السنين الحاكي». وهذه القصيدة، يا طبيب، من عيون شعر البرنس. تستطيع أن تقول إنها من عيون الشعر عموماً. وقد نظمها البرنس في زحلة، أو عن زحلة، أو في زحلة عن زحلة. البرنس لم يرَ زحلة إلا في زيارات خاطفة، ومع ذلك يتحدّث عنها كما لو كان قضى فيها زهرة شبابه. الشعراء يكذبون، ولكنني لا أعتقد أن البرنس كان يكذب في هذه القصيدة. كان يُسقِط. تعرف الإسقاط؟ بالتأكيد! أنا شخصياً، أشكّ في أن للبرنس أيّ ذكريات

عاطفية في زحلة. أو في لبنان عموماً. رغم أن الذي يقرأ هذه القصيدة قد تخطر بذهنه خواطر من هذا النوع. فورجت ات! اللبنانيات، يا صديقي اللبناني الأصل، سنُوبِش. ولا يعهد عنهن الوقوع في غرام الشعراء. خصوصاً إذا كان الشاعر قصير القامة، أصلع الرأس، جاحظ العينين. حتَّى لو كان پرنس الشعراء. اللبنانيات، يا صديقي، عمليات جداً. عمليات في حبّهن، وعمليات في كرههن. وخذ فرحة ربيع، على سبيل المثال. سبق أن حدّثتك عن فرحة ربيع؟ بالتأكيد! أنا لا أجزم أن البرنس لم تعشقه فتاة لبنانية. بل أظنّ. مجرد ظنّ. والپرنس، على أي حال، لم يكن بالرجل الجذّاب، لا شكلاً ولا حواراً. وإن كان، بطبيعة الحال، من الجذّابين شعراً. ولم تنقل عن البرنس دعابة واحدة، مع أن أخوانياته في الدكتور محجوب لا تخلو من خفة دم. وقد ادّعى البرنس أن فاتنة قالت له: «أنتم الناس أيها الشعراءُ!». وتصريح الفاتنة هذا يسعدني جداً ولكني أرجّح أن مصدره البرنس نفسه وليس الفاتنة التي زعم البرنس أيضاً أنها جاذبته ثوبه العصيّ. أي مزّقت ثيابه في محاولة يائسة لاغتصابه. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن القصيدة الزحلاوية جميلة جداً. وقد غنّاها مطرب الملوك والأمراء كما تعرف. وعندما سمع شايب من أهل الديرة قوله: «ولقد مررت على الرياض» قال: «الله يهديه عبد الوهاب! يجي الرياض ولا يسلّم علينا!». ثم أعادت فيروز غناء القصيدة. وفيروز قد تغني لشعراء غير لبنانيين أو شوام ولكن بعد أن يموتوا ويشبعوا موت، كما سبق أن أخبرتك. وقد تفلفس أحد النقاد فانتقد قول البرنس «واحمرَّ من خفريهما خدّاك». وقال أخونا المتفلفس إن الخفر، وهو الخجل، شعور في النفس ولا يوجد خفر في هذا الخد وخفر في ذلك الخدّ. وهذا تقعّر وتنطع. لا بد من إعطاء الشعراء قدراً من المرونة، پويتك لايسنس، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأنجلوسكسون. لا ينبغي أن نتعامل مع الشعر بقسوة. والذي يعادي الشعر لا بدّ أن يعادي الحياة. ذلك أن الشعر هو احتفال بالحياة. الإحتفال الأكبر، والأجمل، والأخلد. والناقد الذي اعترض على الخَفَريْن ما عنده سالفة. وهذا تعبير خليجعربستاني يعني أن كلامه تجليط في تجليط. يمكن أن يكون هناك خفر في الخد الأيمن. وخفر في الخد الأيسر. وخفر في الأنف. وخفر في الأذن. واللي مش عاجباه يتفلقْ. ويتفلق شبيهة بيصطفل.

ـ عفواً، يا پروفسور! لماذا كنت تبكي؟ ماذا تذكّرت؟

ـ أنا الآن في مزاج شاعري. إسمع ما يقول أبو حسيد: «أزائرٌ يا خيال أم عائدْ؟ ∴ أم عند مولاك أنني راقد؟. ليس كما ظنّ!.. غشيةٌ عرَضَتْ ∴

فجئتني في خلالها قاصدْ. عُدْ.. وأعدها.. فحبّذا تَلَفٌ ∴ ألصقَ ثديي بثديك الناهدْ. وجُدتَ فيه بما يشحّ به ∴ من الشتيتِ المؤشَرِ الباردْ. إذا خيالاته أطفَنَ بها ∴ أضحكه أنني لها حامدْ. لا أجحُد الفضل.. رُبّما فعلتْ ∴ ما لم يكن فاعلاً.. ولا واعدْ. ما تعرف العين فرق بينهما ∴ كلٌ خيالٌ وصاله نافد. يا طفلة الكف! عبلة الساعدْ! ∴ على البعير المقلّد الواخدْ. زيدي أذى مهجتي أزدك هوى ∴ فأجهل الناس عاشقٌ حاقدْ». ـ هل فهمت يا نطاسي؟

ـ شويّ.

ـ حسناً!. إعلم، في البداية، أن أبا حسيد نادراً ما يكتب أشعار الحب. وعندما يكتبها نادراً ما يبدع. والسبب بسيط جداً. السبب أنه لم يعشق امرأة. كان مشغولاً بعشق نفسه. ومع هذا، فله ومضات جيّدة من شعر الحب هنا وهناك. وهذه واحدة منها. رغم بحر المنسرح الذي هو أثقل من الضيوف الذين يعزمون أنفسهم على الغداء. ولا يغادرون بعده. ومع ذلك، فأبو حسيد يحب المنسرح. وله من هذا البحر أكثر من ١٥ قصيدة. وبالإضافة إلى البحر الثقيل، اختار أبو حسيد قافية ساكنة جاءت ضغثاً على إبالة. وهذا مثل عربي لن أشرحه لك الآن. وقد يكوّن أبو حسيد فعل ما فعل عامداً متعمّداً لخلق إيقاع جامد خامد هامد يتمشّى مع حالته النفسية. لم يكن أبو حسيد سعيداً عندما كتب هذه القصيدة. كان يعيش في خيالات الماضي. يحاور أبو حسيد، يانطاسي، طيف الحبيبة. ولا شك أنك، يا أخا فرويد، تعرف الأطياف التي تأتي في الليل. والتي كتب عنها فرويد كتابه الشهير. يسأل أبو حسيد الطيف/ الحلم هل جاء لمجرّد الزيارة، أم اعتقد أنه مريض فجاء يعوده. أم خطر ببال البُوسْ، والبُوسْ هي الحبيبة، أن أبا حسيد استطاع أن ينام في غيابها فأرسلت الطيف للتأكّد. يا للفكرة المزعجة! ينام وهي بعيدة؟ لا، أيها الطيف/ الحلم، لم أنم. ولكن أغمي عليّ مؤقّتاً. والإغماءة أخت النوم، وهذا ما مكّنك أيها الطيف/ الحلم من زيارتي. وأبو حسيد مستعد لإغماءةٍ أخرى إذا كانت ستسمح له بلصق ثديه بثدي الحبيبة الناهد. وهذا دليل على أن نزار قباني لم يكن أول من اكتشف طفولة النهد. ويشكر أبو حسيد الطيف/ الحلم لأنّه يعطيه في النوم/ الإغماءة ما لا تعطيه الحبيبة في اليقظة من القبلات. وهذا المعنى قتله الشعراء العرب قتلاً ولكنه لا يزال يحتفظ بجدّته لأنه محفور في الذاكرة العربية الجماعية. وأبو حسيد يعرف أنه يتغزل في هواء، ولهذا يخبر الطيف/ الحلم أن الحبيبة ستضحك لو عرفت مدى سعادته بالخيالات. ويضيف أبو حسيد أن سعادته لها ما يبرّرها لأن الخيالات أكثر سخاء من الحبيبة التي ترفض مجرّد الوعد. ثم ينعطف أبو

حسيد بغتة، وكثيراً ما ينعطف أبو حسيد بغتة، فيأتي بفلفسة مالهاش داعي بالمرّة، ويعلن أن الحلم كالحقيقة، وكل حبيب خيال، وكل وصال ينتهي. قد يكون هذا دليل كآبة. وقد يكون دليل تأثّر أبي حسيد بالفلسفة الهندوسية التي ترى أن هذا العالم الذي نعيشه هو عالم من الوهم. مايا. ومايا تعني العالم الذي نتوهّم وجوده. ومايا اسم أم البوذا. ومايا اسم شائع في لبنان، كما يعرف حضرة جنابك. ولكني أشك كثيراً في أن صاحبات الإسم يعرفن أنهن يحملن إسم والدة البوذا. وعالم الوهم. اللبنانيات عمليات كما سبق أن أخبرتك ولو عرفن أصل الإسم لغيّرنه في تكّة. وأبو حسيد يكرّر هذا المعنى في شعره. «نصيبك في منامك من خيال». «فإنما يقظات العين كالحُلُم». ومع احترامي الشديد لأبي حسيد، وللفلفسة الهندوسية، ولأم البوذا، فأنا أعتقد أن الحقيقة حقيقة والوهم وهم. وهذا العالم الذي نعيش فيه حقيقي وَنْ هندرد پرسنت. وهناك فرق شاسع جداً، يا أخا فرويد، بين المرأة التي تتوسّد ذراعيك، والمرأة التي تراها في الحلم، حتّى عندما يكون الحلم من الأحلام الرطبة. وأبو حسيد، رغم فلفساته، يعرف هذا جيّداً. ولهذا فهو يترك الطيف/الحلم ويتوجّه بالخطاب إلى الحبيبة/الشحم واللحم. وهذه الحبيبة، يانطاسي، ناعمة الكفين، ممتلئة الزندين. وقد سبق أن عرفنا أنها ناهدة الثديين. بعبارة أخرى هي حبيبة سكسي. لو أدركت مجلة الولد الملعاب لاحتلّت منتصف العدد. إلاّ أنها قالت لأبي حسيد: «اسمع يا وَلَه! لك مني «ساعة ثم بيننا ∴ فلاة إلى غير اللقاء تجابُ». وامتطت بعيرها المزركش بالقلائد وانطلقت تسابق الريح. وهذا مجرد تعبير كما سبق أن أخبرتك. وإلاّ، فلا يوجد بعير يستطيع مسابقة الريح حتى لو كان مزركشاً وواخداً على خاطره. ولا أدري لماذا وضع أبو حسيد القلائد على البعير. رُبّما كان هذا من قبيل «هيك حبيبة بدها هيك بعير». ثم يجيء البيت الأخير. وهو من عيون الشعر. خصوصاً العجز. والعجز تعبير جنسي شأنه شأن الصدر. وقد صدق أبو حسيد عندما قال إن أجهل الناس عاشق حاقد. أجهل الناس من يضيف إلى أعباء العشق، وما أثقلها، أعباء الحقد، وما أفظعها. أسرع طريق إلى الشيكيزوفرينيا.

- شعر حلو! بسّ بدّو تفسير!

- صدقت! هل اكتفيت بهذا التفسير؟ أم أزيدك!

- إكتفيت! لشو كنت عم بتعيط؟

- يا للعجب! بعد هذا كلّه تسألني؟ الذكريات، يا دكتور، الذكريات! وجهها

في الصباح. بقرب وجهي على المخدّة. الابتسامة الكبيرة. وبعدها، الإعصار. «قم أيها الكسول! قم أيها الكسول!». وتدفعني. وأجد نفسي على الأرض، أتلوّى من الضحك. هل أخبرتك أنها كانت تكتب رسالتها عن إبراهيم ناجي وتأثره بالشعراء الرومانسيين البريطانيين؟

- عفواً، يا بروفسور! تتكلم عن مين؟

- عنها! عنها!

- عن عفراء؟!

- عنها وبسّ! كان النهار مليئاً بالأشعار والمشاجرات. والمساء. أشعار الرومانسيين من خدّامك الإنجليز. والخلط بين البريطانيين والإنجليز خطأ شائع. وهو لا يسرّ الأسكتلنديين ولا الإيرلنديين ولا أهل ويلز. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنها كانت تكتب عن الشعراء الرومانسيين البريطانيين. ومعظمهم من الإنجليز على أية حال.

- أنت تتحدّث عن عفراء؟

- أتحدّث عن لوسي.

- لوسي؟! مين لوسي؟!

- لا أتحدّث عن لوسي صاحبة البرنامج التيلفزيوني الشهير الذي عرض في أمريكا ثلث قرن. أتحدّث عن لوسي حبيبة وردزورث. ويليم وردزورث.

- لم أسمع عنها.

- صدقت! ولكن لا تدع ذلك يزعجك. عدد محترم من النقاد المحترمين يعتقدون أن لوسي لم توجد على الإطلاق. ذهب الشاعر الرومانسي الكبير إلى ألمانيا في زيارة طويلة كئيبة، وفجأة طلع على الناس بمجموعة من قصائد الحب في امرأة اسمها لوسي. وهو يصرّ أنها مخلوقة حقيقية عاشت «بين الطرق التي لا يغشاها أحد. بقرب ينابيع اليمامة». وأنها لم تجد من يطريها فتطوّع الشاعر وأطراها. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنَّ بإمكانك، إذا كنت تصرّ على اسم، أن تسمّي الفتاة التي أتحدّث عنها لوسي. مؤقتاً، على الأقل. على المدى البعيد تفتضح كل الأسرار. لا! لا داعي للمبالغة. تفتضح معظم الأسرار. وعلى الرجل العاقل عند افتضاح سرّ من أسراره العاطفية أن يردّد مع البهاء زهير: «وافتضاحي فيه.. ما أجمله ∴ كان ما كان... ويدري من درى!». ولكن مالنا وما للمدى البعيد؟

«على المدى البعيد، نحن جميعاً من الموتى»، كما قال اللورد كينز. وردزورث، يانطاسي، كانت له علاقة غريبة بأخته. لا! لا! لا! لم أقل علاقة شاذة. سامحك الله!

ـ أنا ما قلت شي!

ـ يبدو على وجهك ما تفكّر فيه. علاقة غريبة في حرارتها وعمقها وامتدادها. في التفاهم الروحي الذي ربط الشاعر بشقيقته التي خلّفت لنا أفضل مرجع عن حياته. مثل هذه الأمور لا تحدث، عادة، في الغرب حتّى في أوج الفترات الرومانسية. لم يقُل أحد، حتّى هذه اللحظة، أنَّ العلاقة بينهما كانت مثل العلاقة بين محتضن الفوارس في الوغى وأخته. وقد كان، والعهدة على أبي حسيد، يرنو إليها «مع العفاف وعنده .·. أن المجوس تصيب فيما تحكم». والمجوس كانوا، وربّما لا يزالون، يجيزون زواج الأخت بالأخ. وصاحبنا، أخو صاحبة أبي حسيد، كان يرنو إلى أختِه ويرى صواب مذهب المجوس. وهذا، كلّه مع العفاف! كيف لو لم يوجد العفاف؟ كان اعتنقها على الملأ بدلاً من اعتناق الفوارس. واعتناق الفوارس، يا أخا فرويد، تعبير مجازي فلا تذهب الظنون بك كل مذهب. اعتناق الفوارس، هنا، يعني الالتحام بهم بقصد قتلهم، لا لأغراض أخرى كما قد يتوهّم حضرة جنابك. عماذا كنا نتكلّم؟

ـ عن ذكرياتك مع الفتاة التي طلبت أن أسمّيها لوسي.

ـ أحسنت! ثم يقوم الكسول. ويراها تصنع القهوة وهي تنشد الأشعار الرومانسية. بداية عجيبة لليوم. فتاة عربية تُنشد رجلاً عربياً أشعار الرومانسيين البريطانيين. «يحب أن يجلس. ويستمع إليّ وأنا أغنّي. وعندها يضحك، ويبدأ في مداعبتي. يلعب معي. ثم ينشر جناحي الذهبي. ويسخر من براءتي المفقودة». بليك. أحد الرومانسيين الكبار. من شعراء البحيرة. البحيرات إذا أردنا الدقّة. هل تعرف منطقة البحيرات في شمال إنجلترا؟ لا تعرفها؟ لا بُدّ أن تزورها. من أجمل مناطق الدنيا. والبحيرة لها تأثير غريب على الشعراء. مثل تأثير القمر. أو النقود. أو الشهرة. وبسبب هذا التأثير سكن وردزورث وعدد من أصدقائه ومريديه المنطقة. ودخلوا التاريخ باعتبارهم شعراء البحيرة. واعلم، يا طبيب، أنّه عندما قرّر عدد من الشعراء العربستانيين أن يصبحوا شعراء رومانسيين في القرن العشرين أصيبوا بإحباط شديد لعدم وجود بحيرات في العالم العربي السعيد. باستثناء بحيرة طبرية، التي سبقهم أبو حسيد إلى وصفها. رغم أنه لم يكن من الشعراء الرومانسيين. ولا من شعراء البحيرة. قال: «لولاك.. لم أترك البحيرة .. والغور

دفيّ.. وماؤها شَبِمُ. والموج مثل الفحول مزبدةٌ ∴ تهدر فيها.. وما بها قُطُمُ.
والطيرُ فوق الحباب تحسبها ∴ فرسان بَلقٍ.. تخونها اللُجُم. كأنّها والرياح
تضربها ∴ جيشا وغىً، هازمٌ ومنهزمُ». بمجرّد أن تسمع كلمة شبم، يا طبيب،
أعرف أنكَ تقرأ شعر أبي حسيد. لم يستخدم هذه الكلمة أحد من الشعراء قبله. ولم
يستخدمها أحد بعده. وهي كلمة شبمة. أبرد من معناها. ومعناها بارد. واعلم،
يا نطاسي، أن أحداً قبل أبي حسيد لم يشبه مويجات البحيرة الناعمة بالجمال
الهادرة. ولم يفعلها أحد بعده. ولكن أبو حسيد يفعلها ولا يبالي. وليته اكتفى
بذلك. ولكنه لم يكتف. جعل الطيور الصغيرة الوديعة فرساناً تمتطي خيولاً
شطرنجية، أي مزخرفة بالسواد والبياض، ثم حوّل المشهد كله إلى معركة حربية
طاحنة بين جيشين. صور بالغة الغرابة. تنبع من عقل أبي حسيد الباطن، لا من
البحيرة. ترى ماذا كان أبو حسيد سيقول لو أنه سافر عبر الأطلنطي ورأى الأمواج
الحقيقية؟ مجرد التفكير في الاحتمال يجعلني أرتعش. وهذه القصيدة من بحر
المنسرح. وأبو حسيد يحبّ هذا البحر، كما سبق أن أخبرتك. ومعظم الشعراء
العربستانيين المعاصرين يستثقلونه. البعض يستثقله من حيث المبدأ. والبعض يخشى
أن يختلّ فيه «كما اختلّ في وزن القريض عبيد». وهذا ليس موضوعنا الآن.
موضوعنا أن الرومانسيين العربستانيين لم يجدوا بحيرات يفشّون فيها خُلقهم.
فطاحوا في بحيرة لامارتين ترجمة. الذين يتقنون الفرنسية. والذين لا يتقنونها.
الذين قرأوا القصيدة، والذين لم يقرأوها. كلّوا يترجم! وعدد لا بأس به من هؤلاء
أطبّاء من لبنان. ولا تسألني عن السبب. علمي علمك. أحصت لوسي ٢٨ ترجمة
عربية لقصيدة البحيرة.

ـ عفواً، يا بروفسور! عفواً! لماذا لا تستخدم اسمها الحقيقي؟

ـ حسناً! حسناً! آي جيڤ أپ! عفراء! عفراء! عفراء! «كان ما كان...
ويدري من درى!». هل استرحت الآن؟! عفراء! عفراء! عفراء! عفراء!

ـ تيك إت إيزي، يا بروفسور!

ـ حسناً! إيزي دَزْ إت! انقضّ الشعراء العربستانيون الرومانسيون على بحيرة
لامارتين يترجمونها. ثم انقضّوا على بحيرات أوربا يزورونها. وكان أشدّهم انقضاضاً
علي محمود طه المهندس. الذي لم يكن مهندساً حقيقياً. كان خرّيج مدرسة
الصنائع. أي صنايعي. وكان شو أوف. فسمّى نفسه المهندس. ثم سمّى نفسه
الملاّح التائه. فأصبح الملاّح التائه المهندس. وهذه تركيبة غريبة بعض الشيء. ألا
تعجب من شاعر عظيم يودّ أن يسمّيه الناس مهندساً؟! إعجب! وإذا أخبرك أحد

أن الشعراء قوم طبيعيون فكذّبه وأنت مطمئن. المهمّ أن صاحبنا المهندس التائه طاف بكل بحيرات أوربا. وتغزّل فيها، واحدة واحدة. واخترع قصص غرام لم توجد إلا في خياله. وهذه ليست جريمة تعاقب عليها القوانين. والرومانسية لا تكتمل إلاّ بالبحيرة. والخريف. والكآبة. والوحدة. والفرار من الضجيج. والبعد عن الجماهير المزبدة كالفحول المتهيّجة جنسياً. والعيش في أحضان الطبيعة. تحت الندى. في ضوء القمر. مع الحبيبة. أو أمام قبر الحبيبة. حيث تسيل الدموع. احتجاجاً على عبثية الحياة. وعبثية الحب. «الزهرة التي تبتسم اليوم، تموت غداً. كل ما نتمنى أن يبقى يغرينا، ثم يطير. أين البهجة في هذا العالم؟ برق يسخر من الظلام. برق لامع قصير العمر». شيلي، يا صديقي النطاسي، كان من الشعراء الرومانسيين ولم يكن من شعراء البحيرة. وكان مثل برقه اللامع قصير العمر. مات في الثلاثين غريقاً. لا! لم يغرق في بحيرة. غرق في خليج سبيزيا بإيطاليا. حيث كان يكتب عيون الشعر الرومانسي مع اللورد بيرون. سمعت عن اللورد بيرون؟ بالتأكيد! زير النساء. الأعرج. ذو القدم المكعّبة. هناك من يرى، يا حكيم، أن عرجه هو الذي أدّى إلى انغماسه في الجنس. كل ذي عاهة جبّار. وهذه مجرّد مقولة. وهي مقولة غير صحيحة. لأن معظم ذوي العاهات أبعد ما يكونون عن الجبروت. واللورد بيرون، يا أخا فرويد، كان، بالفعل، على علاقة شاذّة بأخته أوجستا. ولم يكن يرنو إليها مع العفاف بل مع الشبق الشديد. وبيرون لخبط مسألة الرومانسية عندما تحوّل إلى ثورجي. وشجع كل ثورات زمانه. آه! بيرون وصف عفراء فأبدع. لم يصفها مباشرة، بطبيعة الحال. وصف صاحبته فجاء الوصف منطبقاً على عفراء. «تمشي محفوفة بالجمال. مثل مساء صافٍ تسطع سماؤه بالنجوم. ويجتمع في محيّاها وعينيها أحسن ما في السواد وأحسن ما في البياض». لا يمكن وصف عفراء بجملة أدق من هذه الجملة: «أحسن ما في السواد وأحسن ما في البياض». هل تؤمن بالبنيويّة يا دكتور؟

ـ عفواً؟!

ـ البنيوية.

ـ شو يعني البنيوية؟

ـ البنيوية تعني ستركتشرلزمْ.

ـ آي سي! أعرف شويّ عن ستركتشرلزم في السايكولوجي.

ـ هات لنشوف.

ـ هذه مدرسة ألمانية. ترى دراسة العقل البشري باعتباره مجموع التجارب البشرية. وتعتبر هذه التجارب مجرّد وقائع. لا تحاول البحث في أسبابها. ولا تفسيرها. المدرسة في ذمة التاريخ.

ـ إلى حيث ألقت! البنيوية في الأدب تختلف بعض الشيء. البنيوية تتعامل مع النصّ باعتباره مجموعة بُنى، وبُنى جمع بُنية وهي ستركتشر، هذه البُنى تتفاعل فيما بينها، وفيما بينها وبين اللغة. وهذا التفاعل هو الذي يحدّد قيمة النّص. بصرف النظر عن العوامل الخارجية. البنيوية أعلنت استقلال النصّ عن صاحبه. مات الكاتب! عاش النصّ! أنا، شخصياً، لا أعترض على البنيوية. ولا على أي مدرسة أخرى. أعترض على مبدأ الاحتكار. الحقيقة ليست حكراً على أحد. لا من البنيويين ولا من السلوكيين ولا من النفسانيين ولا من التاريخيين ولا من الانطباعيين. وإن كنت، أنا شخصياً، من الانطباعيين. أرى أن تذوّق النصّ عملية انطباعية. تقرأ النصّ فيعجبك أو يغثك. ويغثك بالخليجعربستانية تعني يصيبك بعسر الهضم. أو يهزّك. ويهزّك بالتونسية الدارجة تعني يرافقك. وإذا قال لك صديق تونسي إنه سيهزّك فلا تخف من أن يمسك بك وينفضك. فالأرجح أنّه يقصد أنه سيمر عليك ويصحبك. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن النصّ قد يعجبك وقد يغثّك وقد يهزّك. بعد ذلك، إذا كنت ناقداً تجلس وتحشد مبرّرات الإعجاب أو الغثّ أو الهزّ. ويذهل القارىء من ثقافة الناقد. وغزارة علمه. وكيف أرجع المفردات إلى جذورها اللغوية. وكيف اكتشف الدايلكتيكيات المختفية في النصّ. وأنا لا أكره النقاد. أبو حسيد، سامحه الله، يعتبرهم حميراً. أما أنا فأنظر إليهم نظرتي إلى الحلاّقين. النقّاد والحلاّقون يجمعهم حبّ الثرثرة. والارتزاق من رؤوس الآخرين. كيف دخلنا في هذه المتاهات؟

ـ كنت تتحدّث عن أحسن ما في السواد وأحسن ما في البياض.

ـ صدقت! وقادني هذا إلى الحديث إلى البنيوية. لأنه خطر ببالي أن هذه العبارة لا يمكن أن تفهم بنيوياً، لا يمكن أن تفهم من داخلها. ولا من داخل اللغة. لا بُدّ أن تفهم من الخارج. لا بُدّ أن يكون لديك حبيبة ينطبق عليها هذا الوصف لتفهم مراد الشاعر.

ـ حدثني عنها، يا بروفسور!

ـ لا أودّ الحديث عن عفراء الآن. أودّ الحديث عن لندن.

ـ عن مدينة لندن؟

ـ أي نعم.

ـ واي نوت؟

ـ واي نوت إنديد؟! لندن، يا صديقي الطبيب، مدينة غريبة جدّاً. جميلة جداً وقبيحة جدّاً. وديعة جداً وعنيفة جداً. حضارية جداً وبدائية جداً. مثالية جدا وانتهازية جدّاً. بريئة جداً ومنحلّة جداً. مؤمنة جداً وكافرة جداً. صديقة جداً وعدوّة جداً. أمّ التناقضات والمتناقضات. حتّى سكّانها يحبّونها جداً ويكرهونها جدّاً. الشعراء الرومانسيون، بطبيعة الحال، لا يطيقونها. إسمع ما قاله الرومانسي بليك عنها: «أتجوّل في كل شارع من الشوارع الصادرة بمرسوم. حيث يجري التايمز الصادر بمرسوم. وألحظ على كل وجه أراه علامات الضعف، علامات الألم. وفي كل صرخة تصدر من كل رجل. في كل صيحة خوف تعلو من كل طفل. في كل صوت وفي كل لفتة أسمع الأغلال التي يصنعها العقل البشري. أنين منظّف المدخنة يهزّ كل كنيسة سوداء. وتنهدّات الجنديّ البائس تسيل كالدماء على جدران القصر. إلاّ أنني في شوارع منتصف الليل. لا أسمع سوى لعنة العاهرة الصبيّة. وهي تفجّر دموع الطفل الوليد. وتستمطر الطواعين على مركبة الزفاف». هذا جانب حقيقي من لندن. العاهرة الصبيّة. والذين يسكنون الشارع. ولكنه جانب واحد ضمن جوانب عديدة. الحقيقة أكثر تعقيداً من الشعر. والشعر أزهى ألواناً من الحقيقة. لندن، يا حكيم، مثل الفيل في الأسطورة الهندية. والفقير يرى في لندن ما لا يراه الغنيّ. والغني جدّاً يرى في لندن ما لا يراه الغني. لندن، في نظر الماركسي، هي المكان الذي عاش فيه ماركس وكتب «رأس المال» ودفن فيه. تعرف ماركس؟ بالتأكيد! كان يستشفط المال استشفاطاً من صديقه أنجلز. وهذا استغلال للطبقة المستغلّة. وكان ينام مع خادمته. وهذا استغلال للطبقة الكادحة. وكان لا يستحمّ إلا نادراً فتنمو على جسمه الدمامل والبثور. وعندما كنت أرتاد قاعة المطالعة، في المتحف البريطاني، وكثيراً ما كنت أرتادها كنت أمر على الركن الذي كان ماركس يجلس فيه. وماركس ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن الطلياني يرى في لندن مستعمرة رومانية قديمة اسمها ليندنيم. والخليجعربستانيون يرون في لندن مربط خيلهم. المخصّصة للسباق. والمناضلون يرون في لندن فضاءً مفتوحاً بدون رقابة أو مراقبين. في لندن تستطيع أن تصدر ما شئت من مطبوعات بدون إذن من أحد. لا توجد عاصمة تتساهل هذا التساهل مع حرية الرأي. لا في العالم الأول ولا في العالم العاشر. حتّى باريس مدينة النور تضع بعض العوائق البيروقراطية. حتّى واشنطن، عاصمة المنافسة. وهذه الحريّة

البريطانية في رأي الكثيرين تسيّب وفوضى. والأمور نسبية كما تعرف. وفوضى المنقود هي حرية الناقد. وفي لندن صحافة مهاجرة من كل فجّ عميق. وصحفيون من كل جنس. ومفكرون من كل ملّة. ومحتالون من كل فصيلة. ومبتزّون من كل قبيلة. ولاجئون من كل شعب. والجميع يعيشون في لندن ويسبّونها. خبز البخيل المأكول المذموم. والهايد پارك كورنر مؤسّسة لا يوجد لها مثيل في العالم. ولن يوجد. حتّى لو توفرت الحريّة في مكان آخر، كيف يتوفّر الدم الإنجليزي الشبم الذي يتحمّل أفظع الإهانات؟ والعربستانيون ينقضون على ركن الخطباء كما تنقضّ النسور على الجيفة. والنسور غير العقبان. النسور طيور قبيحة كريهة غير جارحة تقتات من الجيف. والعقبان هي تلك الطيور الجارحة الجميلة التي تتّخذها معظم الدول شعاراً لها. والصحفيون العربستانيون لا يعرفون الفرق. فهم كثيراً ما يتحدّثون عن نسور الجوّ والمقصود عقبان الجوّ. حتّى الكتاب والشعراء العرب كثيراً ما يخلطون بين الطائرين. والشاعر الكبير عمر أبو ريشة كتب قصيدة جميلة عن النسر، كانت، في حقيقتها، عن العقاب. خشيت أن ألفت نظره إلى ذلك فيغضب. هل أخبرتك أنه كان صديقي؟ أووه! من أعزّ أصدقائي. وكان شديد الحساسية من النقد. كما أنه كان إنساناً ظريفاً لا تملّ حديثه. وكان يخترع مغامرات لم توجد إلا في خياله الخصب. مثل حكاية الأميرة الهيمالاوية التي طاردته بعد منتصف الليل فوق ثلوج الهيمالايا، حتى قال لها: «البرد يؤذيك... عودي لن أعود أنا». ولا تقل لي إنه لا توجد أميرات فوق ثلوج الهيمالايا فناقل التفنيص ليس بفنّاص. ومثل زعمه أن كل انقلاب في سوريا كان بسبب قصيدة من قصائده. ومثل ادعائه أنه كان يعطي البانديت نهرو دروساً خصوصية في الفلفسة الهندية. وقصص أبو ريشة مسلّية ولا تضرّ أحداً. ولا يصدّقها أحد. حتّى أبو ريشة نفسه. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن العربستانيين ينقضّون على ركن الخطباء كما تنقضّ النسور على الجيفة. أو الأميرات الهميالاويات على أبو ريشة. ينقضّون ويدخلون مناقشات عنيفة مع أنصار إسرائيل. وينتصرون، بطبيعة الحال. وقد صدق من قال: «لم أجد إنساناً انهزم في محاورة هو الذي يرويها». وقد يتطوّر النقاش إلى ضرب ومضارب. ويشعر العربستاني بارتياح شديد لأنه دافع عن فلسطين عروس عروبته بلسانه أو بأسنانه. ويا شقاء المقيم في لندن إذا جاءه العربستانيون الزوّار يحدثونه عن ملاحمهم في هايد پارك كورنر. ولا يعرفون أنه سمع نفس الكلام مليون مرّة من قبل. قلت له: «ومن أعطى بلفور الحق...». قلت له: «ألا تعلم أن عدد اليهود في فلسطين في نهاية الحرب العالمية الأولى...». قلت له: «وهل اليزابيت تايلور من العبرانيين الذين...». أنا،

عندما كنت أذهب إلى هايد پارك كورنر، كنت لا أقف إلا أمام ٣ خطباء. الأول، مهاجر أسود من جامايكا. يقف فيوجه أبذأ الشتائم إلى الجمهور. ويردّ الجمهور التحية بأسوأ منها. يقول: «يا أولاد العاهرة!» فيرد المستمعون: «يا ابن الكلبة!». يقول: «ضاجعت كل بناتكم» فيردون: «ضاجعت كل كلابنا». يقول «جميعكم شاذون!». فيردون: «وأنت قرد!». منظر فريد. أجنبي يشتم المواطنين في عقر دارهم. ماذا سيحدث لهذا الخطيب لو وقف في عاصمة عربستانية يردّد نفس الكلام؟ أما الخطيب الثاني فعجوز إيرلندي ظريف. متخصّص في رواية المخازي التي يغصّ بها التاريخ الأوربي. وقد سمعته، مرة، يؤكد أن أوربا أحرقت من الساحرات في العصور الوسطى أكثر مما أحرقت ألمانيا النازية من اليهود. كما أنه يدعي أن الجنس لم يزدهر في أي مكان ازدهاره في قصور الكرادلة. أما الخطيب الثالث فمن شبه القارّة الهندية. ولم يكن يستمع إليه سوى اثنين، أنا وعجوز إنجليزية لا تسمع. وكان الخطيب يتحدّث عن تطوير قوة الإرادة عن طريق التناغم مع حركة الأفلاك. ولا تسألني كيف يتم هذا. فلا أنا فهمت. ولا العجوز فهمت. ولا الخطيب فهم. مع أنه كان يتحدّث أكثر من ساعتين. قيل الكثير، يا طبيب، عن لندن نثراً وشعراً. والكتّاب والشعراء بشر. والبشر ينظرون إلى الشيء بعين الرغبة، أو بعين الرهبة، أو بعين البغض، أو بعين الشوق، أو بعين الفضول. ويندر بين البشر من ينظر بأكثر من عين واحدة. المقامر لا يرى في لندن إلا عاصمة القمار. وصاحب الخيار الجنسي البديل لا يعرف من لندن سوى حانات الشاذّين. والزاني يعتبر لندن أجمل تجمع عهري على ظهر الكوكب. بعكس الذي يجيء لندن بحثاً عن المعرفة. هذا لا يرى من لندن إلا متاحفها ومكتباتها. أو الذي يجيء بحثاً عن قطع أثرية نادرة. هذا لا تراه إلا في مزادات «سوثبي». وعاشق المسارح يعتبر لندن مسرحاً كبيراً. والسيدات، من كل لون وعمر وحجم، يعتبرن لندن بوتيكاً هائلاً. تحدّث شاعر اشتراكي عن لندن فلم ير فيها سوى «المحافظات الستّ المغطّاة بالدخان. . . والبخار الذي يشخر. . . والبلدة القبيحة المتمدّدة». وتحدث شاعر زكرتي عن لندن فقال: «آه! لندن بلدة جميلة. مدينة شهيرة جداً. كل شوارعها مُبلّطة بالذهب. وكل فتياتها جميلات». ويوم الأحد في لندن، يا نطاسي، يوم ذهبي إذا كنت مع امرأة تحبّها وتحبك. لا شيء أروع من يوم الأحد في لندن. الجريدة المنتفخة بكل الأخبار وكل القصص وكل الفضائح. الفطور المتأخّر. الحليب الإنجليزي الدسم. البيض الإنجليزي الطازج. الزبدة الإنجليزية العطرة. المشي تحت المطر، إذا كان النهار ممطراً. الرقص في المطر، كما تقول الأغنية الشهيرة. والكسدرة تحت الشمس، إذا كان النهار مشمساً. والسفر في الطابق العلوي من

الأوتوبيس الأحمر. وعَبْر النافذة تُقري سكان الشقق السلام. فيلم في الماربل آرش. «صوت الموسيقى». «حول العالم في ٨٠ يوماً». «دكتور دوليتل». جولة عبر الهايد بارك. إلى البحيرة الوحيدة في أوربا التي لم يكتب الملاّح التائه المهندس عنها شعراً. هايد بارك، يوم الأحد، قلب كبير ينبض. مهد للعاشقين. قبلة تحت المطر. قبلة في ضوء الشمس. «هل أعجبتكِ مسرحية البارحة؟». «كُل مسرحيات أوسكار وايلد تعجبني». «ولكنّنا رأيناها ٥ مرّات من قبل». «كلّ مرة أكتشف نكتاً جديدة». «وأنا أكتشف فيك شيئاً جديداً كل يوم». «عبث رومانسي!» «فلنقفْ هنا ولنرسمْ قلباً على هذه الشجرة». «أنت طفل رومانسي». «مثل شعراء البحيرة؟». «أسوأ بكثير». «لنرسمْ قلباً هنا». «أرسمْه أنت». «أنا لا أعرف كيف أرسم. أرسميه أنتِ». «لا!». «حسناً! سأرسم أنا». «هل هذا قلب؟». «نعم!». «هذه تفّاحة سمينة!». «قلبي تفاحة سمينة. اكتبي الحرف الأول من اسمك». «هذا عبث صبياني. ألا تستحي؟». «لم أستحي؟ «باكتب إسمك يا حبيبي على الحوْر العتيق»». «هذا ليس حوراً». «لم أشاهد شجرة حور». «لا تنمو لديكم سوى الأشواك». «تنمو لدينا النخيل وأشجار السدر والأثل والحرمل». «الحرمل؟». «نبات ترعاه الإبل والخواجات». ولا يوجد، يا طبيب، أقبح من لندن في يوم الأحد عندما تكون وحيداً. الوحدة بين الملايين. تحاول أن تقوم بنفس النشاطات، أو الأنشطة حسب تعبير مدرسة الكوفة، أو الفعاليات، وهي كلمة لا أدري من أيّ كابوس هبطت علينا، فتفأجأ بأنَّ كل شيء، كل شيء، قد اختلف. جريدة الأحد ترهَل محشو بالسخافات. لا تستطيع أن تقرأ منها حتّى العناوين السمجة. والحليب مُقطّع، ومقطّع بالخليجعربستانية الدارجة تعني محمّض. والبيض ملتصق بالزبدة المتجمّدة في مشهد درامي كئيب يذكّرك بالكولسترول المتجمّد في شرايينك. وما لهذا المطر لا ينقطع؟ قطط وكلاب. كلاب وقطط. القطط تخربشك والكلاب تعضّك. «لا يوجد على هذه الأرض شيء يبعث على الملل أكثر من يوم أحد ممطر في لندن». لم أقل أنا هذه العبارة المأثورة. قالها توماس دي كوينسي. لم تسمع عنه؟ حسناً! علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ. كان مدمن أفيون، وكتب عن إدمانه كتاباً هو سبب شهرته. وكان من مريدي شعراء البحيرة. وسكن بالقرب منهم. تحتمي من المطر بدار السينما. فيلم في ماربل آرش. ما هذا الفيلم السخيف؟ توأمان ينتحران! إلى جهنّم وبئس المصير! ألم تجد ما تختاره سوى هذا الموضوع التعيس؟ أشهر فيلم صدر في المدة الأخيرة؟ سُووَتَ؟! والحديقة؟ تحوّلتْ إلى معرض كبير بانورامي للبؤس الإنساني. عجوز فانية تمشي بصعوبة، وتتحدث مع كلبها بحرارة. من الواضح أن الكلب قريبها الوحيد. سكّير على المقعد ينظر إليك

باستحياء متفائل طامعاً أن تنفحه ثمن زجاجة أخرى. وما بال جميع الناس يرتدون ثياباً مهلهلة؟ وأين الضحكات؟ أين ذهب الأولاد الذين يلعبون كرة القدم؟ أين بائع الأيسكريم؟ هل ذاب الأيسكريم في المطر. الطبيخ الصاقع! وأين الشجرة التي رسمتُ عليها التفّاحة السمينة؟ آه! هذه هي الشجرة. ولكن أين التفّاحة؟ أين الحرف الأول من إسمي؟ والحرف الأول من إسمها؟ «بَليت بِلى الأطلال إن لم أقفْ بها .·. وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُربْ خاتمه!». صورة غريبة لا تخطر إلاّ ببال شحيح مثل أبي حسيدٍ. أين التفّاحة؟ تعال يا أبا حسيد! أنشدني شيئاً في الأطلال. أنا، الآن، في مزاج طللي. هات، لله أبوك! «وكيف التذاذي بالأصائل والضحى .·. إذا لم يَعُدْ ذاك النسيم الذي هبّا؟. ذكرتُ به وصلاً كأنْ لم أفزْ به .·. وعيشاً كأنّي كنت أقطعه وثباً. فيا شوقُ! ما أبقى! ويا لي من النوى .·. ويا دَمْعُ! ما أجرى! ويا قلبُ! ما أصبى!» أحسنت! أحسنت! زدني! نعم يا أبا حسيد لمثلك يقال هذا! «الحاها الله... إلاّ ماضييها، .·. زمان اللهو.. والخوْد الشموعا. مُنَعَّمَةٌ... مُمَنَّعةٌ... رداحٌ .·. يكلّفُ لفظها الطيرَ الوقوعا». رجاء يا أبا حسيد! دعنا من رداح الآن! لا أريد شعراً جنسياً. أريد شعراً حزيناً. هات يا أبا حسيد! «تولّوا بَغتةً.. فكأنَّ بيناً .·. تهيّبني... ففاجأني اغتيالا». أحسنت! وصدقت! البين ذئب ماكر يفاجىء ويغتال. زدني! «أشد الغمّ عندي في سرورٍ .·. تيقّن عنه صاحبه ارتحالا» وعندي، يا أبا حسيد، وعندي. عمّاذا كنا نتكلم، يا دكتور؟

ـ عن لندن، يا پروفسور.

ـ صدقت! وقد أسرف أحد خدّامك الإنجليز في مدح لندن عندما قال: «لندن! أنتِ زهرة المدائن جميعاً! درّة الفرح وجوهرة المرح». وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أن عين الرضا عن كل عيب كليلة. هل تذكر تعبير «إن دلّ هذا على شيء؟» بطبيعة الحال! تستعملونه في لبنان أيضاً؟! كنت، وأنا صغير، أسمعه في كل مناسبة. وإن دلّ حضوركم على شيء فإنّما يدلّ على كرمكم. وإن دلّ كرمكم على شيء فإنما يدلّ على غبائكم. لا أسمع التعبير هذه الأيام. وإن دلّ هذا على شيء فقد يدلّ على أن التعبير بدأ ينقرض. ولكن هذا شيء مشكوك فيه. هذا تعبير تقيل دم. وثقلاء الدم لا ينقرضون بسهولة. تستطيع أن تقول إن ثقلاء الدم لا ينقرضون أبداً. على عكس خفيفي الظلّ. الذين لا يطول بقاؤهم. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن لندن ينطبق عليها قول القائل: «لكل ذوق ما يشتهي!». وهذا القول ينطبق، أيضاً، على شورباء هاينز التي تنتج، طبقاً لآخر إحصائيات البنك الدولي، ٩٧ نوعاً من الشورباء. ومن هنا قال إنجليزي آخر اسمه

صموئيل جونسون، وقد كان بالمناسبة يصرّ على أن يُسمّى الدكتور جونسون على طريقة الدكاترة العربستانيين الذين يغفرون لك قتل آبائهم ولا يغفرون لك تجاهل لَقَبِهم، قال: «عندما يتعب الإنسان من لندن فإنّه يتعب من الحياة. فهنا، في لندن، كل ما تستطيع الحياة أن تعطيه». وهذه مبالغة، بطبيعة الحال. ففي لندن لا يوجد، على سبيل المثال لا الحصر، عيش تميس، ولا زربيان، ولا مهياوة.

- عفواً؟

- هذه مأكولات لذيذة، يا طبيب، لا توجد في لندن.

- يبدو أنك تحب لندن، يا بروفسور.

- يبدو ذلك. أليس كذلك؟ لي في لندن الكثير من الذكريات. والمُدن لا تُحبّ ولا تُكره إلاّ بسبب الذكريات. وحُبّ الوطن، أساساً، قائم على الذكريات. بدليل أن فاقدي الذاكرة لا يحبّون أوطانهم. و«حبَّب أوطانَ الرجال إليهم .·. مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا. إذا ذكروا أوطانهم ذكرتْهم .·. عُهود الصبا فيها. فحنّوا لذلكا». إبن الرومي. وهذا شعر جميل. وابن الرومي شاعر فحل. وإن كان شعره لا يدلّ على فحولة. وهو شاعر منحوس. وسي عباس محمود العقاد تحدّى النحس فألّف كتاباً عن ابن الرومي. قال إنه لا يوجد له نظير في اللغة العربية. وقال عنه البعض إنه أوّل كتاب عربي يعتمد طريقه التحليل النفسي، آلا فرويد. وهو كتاب جيّد، على أية حال. سواء وجد له نظير أو لم يوجد. وسي عباس كان يتحدّى النحس عن طريق التفاؤل بالبومة. وهذا ما تفعله، أيضاً، غادة السمان. هل أخبرتك أني أعرف غادة السمان؟ ولكني أتجنّب مراسلتها. لأنها مصابة بعادة خطيرة هي نشر ما يصلها من رسائل عاطفية. وقد ألّفت رواية عني إسمها «ليلة الغول». لم تقرأها! تو باد! وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا البومة. الغربيون يستظرفون البومة ويعتبرونها طائراً حكيماً. وأنا لم أسمع بقول مأثور منسوب إلى بومة. والبومة في ديرتنا إسم عضو حسّاس. ولا أدري لماذا سُمّي بهذا الإسم. رُبّما، لأنه لا يظهر إلاّ في الظلام. وربّما بسبب نعيقه. قد تكون البومة طائراً حكيماً وقد لا تكون. المؤكّد أن ابن الرومي لم يكن حكيماً. كان شديد التطيّر. يعود، على الفور، إذا مرَّ بأعور أو أعرج. وقد تسلّط عليه جار عكروت كان يقرع بابه كل يوم فيقول شاعرنا: «من الطارق؟». فيقول: «أنا داء بن مرض». أو «أنا حمام بن منية». أو «أنا رعب بن ذعر». فيرابط الشاعر المسكين في منزله أسابيع. وقضى، مرّة، عدة شهور. حتى اضطر الرئيس الأمريكي إلى إرسال طائرة شبح

تقذف منزله بالأطعمة. مع تحيات الشعب الأمريكي. كما أن ابن الرومي كان طويل اللسان. وقد أدّى طول لسانه إلى قتله. بخشكنانة مسمومة. والخشكنانة، بالفارسية، هي الخبز اليابس. ويبدو أنها نوع من الحلوى بين البسكويت وعيش السراياء. وابن الرومي كان أكولاً. ولا يسأل أسئلة كثيرة قبل أن يأكل شيئاً. ولا تسألني المزيد من التفاصيل عن الخشكنانة. فأنا لست صاحب مطعم المطعم. ولا صاحب حلو البحصلي، الذي يضع على أوراقه بيت شعر منسوب إلى الپرنس. يتحدث فيه عن طعم ثغر الحبيب وطعم حلو البحصلي. ولا أدري هل قال الپرنس هذا الكلام أم لم يقله. كثيراً ما تنسب أشياء إلى الپرنس، وهو لم يقلها. وأمين نخله ادّعى أن الپرنس عينه ولي عهده بفرمان شعري قال فيه: «هذا وليٌّ لعهدي ∴ وقيّم الشعر بعدي. فكلّ من قال شعراً ∴ في الناس... عبد لعبدي». وهذا غثاء. إن كان الپرنس قد قاله فعلاً فلعلّه كان تحت تأثير بطحة زحلاوية پرنس/ سايز. أو علبة من حلو البحصلي. وهناك ديوان كامل منسوب إلى الپرنس. قاله بعد موته. عن طريق وسيطة روجية. مليء بشعر سخيف جداً. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن المدن بالذكريات. والذكريات بالناس. وكما يقول أصدقائي اللبنانيون: «جنة من غير ناس ما بتنداس».

ـ أجمل ذكرياتك في لندن مع عفراء. أليس كذلك، يا پروفسور؟

ـ بطبيعة الحال! بطبيعة الحال! و«أحلى الأغنيات هي تلك التي تجعلها المسافات أحلى». وردزورث. حقنتني عفراء حقناً بوردزورث. «يكفي! يكفي! إكتفينا من العالم ومن الفن. أغلقوا هذه الأوراق العقيمة. وتعالوا. وهاتوا معكم قلباً». وكيتس. حقنتني حقناً بكيتس: «سوف تحبّ أنت إلى الأبد. وسوف تكون هي جميلة إلى الأبد». أوهام! مات كيتس في السادسة والعشرين. بالسلّ. كما تعرف أو كما لا تعرف. وأكثر أشعاره...

ـ عفواً يا پروفسور عفواً! عفواً! عفواً! مع إحترامي للشعراء الرومانسيين فأنا لا أريد، الآن، أن أسمع قصص حياتهم. مات شباب؟ ضيعانه! أريد قصتك مع عفراء. رجاءً! رجاءً! رجاءً!

ـ حسناً! حسناً! طالما نصحتك ألا تكون نرفوزاً ولا نرفازاً ولا نرفيزاً. لا بدّ أنك وجدت طرفاً من قصتي مع عفراء في ملفّ مصحّة بلاكپول. ولكنك لا تقنع بما وجدت. تودّ المزيد. التفاصيل الدقيقة الشهية. ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

ـ كلّ شيء.

ـ كل شيء؟! يا للطّمع! يا للجشع! كيف يمكنني أن أخبرك كل شيء عن

علاقة عاصفة استمرّت أكثر من سنة وانتهت نهاية دامية؟ من أراد أن يطاعَ فليأمر بما يستطاع.

- إذن، أخبرني الأشياء التي ترى أنها ضرورية لفهم علاقتك بها.

- وهذا، بدوره، مطلب عسير. علاقتي بعفراء تستعصي على الفهم. استعصت وقتها، وتستعصي الآن، وسوف تستعصي في المستقبل. كانت عفراء امرأة من نوع نادر. لا أقصد المدح أو القدح. أقصد أن أصفها فقط. كانت جميلة جداً. وذكية جداً. وثرية جداً. وثورية جداً. ولكن كل هذا لا يجعلها من نوع نادر. كان النادر مزاجها. كانت ذات مزاج غريب جداً. مليء بالمتناقضات. مليء بالأعاصير. كانت علاقتي بسوزي مريحة جداً. وكانت علاقتي بفرحة هادئة جداً. أمّا علاقتي بعفراء فكانت عاصفة جداً. الحياة داخل حقل من ألغام. السكن في ترسانة. ذخائر تحترق. انفجار كل ساعة. دويّ كل دقيقة. ضوء. ودفء. وحريق. لم يمر علينا يوم واحد من السلام. ما أسرع ما تشتعل، وما أسرع ما تهدأ. وعندما تغضب عفراء، يا طبيب، فمن الأفضل أن تغادر المكان، أو المنطقة، أو المدينة. وعندما ترضى تغرقك في بحيرة من العسل الدافىء. بحيرة بدون فحول أو فرسان. كيف عرفتها؟ كيف أحببتها؟ كيف أحبّتني؟ لا أعرف من أين أبدأ. لا توجد حادثة تاريخية بدأت بها العلاقة كحكايتي في الكافيتريا مع سوزي. لا يوجد يوم معيّن شعرت فيه، بغتة، بالحب. كنت أستاذاً زائراً في معهد لندن للدراسات الشرقية والأفريقية. لم أكن أستاذاً زائراً بالمعنى المفهوم. كنت أقضي سنة هناك. أجري بعض البحوث وأحضر بعض الندوات. إجازة مؤقتة من عالم الثراء. وكانت هي تحضّر الدكتوراه في المعهد. أعتقد أني رأيتها، أول مرّة، في المكتبة. كنت أقضي هناك ساعات طويلة، وكانت هي تقضي ساعات أطول. تبادلنا التحيّة المؤدّبة. ثم العبارات المؤدّبة. ثم الحوار الروتيني. ثم بدأنا نتكلم عن الأدب. ثم دعوتها على العشاء في مطعم هندي. اسمه «ممرّ خيبر». أعتقد أنه لا يزال موجوداً. بدأت العلاقة على هذا النحو ثم اشتعلت.

- عفواً، يا پروفسور؟ من أي بلد كانت عفراء؟

- من عربستان، والسلام. التفاصيل لا تهم هنا. وقد يكون بوسعك استنتاج جنسيتها، فيما بعد. ما يهم أنه مع الحب، جاءت البراكين والزلازل والصواعق والفيضانات.

- بسّ ليش؟!

ـ سؤال منطقي! والإجابة عليه صعبة. خاصة، وأنا لست سايكاترست مثلك وشرواك. كل هذه الكوارث الطبيعية ظهرت بمجرّد تحول الصداقة إلى حُبّ. كانت عفراء امرأة متمرّدة. ثائرة على كل تقاليد المجتمع الذي نشأت فيه. تودّ إلغاء كل شيء فيه. خصوصاً السلطة. سلطة الأب. سلطة الأخ. سلطة الزوج. سلطة الذكر عموماً. وأوشك أن أقول إلغاء الذكر بالمرّة. كانت تحبّني وتكره أن تحبّني. تشتاق إليّ وتكره أن تشتاق إليّ. تدلّلني وتحتقر نفسها لأنّها تدلّلني. كانت ترى في الحب ضعفاً لا يليق بامرأة متمرّدة متحرّرة ثائرة. سبقت الوِمنْ ليبراشنستز في الغرب. وسبقت الفيمينيستز. «هل تعتقد أني جاريتك؟». «أنتم في الصحراء لا تزالون تملكون الإماء». «أرجو أن تعرف أني حرّة. حرّة! حرّة! حرّة!». «لا تعتقد أنني خادمتك». «من قال لك إنك رئيسي؟». «لماذا تطلب منّي طلباً كهذا؟ أنا لست أمّك!». «أنا لست بضاعة اشتريتها من السوق». «عليك، وعلى الحب، اللعنة!». حسناً، يا صديقي النطاسي، هذا موقف مفهوم رغم تطرّفه. موقف تستطيع، بشيء من الصعوبة، أن تتعايش معه. ولكن المشكلة أن الضعف الأنثوي، إذا كان هذا هو اسمه الصحيح، سرعان ما يتغلّب على كل نزعات العصيان والغضب. تتحوّل الثائرة المتمرّدة إلى محظية تدلّل رجلها، كما لم تدلّل محظية رجلاً من قبل. «دعني أغسل رجليك. دعني!». «حبيبي! ماذا تريد في الإفطار؟». «أنت مريض. دع رأسك على صدري. نم هنا. كالطفل». «سيدي أنت! رجلي أنت! ملكي أنت! مالكي أنت!». «أيها الرجل العظيم! ألا ترقّ على هذه العاشقة المسكينه؟» هذا بدوره، يا حكيم، موقف مفهوم. ولكنه لا يستمر طويلاً. سرعان ما تعود العاصفة المتمرّدة. تعود بغضب أعنف، لأنه غضب موجّه إليّ وإلى بوادر الضعف التي أفلتت منها في اللحظات المسحورة. «لم أتحدّ أبي لأضع رقبتي تحت سكّين جزار آخر». «لماذا لا تعود إلى صحرائك وجمالك وجواريك؟». «إذا كنت لا أعجبك، إذهب إلى الجحيم، أو إذهب إلى أمك». «أنا لا أعمل طبّاخة هنا». «أيها الرجل الأناني المغرور الجشع!». وهذه الإنسانة كانت تحضّر الدكتوراه عن الشعراء الرومانسيين! تصوّر! أعجوبة!

ـ هل كنت تحبها، يا بروفسور؟

ـ آه! تستطيع أن تقول ذلك. كنت أحبّها وأكره أن أحبّها. أعلن انتهاء العلاقة مرّة في الأسبوع، على الأقلّ، وأكلّمها بعد ساعة من الإعلان. وكانت تغضب وتنهي العلاقة مرتين في الأسبوع، على الأقلّ، وتكلمني بعد نصف ساعة من انتهاء العلاقة. كنت أسكن في شقة متواضعة لا تبعد كثيراً عن المعهد. وكانت

تسكن في شقة فاخرة في نايتز بردج. هل أخبرتك أنها كانت من أسرة ثرية جداً؟ أخبرتك! وكانت تملك سيارة «جكور» باهظة الثمن. هيذبى! كنت أسكن معها، ثم أغضب، وأعود إلى شقتي، ثم تأتي، وتسترضيني، وتسكن معي، ثم تغضب، وتذهب إلى شقتها، ثم أذهب وأسترضيها، وأقيم هناك حتى أغضب. حياة غريبة. حياة متعبة. ليلتان هنا. وليلتان هناك. الشيء الوحيد، أكرّر الوحيد، الذي لم نختلف عليه قطّ هو كراهية إسرائيل. كانت تؤمن أن إسرائيل أُوجدتْ للإبقاء على الأوضاع المتخلّفة في العالم العربي. كانت تؤمن أن إزالة إسرائيل هي الخطوة الأولى نحو أي تحرّر، سياسياً كان أو اجتماعياً أو ثقافياً. كان حقدي على إسرائيل يتضاءل إزاء حقدها. لا بُدّ أن تراه لكي تصدّقه، كما يقولون. أعتقد أن نقمتها على إسرائيل كانت الحقيقة الكبرى في وجودها. ولهذا فعندما جاءت الصدمة كانت كاسحة. كانت قاتلة.

ـ هل تودّ الحديث عن. . .

ـ أود الحديث عن بلاكپول.

ـ تعني المصحّة؟

ـ أعني المدينة. هل زرت بلاكپول، يا طبيب؟ لم تزرها؟ حسناً! تستحقّ زيارة واحدة، على الأكثر. مع العايلة. وفي خليجعربستان عندما يقول المرء «العايلة» فهو يقصد الزوجة. وإن دلّ هذا على شيء فقد يدلّ على الرغبة في تكريم الزوجة. وقد يدلّ على الحرج من الإشارة المباشرة إليها. وقد لا يدلّ هذا على أيّ شيء. بلاكپول مدينة سياحية شعبية. أعني يقصدها عامة الشعب. أعني المسحوقين من البريطانين. ريفييرا الرجل الأقرع النزهي. وهذا تعبير بالمصرية الدارجة لا يحتاج إلى الكثير من الإيضاح. الفنجري المفلس. وقد كانت، ذات يوم، مجرّد قرية كئيبة تحتوي، بالفعل، على بركة سوداء. ثم زارها ويليام هاتون. وهذا المحترم كاتب يخوض في المواضيع العلمية. والمواضيع العلمية في القرن التاسع عشر لم تكن متطوّرة. وبدأ المستر هاتون يتغزّل في تأثير مياه البحر في بلاكپول على الصحّة. وكان التأثير في خياله. ولكن الناس صدّقوه باعتباره يخوض في المواضيع العلمية. تحولت القرية إلى مركز جذب سياحي. وبنت برجاً على غرار برج إيڤل. عقدة خواجة سياحية. وأخذت تجذب عشّاق الشواطىء من كل مكان في الجزر البريطانية. ثم أقامت مجموعة كبيرة من مدن الملاهي. دزني لاند الطفل الفقير. وقد اكتشف الخليجعربستانيون، يا حكيم، بلاكپول السنة الفارطة. وبدأوا يغزونها مع العايلة والأولاد والشرقصيات. وقد يكون هذا الغزو دليل صحّة. وقد يكون دليل

مرض. وقد يكون دليل فقر نسبي. وقد يكون إن دلّ على شيء فإنّما لا يدلّ على شيء. على أيامي، لم يسمع الخليجعربستانيون عن بلاكپول. ولا بقية العربستانيين. باستثناء ثلّة من الطلبة الذين يدرسون في المدن المجاورة. البركة السوداء! إسم لا يخلو من أبعاد ودلالات، يانطاسي. يفتح أمامك أبواب الخيال. وبوابات التساؤل. ما هي البركة السوداء؟ بركة الخوف؟ بركة البغض؟ بركة الجشع؟ بركة الشهوة؟ وماذا يفعل المرء إذا سبح في البركة السوداء؟ يشرب؟ أم يبصق؟ أم يتبول؟ أم. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! ممكن نرجع إلى عفراء؟

ـ بعد لحظة! بعد لحظة! دعني أنهي تساؤلي عن الأسماء وما تثيره في النفوس. هل يشعر المرء برغبة في النباح إذا مرّ بنهر الكلب؟ أو رغبة في العضّ؟ وهل يود التهام كبش إذا مرّ بوادي السرحان، والسرحان هو الذئب؟ وهل يشعر بالطمع قرب بحيرة قارون؟ وهل تنتابه أعراض المرض بقرب البحر الميّت؟

ـ آي دونت نو! عفراء، يا پروفسور!

ـ حسناً! ماذا تريد أن تعرف؟

ـ كيف انتهت العلاقة؟

ـ آه! كانت نهاية مؤلمة. مؤلمة إلى أقصى الحدود. لا تصدّق.

ـ خبّرني!

ـ بداية النهاية جاءت مع الغيرة الشديدة. بدأت الغيرة من جانبها هي، ثم انتقلت العدوى إليّ. لا! لا! بدأت الغيرة من جانبي ثم انتقلت العدوى إليها. أو لعلّها بدأت من الجانبين في نفس الوقت. بدأت ثم استشرت. أجارك الله من الغيرة، يانطاسي. صدق الشيخ زبير عندما قال: «أحذرك من الغيرة يا مولاي. ذلك الوحش الأخضر العينين الذي يسخر من اللحم الذي يزدرده». صورة مرعبة بعض الشيء. وحش بعيون خضراء يزدرد اللحم الآدميّ وهو يقهقه. وكتابات الشيخ زبير مليئة بالصور الغريبة. المضحكة. والمحزنة. لا يصبح الشاعر شاعراً ما لم تجيء في شعره، بين الحين والحين، بعض الصور المرعبة. وقد كان أبو حسيد الخبيث ملمّاً بهذه الحقيقة فأكثر من الصور المرعبة، خصوصاً في حربياته. «فكلّما حلمت عذراءُ عندَهَمُ .·. فإنما حَلَمَتْ بالسبي والجمل». صورة كابوسية. بمجرد أن تحلم أي عذراء رومية ينقضّ عليها جمل مسرع ويأخذها سبيّة على ظهره. «سحائب يمطرن الحديد عليهم .·. فكل مكان بالسيوف غسيلُ». حتّى قنبلة هيروشيما لم تمطر على هذا النحو.

ـ عفواً، يا پروفسور! عفراء!

ـ حسناً! حسناً! بدأ الوحش الأخضر العينين يزدرد لحمي ولحمها. أو، بالأصحّ، روحي وروحها. إذا رأيتها تتحدّث مع زميل من زملائها لم أنم تلك الليلة. إذا تأخرتُ ربع ساعة عن موعد اتهمتني بخيانتها مع امرأة أخرى. كان بالإمكان أن تستمرّ العلاقة رغم الغيرة. الحقيقة أن الغيرة لم تقضِ على حبّنا. جعلته أكثر حِدّة وقلقاً وعنفاً، ولكنها لم تقضِ عليه. ثم طرأتْ ببالي فكرة نفّذتها على الفور.

ـ خير؟

ـ شر! طلبت من مخبر خاص أن يراقب عفراء وأن يكتب تقريراً عن كل تحركاتها.

ـ مخبر خاص؟

ـ سمعت، يا حكيم، عن مكاتب المخبرين الخاصين؟ پرايڤت إنفستيجيتورز. بالتأكيد! هذه المكاتب موجودة في كل مكان. باستثناء عربستان. حيث لا تسمح الحكومة بخصخصة التجسس. ولا خوصصته. كان في لندن العديد من هذه المكاتب. ولا يزال. بعد شهرين، جاءني تقرير شامل عن كل خطوة خطتها عفراء في غيابي. كل خطوة! وكان التقرير مصحوباً بملف من الصور الفوتوغرافية. اتّضح أنها كانت تقابل رجلاً غيري بانتظام. مرّة في الأسبوع، على الأقلّ.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ صدّقني! صدّقني! وليته كان رجلاً عادياً.

ـ شو كان؟ سوپرمان؟!

ـ ليته كان سوپرمان. كان المسؤول عن الموساد في بريطانيا.

ـ عفراء كانت بتشوف المسؤول عن الموساد في بريطانيا؟!

ـ أيْ نعم! وأثبتت الصور ذلك. على نحو لا يقبل الشكّ. صورها معه.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ أرسلتُ إليها الصور بالبريد المسجّل. وسافرتُ إلى فلوريدا. وقضيتُ هناك قرابة شهرين. ثم عدتُ إلى لندن. ووجدت أن عفراء قد انتحرت.

ـ شو؟ شو؟ شو؟

ـ إنتحرت يا عميّ! قتلتْ نفسها. كوميتيد سويسايد! بطريقة علمية مريحة. أقفلت باب الكراج. وفتحت نافذة «الجكور» الأنيقة. وتركت الموتور يعمل. وأخذت تستنشق الغازات. حتى ماتت.

ـ كيف عرفت التفاصيل؟

ـ من تقرير البوليس؟

ـ وكيف وصلك؟

ـ عن طريق الإتصالات الشخصية.

ـ وعندها أصبتَ بالانهيار العصبي؟

ـ عفواً؟! أيّ انهيار عصبي؟!

ـ قصدي عندها دخلت مصحّة بلاكپول؟

ـ هذا أفضل! هذا أفضل! لم أصب بانهيار عصبي. لا أذكر بالضبط ما حدث. أذكر أنني وجدت نفسي في مصحّة بلاكپول تحت إشراف الدكتور سپلووتر.

ـ يقول الملف إنّك قذفت بنفسك أمام قطار. كنت تحاول قتل نفسك.

ـ أحاول قتل نفسي؟ لأنّ جاسوسة إسرائيلية انتحرت بعد افتضاح أمرها؟ لماذا أفعل ذلك؟

ـ لشو زتيت حالك على القطار؟

ـ زلّة قدم رُبّما. لا أذكر.

ـ يقول الملف إنك أصبت بكسور ورضوض شديدة. فنقلت إلى المستشفى. وعولجت من الكسور والرضوض. ثم بدأتْ الأعراض النفسية. رفضت أن تنام. ورفضت أن تأكل أو تشرب. حاولت الانتحار من جديد.

ـ الانتحار جوعاً؟! أنا؟! حاجة دكتور ثابت!

ـ هذا ما يقوله الملفّ.

ـ الحق أقول لك، لا أذكر. ربما حصل هذا كله. أو حصل جلّه. أو حصل بعضه. وربّما لم يحصل شيء. عندما علمت بانتحار عفراء أصبت بفقد تام في الذاكرة. توتال أمنيزيا. بمجرّد رجوع ذاكرتي، وجدت زميلك السايكاترست

يصوّب مدفعيته الثقيلة المليئة بملايين الأسئلة نحو شخصي الضعيف. بدأت فترة من أشقى فترات حياتي. لا تختلف كثيراً عن الفترة العصيبة التي مرّت بي في مصحة مونتري.

ـ بس من غير صدمات كهربائية؟

ـ صدقت! الصدمات الكهربائية أصبحت، وقتها، آوت أوف فَاشِن. ولكني انتقلت من الرمضاء إلى النار. والخواجات لديهم مثل مشابه عن القفز من المقلاة إلى اللهيب. سمعت بالمثل؟ حسناً! لم تكن هناك صدمات كهربائية. كان هناك ما هو أدهى وأمرّ. العقاقير التي تعبث بالمخ عبثاً. ال. اس. دي ٢٥.

ـ استُعمَل هذا المركّب استعمالاً تجريبياً في العلاج النفسي خلال الستينات والسبعينات. ثم توقّف. لم نعد نستعمله الآن.

ـ كان من سوء حظي أنني زرت مصحّة بلاكپول في ذروة الاستعمال التجريبي. كان الدكتور سپلووتر يعطيني العقار الجهنميّ وهو يتحدّث بنبرة تذكّرك بنبرة المنوّمين المغناطيسيين: «الآن سوف تعود أدراجك إلى الفترة التي كنت فيها جنيناً في الرحم. سوف تعود إلى رحم أمك. أخبرني بكل ما تراه. صف لي كل مشاعرك». يزول صوت الدكتور سپلووتر ويبدأ الكابوس. أشعر أنني في وسط كرة لزجة مليئة بسوائل غريبة كريهة الرائحة. ظلام في كل مكان. ظلام دامس. خرمس كما يقولون في خليجعربستان. وأشياء تصطدم بي. أشياء مدُبّبة. أحاول الكلام فلا أستطيع. أحاول الخروج فلا أقدر. أحسّ بثلج يجمّد أطرافي. خوف. رغبة في الصراخ. أسماك قرش تنهشني. غوّاصة تطحنني. بحر من الظلمات. وجه الدكتور سپلووتر منتفخ بابتسامة عريضة: «كيف كانت التجربة، يا پروفسور؟». «كانت مخيفة جداً، يا دكتور». «آه! هذه هي الفكرة. أن تواجه مخاوفك كلها. وأن تبدأ بالمخاوف الأصلية. المخاوف التي تبدأ مع الجنين في الرحم». «ولكنني لم أكن جنيناً في رحم. كنت بشكلي الحالي داخل كرة لزجة سوداء تحولت إلى بحر». «آه! هذا هو، بالضبط، شعور الجنين. عدت بالفعل، يا پروفسور، إلى الفترة التي كنت فيها جنيناً». «دكتور سپلووتر! نهشتني أسماك القرش وسحقتني غوّاصة. هل يوجد في الرحم أسماك قرش وغوّاصات؟». «آه! هذه رموز من حياتك الراهنة اختلطت بتجربة الجنين». «أرجو ألا نعيد التجربة. كادت تقتلني رعباً». «آه! في البداية. في البداية فقط هناك شيء من الخوف. ثم تتعوّد». «لا أريد العودة إلى الرحم. أبداً! أبداً!». «لن تعود إلى الرحم. في المرّات القادمة ستعود إلى الطفولة». «ولكن لماذا؟». «لتعيش تجاربك مرّة أخرى. لترى من

أين جاءت عقدك». «أيّ عقد؟». «العقد التي دفعتك إلى محاولة الانتحار». «ولكنني لم أحاول الانتحار». «إذن، لماذا رميت بنفسك أمام القطار؟». «كانت حادثة. عثرتُ ووقعت. وتصادف أن مرَّ القطار». «پروفسور! لن ألعب معك هذه اللعبة». «أيّ لعبة؟». «لعبة الإنكار». «أنت حرّ». «في المرة القادمة سوف تعود إلى فترة الرضاعة». استحلفك، بالله!، يا دكتور ثابت، هل يجوز هذا؟ هل يجوز تدمير المخّ بكيمائيات قاتلة؟

ـ عفواً، يا پروفسور! هذه المهلوسات فيها أضرار جانبية. ولهذا لم نعد نستعملها في العلاج. ولكنها لا تدمّر ولا تقتل. عَرفَتِ البشرية المهلوسات منذ آلاف السنين. وفي المكسيك، كانت القبائل الأصلية تتعاطى فِطراً مهلوساً وتسمّيه «لحم الآلهة».

ـ المهلوسات؟ صدقت! صدقت! وكثير من الشطحات الصوفية سببها المهلوسات. وكثير من الخيالات الشيطانية سببها المهلوسات. وقد كان الحسن بن الصباح في قلعة ألموت يعطي أتباعه المهلوسات فيظنّون أنهم في الجنّة. ولو أن أمين معلوف في رواية «سمرقند» ينفي ذلك نفياً باتّاً. وأمين معلوف أبخص. وأبخص كلمة خليجعربستانية تعني أفهْم وأعَرفْ. وفي خليجعربستان مقولة شائعة هي: «الشيوخ أبخص». وتفسيرها أن الحكام أدرى بالمصلحة العامة من المحكومين. وهذا صحيح بدون شك أو ريب. بدليل أن الحكام أصبحوا حكّاماً والمحكومين أصبحوا محكومين. والغريب أن أمين معلوف. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى المصحّة؟

ـ نعود! كما عدت طفلاً أرضع من ثدي أمي. حقيقة الأمر أني لم أر طفلاً ولم أر ثدياً. رأيت نفسي بشكلي الراهن مُعلّقاً بشعرة من صخرة عالية. شعرة رقيقة من الحرير الذي تنبت منه أشواك. ورأيت أنني مكفّن بغمائم ورديّة. والرياح تلسعني من كل جانب. وهناك وطاويط تملأ الجو. وتقترب مني ثم تبتعد. وهناك تنّين طائر يمجّ النيران عليّ. وأحاول الصراخ فلا أستطيع. والشعرة تتوتّر، وتوشك أن تنقطع. وتحتي حفرة تفحّ فيها الأفاعي. رعب في رعب في رعب. «دكتور سپلووتر! لم أر ثدياً. رأيت كابوساً مزعجاً». «آه! الكوابيس هي خزانة الأسرار. مستودع كل شيء. كانَت المخاوف هي مشاعرك الحقيقية وأنت ترضع. كنت تخشى أن تهجرك أمّك». «دكتور سپلووتر! أتوسّل إليك! لا تبدأ الحديث عن عقدة أوديب. والغيرة من الأب. واشتهاء الأم. والتنافس بين الأخوة. أتوسّل إليك!». «لم لا، يا پروفسور؟ هذه هي مشاعر الطفل الطبيعية». «على مشاعر الطفل الطبيعية

اللعنة! وعلى مشاعره غير الطبيعية ألف لعنة! انتهينا من الطفولة بخيرها وشرّها». «ولكن بدون الأمس لا يمكن فهم اليوم». «لا أريد فهم اليوم». «هل تريد أن تستمرّ في محاولات الانتحار حتى تنجح واحدة منها؟». «لم تكن هناك أيّ محاولة للانتحار». «قلت لك إني لن ألعب هذه اللعبة معك». «إلعب ما تشاء مع من تشاء». وهكذا، دواليك. تعود اليوم جنيناً. تعود غداً طفلاً. تعود بعد غد مراهقاً. وحقنة صغيرة في الوريد. وتجربة جديدة. وكل تجربة أسوأ من أختها. «أعرف أن هذا مجرّد حلم. ولكن الألم الذي أحسّه أعظم من ألم الواقع... هل أموت تحت وطأته؟ ألا يوجد أحد بجانبي؟ ألا يسمع أحد هذه الصرخات المكبوتة، ويوقظني؟». كولريدج! الشاعر الرومانسي. يصف كابوسه. وكوابيسي. هل جربت ال. اس. دي ٢٥، يا حكيم؟

ـ معلوم! كانت التجربة جزءاً من التدريب الذي نتلقّاه.

ـ بالتأكيد! إذن، فأنت تعرف الشعور. تعرف ذلك العالم الغريب المتأرجح بين النوم واليقظة. والعقل والجنون. تعرف العين التي تتحول إلى قبر. والبشر الذين يطيرون. والذبابة بحجم المنزل. وقوس قزح الذي يصبغ ثيابك. الألوان السايكديليكيه. التي لا يمكن وصفها لمن لم يرها. والمشاهد التي تمرّ بك بسرعة جنونية. أبوك على حصان. نابليون يطلق عليك النار من بخاخة عطر. قطار يسير على الجليد. امرأة من مصّاصات الدم تهوي على عنقك. طفلة جنين تمارس معك الحبّ. شجرة تنمو من أذنك. موسيقى رمادية. مطر أزرق. راهبة على حمار مزركش. ب.ب.. م.م. أي مارلين مونرو. أمك تطعنك بسكين في لسانك. طبيبك يضع عنقك في المشنقة. ببغاء تسكن في معدتك. قلبك يتحول إلى فستقة تأكلها الديدان. هل تعرف، يانطاسي، أنني بعد تجربتي مع المُهلوسات بدأت أتذوّق لوحات بيكاسو؟ سمعت عن بيكاسو؟ بالتأكيد! الفنان العالمي الشيوعي الوجودي المليونير. ذو المراحل. المرحلة الزرقاء فالورديّة فالتكعيبية. ذو الرسوم المُشكلة. الوجه مجرّد ضرس. والأضواء هي الملامح. والألوان هي الأشكال. والرِجل محل العضو الحسّاس. لا أدري هل كان بيكاسو يتعاطى المُهلوسات قبل الرسم. أو أن موهبته كانت تتضمن الهلوسة الذاتية. ما أدريه هو أنني بعد خروجي من مصحّة بلاكپول أصبحت من أعظم عشاق بيكاسو. لم أتذوّق شطحات بيكاسو فحسب. أضفت إليها شطحات الصوفية. خذ هذه الأبيات لختم الأولياء الشيخ الأكبر: «رَفَعَن السِجاف أضاء الدُّجى ∴ فسار الركاب كضوء القَمَرْ. فأرسلتُ دمعي أمام الرِكاب. ∴ فقالوا: «متى سال هذا النَهرْ؟!». ولم

يستطيعوا عبوراً له. ∴. فقلت «دُموعي جَريْن دُرَرَا!». لو قرأ بيكاسو هذه الأبيات لأوحت له بلوحة تباع الآن بعشرة ملايين دولار. نهر من اللآلىء. قافلة. وفي الخلف ألوان من المرحلة الزرقاء. وفي الأمام أضواء ورديّة. والجِمال مكعّبات. آه! لو كنت أستطيع الرسم. أو خُذ، مثلاً، هذا البيت الشهير لابن الفارض: «صفاءٌ ولا ماءٌ. . .».

ـ عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى المصحّة؟

ـ نعود! شطحنا قليلاً، ونعود. والشطح، بالتونسية الدارجة، تعني الرقص. ولا أدري هل هناك علاقة بين الشطح التونسي والشطح الصوفي. الأرجح أن ثمة علاقة من نوعٍ أو آخر. الشطح، في الحالتين، خروج عن المألوف والمعتاد. والمعتاد والمألوف ألاّ يرقص الإنسان. فإذا رقص فقد شطح. والمعتاد والمألوف أن تكون المرأة مرأة فإذا تحوّلت. . . .

ـ عفواً، يا پروفسور! عفواً! عفواً!

ـ حسناً! حسناً! حسناً! لا تكن نرڤوزاً ولا نرڤازاً ولا نرڤيزاً! قضيت مع المهلوسات قرابة ٤ شهور. حتّى اقتنع الدكتور سپلووتر أن الكوابيس السايكديليكيه التي يرسلني إليها بمعدل مرّتين في الأسبوع، لم تتمكّن من فضح أي عقد مترسّبة في عقلي الباطن. وعندها، عادت حليمة إلى عادتها القديمة. السايكوثيربي! وكأنّنا يا فرويد لا رحنا ولا جينا. الأسئلة المعهودة. «متى شعرت بالرغبة الجنسية لأوّل مرّة؟». «هل كنت تكره أخواتك؟». «هل كنت تعاني صعوبة في التبوّل؟ أو التبرّز؟». «هل كنت تتعرّى أمام أخوانك؟». «هل تحرّش بك أحد وأنت طفل؟». تعرف الروتين! لم أجد صعوبة في الردّ. تجمّعت لديّ حصيلة من الخبرة الواسعة مكّنتني من تقديم الجواب المناسب الذي يرضي السايكاترست، وقد لا يرضي الحقيقة. لم يكن الضيق ينتابني إلاّ عند الحديث عن عفراء. «أنت تعتبر نفسك مسؤولاً عن موتها. أليس كذلك؟». «لا، هي المسؤولة. هي التي انتحرت». «انتحرت بعد أن استلمت الصور التي أرسلتها أنت». «الصور لم تكن سبب الانتحار». «ولكنها انتحرت بعد استلامها. الصور هي السبب». «لا أعرف لماذا انتحرت. ولا أنت تعرف، يا دكتور سپلووتر». «من الواضح جداً أن الصور لها علاقة بالانتحار». «ولكن الصور لم تخترع شيئاً. الصور سجلت الواقع». «قد يكون الرجل مجُرّد صديق». «قد يكون». «هل أرسلت لها رسالة مع الصور؟». «لا». «هل اتّصلت بها بعد إرسال الصور؟». «لا». «ماذا فعلت إذن؟». «سافرت إلى فلوريدا». «هل كنت تتوقّع أن تنتحر؟» «لا». «ماذا كنت تتوقّع؟». «أن تنتهي

العلاقة بيننا. لا شيء أكثر من ذلك». «هل صُدمْتَ عندما علمت بانتحارها؟». «نعم». «لماذا؟». «لم أكن أعتقد أنها من النوع الذي يمكن أن ينتحر. كانت تضج بالحياة». «هل تعتبر نفسك مسؤولاً عن موتها؟». «لا». «إذن، لماذا حاولت قتل نفسك؟». «لم أحاول قتل نفسي. كان الأمر حادثة». «لن ألعب معك هذه اللعبة». «ألعابك تخصّك وحدك». «ومعتقدات عفراء تخصّها وحدها». «هذا صحيح». «إذن، لماذا غضبت عندما علمت أنها على علاقة برجل يهودي؟». «لم تكن على علاقة برجل يهودي. كانت تتعامل مع المسؤول عن الموساد. كانت جاسوسة إسرائيلية». «لنفترض، جدلاً، أنها كانت جاسوسة إسرائيلية. كانت امرأة حرّة واتخذت قرارها. لماذا يغضبك هذا؟». «هناك فرق كبير، يا دكتور، بين الغضب والمفاجأة. لم أغضب بقدر ما فوجئت». «ولماذا فوجئت؟». «لأنني كنت أعتقد أنها كانت صادقة عندما كانت تتحدّث عن كراهيتها لإسرائيل». «هل تتوقّع من كل الناس أن يكرهوا إسرائيل؟». «أتمنّى لو كره كل الناس إسرائيل. ولكني لا أتوقّع ذلك». «لماذا تكره اليهود؟». «لا أكره اليهود. أنتم المسيحيين الغربيين الذين تكرهونهم. أنتم الذين اضطهدتموهم. وحصرتموهم في جيتوز. ثم قتلتموهم بالغاز. ثم سلّمتم بقاياهم فلسطين تحت وطأة الشعور بالذنب». «دعنا من السياسة يا بروفسور! فلنعد إلى عفراء». «ماذا عن عفراء؟». «كيف كانت العلاقة بينكما؟». «كانت رائعة. وصاخبة. وعنيفة. وشقيّة. وسعيدة». «ماذا تقصد؟». «كنت أحبّها. وكانت تحبّني. كنا نتشاجر كل يوم مرة. ونمارس الحب مرتين». «أوه! أوه! مرتان كل يوم؟! هل تمزح؟». «لا أمزح». «كانت، إذن، شهوانية؟». «تستطيع أن تقول ذلك». «أنتم العرب تعتبرون النساء مجرّد أدوات للإشباع الجنسي». «لا. نحن العرب نقدّر المرأة». «ولكنك عجزت عن التعامل مع عفراء كإنسانة.» «ماذا تقصد؟». «ألم تقل لي إنكما كنتما تتشاجران كل يوم؟». «وقلت لك إننا كنّا نمارس الحب كلّ يوم». «مرّتان في اليوم؟!». «مرّتان!» «هل كنت منزعجاً لأنّ عفراء تتمتّع بشخصية قويّة مستقلّة؟». «لا.». «هل كنت تتمنّى لو عاملتك كما تعامل الجارية سيّدها؟». «أحياناً، كانت تفعل ذلك. دكتور سپلووتر! عندما تكون في حالة حبّ يصبح السيّد عبداً. والعكس بالعكس». «آه! نقطة جديرة بالتأمّل. أنتم المسلمين تنظرون إلى النساء نظرتكم إلى خدم». «المتخلّفون من كلّ ملّة وجنس، وحدهم، هم الذين ينظرون هذه النظرة إلى المرأة». «وماذا عن نظرتك أنت إلى المرأة؟». «أتعامل معها معاملة الندّ للندّ. لا أنظر إليها باستعلاء. ولا أتوقّع أن تنظر إليّ باستعلاء». «بروفسور! هل تتوقّع مني أن أصدّق ذلك؟». «أنت حرّ. صدّق ما تشاء». دكتور ثابت، هل تريد المزيد؟

ـ يكفي! بزيادة! شكراً! ماذا عن لوريتا بوند؟

ـ ماذا عنها؟

ـ كانت معك في المصحّة؟

ـ نعم.

ـ وقامت بينكما علاقة؟

ـ بوسعك أن تقول ذلك. كانت لوريتا بوند، أيامها، نجمة. كانت مطربة مشهورة جداً، ووجهاً تيلفزيونياً معروفاً جداً، على الأقل في الجزر البريطانية. معشوقة الملايين التي لم تجد حبيباً واحداً يحنو عليها. فلجأت إلى الكحول والعقاقير. حتى انتهى بها الأمر في مصحّة بلاكپول. كانت في الثلاثين، وإن كانت تبدو أكبر. قضيت ساعات طويلة أتحدّث معها. هل لاحظت، يا حكيم، أن الناس يتحدثون مع الغرباء بصراحة تنعدم عندما يتحدّثون مع معارفهم؟ أتصوّر أنني لو لم أكن أجنبياً، من بلاد بعيدة جداً، وغريبة جداً، لما فتحت لي لوريتا مكنونات صدرها. هل لديك تفسير لهذه الظاهرة؟

ـ مع الغرباء، لا يوجد عامل منافسة، ولا عامل خوف، ولا احتمال فضيحة، ولا احتمال شماتة، ولا احتمال ابتزاز. المشاهير والشهيرات يحسبون، دائماً، حسابات المنافسة والشماتة والابتزاز.

ـ هذا تفسير منطقي جداً. «كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى .·. فتهون غير شماتة الأعداء» كما قال شاعر يخاف الشماتة. وفي هذه المقولة مبالغة كبيرة. أنا، شخصياً، أفضّل الشماتة على أن أموت أو أمرض أو أخسر ربع دولار. كانت لوريتا تحدّثني عن وحدتها القاتلة التي لم تجد ما يخفّف من قسوتها سوى زجاجات الجنّ المخلوط بعصير الأناناس. ولا تسألني لماذا كانت تخلط الجنّ بعصير الأناناس، فللناس فيما يشربون مذاهب. كل إنسان عشقته تجاهلها، أو قضى وطره منها، ثم فركها. وام بام، ثانك يو مام، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان. وملايين المعجبين لا يحرّكون شعرة واحدة في جسدها. وجسدها مليء بالشعر. صدّقني! ولا تسأل عن التفاصيل. أنا أستغرب من الذين يحسدون النجوم. لو عرفوا كيف يعيشون لأشفقوا عليهم. وأنا أقصد النجوم من كل صنف. نجوم الفن ونجوم السياسة ونجوم المال. وحتّى نجوم الأدب. لا تجد واحداً من هؤلاء يستطيع أن ينام ليلة واحدة بدون أقراص منوّمة. ولا أن يبدأ يومه بدون أقراص منشطة. أمفيتامينز، كما يسمّيها النطاسيون مثلك وشرواك. لا تجد واحداً من هؤلاء يضحك من أعماقه. كل شيء في حياتهم مصطنع. أو اصطناعي. ما عدا الألم

والإدمان. لوريتا كانت مأساة بشرية تستدرّ الشفقة.

- هل الشفقة هي التي دفعتك إلى النوم معها؟!

- براڤو، دكتور ثابت، براڤو! قرأت الملفّ بإمعان. تستطيع أن تقول ذلك. وتستطيع أن تقول إن حبّ الاستطلاع لعب دوراً. وتستطيع أن تقول إن بريق النجمة كان له تأثير. والأدقّ أن تقول إنّ كل شيء تمّ بطريقة عفوية. قاد شيء إلى شيء، كما يقولون.

- هل استمرّت علاقتك بلوريتا بعد خروجها من المصحّة؟

- العلاقة الجسدية توقّفت. أمّا الصداقة فاستمرّت بعض الوقت. خرجت من المصحّة إنسانة جديدة. لا! لا! لا أدّعي الفضل لنفسي. كل ما أدّعيه هو أن تعرّفها عليّ لم يزد من شقائها. بعد خروجها من المصحّة بسنتين أو ثلاث أحبّت مزارعاً أسترالياً، وتزوّجته، واعتزلت الفنّ نهائياً. أرجو أن تكون قد وجدت في أعماق أستراليا الحبّ الذي لم تعثر عليه وهي محاطة بملايين المعجبين.

- وماذا عن السيّدة تي؟

- ماذا عنها؟

- يقول الملفّ أن علاقة جنسية نشأت بينك وبينها.

- السيّدة تي، يا حكيم، كانت امرأة جميلة جداً. جدّاً جدّاً! تزوّجتْ ٤ رجال ولم يستطع واحد منهم القيام بواجباته الزوجية. وطلّقتهم. أو طلّقوها. ونشأ في ذهنها وَهْم أنها مخلوقة كريهة لا يمكن أن يشتهيها رجل. ودخلت المصحّة للتخلّص من هذا الوهم. كان الدكتور سپلووتر على إلمام بما يدور بيننا. تستطيع أن تقول إنه شجّعني، بطريقة غير مباشرة، على إزالة عقدتها.

- أي أنك نمت معها بدافع الشفقة؟

- بالتأكيد! بكلّ تأكيد!

- وماذا عن اللورد نكنوكستر؟

- ماذا عنه؟ كان زميلي في المصحّة. ماذا يقول الملفّ؟

- هناك فقرة واحدة تذكر أنك قضيت في ضيافته يوماً حدثت فيه أشياء مضحكة. وبعد ذلك، مجموعة من علامات التعجّب.

- أشياء مضحكة؟!

ـ هذا ما يقوله الملفّ. أخبرني بما حدث.

ـ أوّلاً، يجب أن تعرف أن اللورد نكنوكستر رجل ثريّ جداً. تستطيع أن تقول إنه فاحش الثراء. ورث من الأراضي الزراعية ما يعادل مساحة دويلة في العالم العاشر. وورث من الأحياء السكنية في لندن ما يفوق ميزانية عشر دويلات في العالم العاشر. ثانياً، يجب أن تعرف أن اللورد نكنوكستر شخصية غريبة الأطوار. والبريطانيون يستظرفون غريب الأطوار إذا كان ثريّاً. أمّا إذا كان فقيراً فيعتبرون غرابة أطواره علامة جنون مؤكّد. واللورد نكنوكستر لم يضرّ أحداً بغرابة أطواره. كان يقضي شهراً في السنة في مراقبة الطيور النادرة بالدربيل. والدربيل هو الناظور. وشهراً، تحت الأرض يجوب مناجم الفحم المهجورة. ولا تسألني لماذا يفعل ذلك. من الواضح أنه يحبّ المشي في مناجم الفحم المهجورة. وشهراً، في دراسة الظواهر الروحية في البيوت المسكونة بالأشباح. وفي كل بيت بريطاني يزيد عمره عن ٣٠٠ سنة يوجد شبح واحد على الأقل. وهذه المعلومة من اللورد نفسه، وهو أبخص. وشهراً، في المرور بإسطبلات الخيول المشهورة بحثاً عن خيول شابة. وشهراً، في لندن يدير خلاله أعماله التجارية ويحضر مجلس اللوردات. وشهراً، في هونج كونج مع صديقته الصينية. كم شهراً تبقى من السنة؟

ـ ٦ شهور.

ـ صدقت! من هذه الشهور يقضي ٣ شهور في مصحة بلاكپول. يأتي هو، ووصيفه الخاص، ووصيفته الخاصة، وصناديق من النبيذ الأحمر المُعتّق، ويحتلّ مبنى بأكمله. ولم لا يحتلّه وهو الذي تبرّع بإنشائه؟ في المصحّة يستجمّ من إرهاق العمل، على حد تعبيره. ثم يقضي شهراً مع زوجته في قصره الريفي. كم شهراً بقي؟

ـ شهران.

ـ صدقت! يقضي شهراً منهما في تسلّق الجبال مع فرق من الكشّافة في نيبال. الشهر الباقي هو اللغز الكبير في برنامجه السنوي. لا أحد يعرف أين يقضيه أو كيف. عندما سألته قال لي ببساطة «لا بُدّ أن تكون للرجل أسرار. عندما يصبح الرجل كتاباً مفتوحاً فإنه ينتهي». تصريح غريب بعض الشيء، ولكننا بصدد رجل غريب الأطوار. أحبّ هواياته إلى نفسه هي صيد الثعالب بواسطة الكلاب. كنا نتحدّث عن هذا الموضوع عندما دعاني إلى أن أنضمّ إليه في حملة صيد في قصره الريفي. اعتذرت بلباقة ولكنه أصرّ إصراراً غريباً على الطريقة العربستانية. وأوشك أن يطلّق. اضطررت إلى الموافقة، ولو كنت أعرف ما سيحدث لتركته يطلّق.

ـ وشو صار؟

ـ أقلعنا بعد الفجر من المصحة في هيلوكبتر. والهيلوكبتر هي الطائرة المروحية، وهذه مفهومة، أو الطائرة العمودية، وهذه مفهومة أيضاً. أو الطائرة السمتية، وهذه غير مفهومة بالمرّة ويغلب على الظنّ أنها من استخراع السدنة الخالدين. وفي الخليجعربستانية الدارجة عندما يقال عن إنسان إنه سامت روحه فهذا يعني أنه متكبّر. شايف حاله. والهيلوكبتر التي أقلتنا إلى قصر اللورد الريفي كانت شايفة حالها. أي سمتية. بمجرد وصولنا جرى البحث عن ملابس للصيد يرتديها محسوبك. وتمّ العثور على عدّة كاملة تفي بالغرض. من مخلفات جد اللورد الذي كان لورد/سايز. ثم انتقلنا إلى مائدة الإفطار. إفطار رهيب. لا أجد سوى هذا الوصف المبتذل. الذين يعطونك المحاضرات عن بخل الإنجليز لم يشهدوا إفطار اللورد نكنوكستر صبيحة الصيد. كاڤيار. كل أنواع السوسيجاء. بيض بكل وصفة في كتب الطبخ المجهولة والمعروفة. أسماك منتنة وغير منتنة. أجبان تفوح وأجبان لا تفوح. أطنان من اللحوم. طوفان من الأشربة الكحولية. وانقضّ المدعوون والمدعوات، قرابة ٥٠ قطباً وقطبة من أعمدة المجتمع الأرستقراطي، انقضاضاً على المائدة. وعلى البار. وعندما بدأت الحملة في التاسعة صباحاً كان الجميع ممتلئين، ومنشعين. وهذا تعبر خليجعربستاني يعني منتشين. أمر الماستر أوف ذا هنت بالنفخ في البوق. والماستر هو قائد الحملة. جنرال متقاعد خرف سكران من جيران اللورد. وانطلقت الكلاب تبحث عن ثعلب. يذكّرني الكلب منها بما قاله أبو حسيد في وصف كلب انطلق خلف ظبي: «يكاد في الوثب من التفتّلِ. يجمع بين متنه والكلكلِ.. نيل المنى، وحكم نفس المُرسِلِ.. وعقلة الظبْي وحتْفِ التّتْفُلِ». والتتفل هو الثعلب الصغير. أو جرو الثعلب. وها هو ذا أبو حسيد يتنبأ أن الكلاب ستخصّص ذات يوم لصيد الثعالب. وقد سبق أن أخبرتك أنه سُمّي المتنبي لكثرة تنبّؤاته. وأبو حسيد لم يكن من هواة الصيد. ولكنه نظم في الطرديات من باب استعراض العضلات الشعرية. والطرديات هي أشعار الصيد. وتنظم، لسبب لم يشرحه أحد حتى الآن، من بحر الرجز. مع أن العرب، لسبب لم يشرحه أحد حتى الآن، كانوا يعتبرون الرجز أرذل الشعر. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أننا انطلقنا وراء الماستر. الذي انطلق وراء الكلاب، التي انطلقت تشمشم عن ثعلب. وقد وصف أوسكار وايلد صائدي الثعالب فأجاد عندما قال: «الذين لا يطاقون يطاردون الذي لا يؤكل». كنت على فرس بلقاء، وكنت واثقاً من مقدرتي على السيطرة عليها لأنني قضيت طفولتي وشطراً من صباي فارساً ماهراً من فرسان الحمير. لم أكن أعرف أن الجنون سيضرب كل مخلوق بمجرد ظهور

الثعلب. ما إن ظهر حتّى جنّ جنون الكلاب. وجُنّ جنون الصيادين. وجُنّ جنون الخيول. وشعرت أن فرسي تحولت إلى طائرة نفّاثة. وجدتها تطير فوق سور خشبي عال، ووجدت نفسي أطير من ظهرها لأستقرّ فوق مجموعة من الشجيرات. باستثناء الرعب الذي تملّكني، وبعض الخدوش البسيطة، لم تكن هناك إصابات. كنت أقيّم وضعي الصحي، أو أقوّمه، عندما وجدت الليدي نكنوكستر، وهي حسناء سمينة نصّ عمر تترجّل عن حصانها الأشهب وتقبل علي: «أوه! أوه! أيها الشيء المسكين! أيها الرجل المسكين! كيف سقطت؟ هل هذه هي المرة الأولى التي تشارك فيها في صيد؟ أنت الشيخ العربي؟ زميل بيرتي في المصحّة. حدثني بيرتي عنك. أنتم متعودون على ركوب الجمال في بلادكم، أليس كذلك؟ أرجو ألا تكون متألماً. أرجو ألاّ تكون قد كسّرت عظماً من عظامك. تعال معي إلى هذا الجدول. تعال لأغسل وجهك. وأتأكّد من سلامة أعضائك». حسناً، يا طبيب، عند الجدول غسلت وجهي، وبدأت تفحص أعضائي وتتأكد من سلامتها. عضواً عضواً! «وكان ما كان مما لست أذكره». في أثناء ذلك، رفعتُ رأسي فإذا باللورد نكنوكستر على حصانه الأسود يتأملنا، ثم يقول لزوجته وهو يضحك: «أرى، يا عزيزتي، أنك قد تعرفت على البروفسور!».

- حاجة، يا پروفسور!

- هذا ما حدث.

- ألم يغضب؟

- لم يغضب.

- ألم يصرخ؟.

- لم يصرخ؟ كنت أتوقع رصاصة فتلقيت ضحكة.

- وماذا عن الليدي؟

- ماذا عنها؟

- ماذا كان ردّ فعلها؟

- ضحكت بدورها.

- وبعدين شو صار؟

- أخذتني إلى مخدعها، غرفة ترمح فيها الخيل. وهذا، مجرد تعبير، وإلاّ فكل

الخيول كانت، في الخارج، تطارد الثعلب المسكين. وهناك أستأنفتْ عملية التأكّد من سلامة أعضائي. وعندما أطمأنّت تماماً، أخبرتني أنها ستعود إلى الصيد. واقترحت أن أقضي بقيّة اليوم في مخدعها للراحة. كان يمكن لكل شيء أن ينتهي بسلام لولا أم الخبائث. والوصيفة.

- الوصيفة؟

- أيْ نعم! ذا مَيْد!

- شو صار؟

- حدث أن الليدي نكنوكستر، ولا تسألني عن اسمها الأوّل فأنا لا أعرفه حتّى هذه اللحظة، أرسلتْ لي زجاجة شمبانيا مع وصيفة. هذه الوصيفة، يا نطاسي، كانت نوك آوت، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان. بشرة مثل القيمر العراقي. خدود كالفراولة الإنجليزية. نهود كرمّان الطائف. طلبت منها أن تجلس لتشرب معي، ونتحدّث. ووافقت على الفور. كان اسمها سامنثا. رويتُ لها قصصاً مفبركة عن حياتي الرومانسية في الصحراء. وطارت الزجاجة. ثم طارت زجاجة ثانية. كانت تشرب كالأسماك. وطارت زجاجة ثالثة. ثم بدأت أتودّد إليها. وأبدت تعاوناً مشكوراً وروحاً إيجابية طيّبة. «وكان ما كان مما لست أذكره». وبغتة، قطع علينا وصالنا صوت انفجار شديد. إنكسرت النجفة وهوتْ محطّمة على عجيزتينا. والعجيزة هي الردف. عند الباب، كانت الليدي نكنوكستر تقف وفي يدها شوت جن، والشوت جن هي الجفت كما سبق أن أخبرتك، وكانت تصرخ: «أيها العربي الخنزير! تنام مع خادمتي؟! بعد أن نمت معي؟! تنام معها في غرفة نومي؟! ». كاد يغمى على سامنثا من الفزع. أمّا أنا فأغمي عليّ فعلاً. أفقت صبيحة اليوم التالي لأجد طبيباً يفحصني، ويقول: «جراح سطحية جداً!». عدنا إلى المصحة، اللورد وأنا، بعد أن اعتذرت الليدي بحرارة عن تصرّفها الأهوج. استمرت صداقتي مع اللورد حتى اليوم، وإن كنت حرصت بعدها على تجنب الليدي.

- هل من الممكن أن نعود إلى المصحّة؟

- نعود! ونخرج! لم تكن هناك أي عقبة تحول بيني وبين الخروج. دخلت بإرادتي وخرجت بإرادتي. ونجحت في إقناع الدكتور سپلووتر أنه تمكن من علاجي. بعد خروجي وجدت التقريرين من مركزي التفكير جاهزين. تقرير عن كيفية النهوض بالأمّة العربية. وتقرير عن كيفية تدمير إسرائيل. كانت هناك مفاجأة كبرى.

ـ تسمح لي أن أسألك بعض الأسئلة عن تصرفاتك في هذه الفترة؟

ـ ألا تريد أن تعرف المفاجأة؟

ـ أريد، أولاً، أن أسألك بعض الأسئلة.

ـ تفضّل.

ـ پروفسور! لشو عملت كل ها الأشياء الشريرة؟

ـ عفواً؟!

ـ الأشياء الشريرة.

ـ أيّ أشياء شريرة؟

ـ أولاً، مراقبة عفراء. لماذا راقبت عفراء؟

ـ سبق أن أوضحت لك أن الغيرة كانت السبب. الغيرة العمياء، إن شئت. وكان الحب مصدر هذه الغيرة العمياء، كما سبق أن قلت لك.

ـ قلت وأوضحت. ولكن هل يجوز لنا، يا پروفسور، إذا كُنّا في حالة حبّ أن نتجسّس على من نحبّ؟

ـ وقتها، لم تدع الغيرة مجالاً لأيّ تساؤل نظري من هذا النوع. كانت تتملك كلّ مشاعري.

ـ التجسّس عمل شرير، في كل الظروف، ومهما كانت المبررات.

ـ حذار من التعميمات، يا نطاسي. حذار! أنت تتجسّس على عقلي الباطن طيلة الوقت.

ـ دعنا من المزح. أنت تعرف، في قرارة نفسك، أنك قمت بعمل شرير. ثانياً، لماذا أرسلت الصور إلى عفراء؟

ـ سبق أن أخبرتك أن الصور كانت صورها وهي تقابل المسؤول عن الموساد في بريطانيا.

ـ سبق أن أخبرتني. ولكني أعتقد أن إرسال الصور كان عملاً شريراً. كان بوسعك أن تنهي العلاقة بهدوء. لماذا أرسلت الصور؟

ـ لا أعتقد أن مواجهة جاسوسة إسرائيلية تدّعي الوطنية ببرهان خيانتها كان عملاً شريراً.

ـ أنا أعتقد أنّه كان عملاً شريراً.

ـ أنت حرّ.

ـ فلننتقل إلى الأعمال الشرّيرة التي قمت بها خلال إقامتك في مصحة بلاكپول.

ـ لم أقم بأي عمل شرير هناك. على العكس. كنتُ ضحية عدوان شرير، عدوان كيميائي غاشم على مخي، كما سبق أن أخبرتك.

ـ أقمت علاقة جنسية مع لوريتا بوند.

ـ ولماذا لا تقول إنها أقامت العلاقة معي؟

ـ لا يهمّ من بدأ. المهم أنك استثمرت الوضع النفسي لامرأة مضطربة عاطفياً لتستمتع بجسدها.

ـ دكتور ثابت! شو فيك أول أوف آسدِنْ؟! شارب حليب الخوارنة؟ كنت أحاول أن أكون جنتلماناً مع امرأة شقيّة.

ـ وماذا عن السيدة تي؟ ألم تكن، بدورها ضحيّة من ضحاياك؟

ـ ضحيّة من ضحاياي؟! كانت المسكينة معقّدة. كادت تفقد عقلها بسبب عقدتها. تستطيع أن تقول إنني أنا الذي شفيتها باهتمامي الخاص.

ـ إهتمامك الخاص؟! كم اون، يا پروفسور! كانت امرأة جميلة، واشتهيتها، ثم أوجدت المبررات. وماذا عن الليدي نكنوكستر؟

ـ ماذا عنها؟ لا تقل لي إنها كانت مضطربة عاطفياً وإني استثمرت وضعها النفسي.

ـ كانت زوجة صديقك. كيف تنام مع زوجة صديقك؟ هذا عمل شرير.

ـ دكتور ثابت! شو حكايتك مع الشر؟! اللورد نفسه لم يغضب؛ لماذا تغضب أنت؟ لماذا تكون لوردياً أكثر من اللورد؟ اللورد كان يضحك. لو كان اللورد يعرف العربية لأنشد ساعتها: «امتطاء الستّ». . . . لا يفسد للودّ قضيّة» مع الاعتذار للپرنس على تحريف بيته الشهير جداً. والسخيف جداً جداً. كلّ قضايا الود، عبر التاريخ، أفسدها اختلاف الرأي. والپرنس نفسه لم يكن ينام الليل إذا انتقد أحد شعره. رغم أنه نصح مطرب الملوك والأمراء بتجاهل النقد. طلب منه أن يضع الصحف التي تنتقده على الأرض ويقف فوقها ليكتشف أنه أصبح أطول بسبب

النقد. وهذه نصيحة عجيبة. وكثير من نصائح البرنس عجيبة. ومعظمها، لسبب مجهول، يبدأ بطلب الوقوف. قف واعمل كذا! قم واعمل كذا! وكأنّ القراء طلاب في مدرسة إبتدائية. وكأن البرنس...

ـ عفواً، يا پروفسور، عفواً! ما بدّي إحكي عن شوقي هلأّ. ولا المتنبي. بدّي إحكي عن الليدي.

ـ إحكي عن الليدي.

ـ كيف تنام معها؟ التقاليد العربية تمنع ذلك.

ـ آه! قلت لي! التقاليد العربية؟ كنت تتحدث عن الخير والشرّ. وأنت الآن تتحدّث عن التقاليد. منذ متى أصبحت نصير التقاليد العربية؟ هل تريد أن تقول لي، يا نطاسي، إنه لا يوجد في عربستان كلّها رجل واحد ينام مع زوجة صديقه؟

ـ لا أقول ذلك. لا أدري من ينام ومن لا ينام. الذي أقوله إن هذا العمل يتنافى مع التقاليد العربية.

ـ هل تعتقد أنّ كل التقاليد العربية أخلاقية؟

ـ لم أقل ذلك. في هذه الحالة، بالذات، تستطيع اعتبار التقاليد العربية أخلاقية.

ـ سبحان الله! سبحان من يغيّر ولا يتغير! ما سُمّي القلب قلباً إلاّ لتقلّبه. ولا الإنسان إنساناً إلا لنسيانه. فرويدي وواعظ؟!

ـ وماذا عن الوصيفة؟

ـ ماذا عنها؟

ـ كيف تنام مع السيّدة ووصيفتها؟

ـ لا تقل لي إن التقاليد العربية تمنع مثل هذا العمل. في عربستان ينام المخدومون مع الخادمين، أعني الخادمات، إلاّ من رحم ربك.

ـ تستاهل طلقة الجفت!

ـ طلقة الجفت لم تصبني. وإنما أصابت النجفة التي هوت محطمة على عجيزتينا، سامنتا وأنا. والعجيزة هي...

ـ سبق أن أخبرتني بكلّ هذا.

ـ سو وت إز يور پروبلم دوك؟! هل تودّ أن نبحث موضوع الخير والشر؟! نبحث! في البداية، لا يوجد نظام أخلاقي بمعزل عن الدين. لا أتكلم عن ديني فحسب، أتكلم عن الدين عموماً. بدون دين، لا يمكن أن توجد معايير أخلاقية. عندما تصبح متديّناً، يمكن أن تدينني أخلاقياً.

ـ شو ها الحكي يا پروفسور؟! شو خصّ الدين بالأخلاق؟ ممكن الواحد يكون ملحد وعنده أخلاق عالية.

ـ آه! بدأت، يا حفيد فرويد، تتكلّم لغة جدك فرويد. ومع احترامي الشديد لكما، أقول إن هذا كلام فاضي. تجليط. ربشْ! والفلاسفة الذين حاولوا تطوير فلسفة أخلاقية بمعزل عن الدين وقعوا في حيص بيص. وحيص بيص تعني ربكة وربشة ودهشة. وحيص بيص اسم شاعر خرج من منزله ذات يوم وقال: «ما لي أرى الناس في حيص بيص؟». فسمّاه الناس حيص بيص. ونسوا اسمه الأصلي. ونسيته أنا. ونساه هو. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا الفلاسفة الذين وقعوا في حيص بيص. بدءاً بالعم أفلاطون اليوناني وانتهاءً بالأعمام المنفعيين في هذا القرن. أفلاطون غير المتدين اضطر، في نهاية المطاف، إلى إقحام الآلهة في حكاية الخير والشر. زعم أنه يمكن تبيّن الخير كحقيقة قائمة بذاتها، ولكنه أتى بالآلهة، زيادة في الاحتياط. والمنفعيون في هذا الزمان قالوا إن العمل الأخلاقي هو الذي يحقّق أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس. يا سلام! هذا هو العمل الأخلاقي؟ ربّما سبّبت إباحة الزنا مثل هذه السعادة. أو إباحة المخدرات. بهذا المقياس، يصبح كل شيء أخلاقياً، إذا ارتضت الأغلبية. والأغلبية الساحقة في ألمانيا ارتضت هتلر. أوهل نسينا ذلك؟ بدون معيار ديني ثابت لا يتغيّر، يتحوّل عمل الشرّ إلى عمل خير، والعكس، بمجرّد تغيّر مشاعر الناس. يمكننا أن نتصوّر مجتمعاً في الغد يرحب بقتل كبار المسنين والعجزة، برضا الأغلبية.

ـ هيدي مبالغة، يا پروفسور! مبالغة فظيعة!

ـ عندما أحدثك عمّا يلتقطه مركز الإرسال في مخّي من معلومات عما يدور الآن، بسرية تامة، في بعض مراكز الأبحاث، سوف تصاب بالدوار.

ـ حدثني!

ـ بعد قليل. دعنا في موضوعنا. لنفترض أنّي أبالغ بعض الشيء. المبالغة ليست جريمة تعاقب عليها القوانين. كما أنّ المبالغة مستحبّة في الأعمال الأدبية والفنية. وإن كان أبو حسيد يبالغ حتى في مبالغاته. كما أن المبالغة مطلوبة عند

مغازلة النساء. والزوجات بصفة خاصة. رغم عنصر المبالغة في كلامي، فكلامي صحيح في جوهره. لم يوجد فيلسوف واحد نجح في تطوير فلسفة أخلاقية لا دينية. الذين قالوا إنه يمكن معرفة الفرق بين الخير والشر دون حاجة إلى دين، سرعان ما اختلفوا فيما بينهم. هناك من قال إن المعرفة تتم عن طريق العقل. وهناك من قال إنها تتم عن طريق الحدس. عقل وحدس! عقل مَنْ وحدس مَنْ يانطاسي العقل الباطن، وربّما الحدس الباطن؟ عقلك غير عقلي، وحدسك غير حدسي، وعقل حضرة جناب الفيلسوف وحدسه غير عقلينا وحدسينا. الفيلسوف العقلي الشهير هيوم قال، مازحاً شبه جادّ أو جاداً شبه مازح: «من الممكن أن يصوّر لي عقلي أن تدمير العالم لا يزيد شراً عن حك إصبعي». من الممكن، ونصّ! إذن، أدمّر العالم حتى أتمكّن من حك إصبعي! أنظر إلى هذه المتاهات، يا حكيم. والذين قالوا بالحدس وقعوا في متاهات أعظم. ثم جاء الفيلسوف نيتشه الذي أعلن، قبّحه الله ولعنه، موت الله، وموت كل الأخلاقيات الدينية. والبديل، يا نيتشه؟! البديل هو «السوپرمان»، الذي يتحرّر من كل المواريث الخلقية ليطوّر أخلاقياته الخاصة. «السوپرمان» الذي لديه من عظمة الروح ما يجعل أعماله فوق الخير والشرّ. يا سلام! مات نيتشه مجنوناً. الحق أقول لك، إنه جُنّ نتيجة هذه الفلسفة. حاول أن يكون «السوپرمان»، فأصبح المجنون. اللهمّ شماتة، وألف شماتة! وفتح نيتشه الباب أمام الفلسفة الوجودية. التي أرادت أن تكحّلها فعمتها. إذا اتخذت قرارك بمطلق الحريّة، كان قرارك أخلاقياً. والسلام! بالله عليك، أليس هذا تخريفاً؟ والعم الفيلسوف سارتر جُوبه بسخف المنطق الوجودي. قيل له: «يا عم سارتر! أنت انضممت إلى المقاومة الفرنسية ولكن بأي حق تدين المتعاونين مع الاحتلال الألماني ما داموا قد اتخذوا قرارهم بحرية كاملة؟ بأي حق تدين النازيين الذين لم يجبرهم أحد على اعتناق النازية؟». وقف حمار سارتر، وسارتر معه، في العقبة. تبلبل الوجودي العريق، وتبلبل، من بعده، تلامذته، ولا يزالون متبلبلين. بدون دين، يا حكيم، لا يمكن أن توجد أخلاق. يمكن أن توجد نظريات. ويمكن أن توجد مناقشات سوفسطائية. والسوفسطائيون كانوا يفتخرون أن بوسعهم تدريب أي طالب على الدفاع عن أي جانب في أي قضية. بدون دين، يا طبيب، لا يمكن أن توجد معايير. هل تريد أن تضحك قليلاً؟ قال فيلسوف من الفلاسفة العظام إنه من الضروري الصدق في كل الحالات، ومهما كانت الظروف. حتى عندما يطرق بابك مجرم سفاح يسأل عن ضحية بريئة. «يا فيلسوف! هل يعيش الطفل الفلاني في هذا المنزل؟ أنا أنوي قتله!». «نعم! نعم! تفضّل أيها السفّاح! أنا فيلسوف، والفلاسفة لا يكذبون. تجده في الغرفة الثانية على يدك اليمين».

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ لا حاجة ولا محتاجة! هذا مثل مشهور في نظرية الأخلاق. هل تريد مثلاً أغرب؟ إرجاع الأشياء المستعارة إلى أصحابها مبدأ أخلاقي يجب التمسك به في كل الحالات، ومهما كانت الظروف. لو استعرت من جاري سكين المطبخ لأذبح بها دجاجة وبعد أسبوعين أصيب جاري بلوثة عقلية وجاء يسترجع سكينه ليذبح بها جدّته فلا بُدّ من الاستجابة لطلبه. «يا فيلسوف! أرجع لي سكيني. لدي رغبة شديدة في نحر جدّتي». «حباً وكرامة! أنا فيلسوف والفلاسفة لا يخونون الأمانة. تفضّل. إذبح جدّتك واذكرني بالخير».

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ لو كان هناك دين، هل كانت هناك ذرّة واحدة من الشكّ في أن الكذبة البيضاء أفضل من إزهاق الأرواح البريئة؟ في غياب الدين، اضطر عباقرة الفلاسفة إلى بحث معضلات أخلاقية كهذه. بدون دين، يا حفيد فرويد، لا توجد أخلاق. توجد رغبات وشهوات. وصرعات وموضات. وموجات تذهب وموجات تجيء. وعادات تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان. هل تعرف قصة الملك الفارسي داريوس مع الذين يأكلون لحوم آبائهم الموتى؟

ـ شو؟ شو؟

ـ تيك ات إيزي، يا حكيم. أنا لم اخترع القصة. هذه قصة تاريخية، رواها أبو التاريخ نفسه، هيرودتس. جمع داريوس عدداً من اليونانيين وسألهم عن المبلغ الذي يريدونه مقابل أكل آبائهم الموتى. أصيب اليونانيون بالهلع، وقالوا للملك إنهم لن يقوموا بعمل شرير كهذا ولو أعطاهم كنوز الدنيا كلّها. ثم جمع عدداً من الهنود الذين كانت عادتهم تلك الأيام أكل لحوم موتاهم وسألهم عن المبلغ الذي يطلبونه مقابل حرق آبائهم الموتى، كما كان اليونانيون يفعلون. كاد يغمى على الهنود من الذعر، وقالوا إن أموال الدنيا كلها لن تغريهم بعمل سافل حقير كهذا. والزبدة؟! الزبدة، يا طبيب، أن الأخلاق التي تنبع من العادات تتغير بتغير العادات.

ـ أوكي يا پروفسور! أوكي! أوكي! أوكي! آمنا واقتنعنا. لا أخلاق بدون دين. هل من الممكن أن نعود إلى قصة حياتك؟

ـ أنت الذي بدأت قضية الخير والشر. عندما تصبح متديّناً سوف أقبل منك أحكاماً أخلاقية. أنت الذي بدأت!

ـ أوكي! بدأتها وبحثناها وانتهينا.

ـ عماذا كنا نتحدث قبل أن تتفلفس عليّ؟

ـ عن مركزي التفكير.

ـ صدقت!

ـ وقلت لي إنك وجدت مفاجأة كبرى.

ـ صدقت! كنت أتوقع أن مركز التفكير الذي يبحث نهضة الأمّة العربيّة سينتهي بتوصيات تختلف قليلاً أو كثيراً عن توصيات مركز التفكير الذي يبحث تدمير إسرائيل.

ـ وماذا حدث؟

ـ حدث، يا حكيم، أن وصل المركزان إلى نفس التوصية.

ـ غريبة.

ـ صدقت!

ـ وشو التوصية؟

ـ قبل أن أتحدّث عن التوصية دعني أخبرك أنّي قبَيْل استلام التقريرين. . .

ـ عفواً! شو يعني قبَيْل؟

ـ قُبيْل تعني قبل بفترة وجيزة. كما أن بُعَيد تعني بعد بفترة وجيزة. بعبارة أخرى، قبيل تصغير قبل، وبعيد تصغير بعد. وقد قال ابن مالك: «فعيلاً اجعل الثلاثي إذا .·. صغّرته نحو. . .»

ـ شكراً، يا پروفسور! فهمت!

ـ الحمد لله! قبيل استلام التقريرين استمعت إلى جهاز الإرسال في مخي يبثّ معلومة روّعتني وأرعبتني.

ـ خير؟

ـ شرّ! عرفت أن إسرائيل انتهت من صنع قنبلتها الذريّة الأولى. أعتقد أنني الإنسان الوحيد على هذه الكرة الأرضية، خارج دائرة صغيرة في إسرائيل، الذي عرف هذه الحقيقة بمجرّد الانتهاء من صنع القنبلة.

ـ متى كان التاريخ؟

ـ التاريخ؟ دعنا، الآن، من التاريخ. الخمسينات. أو الستينات. ماذا يهمّ؟

المهمّ أن المعلومة جعلتني مهيّأً نفسياً لقبول التوصية التي اتفق عليها المركزان، والعمل على تنفيذها بكل حماسة وبكل سخاء.

- وشو التوصية؟ شو التوصية؟

- جايك بالحكي، يا طبيب، جايك بالحكي. التوصية هي أن الوسيلة الوحيدة للنهوض بالأمّة العربيّة ولتدمير إسرائيل هي إقامة حكم عسكري ثوري في مختلف أنحاء الأمّة العربية.

- شو ها الحكي؟

- سمعتني جيداً. حكم عسكري ثوري. والمبررات؟ كانت هناك دراسة من ألف صفحة تثبت، لاحظ تثبت، أنه لا أمل للنهوض بالأمة العربية إلا بواسطة الحكم العسكري الثوري. الدراسة لا تزال موجودة في مخزن ما من مخازني. هل تريد نسخة منها؟

- لا. شكراً. تكفي الخلاصة.

- حسناً! سوف أفذلك لك. تعرف معنى الفذلكة؟ الحمد لله! رأى مركز التفكير الأوّل أن المؤسسة العسكرية هي المؤسسة العربية الوحيدة القادرة على النهوض بالأمة العربية. والأسباب؟ السبب الأول، المؤسسة العسكرية هي المؤسسة الوحيدة المنضبطة في هذه الأمّة. السبب الثاني، المؤسسة العسكرية، بحكم تدريبها وتكوينها، عصرية وتقدميّة وترحب بالإصلاحات العصرية التقدمية. السبب الثالث، المؤسسة العسكرية تتألف، في أغلبيتها الساحقة، من عامة الشعب، ولهذا فهي متعاطفة مع مشاعر السواد الأعظم بخلاف النخب الأرستقراطية الحاكمة. السبب الرابع، المؤسسة...

- يكفي، يا پروفسور، يكفي. آي جوت ذا پوينت. والتقرير الثاني؟

- التقرير الثاني، بدوره، من ألف صفحة.

- أكتفي بالفذلكة.

- إنتهى مركز التفكير الثاني إلى أن الوسيلة الوحيدة، أكرّر الوحيدة، لتدمير إسرائيل هي إقامة حكم عسكري ثوري في مختلف أنحاء الأمّة العربية. والأسباب؟ السبب الأول، تفوّق إسرائيل، في أساسه، هو تفوق عسكري ولا يمكن مجابهته إلاّ بتفوق عسكري عربي، والجيش هو المؤسسة الوحيدة القادرة على تحقيق هذا

التفوّق. السبب الثاني، هناك نزعة متأجّجة في نفوس العسكريين العرب إلى الثأر من هزيمة ١٩٤٨، وإتاحة الفرصة الكاملة لهذه النزعة هي أقرب الطرق إلى تدمير إسرائيل. السبب الثالث، من المستحيل أن يقدم سياسيون مدنيون على التضحيات الهائلة والتعبئة الشاملة التي تتطلبها المواجهة الحاسمة مع إسرائيل. السبب الرابع، الحرب مع إسرائيل تقتضي تركيز المسؤوليات حتى لا يتكرر...

ـ عفواً، يا بروفسور! يكفي. شو عملت بعد استلام التقريرين؟

ـ ماذا تظنني فعلت؟ إنطلقت، على الفور، لوضع التوصية موضع التنفيذ. لم يكن من الممكن، بطبيعة الحال، أن أبدأ بالأمة العربيّة كلها في وقت واحد. رأيت أن أبدأ بعربستان ٤٨ باعتبارها دولة قريبة من إسرائيل ولديها جيش قوي قادر على تولّي زمام الأمور. كانت الفكرة أن نجاح الجيش في حكم عربستان ٤٨ سوف يؤدي، في فترة قصيرة، إلى حكم الجيش في كل مكان. بدأت خطتي بإقناع أولي الأمر في السي. آي. ايه بأن...

ـ تعرف جماعة السي. آي. ايه؟

ـ إعلم، يا نطاسي، أن السي. آي. إيه كانت، ولا تزال، تقيم علاقة وطيدة مع كل شخص تتجاوز ثروته بليون دولار. بدأت بإقناعهم أن الهدف الحقيقي من تسليم السلطة إلى العسكر هو إقامة صلح مع إسرائيل.

ـ شو ها الحكي؟

ـ ها الحكي مضبوط. أقنعت المسؤولين في السي. آي. إيه أن السياسيين المدنيين التقليديين لن يجرأوا، أبداً، على إقامة صلح مع إسرائيل. أما الضباط فبعد قليل من الزيطة والزمبليطة...

ـ عفواً، يا بروفسور! شو يعني زيطة وزمبليطة؟

ـ زيطة وزمبليطة تعني ضجة وضوضاء. تستطيع إذا أردت الفصحاء أن تقول بعد هياط ومياط. وهذا التعبير اشتهر بعد أن استعمله المعرّي في «رسالة الغفران» إذ قال: «بعد هياط ومياط وشفاعة...»

ـ شكراً، يا بروفسور! فهمت.

ـ حسناً! قلت لهم إن الضباط بعد قليل من الهياط والمياط سيوقّعون اتفاقية صلح مع إسرائيل. ووافق ولاة الأمر في السي. آي. إيه. ووافقت إسرائيل بدورها.

ـ مش فهمان عليك. وافقت إسرائيل على حكم عسكري بدّو يدمّرها؟!

ـ حدثت في التاريخ أشياء أغرب من هذه. وتحدث. ولكن كبِّر عقلاتك، يانطاسي. أنا لم أشرح الهدف الحقيقي من الحكم العسكري. تستطيع أن تقول إنني خدعت السي. آي. إيه وخدعت إسرائيل عندما تظاهرت أن هدف العسكر سيكون الصلح مع إسرائيل. وتستطيع أن تقول إنني كنت المخدوع. بعد ذلك رتبت اجتماعاً مع ولاة الأمر الرفاق في الكي. جي. بي. وقبل أن تسألني كيف تعرفت عليهم أقول لك إني تعرفت عليهم عن طريق السي. آي. إيه. أقنعت الرفاق الجواسيس أن وصول العسكر إلى الحكم هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الأمبريالية ونشر المبادىء الماركسية في الأمة العربية.

ـ أنت، يا پروفسور، عملت كل هذا؟!

ـ وأكثر منه كما سيجيك بالحكي.

ـ وبعدين؟

ـ كانت الخطوة التالية هي اختيار الضابط الذي سيتولّى الحكم في عربستان ٤٨. بعد تحريات مضنية استقر رأيي على الرائد صلاح الدين المنصور. لم يكن تعبير رائد يستخدم وقتها ولكن هذه قضية أخرى لا نود أن ندخل فيها الآن. الميجور!

ـ تقصد صلاح الدين الذي أصبح فيما بعد. . .

ـ سوف يأتي دور فيما بعد. عقدت اجتماعات طويلة، سريّة بطبيعة الحال، مع الرائد صلاح الدين المنصور قبل أن أضع تحت تصرّفه ٥٠٠ مليون دولار لتمويل الانقلاب.

ـ نصف مليار؟! دفعت للزلمة نصف مليار؟!

ـ أيْ نعم! ولم لا؟ ألم أكن أملك المال؟ ألم يكن حلمي الأكبر النهوض بالأمة العربية وتدمير إسرائيل؟ ألم يكن الانقلاب العسكري التوصية التي انتهت إليها أعظم العقول العربية المعاصرة؟

ـ وكيف كان صلاح الدين المنصور؟

ـ كان في رأيي أفضل الموجودين. كان رجل الساعة. رجل القدر. مع أنه كان، أحياناً، يذكّرني بما قاله أبو حسيد عن فاتك: «وقد يلقّبه المجنون حاسده». كان فيه شيء من الهوس لم يزعجني وقتها. هل يمكن لإنسان خال من الهوس تماماً أن يقوم بانقلاب عسكري؟ باستثناء هذه الناحية، كان مفصّلاً تفصيلاً للدور الذي ينتظره.

ـ شو يعني؟

ـ كان ذكياً. وسيماً. طويلاً. طموحاً. في الرابعة والثلاثين من العمر. لديه ثقافة جيّدة، بمقاييس العسكر. قرأ كل كتب جورجي زيدان. وكل روايات الجيب. وأعجب «بالبؤساء». وقرأ في التاريخ الإسلامي. وكان متديّناً، أحياناً. أعني أنّه كان متديناً جداً في فترات معيّنة تعقبها فترات تخفّ أثناءها الحماسة الدينية. وكان يعرف، بالضبط، ما يريد. نوع الأسلحة التي يجب أن يحصل عليها الجيش. الخطة العسكرية التي يمكن أن تهزم إسرائيل. وكان يتمتع بموهبة نادرة في العمل الاستخباراتي. كان، في الواقع، المسؤول عن استخبارات الجيش في عربستان ٤٨، الأمر الذي سهّل الانقلاب كما يمكنك أن تتصوّر. وعلى فكرة، يا حكيم، كل الانقلابات العسكرية تزعّمتها عناصر يثق بها النظام القائم. مما يؤكّد صحة الملاحظة: «كيف احتراسي من عدوّي إذا ∴ كان عدوّي بين أضلاعي؟». وصاحب الملاحظة شاعر عربي يقصد قلبه. ولكن الملاحظة تنطبق على القلوب وعلى رؤساء استخبارات الجيوش. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن صديقي الرائد صلاح الدين المنصور كانت لديه مخططات رائعة لعربستان ٤٨. القضاء على الفساد بكافّة أنواعه. القضاء على التفاوت في الثروة. إيجاد نظام برلماني حقيقي. سحق الأمية خلال سنوات معدودة. هذا هو التعبير الذي استخدمه. سحق الأميّة!

ـ وبعدين شو صار؟

ـ صار الانقلاب! ورغم كل الأساطير التي نُسجت حوله، فيما بعد، كان نزهة عسكرية. لم تطلق رصاصة واحدة. لم يقتل إنسان واحد. لم يكن هناك تنظيم ضباط أحرار أو ضباط عبيد. كان هناك صلاح الدين المنصور، وأنا. بعد الانقلاب، توطّدت علاقتي بصلاح الدين المنصور. كان يعتبرني الأب الروحي للثورة. لاحظ كلمة الثورة! لم يعد أحد يسمّي الانقلاب انقلاباً. كنت أرى صلاح الدين بصفة منتظمة عندما كان رئيس المجلس الانتقالي المؤقّت. بعد الانقلاب بسنتين، أصبح رئيس الجمهورية وانقطعت العلاقة. إلا أنه، بغتة، بعد قرابة ٣ سنوات من رئاسته، دعاني لزيارة عربستان ٤٨. ووافقت بكل سرور. وليتني لم أوافق.

ـ لشو؟ شو صار؟

ـ سوف أخبرك بالتفصيل. بالتفصيل المُملّ. لا داعي الآن للفذلكة. عندما هبطت طائرتي، وأنا أعني طائرتي لأنّي أملكها، في المطار وجدت ٦ سيارات «رولزرويس» جديدة مصطفّة في انتظار حضرة جنابي. عربستان ٤٨، كما تعرف يا حكيم، دولة فقيرة و٦ سيارات «رولزرويس» جديدة تبذير لا مُبرّر له حتّى عندما

توضع تحت تصرفي. كانت هذه هي المفاجأة الأولى. وجدت أمامي ضابطاً برتبة لواء أدّى التحية العسكرية وقال إن فخامة الرئيس كلّفه باستقبالي نيابة عن فخامته ومرافقتي خلال الزيارة. كانت المفاجأة الثانية اسم الشارع الذي أخذنا إلى منتصف المدينة. كان اسم هذا الشارع منذ سنين طويلة، لأسباب لا تخفى على فطنة أحد، شارع المطار. وجدت أن اسمه قد تحوّل إلى شارع المنصور. المفاجأة الثالثة كانت الفندق. لا، لم تكن المفاجأة اسم الفندق. توقّعت أن يكون اسمه المنصور. كانت المفاجأة ملكية الفندق. قال لي اللواء المرافق: «كل فنادق فخامة الرئيس تحمل اسمه». ولم أستطع كتمان دهشتي: «هل يملك فخامة الرئيس هذا الفندق؟». وردّ اللواء ببساطة: «وجميع فنادق المنصور. نحن هنا نؤمن بالاقتصاد الحرّ بعد أن قضينا على سلطة المحتكرين». قلت: «بطبيعة الحال!». أخبرني اللواء أن فخامة الرئيس ينتظرني على العشاء في استراحته الصحراوية. في المساء، انطلق الموكب. كنت في السيّارة الأولى مع اللواء المرافق تتبعني ٥ سيارات «رولزرويس» فارغة. توقفنا في مكان ما من الصحراء. ما إن تجاوزت السور السميك إلى الداخل حتى شعرت أنني انتقلت إلى عالم آخر. لا أقصد العالم الآخر. أقصد إلى دنيا غير هذه الدنيا. أو هاته الدنيا كما يقول الأخوة في المغرب العربي. ولا تسألني لماذا يقولون هاته ونقول هذه، فلغة المشرق غير لغة المغرب. والعلم عند مجمع السدنة الخالدين. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني صعقت عندما دخلت. نوافير متلألئة الألوان. أشجار في كل مكان. بلابل. تصوّر بلابل في الصحراء. وفي الليل!

- يمكن تسجيل؟

- يمكن. وقصور مصمّمة على هيئة خيام. كنت أفرك عيني لأتأكد أنني لم أكن أحلم. كانت مدينة صغيرة من السحر. عندما وصلنا إلى القصر الرابع وجدت صلاح الدين المنصور في انتظاري. استقبلني بالعناق الحار والقبلات اللزجة. كانت القاعة التي استقبلني فيها أكبر من قاعة الشعب العظمى التي سبق أن حدثتك عنها. وكانت مليئة بالحرس والمرافقين. أشار المنصور بيده فخلت القاعة على الفور. ثم ضغط على زرّ فهبطت من السقف خيمة صغيرة. وجدت نفسي بمفردي معه داخل الخيمة الصغيرة. دار بيننا حوار طويل بدأ ظريفاً رقيقاً وانتهى بمأساة.

- خير؟

- في البداية قدّم لي مظرّفاً صغيراً اعتقدت أن يحوي على هدية رمزية، خاتم، أو قلم، أو شيء من هذا القبيل.

ـ وشو كان فيه؟

ـ كان فيه شيك باسمي بمبلغ ٧٥٠ مليون دولار.

ـ شو؟ شو؟ شو؟

ـ سمعتني جيّداً. ضحك المنصور وهو يقول: «لعلّك تذكر السلفة. ها أنذا أعيدها إليك. مع الشكر الجزيل. ومع الفائدة طبعاً». قلت: «لم تكن سلفة؛ كانت هديّة». قال: «كانت هديّة في ذلك الوقت. ثم أصبحت سلفة. والآن أصبحنا خالصين. مرحباً بك في بلادك، في بلاد الثورة». جرياً على عادتي القديمة قلت له: «يا صلاح». بمجرد أن سمع الرئيس اسمه مجرّداً من الألقاب بدأت ملامح وجهه تتقلّص بعنف. إستدركت فوراً وقلت: «يا فخامة الرئيس». إسترخت أساريره، ومضيت: «لقد لاحظت الكثير من التغييرات». قال: «ما رأيك في هذه التغييرات؟». قلت: «هل بإمكاني أن أتكلّم مع فخامتكم بصراحة؟». هنا بدأت الحرارة تزداد في الجوّ رغم أنه ردّ برقّة: «إذا لم تكلّمني أنت بصراحة، فمن الذي سيصارحني؟ لا تعتقد أني سأنكر جميلك أو أنسى فضلك». بادرت: «يا فخامة الرئيس! لا جميل ولا فضل. كنا نعمل لقضية واحدة». قال: «نعم! نعم! ولا زلنا!» إستطردت: «كنا نريد نهضة الأمة العربية والقضاء على إسرائيل». قال بسرعة: «نعم! نعم! ولا زلنا!» قلت بأدب: «ماذا حدث للإصلاحات التي كنا نريد أن تنطلق من هنا فتجتاح الأمة العربيّة بأسرها؟». قال وابتسامته تضيق بعض الشيء: «الإصلاحات؟ ألم تسمع، يا پروفسور؟ ألم تصلك الأخبار؟ حققنا كل الإصلاحات التي كنا نحلم بها ونتحدث عنها. كلّها! قضينا على الطبقة المستغلة. أعدنا الأموال المسروقة إلى الشعب. أعدنا الحقوق المنهوبة. نفّذنا خطة خمسيّة لتطوير الاقتصاد. أرسينا دعائم الديمقراطية. أعلنّا الدستور الدائم. انتخبْ برلمان من مجلسين في أنزه انتخابات شهدتها المنطقة. ألم تسمع بكل هذه التطورات؟». قلت: «سمعت يا فخامة الرئيس بكل هذا ولكن...». قاطعني ووجهه يحمرّ شيئاً فشيئاً: «ولكن ماذا؟». قلت على استحياء: «يقول الناس أشياء كثيرة». قال محتدّاً: «ماذا يقول الناس؟». قلت بصوت منخفض: «يقول الناس إن الضباط أصبحوا الطبقة المستغلّة الجديدة. ويقول الناس إن الأموال المصادرة وضعت تحت تصرف هذه الطبقة الجديدة. ويقول الناس إن الخطة الخمسية زادت الغنيّ غنى والفقير فقراً. ويقول الناس إن الديمقراطية مجرد تمثيلية، وإن الضباط يملأون المجلس الأول وأقاربهم يملأون المجلس الثاني». قال صلاح الدين المنصور بهدوء: «هذه دعايات مغرضة، يا پروفسور. أكاذيب يشيعها الصهاينة وأيتام العهد البائد».

قلت: «عفواً يا فخامة الرئيس! ويقول الناس أشياء غير هذه». قال وهو يحاول أن يبتسم: «ماذا يقولون؟». قلت بصوت يزداد انخفاضاً مع كل كلمة: «يقولون إن المعتقلات تعجّ بعشرات الآلاف. يقولون إن أجهزة الأمن تضع إصبعها في كل مكان. يقولون إن الحرية معدومة. ويقولون إن فخامة الرئيس أصبح يملك كل شيء في البلاد». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة مجلجلة لا أدري لماذا أصبت بالقشعريرة عند سماعها، وقال: «وأنت يا بروفسور؟ ما رأيك؟ هل تصدّق هذه الترّهات؟». قلت: «أنا أسمع. ولا أصدّق. ولا أكذّب. أبحث عن الحقيقة». قال المنصور: «إذن، فاسمع الحقيقة كاملة. كاملة! لا يوجد رهن الاعتقال إلاّ أقل من ٥٠ شخصاً متهمين بالتجسس لحساب إسرائيل. وأجهزة الأمن لا تتعرّض لأي مواطن صالح. والحرية مكفولة للجميع. للشعب بأكمله. باستثناء قلّة قليلة من الخونة والعملاء وأعداء الثورة. أمّا القول بأني أملك كل شيء في البلاد فنكتة سخيفة. المواطنون جميعاً يعرفون أني نزيه وفقير». قلت قبل أن أفكر: «والقصور؟! والفنادق؟! وسيارات «الرولزرويس»؟!». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة مجلجلة أخرى لم تصِبني بالقشعريرة هذه المرة وقال: «ألا تعرف الحقائق؟! كل مواطن في عربستان ٤٨ يعرف الحقائق. هذه القصور قصور الشعب. ليست مسجّلة باسمي ولن يرثها أولادي من بعدي. قاسى شعبنا طويلاً من الفقر وشظف العيش، يا بروفسور. من حقه بعد الحرمان الطويل أن يتمتع بقدر من الرفاهية. قدر معقول. لا أستطيع أن أهيِّىء هذا القدر لكل مواطن ولكني أستطيع تهيئته للمواطن الذي يخدم كل المواطنين. المواطن الذي يختاره الشعب لشرف خدمته». قلت وأنا أرسم على وجهي علامات الجديّة الصارمة: «تقصدون فخامتكم أنكم تتمتعون بقدر من الرفاهية نيابة عن الشعب المحروم وباسمه؟». أجاب: «نعم! نعم! هذه هي الحقيقة. أنا لم أسرق. لم أخن الأمانة. الشعب هو الذي أصرَّ على منحي هذه المساكن التي أقيم فيها مؤقتاً. تستطيع أن تقول إن الشعب بأجمعه يسكن هنا. تستطيع أن تقول إني لم أعد إنساناً عاديّاً له رغباته الخاصة وأطماعه الخاصة. تستطيع أن تقول إني تحولت إلى رمز للشعب. تستطيع أن تقول إني أجسِّد الشعب». قلت وأنا أكاد أهمس: «وماذا عن الفنادق يا فخامة الرئيس؟». إبتسم ابتسامة ذكّرتني بما قاله أبو حسيد عن نيوب الليث البارزة وقال: «الفنادق؟ ألم يخبرك أحد؟ كل فنادق المنصور تملكها مؤسسة المنصور الإنسانية، التي يملكها الشعب. أصرَّ الشعب على أن أكون رئيساً فخرياً للمؤسسة. وأصرَّ على أن تحمل فنادق المؤسسة اسمي. دخل المؤسسة بأكمله يصرف على الأرامل واليتامى. صدّق أو لا تصدق أن هذه الفنادق تعاملني كما تعامل أيّ مواطن آخر. حتى فاتورة

إقامتك سوف أسدّدها من جيبي الخاص». قلت: «لا أودّ أن أحمّلك فوق طاقتك يا فخامة الرئيس». قال بخجل: «الضيف ضيف على أية حال». وتوقف لحظة، ثم استطرد: «وسألتني عن السيّارات «الرولزرويس». سؤال جيّد! عندما عقدنا صفقة التسليح الكبرى قبل سنة قدّمت الشركة التي تصنّع الأسلحة هذه السيارات هدية للجيش. هذه السيارات ليست ملكي. ولا ملك الحكومة. ملك الجيش. بمجرد سفرك سوف تعود إلى ثكناتها». قلت بدون أن أفكر: ««رولزرويس» في الثكنات؟!». قال: «نعم! لا تنسَ أنها عربات عسكرية مخصصة للإستعمالات العسكرية. إستعرناها من الجيش بمناسبة تشريفك». قلت وأنا أرسم على وجهي صورة السذاجة البريئة: «حسناً يا فخامة الرئيس! أقنعتني أنك أنجزت كل وعودك للنهوض بالشعب. ماذا عن الهدف الرئيسي الثاني؟ ماذا عن تدمير إسرائيل؟». قبل أن يجيب دخل مرافق عسكري، وأدّى التحية العسكرية، وقال: «العشاء جاهز يا فخامة الرئيس». إبتسم صلاح الدين المنصور، وقال: «نكمّل الحديث على العشاء. دعوتُ مجموعة من الوزراء وبإمكانك أن تبحث معهم ما شئت. وحرصتُ على وجود وزير الدفاع لأني أريد أن تسمع منه بنفسك عن معركتنا الكبرى القادمة». بغتة، ارتفعت الخيمة واختفت في سقف القاعة. مشينا وراء المرافق إلى ساحة خارجية وجدنا فيها خيمة حقيقية. دخلناها فوجدنا سفرة على الأرض تحتوي على عشرة طليان وتوابعها. أخبرتك أن الطلي هو الخروف. لم أخبرك؟ حسناً! الطلي هو الخروف. والطليان الذين أتحدث عنهم غير الطليان الذين يسقطون حكومات لبنان. وهذه قضية أخرى. كان على جوانب السفرة عدد من المسؤولين يرتدون بدلاً عسكرية تلمع فوقها الأوسمة الذهبية. قال المنصور موجّهاً الحديث إليهم: «لا بد أن بعضكم يعرف صديقي العزيز البروفسور. ولا بُدّ أنكم جميعاً سمعتم عنه. البروفسور أبو الثورة الروحي، وقد شرّفنا بزيارته بعد غياب طويل». ثم التفت إليّ وقال: «يا پروفسور! هذا الفريق عقبة النافعي وزير الدفاع. وهذا الفريق نبيه العاقل وزير الاقتصاد والتخطيط. وهذا الفريق حازم اليقظان وزير الداخلية. وهذا الفريق مناور المكري وزير الخارجية». صافحت الفرقاء الوزراء وجلسنا جميعاً على الأرض. إلتفت المنصور إليّ مبتسماً وقال: «نحن هنا متمسّكون بتقاليدنا، يا پروفسور. لا نسمح للعادات الدخيلة بإفساد مجتمعنا. كما ترى بعينك، نحن لا نزال نأكل على الأرض ونستعمل أصابعنا. نحن فخورون بأصالتنا». قلت شبه صادق: «ما شاء الله! أما أنا فقد أفسدتني الحياة في الغرب. تعودت على الطاولة والشوكة والسكّين. ولكن يشرح صدري أن أرى أن دنيا العرب بخير. أنتم ملح الأرض». تجهم وجه المنصور وقال: «ملح الأرض؟! نحن مثل الملح؟!». قلت:

«هذا مثل يا فخامة الرئيس. أنتم الصفوة. بدون الملح يفسد كل شيء».
«تفضلوا»، قالها المنصور وهو يمد يده إلى كوب غامق اللون تنبعث منه رائحة شبيهة برائحة السائل الذي تخصصت سكوتلنداء في صنعه وتصديره. إبتسمت ولاحظ هو ابتسامتي فقال: «أوامر الطبيب، يا پروفسور. أوامر الطبيب». قلت: «الصحّة قبل كلّ شيء. أوامر الطبيب مطاعة». بدأنا الأكل، وبدأ المنصور يشرب بناء على أوامر الطبيب الذي أمره، على ما يبدو، بعدم الأكل نهائياً. قال المنصور لوزير الدفاع: «يا عقبة! إشرح للپروفسور استعداداتنا للمواجهة الكبرى. لا تُخفِ عنه سراً. إعتبره واحداً منا». بلع عقبة النافعي بيضة هائلة استخرجها من بطن طلي هائل وقال: «يا فخامة الرئيس! قواتك المسلحة الباسلة على أتم استعداد. هناك ٤٠٠ طائرة متأهّبة للانقضاض على المدن الإسرائيلية. وهناك ألف دبابة متحفّزة للزحف إلى الحدود الإسرائيلية. وهناك ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل يتعطشون إلى الاستشهاد في مروج فلسطين.» قلت: «براڤو! براڤو! بيّض الله وجوهكم! وأكثر أمثالكم! ماذا تنتظرون؟». قال صلاح الدين المنصور: «سؤال ممتاز! سؤال استراتيجي». ثم التفت إلى وزير الداخلية وقال: «يا حازم! إشرح سبب التأخير للپروفسور». قال حازم اليقظان: «يا پروفسور! المشكلة هي عربستان ٤٩ وعربستان ٥٠. كل يوم نكتشف في بلدنا شبكة إرهابية تموّلها عربستان ٤٩، وشبكة أخرى تموّلها عربستان ٥٠. وهناك حشود على حدودنا مع الدولتين. في اللحظة التي نهاجم فيها إسرائيل سوف تطعننا هاتان الدولتان من الخلف وتقضيان علينا قضاءً مبرماً». قلت: «لا حول ولا قوّة إلا بالله! وما الحلّ؟». إلتفت المنصور إلى وزير خارجيته، وقال: «تكلّم يا مناور!». قال مناور المكري: «بعد البحث والتحليل، وجدنا أن الحلّ الوحيد هو تغيير نظام الحكم في الدولتين. ثبت لدينا بما لا يقبل الشكّ، بالوقائع والتسجيلات والاعترافات الخطيّة، أن حكام عربستان ٤٩ وحكام عربستان ٥٠ هم عملاء لإسرائيل. وعندما أقول عملاء فأنا أقصد عملاء. أقصد موظفين عند الموساد يتقاضون رواتب شهرية». قلت: «إنا لله وإنّا إليه راجعون! وما العمل؟». قال صلاح الدين المنصور: «لا أكتمك، يا پروفسور، أنّي فكّرت جدّياً في غزو الدولتين. ثم تذكرت أنّه لا يجوز للسلاح العربي أن يسفك الدم العربي. ما ذنب المواطنين العاديين الأبرياء؟». قلت: «أحسنت! أحسنت! وماذا قرّرت أن تفعل؟». قال: «قرّرت تغيير نظام الحكم في الدولتين باستخدام السلاح الاقتصادي. ودون إراقة قطرة واحدة من الدم». قلت: «فكرة نيّرة! كيف يستخدم السلاح الاقتصادي لإسقاط نظام حكم؟». قال المنصور لوزير الاقتصاد والتخطيط: «تكلّم يا نبيه!». قال نبيه العاقل: «بناءً على توجيهات فخامة الرئيس السديدة، وضعنا خطة

لاجتذاب اليد العاملة الشابة من عربستان ٤٩ وعربستان ٥٠. قررنا أن يحصل كل مواطن من هاتين الدولتين يعمل هنا على ضعف الراتب الذي يحصل عليه مواطن عربستان ٤٨. خلال عشر سنوات تخلو الدولتان من اليد العاملة الشابّة. وعندها ينهار النظام من الداخل». قلت: «ما شاء الله! هذا، والله!، هو التخطيط ذو النفس الطويل. إذن، فالمعركة مع إسرائيل لن تبدأ إلا بعد عشر سنوات من الآن؟». قال وزير الدفاع: «على أقل تقدير». هنا، يا حكيم، غضبت. لا تقل لي، رجاءً، إني أصبت بانهيار عصبي. لا مُبرّر للمبالغة والتهويل. كل ما هنالك أني لم أعد قادراً على المجاملة. بدأت أرتجف وأصرخ: «لعنكم الله جميعاً! وأوّلكم هذا القذر صلاح الدين المنصور. أعني فساد الدنيا المهزوم! على من تضحكون؟ عليّ؟ أو على أنفسكم؟ أو على الشعب الحمار الذي يسمح لكم بمصّ دمه؟ تسرقون وتنهبون وتبطشون وتدّعون أنكم قضيتم على السرقة والاستغلال والديكتاتورية؟ تقول يا وزير الدفاع إن لديك ٤٠٠ طائرة. صدقت! ولكن لا يطير منها سوى ٢٠ طائرة والبقية في حاجة إلى صيانة وقطع غيار. وتقول إن لديك ألف دبّابة. صدقت! ولكن لا يتحرّك منها سوى ٥٠ دبابة في الاستعراضات العسكرية. والبقيّة في صناديقها ينهشها الصدأ. وتقول إن لديك ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل. صدقت! هذا هو الرقم الموجود في قوائم الرواتب الشهرية التي يتمّ صرفها بمعرفتك. أمّا في الواقع فلا يوجد سوى ٣٠,٠٠٠ فرد غير مدرّبين تدريباً كافياً. وأنت يا وزير الداخلية تقول...». قبل أن أكمل الجملة، يا طبيب، لاحظت شيئاً يئز فوق رأسي. أدركت، على الفور، أن هذا الشيء رصاصة. إلتفتُ فوجدت صلاح الدين المنصور واقفاً يطلق النار...

ـ يقوّص عليك؟ مش معقول!

ـ يقوّص عليّ. بدون شك أو ريب. من مسدس أبو محالة. والمسدّس أبو محالة هو الريڤولڤر، يا نطاسي. من حسن حظّي أن يد المنصور كانت تهتز. ربّما بسبب الغضب الشديد. وربمّا بسبب إفراطه في استخدام العلاج الذي أمر به الطبيب. سرعان ما أفرغ رصاصات المسدّس دون أن تصيبني منها واحدة. يبدو أن إطلاق الرصاص هدّأ من ثورته. شيء شبيه بما تسمّونه معشر الأطباء النفسيين كاثاريسس. إلتفت المنصور إلى وزير الداخلية وقال: «خذه إلى المنتزه. وأبقِهِ هناك حتى تسمع مني». وهكذا، يا دكتور، ذهبت إلى الاستراحة الصحراوية مُعززاً مكرّماً في رتل من سيارات «الرولزرويس» وخرجت منها في سيارة جيب أخذتني إلى معتقل المنتزه.

ـ المنتزه معتقل؟! شو هالإسم؟!

ـ حسّ دعابة أسود. كان المعتقل مخيّماً حقيقياً. الأصالة في كل شيء، حتّى المعتقلات. تصور خيمة/زنزانة! كان المنتزه مخصصاً للمعتقلين السياسيين الذين لا يكادون يوجدون. ووجدت في المخيم قرابة ١٥٠٠ معتقل منهم. هل تعرف أن أبا حسيد دخل السجن؟ لا تعرف؟ واعجباه! ظننت كل الناس يعرفون. إذن، إسمع القصة. الشيء بالشيء يذكر. دخل أبو حسيد السجن. في البداية، حاول أن يتفلفس. إدّعى عدم الاكتراث: «كن أيها السجن كيف شئت فقد .·. وطّدتُ للموت نفس معترفِ. لو كان سكنايَ فيك منقصة .·. لم يكن الدر ساكن الصَدَف». بمعنى آخر، السجن للجدعان، وللآلىء، ولأبي حسيد، وللپروفسور. ثم طالت المدّة على أبي حسيد. وملّت الدرّة البقاء في الصدف. وبدأ أبو حسيد يستعطف ويرجو. وقال قصيدة الدالية التي بدأها بأقبح الدعاء على الجميلات: «أيا خدَّد الله ورد الخدودَ! .·. وقدَّ قدود الحِسان القدودِ!». وهذا مطلع غريب جداً. فرم الخدود وقصف القدود. وقد استنكرته غالبية النقاد. وتصدّى بعضهم للدفاع عن أبي حسيد. ومن عجيب أمر أبي حسيد أنك تجد من ينتقده على كل شيء يقوله مهما كان رائعاً، وتجد من يدافع عن كل شيء يقوله مهما كان سخيفاً. وأبو حسيد لم يكن أول من دعا على المحبوبة. سبقه جميل بثينة حين قال: «رمى الله في عيني بثينة بالقذى! .·. وفي الغرّ من أنيابها بالقوادح!». وتفسير ذلك، يا نطاسي، أنه يدعو عليها بالتهاب شديد في العينين وسوس منتشر في الأسنان. عاطفة غريبة بعض الشيء! وقد تفلفس بعض المعلّقين السياسيين فقالوا إن هذا لم يكن قصد جميل. كان يقصد بعيني بثينة الرقباء والجواسيس، وكان يقصد بالغرّ من أنيابها كبار قومها. أي أنه لم يكن يدعو عليها وإنما على العذّال والأقارب. وهذا كلام فاضي. والذين قالوه ما عندهم سالفة. الصحيح أن الدعاء من باب التحبّب. كما تقولون هنا: «يفدح حريشو! شو ذكي!». وكما نقول في ديرتنا: «نِعل أبوه! ذيب!». ومن الضروري أن تتذكر أن أبا حسيد كتب هذه القصيدة وهو في السجن. ومزاج الإنسان في السجن عرضة لتقلبات عنيفة مفاجئة. ومن الممكن جداً أن أبا حسيد كان في مزاج عدواني عندما كتب المطلع. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن أبا حسيد بدأ يستعطف الوالي: «دعوتك لّما براني البلاء .·. وأوهن رجليَّ ثقلُ الحديد. وقد كان مشيهما في النعال .·. فقد صار مشيهما في القيودِ. وكنتُ من الناس في محفلٍ .·. فها أنا في محفل من قرودِ». قضى أبو حسيد عامين في السجن، ثم أطلق سراحه. لا أحد يعرف بالضبط، حتّى هذه اللحظة، لماذا سُجن. المؤكّد، في نظري على الأقلّ، أنه لم يسجن بسبب ادّعاء النبوّة. كان،

أيامها، مراهقاً. ويستحيل أن يدّعي مراهق أنه نبي. خاصة إذا كان مراهقاً ذكيّاً مثل أبي حسيد. وربما كان. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى القصّة؟

ـ بكل سرور. لم تكن حالتي في المعتقل كحالة أبي حسيد. لم أكن مقيّداً. كنت أتمتّع بقدر من الحريّة. هاه! هاه! قدر من الحرية في معتقل! كل الأمور نسبية، كما سبق أن أخبرتك. وفي المعتقل، يعتبر السماح لك بالذهاب إلى الحمام كلما شئت قدراً محترماً من الحريّة. الأمر الذي يذكّرني بمفكّر عربستاني مشهور سجنه حاكم عربستاني أكثر شهرة، فأرسل المفكّر إلى الحاكم من زنزانته رسالة يقول فيها: «كنت أطالب بحرية القول أمّا الآن فأكتفي بحرية البَوْل». وهذه قصّة حقيقية حدثت. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! لا أريد أن أسمع قصص الناس. أريد أن أسمع قصتك أنت.

ـ حُبّاً وكرامة! قضيت في المعتقل، يا نطاسي، ٦ شهور.

ـ ٦ شهور؟ مش معقول!

ـ إذا إردت الدقة قضيت ٦ شهور و٣ أيام و٤ ساعات و٧ دقائق.

ـ وكيف طلعت؟

ـ قبل أن أحدّثك عن الخروج، دعني أخبرك بأهم ما حدث لي في المعتقل.

ـ تعرّفت على نسوان؟!

ـ منيحة، يا دكتور! النساء كان لهنّ معتقل خاص. الأصالة والتقاليد، وما إلى ذلك. تعرّفت على برهان سرور.

ـ برهان سرور الذي أصبح فيما بعد. . .

ـ دعنا، الآن، من قضيّة فيما بعد. أنا أقصّ عليك القصة بالتسلسل. وسوف نصل، في الوقت المناسب، إلى فيما بعد. عندما تعرّفت عليه كان مناضلاً حزبياً شابّاً من عربستان ٤٩. قبض عليه في عربستان ٤٨ بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم. كان وقتها في التاسعة والعشرين. درس التاريخ في الجامعة، ثم عمل مدرّساً في مدرسة ثانوية. وكان عضواً نشطاً في حزب الانطلاقة. إنضمّ إلى الحزب وهو طالب صغير. تستطيع أن تعتبره من الأعضاء المؤسّسين. تشرّب

مبادىء الحزب وكرّس حياته كلّها للعمل الحزبي. عندما تعرفت عليه في المعتقل كان، رغم صغر سنه، ألمع شخصيات الحزب. كان زميلي في الخيمة/الزنزانة.

- برهان سرور؟! زميلك في الزنزانة؟

- نعم، يا طبيب، نعم. وحدثت في التاريخ أشياء أغرب من هذه. ولا تزال تحدث. خلال إقامتي في المعتقل كنت أقضي معظم أوقاتي في الحديث مع برهان. يوماً بعد يوم، بدأت أعجب بالشاب الحزبي المناضل. كان صافي التفكير، واضح الرؤية، قويّ المنطق، طلق اللسان. كان يسخر من العسكر والحكم العسكري. كان يقول: «ماذا تتوقّع من إنسان يقضي النصف الأول من عمره في تلقّي الأوامر، والنصف الثاني في إعطائها؟». وكان يقول: «العقل العسكري لا يفهم السياسة. السياسة أنصاف حلول. والعقل العسكري يرفض أنصاف الحلول. النصر أو الهزيمة. الطاعة أو السجن». وكان يقول: «كيف تتوقّع من إنسان مُدجّج بالسلاح أن يكون مسالماً؟». كان يرى أن خلاص الأمّة العربيّة لن يتم إلاّ على يد حزب الانطلاقة. الحزب الذي يملك النظرية المتكاملة. الحزب الذي يؤمن بالحرية والديمقراطية والعدالة. الحزب الذي يسعى إلى الوحدة العربية. الحزب الذي يعرف الطريق إلى فلسطين: الجيش العربي الواحد. الحق أقول لك، يا حكيم، إنني عندما خرجت من المعتقل كنت مقتنعاً أن برهان سرور هو القائد الذي سيقود الأمة العربية إلى المجد وإلى الثأر. كنت مبهوراً بالرجل.

- لم تخبرني كيف خرجت من المعتقل؟

- آه! قصة شيّقة. أعني شائقة. أعني مسّلية. ذات صباح، وبلا مقدّمات، حضر اللواء المرافق وأدّى التحية العسكرية وقال لي، ببساطة، إن فخامة الرئيس ينتظرني في استراحته البحرية. خرجت ووجدت سيارات «الرولزرويس» إياها مصطفة في الانتظار. إمتطينا السيارة إلى استراحة فخامة الرئيس البحرية. لا داعي للتوسّع في وصفها. يكفي أن أقول إنها قصور على البحر مُصمّمة على شكل سفن شراعية تمسُّكاً بالتراث والأصالة. ويملكها الشعب، لا فخامة الرئيس، ولا أولاد فخامته. ويقيم فخامته فيها مؤقتاً باعتباره. . .

- عفواً، يا بروفسور، عفواً!

- أوكي! أوكي! وجدت الرئيس في انتظاري في قاعة مصممة على هيئة باورة. . .

ـ عفواً! شو يعني باورة؟

ـ باورة تعني آنكور. تلك القطعة الحديدية التي تنغرز في القاع فتمنع تحرك السفينة. الباطر.

ـ آي سي!

ـ الحمد لله! إستقبلني صلاح الدين المنصور هاشّاً باشّاً ضاحكاً مازحاً، وعانقني. بمجرد أن جلست قال لي: «أين الشيك؟» أعطيته الشيك فأخذه ومزقه...

ـ شو؟ شو؟ قطع الشيك؟! أبو ٧٥٠ مليون دولار؟!

ـ نعم. مالي أراك منفعلاً؟

ـ كيف قطّعه؟

ـ بيده. هدّىء من روعك. من المؤكدّ أنه كان شيكاً بلا رصيد. لم يكن بالإمكان صرفه. كان فخامة الرئيس يداعبني عندما قدمه لي. ومداعبة الرئيس رئيسة المداعبات. مزّق صلاح الدين منصور الشيك، ونظر إليّ مبتسماً، وقال: «خالصين يا بروفسور؟!». قلت: «خالصين، يا فخامة الرئيس!». قال: «عندي لك عرض مغر». قلت: «تقصد أنه ليس بوسعي أن أرفضه؟». قال: «تماماً». قلت: «ما هو؟». قال: «عندي وظيفة أرجو أن تقبلها». قلت: «أنا لا أصلح للوظائف». قال: «إذن تعود إلى المنتزه». قلت: «أنا أصلح لكل الوظائف». قال فخامته: «لقد وجّهت إلى الثورة وإليّ شخصياً الكثير من النقد. النقد الهادف البنّاء. وأنا أرحّب بالنقد الهادف البناء. لا تصدّق الإشاعات التي تقول إني أضيق بالنصيحة. ولا أحتمل الرأي الآخر. ولا أطيق المعارضة. أكاذيب يبثها الاستعمار والصهيونية. أنا، يا بروفسور، أُسَرُّ بالنقد أيّما سرور». قلت، وأنا أبتسم: «لاحظت ذلك يا فخامة الرئيس». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة من الأعماق، وقال: «مجرد مزحة، يا بروفسور. مزحة بين أصدقاء». قلت: «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب. واعلم، يا فخامة الرئيس، أن المتنبي، الذي أسميه أنا أبا حسيد، مرَّ بموقف مماثل عندما كان خارجاً في بعض شأنه وأزّت حوله السهام. واعلم، يا فخامة الرئيس، أن غلمان أبي العشائر هم الذين أطلقوا السهام. واعلم أن أبا حسيد كان يمدح أبا العشائر وكان بينهما شيء من المودّة المتبادلة. أو هكذا تصوّر أبو حسيد. عندما أزت حوله السهام أنشد: «ومنتسبٍ عندي إلى من أحبُّه ∴ وللنبل حولي من يديه حفيفُ. فهيَّج من شوقي.. وما من مذلّةٍ ∴ حننتُ..

ولكن الكريم ألوفُ. وكلّ ودادٍ لا يدوم على الأذى .˙. دوام ودادي للحسين ضعيفُ. فإنْ يكن الفعل الذي ساء واحداً .˙. فأفعاله اللائي سررن ألوفُ. ونفسي له.. نفسي الفداء لنفسه .˙. ولكن بعض المالكين عنيفُ. فإن يك يبغي قتلها يك قاتلا .˙. بكفّيه.. فالقتل الشريف شريفُ». قال المنصور: «أعد البيت ما قبل الأخير». فأعدته. فاستعاده عشر مرات. فأعدته. فطرب فخامته طرباً شديداً. وصفق، فبدا على الفور، مرافق قال له المنصور: «أكتب هذا البيت». والتفت إليّ وقال: «أملِ عليه البيت، يا پروفسور». أمليت البيت: «ونفسي له.. نفسي الفداء لنفسه .˙. ولكن بعض المالكين عنيفُ». قال المنصور للمرافق: «أرسل هذا البيت مع بطاقة من بطاقاتي و١٥٠٠ وردة حمراء إلى ك». خرج المرافق، ونظر المنصور إليّ وهو يبتسم: «منذ فترة، وأنا أفكر في إعادة علاقتي مع ك. ولا أعرف الوسيلة. حتى سمعت هذا البيت. من قاله؟». أجبت: «المتنبيّ يا فخامة الرئيس». قال: «مسيلمة الكذاب؟». قلت: «لا. متنبي آخر». قال: «بيت جميل. من الغريب أني لم أسمع به من قبل». قلت: «مشاغل الدولة يا فخامة الرئيس». هزَّ رأسه مؤيّداً، ثم سألني: «هل تعرف ك؟». قلت: «لا، والله!، يا فخامة الرئيس». قال المنصور: «أنت أخي وصديقي. لا أخفي عنك سرّاً. إعلم، يا پروفسور، أن ك هي حبيبتي. وك إسم حركي. اسمها كاملة». قلت: «كاملة؟ أحسبها إسماً على مسمّى». قال: «صدقت! كاملة الأوصاف. حدث بيننا سوء تفاهم بسيط بسبب الغيرة. الغيرة هي داء المحبّين. هل قال مسيلمة الكذاب شيئاً في الغيرة؟». قلت: «تقصد المتنبيّ يا فخامة الرئيس؟». قال: «نعم! نعم!». قلت: «المتنبي لم يكن يهتم بالغيرة. كان هوسه بالحسد». قال: «حدث بيني وبين كاملة سوء تفاهم بسيط بسبب الغيرة. وانقطعت العلاقة. إلا أنني أعتقد أنها سوف ترضى عندما تقرأ البيت. كاملة فتاة مثقفة. تدرس دراسات عليا في الجامعة». قلت: «ما شاء الله!». قال: «الغيرة بلاء العشاق. كانت الغيرة مشكلتك مع عفراء، يا پروفسور، أليس كذلك؟». هنا، يا حكيم، دارت بي الأرض، وأغمي عليّ. أفقت فرأيت أمامي ممرّضاً يدني زجاجة نوشادر من أنفي. عندما صحوت خرج الممرّض. نظر إليّ صلاح الدين المنصور، ثم قال: «كنت أنت السبب في موتها!». قلت: «سامحك الله يا فخامة الرئيس! عفراء انتحرت. قتلت نفسها بنفسها». ضحك صلاح الدين المنصور بمرارة، وقال: «انتحرت؟! هل هذا ما تعتقده؟ كانت من أنشط عناصرنا الاستخبارية. وزرعناها في الموساد. كانت توافينا من لندن بتقارير في منتهى الدقة. كانت عميلة مزدوجة كما نقول في الكار». قلت: «عفراء شمالي لم تكن جاسوسة إسرائيلية؟!». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة مجلجلة

أرعبتني، وقال: «عفراء جاسوسة إسرائيلية؟ عفراء كانت تكره إسرائيل إلى درجة الجنون. كانت تعمل معي، وعرفتها جيداً». قلت: «ماذا تقصد، يا فخامة الرئيس، بقولك إني كنت السبب في موتها؟». قال: «كانت الموساد تلاحق المخبر الذي طلبت أنت منه أن يلاحقها. شكّ عملاء الموساد في أمرها فقتلوها. أخذوها، وخدروها، وسمموها بغاز ثاني أوكسيد الكربون في الكراج». قلت: «ولكن تقرير البوليس يؤكد أنها انتحرت». قال: «لم تنتحر. ولم تفكر لحظة في الانتحار». قلت: «وأنت يا فخامة الرئيس؟!. كيف عرفت أنت عن علاقتي بها؟». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة عالية، وقال: «ألم أخبرك أنها كانت تعمل معي؟ كانت تحت رئاستي المباشرة». قلت: «إذن، يا فخامة الرئيس، فأنت الذي اكتشفتني؟ كنت أتصوّر أنني أنا الذي اكتشفتك». عاد المنصور إلى الضحك، وقال: «لا داعي للجدال. إكتشاف مشترك. سمعت عنك من يوم المطعم الهندي». فقدت قدرتي على الكلام. واستطرد المنصور: «دعنا من الماضي. فلنعد إلى الحاضر. فكّرت طويلاً في نقدك الهادىء البنّاء. في الفترة التي كنت فيها أنت يا پروفسور تستمتع بالهواء الطلق والشمس الدافئة والنجوم اللامعة في المنتزه، كنت أنا أفكّر في كل كلمة من كلماتك. ثم وصلت إلى نتيجة». قلت متخوّفاً: «خير يا فخامة الرئيس؟». قال: «خير! مشكلتي هي البشر. أعيّنُ الرجل الصالح الذي أتوسّم فيه الخير فيتحوّل إلى رجل طالح. أعيّنُ النزيه فيصبح لصّاً. أعيّنَ الشريف فيضحي قاطع طريق. وما دمت أنت يا پروفسور الأب الروحي للثورة، ويهمّك أن تبقى الثورة محتفظة بصفائها ونقائها فقد قررت أن أضع المسؤولية على عاتقك». قلت: «أي مسؤولية؟». قال: «مسؤولية اختيار الناس. استحدثت منصباً ليس له سابقة في التاريخ. المعيّنُ العام! من الآن فصاعداً لن يعيّنَ إنسان في عربستان إلا بأمرك من الوزراء إلى السعاة. وها هو ذا المرسوم الجمهوري بتسميتك وسأوقّعه أمامك الآن».

- فظيع.

- صدقت!

- وهكذا أصبحت المعيّن العام؟!

- هكذا أصبحت المُعيّن العام.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- سبق أن أخبرتك ما حدث بعد ذلك. الطلبات والرشاوى.

ـ حتى امتلأت المخازن؟

ـ صدقت!

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ طلبت مقابلة صلاح الدين المنصور واستقبلني فخامته في استراحته الرعوية.

ـ عفواً؟

ـ استراحة في منطقة المراعي. لا داعي للتوسع في وصفها. مجرد قصور على هيئة...

ـ پروفسور!

ـ حسناً! حسناً! حقيقة الأمر أنها كانت استراحة متواضعة. أعني متواضعة نسبياً. إستقبلني صلاح الدين المنصور بعناق حار، وسألني: «امتلأت المخازن؟». قلت: «امتلأت. وتبرعت بكل ما فيها لمؤسسة المنصور الإنسانية». قال: «هدية مقبولة. وجئت، الآن، تطلب الخلاص؟». قلت: «نعم». قال: «هل أدركت، الآن، صعوبة الإصلاح؟». قلت: «أدركت!». قال: «هل عرفت، الآن، أن الكلام سهل جداً والتنفيذ صعب جداً؟». قلت: «عرفت!». قال: «هل تبيّنت، الآن، أني كنت صادقاً عندما كرّرت في خطبي أنه يمكن بناء المصانع ويستحيل بناء البشر؟». قلت: «تبيّنت!». قال: «وهل ستكون أقلّ حِدّةً في نقدك في المستقبل؟». قلت: «سأكون!». قال: «وهل ستبقى، دائماً، أخي وصديقي؟». قلت: «سوف أفخر بأخوّتك وصداقتك ما حييت يا فخامة الرئيس». قال: «أعدْ عليَّ البيت الذي قاله مسيلمة الكذّاب». قلت: «تقصد المتنبي؟». قال: «نعم! نعم!». قلت: «ونفسي له.. نفسي الفداء لنفسه .ٌ. ولكن بعض المالكين عنيف». قال: «هل تعرف ما حدث مع كاملة؟». قلت: «لا يا فخامة الرئيس». قال: «نجح البيت في إعادة العلاقة بيننا». قلت: «مبروك!» قال: «ثم تزوّجت كاملة أحد زملائها». قلت: «بالرفاه والبنين!». قال: «بعد أن استأذنتني، ووافقت». قلت: «بطبيعة الحال!». قال: «وكنت أنا شاهد الزواج». قلت: «هذا من تواضعك يا فخامة الرئيس». أضاف: «وتحمّلتُ كل المصاريف». قلت: «وهذا من كرمك يا فخامة الرئيس». قال: «رغم أنني رجل فقير». قلت: « كل إنسان في عربستان ٤٨ يعرف هذه الحقيقة، حتّى الأطفال. وقد قال أبو حسيد «الجود يفقر والإقدام...» قاطعني، وقال: «ذكّرتني!. عندي الآن مشكلة مع ن». قلت:

«عفواً يا فخامة الرئيس! من هو ن؟». ضحك المنصور، وقال: «هي! ن إسم حركي. إسمها ناهد. صديقتي الحالية. حدث بيننا سوء تفاهم بسيط بسبب الغيرة». قلت: «وتودّ أن أعطيك بيت شعر ترسله مع ١٥٠٠ وردة ليعيد العلاقة؟». نظر إليّ مشدوهاً، وقال: «كيف عرفت؟». قلت: «مجرد طلقة في الظلام. آسف! أعني مجرّد رمية بلا رام». قال: «هات!». قلت: «لعينيكِ. ما يلقى الفؤاد. وما لقي ∴ وللحبّ ما لم يَبْقَ مني.. وما بقي». صرخ صلاح الدين المنصور: «آه! آه! آه! آه!». قلت: «مالك تكثر التأوّه يا فخامة الرئيس؟». قال: «هذه، بالضبط، حالتي مع ناهد، هل هناك بقيّة؟». قلت: «نعم». قال: «هات!». قلت: «وما كنت ممّن يدخل العشق قلبه ∴ ولكنّ من يبصرْ جفونك.. يعشقِ. وبين الرضا والسخط والقرب والنوى ∴ مجالٌ لدمع المقلة المترقرقِ. وغَضْبى من الإدلال، سكْرى من الصبا ∴ شفعتُ إليها من شبابي بريّقِ. وأشنبَ، معسول الثنيات، واضح، ∴ سترت فمي عنه فقبّل مفرقي». قال المنصور مستنكراً: «أعوذ بالله! أشنب؟ رجّال بشنب؟». قلت: «يا فخامة الرئيس! الشنب هو جمال الأسنان. يقصد أبو حسيد أن الحبيبة كانت جميلة الفم». قال: «البيت الأوّل يكفي. الأبيات الأخرى معقدة. يصعب فهمها. رغم أن ناهد مثقفة. معيدة في الجامعة». قلت: «ما شاء الله!». صفق المنصور فأقبل مرافق أمليت عليه البيت الأول. قال المنصور للمرافق: «إبعث هذا البيت مع بطاقة من بطاقاتي و ٣٠٠٠ زنبقة حمراء إلى ن». خرج المرافق، ونظر إلى المنصور طويلاً دون أن يتكلم. قلت: «يا فخامة الرئيس! أودّ أن أستأذنك في السفر». قال: «تنوي أن تتركنا؟». قلت: «لا أقول إلا ما قال أبو حسيد في موقف مماثل: «لعلَّ الله يجعله رحيلاً ∴ يعين على الإقامة في ذراكا». أرجو أن تأذن لي». قال: «بشرط!». قلت: «مقبول!». قال: «تعود إلى زيارتنا قريباً». قلت: «بكلّ سرور!». قال صلاح الدين المنصور: «هل هناك ما أستطيع عمله لك قبل أن تسافر؟». قلت: «لي طلب واحد». قال: «إعتبر الموضوع منتهياً». قلت: «إسمع الطلب، أولاً، يا فخامة الرئيس». قال: «هات». قلت: «تعرفت في المعتقل، أعني في المنتزه، على شاب كان يشاركني الزنزانة، أعني الخيمة، إسمه...». قاطعني المنصور: «برهان سرور؟!». قلت: «نعم». قال: «وتوّد أن آمر بإطلاقه؟». قلت: «نعم». قال: «لا مانع. المشكلة الوحيدة هي التكاليف». قلت: «أنا مستعدّ لدفع التكاليف». قال صلاح الدين المنصور: «أنفقنا ٥٠ مليون دولار في تعقّب برهان سرور ومطاردته، حتى تمكّنّا من الإمساك به وهذه أموال الشعب. وأنا لا أستطيع التفريط في أموال الشعب كما تعرف». قلت: «يا فخامة الرئيس! أقدّر هذا كل التقدير. وضميري لا يسمح لي

بإهدار أموال الشعب. سوف أكتب شيكاً بالمبلغ». قال المنصور: «لا تكتبه باسمي. أنا زاهد في الماديات، كما تعلم. المبلغ سوف يكون للشعب». قلت: «باسم الشعب سوف يكون الشيك». قال: «لا! لا يمكن صرف شيك باسم الشعب. أكتبه باسم مؤسسة المنصور الإنسانية التي يملكها الشعب». قلت: «كما ترى يا فخامة الرئيس». قال: «ومتى تنوي السفر؟». قلت: «بعد غد. في الصباح». قال: «ستجد برهان سرور أمامك في المطار. خذه معك». قلت: «سآخذه. لمن أسلّم الشيك؟». قال: «للضابط المرافق». اقتربت منه وصافحته، وقلت: «أستودعك الله يا فخامة الرئيس». عانقني صلاح الدين المنصور عناقاً حاراً، وقبّلني، وقال: «إلى اللقاء!».

- وبعدين شو صار؟

- حدث الاستلام والتسليم. إستلمت برهان سرور وسلّمت الشيك. وأقلعت الطائرة. وألقينا عصا التّرحال في ريو دي جنيرو.

- ريو؟!

- ريو. نهر يناير.

- عفواً.

- ريو، يا نطاسي، معناها نهر بالبرتغالية. ضع هذا في قائمة معلوماتك التي لا تضر ولا تنفع. وعندما رأى البرتغاليون المدينة لأوّل مرة قبل قرابة ٥ قرون ظنوا مدخل مينائها نهراً. وكانوا وقتها في شهر يناير. فسموها ريو دي جنيرو. نهر يناير!

- وليش اخترت ريو؟

- لأني أحب ريو. وريو، يا حكيم، مدينة غريبة عجيبة. فيها أغنى الناس في العالم. وأفقر الناس. وفيها أجمل المناظر. وأبشع المناظر. وأنا أملك فندقاً فخماً هناك. والطابق الأعلى عبارة عن جناح محجوز لي على مدار السنة. من جهة يطل الجناح على الكوبا كوبانا، أروع بلاج على هذه المعمورة. وفي الجهة الأخرى، شرفة وضعت فيها تلسكوباً أستطيع بواسطته مراقبة ما يدور في الفاڤيلا. تعرف الفاڤيلا؟

- معلوم. المناطق الشعبية في الجبال.

- المناطق الشعبية تعبير رومانسي، يا حكيم. المناطق البائسة، المناطق

التعيسة. حيث يتعرّى الضعف البشري بكل تجلياته. أطلّ من جهة فأبصر البحر والحياة السعيدة، دولشي ڤيتا، وأرى الأغنياء يمرحون ويسرحون. وأنظر في الإتّجاه الآخر فأرى الناس ملتصقين كالنمل بالجبال. في مجتمعات أقل سعادة من مجتمعات النمل. وهذا ليس موضوعنا. موضوعنا ريو. الإقامة في ريو تجعل المرء في حالة توازن. بحر هنا. وجبل هناك. فقر هنا، وغنى هناك. جمال هنا، وقبح هناك. قضيت في ريو فترة طويلة أفكّر. وفترة طويلة أتكلم.

ـ كيف يعني تفكّر وتتكلم؟

ـ فكرت في ما قاله صلاح الدين المنصور عن عفراء شمالي. فكّرت تفكيراً عميقاً مركزاً. حتى وصلت إلى نتيجة ارتحت لها.

ـ شو ها النتيجة؟

ـ إنتهيت إلى أن هذا الضابط الساديّ اللعين الذي أصبح رئيس جمهورية في غفلة من الزمن، وبترتيب منّي، كان يكذب عليّ. كان يود تعذيبي. لم تكن عفراء تعمل في استخباراته ولا كانت عميلة مزدوجة. كانت مجرد جاسوسة إسرائيلية.

ـ ولشو كذّب عليك؟

ـ كان الخبيث يريد إهانتي وإذلالي. كان يود تذكيري أن كل شيء تغير. هو فخامة الرئيس وأنا مجرد بزنسمان يستطيع فخامة الرئيس أن يحبسه وأن يطلقه. واخترع قصة عفراء شمالي البطلة المناضلة. كان يريد أن يقول لي إنه هو الذي اختارني لتمويل انقلابه وليس العكس.

ـ وبعد التفكير تكلّمت؟ تكلّمت مع مين؟

ـ آه! الكلام! الكلام كان مع برهان سرور. لم أكن، هذه المرة، في حاجة إلى مركز تفكير. كنت مقتنعاً أن برهان سرور هو المستقبل العربي. قضيت شهرين كاملين في الكلام معه.

ـ شهرين؟ يخزي العين؟ بشو حكيتو؟

ـ سوف أعود إلى برهان سرور بعد لحظة. دعني أخبرك أنني بمجرّد إتفاقي النهائي مع برهان سرور بدأت فترة علاج نفسي في ريو...

ـ مش معقول! ما في...

ـ ما في ملفّ؟! صدقت! ولم تكن هناك مصحّة، يا أخا فرويد. كان الأمر

مجرد دردشة. كنت أودّ التخلّص من عقدة السجن.

ـ عقدة السجن؟ شو قصدك؟

ـ إعلم، يا طبيب، أنه ما من إنسان يدخل السجن ويخرج منه كما دخل. من المستحيل أن يخرج صاغ سليم، كما يقول أصدقائي المصريون. السجن يحدث آثاراً تدميرية هائلة في نفسية السجين. آثاراً غير منظورة. يكذب عليك أيّ سجين يدّعي أن تجربة السجن لم تغيّره. ولم تبقَ معه طيلة حياته. بالنسبة لي، كنت في دوامة رهيبة. وجدت نفسي نهباً لمشاعر عنيفة متناقضة. أحسّ، أحياناً، بكثير من الاعتزاز بتجربتي وراء القضبان. أشعر أنني متفوّق، روحياً، على أيّ إنسان لم تصهره هذه المحنة. ثم يذهب هذا الشعور، ويجيء نقيضه تماماً. أشعر أنني فقدت كرامتي إلى الأبد. أشعر أني سحقت مثل صرصور. بعد ذلك تنتابني رغبة عارمة في الانتقام. أودّ أن أكرّس كل يوم من عمري وكل سِنتْ من ثروتي للانتقام من صلاح الدين المنصور. ثم تزول هذه الرغبة وتحل محلّها نزعة نحو العفو. أشعر كأنني شهيد يسامح قتلته. كأنني قدّيس يموت وهو يمنح معذّبيه البركات. ثم يعود الغضب. حاولت أن أسلّي نفسي بقراءة ما كتبه الشعراء عن السجن. وعدد لا يستهان به من الشعراء دخل السجن، كما تعرف. أو، ربّما، كما تجهل. وعدد منهم قُتِل قتلاً. وهذه قضية أخرى. المهم أن الشعر حرفة لا تخلو من خطورة. بخلاف ما يتصوّر عدد من المراقبين الدوليين. وهناك حصيلة جيّدة من أشعار السجن في تراثنا العربي. تستطيع أن تسميها «اللومانيات». والكلمة ليست مشتقة من الليمون أو اللوم ولكن من اللومان الذي هو السجن بالمصرية الدارجة. عندك لومانيات أبي فراس، المسماة الروميات، وهي مؤثرة جداً. والناس لا يعرفون منها سوى الأبيات التي يكلم فيها الحمامة. وحتى هذه الأبيات الحمامية لم يسمع بها الناس إلا بعد أن غنّاها ناظم الغزالي. والحطيئة قال في السجن قصيدة جميلة. على أثرها رقّ عليه عمر بن الخطاب فأطلقه. وكان قد سجنه لبذاءة لسانه وكثرة تعرضه لعباد الله. والواقعة تدل على أن الباحثين الذين يدّعون أن صدر الإسلام لم يعرف السجن ما عندهم سالفة. وفي شعرنا الحديث، هناك لومانيات كثيرة. وقد كتب سليمان العيسى ديواناً كاملاً عن الموضوع سمّاه «شاعر في النظارة». وأنا، بكل صراحة، لا أعرف ما هي النظارة، ولكني لا أظنها فندقاً من فنادق هيلتون. وهناك القصيدة القومية الشهيرة: «يا ظلام السجن خيّم .·. إننا نهوى الظلاما».

وهناك قصيدة الزبيري البديعة التي تبدأ: «خرجنا من السجن شمّ الأنوف كما تخرج الأسد من غابها». وصديقي سي عباس محمود العقاد عندما هدّد بكسر

أكبر رأس في البلد قضى في السجن ٩ أشهر. وُلد بعدها. وسجل ولادته ببيت لا بأس به: «قضيت ببطن السجن تسعة أشهر ∴ وها أنذا في ساحة المجد أولد». ولا نعرف هل كانت الولادة طبيعية، أم قيصرية. والناس يعتقدون أن كلمة قيصرية مشتقة من يوليوس قيصر. وهذا خطأ شائع. ومن حسن حظنا أن نزار قباني لم يسجن قط. ولو سجن ٥ دقائق لأتحفنا بخمسة دواوين. وادّعى أنه أعظم شهيد في التاريخ. والحقيقة أنه يدّعي هذا دون أن يسجن. وأبو ريشة لم يدّع أنه سجن ولكنه ادعى أنه تلقى حكماً غيابياً بالإعدام. وفي الشعر الإنجليزي، بدوره، تجد حصيلة طيبة من «الجيليات»، وهذه مشتقة من كلمة جَيْل. والشيخ زبير أشار إلى السجن عدة مرات في مسرحياته. ولو أنه، شخصياً، لم يدخل السجن. رُبّما لأنه لجنه. أما أوسكار وايلد فقد دخل السجن وخرج منه منهاراً انهياراً تاماً. لم يعش بعدها إلا فترة قصيرة تعيسة. تستطيع أن تقول إن السجن قتله. وفي السجن، كتب أجمل قصائده. وتحدث عن الرجل الذي نظر بعيون ملؤها الشوق الحزين إلى «تلك الخيمة الصغيرة الزرقاء التي يسميها السجناء السماء». أنظر كيف تحولت السماء الهائلة إلى خيمة صغيرة. والسبب أن المساجين لا يرونها إلا من شقوق ضئيلة. جمعت حصيلة الشعر اللوماني وطبعتها في كتاب اسمه «الكلام المقفّى الموزون في سكنى السجون». لم تسمع عنه؟ لم يكن بِسْت سِلْر على أية حال. كنت أحاول نسيان مشكلتي. إلا أن المحاولة لم تنجح. وبقيت عقدة السجن تلتهب في أعماقي. تحدّثت في الموضوع مع صديق برازيلي نصحني، على الفور، بالعلاج النفسي. غضبت، وقلت له: «هل تعتقد أنني مجنون؟!». ضحك، وقال: «المجانين لا يصبحون من البليونيريه». قلت: «فلم العلاج النفسي؟». قال: «إصبر حتى تبصر الطبيبة». قلت: «طبيبة؟! مَرَه؟!» قال: «مَرَه!» وهكذا، يا سايكاترست، تعرفت على زميلتك السايكاترست. دولوريس إيڤانجلستكا!.

بخلاف الأطباء النفسيين الذكور، لم تضيّع دولوريس وقتها ووقتي في الأسئلة الماصخة عن الطفولة وعقدة أوديب وتنافس الأخوة. خشّتْ، رأساً، في الموضوع. دولوريس، من حسن الحظ، كانت تعتقد أن صاحبكم فرويد تجاوزه الزمن. حقيقة الأمر، أنها تعتقد أنه أساء إلى علم النفس إساءة هائلة عندما حبسه عقوداً طويلة في أساطيره اليونانية ورموزه الليلية. كانت من البيهاڤيرولستز، تؤمن أن السلوك البشري ظاهرة معقّدة يستحيل تفسيرها في ضوء ما حدث في السنوات الخمس الأولى. كانت تؤمن أن كل فكر إنساني، من الرياضيات إلى الفلسفة إلى هندسة الكومبيتر، يمكن أن يضيء جزءاً من النفس البشرية. كانت ترى أن التركيز على مشاكل الحاضر أجدى من...

ـ عفواً، يا پروفسور! هذه مدرسة معروفة.

ـ آي. بيج يور پاردون! المُعلِّم لا يعلِّم. كنت أحاول أن أوضح لك أنها لم تكن من الطراز الذي تعوّدت عليه. لم تشعرني، قط، أني مريض وأنها طبيبة. كنا صديقين. لم نكن نتقابل في عيادتها وأنطرح على الصوفا وأغمض عيني...

ـ وين كنت تشوفها لكان؟

ـ سؤال جيّد! في كل مكان! في الكوبا كوبانا. نتحدّث على البلاج بملابس البحر، ونحن نسير بين الفتيان الذين يلعبون الكرة الطائرة، والفتيات اللاتي يتسابقن، والصغار الذين يدبّون على الرمل كالهوام. والهوام هي الحشرات الصغيرة. وكنا نتقابل في الملاهي الليلية. وكنا نتقابل في الشاسكريات...

ـ عفواً، يا پروفسور، شو يعني شاسكريات؟

ـ الشاسكريا، يا طبيب، هي المطعم الشعبي البرازيلي، حيث توجد أصناف من المزَّة تتفوق، في العدد، على المزَّة اللبنانية الشهيرة.

ـ مش معقول!

ـ إذهب بنفسك، واحكم. في المطعم يجتمع مئات من البشر. ويأكلون من أطباق المزّة ما يشتهون. بقدر ما يستطيعون. يخدمون أنفسهم بأنفسهم. ويدور الجرسونات بين الطاولات بالمشويات فيستوقفهم الزبون، ويأخذ حاجته. والموسيقى الجميلة تصدح بأعلى نبرة. ويضحك من يضحك، ويرقص من يرقص، ويغني من يغني. رحلة في السعادة لا في الطعام. وفي هذا الجو البهيج، كنا نتحدث عن تجربة السجن. هل أخبرتك أن دولوريس كانت واحدة من أجمل النساء اللاتي رأيتهن في حياتي؟ لم أخبركَ؟ كانت سمراء. في لون البنّ المحروق، كما يقول إحسان عبد القدوس في كل رواياته. كان شعرها قصيراً، آلا جرسون. وقد كتب نزار قباني قصيدة اسمها آلا جرسون ليثبت تبحّره في اللغه الفرنسية. وقد ظنها أحد المعلقين السياسيين غزلاً في جرسونة. وكان جسمها رياضياً، أعني دولوريس لا الجرسونة المفترى عليها. يشتدّ حيث يجب أن يشتدّ، ويلين حيث يجب أن يلين. وأترك التفاصيل لخيالك. وكانت بين الثلاثين والأربعين. ناضجة كثمرة مانجو في آب اللهّاب. وكانت تجيد نص دزينة لغات. وتحمل نص دزينة شهادات. وكانت مثل عصفور طليق، تحب أن ترقص وتغني وتشرب...

ـ شو باين حبيتها يا پروفسور؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك. وتستطيع أن تقول إنها أحبتني بدورها. لم يكن حباً عاصفاً. لم يكن حباً تاريخياً. كان أقرب ما يكون إلى الصبوة المؤقتة، كَرّشْ، كما يسميها أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان. أعرف أنك تعتقد أن ما حدث بيننا، وقد حدث بيننا ما لست أذكره، يخالف الأعراف الطبيّة، ولكن سو وت؟! قضينا معاً أياماً جميلة، وليالي أجمل. ونَجَحَتْ، عبر هذا الحلم الريودي جنيروي، أن تحرّرني من عقدة السجن. عن طريق القصص، غالباً. وكانت أروع هذه القصص قصتها هي عندما دخلت السجن...

ـ الطبيبة دخلت السجن؟!

ـ أيْ نعم! ولكنها لم تكن طبيبة عندما دخلت السجن. كانت فتاة في السابعة عشرة.

ـ ولشو دخلت السجن؟

ـ كانت تبيع مخدرات.

ـ شو؟ شو؟ شو؟

ـ دعني من شوشواتك! كانت يتيمة من عائلة فقيرة. وكان عمها يبيع المخدرات ويستعين بها لإيصال البضاعة إلى الزبائن. ثم قبض عليها البوليس. ودخلت السجن. وهناك قضت ٣ سنوات تعرضت خلالها للاغتصاب أكثر من ٧٠ مرّة.

ـ ٧٠ مرّة؟!

ـ كفّت عن العدّ بعد المرة السبعين. وهذا اغتصاب الرجال. الحرس. أما تحرّش السجينات فحدّث ولا حرج. خرجتْ من السجن محطمة نفسياً. لهذا، ربّما، قرّرت أن تدرس علم النفس. حسن حظّي قادني إلى أعظم خبيرة في العالم في علاج عقدة السجون. وأجمل خبيرة. مكّنتني دولورويس من أن أنظر إلى تجربة السجن بتجرّد، بدون مرارة، وبدون أن أشعر أني قدّيس أو بطل أو ضحيّة. فقدت رغبتي في الانتقام.

ـ هل من الممكن أن نعود، الآن، إلى برهان سرور؟

ـ حسناً! في ريو اتفقت مع برهان على كل التفاصيل، اتفقنا أن يكون حزب الإنطلاقة هو الطليعة. الطليعة فقط، ثم نفسح المجال لديمقراطية كاملة. أقسم لي على المصحف أنه لا يطمع في الحكم. لا لنفسه، ولا لحزبه. أقسم لي أنه سوف

تكون هناك انتخابات نزيهة. وأصرَّ على أن أكون بجانبه، على الأقل في بداية الثورة. حتى أضمن أن كل شيء سوف يتمّ حسب الاتفاق. ووعدته بذلك. ثم دفعت له ٥٠٠ مليون دولار، أخذها وانطلق يخطّط للثورة.

- نص مليار دولار؟!

- أي نعم! الثورات باهظة التكاليف، يانطاسي. هناك رواتب الكوادر. وثمن الأسلحة. والمخصصات التي تدفع للعمال المضربين. والمصاريف الإعلامية. ونفقات من كل نوع لا تخطر ببالك. في فترة أقل بكثير من الفترة التي توقّعناها، برهان سرور وأنا، بدأتْ أحداث الثورة في عربستان ٤٩. لعلّك تذكر كيف بدأت.

- معلوم.

- إذن، سوف أفذلك. كانت الشرارة مظاهرات صاخبة. تلتها إضرابات شلّت قطاعي الصناعة والتجارة. تلتها أحداث شغب. وأدّت أحداث الشغب إلى قمع دموي. وأدّى القمع الدموي إلى المزيد من المظاهرات والإضرابات وأحداث الشغب. وكان حزب الانطلاقة نشطاً. يحرّك الجماهير كما يحرّك المايسترو الفرقة. وكان برهان سرور في كل مكان. يخطط لكل صغيرة وكبيرة. وأثبت عبقرية نادرة في التنظيم والقيادة. بعد ٦ شهور من الاضطرابات اهتزّ النظام القائم. ثم هوى مثل سنديانة عجوز انقطعت الصلة بينها وبين جذورها. وانتصرت الثورة.

- وماذا عنك، يا بروفسور؟

- وفيت بوعدي. في الأسبوع الأول من انتصار الثورة وصلت إلى عربستان ٤٩ واستُقبلت استقبال الفاتحين. رفض برهان سرور رئاسة الدولة. ورفض أن يكون هناك مجلس قيادة. وأصرّ على ألاّ يتولّى أيّ منصب. وتمّت إنتخابات حرة أنتجت الجمعية التأسيسيّة الدستورية. وبدأت الجمعية تمارس المهمة الخطيرة الموكولة إليها، وضع الدستور. ورُكّزت الصلاحيات التنفيذية في مجلس الوزراء. وبناء على إصرار برهان سرور توليت أنا وزارة الشؤون الهامة. سبق أن حدثتك عن ذلك.

- حدثتني. ولكنك لم تخبرني ما هي الشؤون الهامة.

- حسناً! كانت هذه الوزارة من بنات أفكار برهان سرور. وما أكثر هؤلاء البنات! ضمّ جميع الوزارات التي تقدم خدمات عامة، من التعليم إلى الصحة إلى الإسكان إلى التموين، في وزارة واحدة تسمى وزارة الشؤون الهامة. قبلت المنصب على مضض. كانت أياماً لا تنسى، يا حكيم. كانت عربستان ٤٩ خليّة نحل لا

تهدأ. في كل مكان نشاط وحبور وتفاؤل بالمستقبل العظيم القادم. كانت الجميعة تناقش مواد الدستور، مادةً مادة. كان النقاش حراً ومثيراً. وكان حزب الإنطلاقة في الظلّ. أما برهان سرور فكان أشبه ما يكون بالشبح. كان بعيداً عن الأضواء. بعيداً عن العيون. إلا أنني كنت أقابله بصفة منتظمة. كان في أوج السعادة. كان يشعر أنه حقق حلم حياته بانتصار الثورة. وكان عازفاً عن كل المظاهر، يهرب من السلطة هروباً. ثم حدث لي ما حدث عندما انتقمت البيروقراطية مني وانفجر مُخي ٦٠ حتّة، واضطررت إلى السفر إلى أمريكا. حيث تمّ زرع مخ جديد لي عن طريق الكائنات الفضائية.

- حاجة يا بروفسور!

- صدّق أو لا تصدق! لم تكن المشكلة زرع المخّ. جاءت الكائنات الفضائية بمخّ من الفضاء الخارجي وزرعته وتقبّله الجسم. بدأت المشاكل بعد ذلك في أحلام اليقظة.

- أحلام اليقظة؟ شو قصدك؟

- قصدي أنني بدأت أفكّر أفكاراً عجيبة سرعان ما تتحول إلى حقيقة.

- شو قصدك؟ مش فهمان عليك.

- سوف أحكي لك كل شيء. بالتفصيل وبالتسلسل. بدأت أفكر في الانتقام من البيروقراطية. بغتة، رأيت نفسي وقد أصبحت ديكتاتوراً في بلد من بلدان الآي آي. والآي آي اصطلاح استخرعه يوسف إدريس وسمّى مجموعة من مجموعاته القصصية «لغة الآي الآي». والآي آي هي الصرخة التي ظل يوسف إدريس يردّدها منذ سمع بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، حتى مات رحمه الله. كان يوسف إدريس قصصياً موهوباً ولكنه كان يعاني من عقدة نوبل. وعقدة نوبل هي عقدة الخواجة في شكلها الأدبي. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني أصبحت ديكتاتوراً. وقررت الانتقام من البيروقراطية. اتخذت قرارين ديكتاتوريين تاريخيين. القرار الأول أن على كل بيروقراطي أن يتخلص من ٦٠ كلجم من وزنه خلال شهر واحد وإلاّ أُعدِمْ. إعتقدت، يا حكيم، أنني سأتخلّص من الكثيرين. تصوَّرت أنهم سيموتون من الجوع، أو النحافة المفاجئة. ولكن لم يحدث ما توقعته. بعد القرار بشهر جاء إنسان وألقى التحية العسكرية وقال: سيدي الديكتاتور! «كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ ∴ لولا مخاطبتي إياك لم ترني» قلت: «من أنت يا نحيل القوام؟!» قال: «نسيتني؟! أنا وزير التصفيات الدورية الدموية، سيّدي!».

تحسّنت صحّة اللعين تحسّناً ملحوظاً. ثم جاء إنسان آخر وأدّى التحية العسكرية، وقال: «سيدي الديكتاتور! «إنَّ في برديَّ جسماً ناحلاً .:. لو توكأت عليه لانهدم». قلت: «لا أنوي التّوكُّؤ عليك. من أنت يا غصن البان؟». قال: نسيتني؟! أنا وزير المحاكمات العادلة الدموية، سيّدي!». كل ما فعله القرار الأول هو أنه زاد نشاط البيروقراطيين بتخليصهم من السمنة والسكر والضغط.

ـ فظيع! والقرار الثاني؟

ـ آه! القرار الثاني كان تاريخياً بمعنى الكلمة. أمرت بالقبض على كل بيروقراطي مرتشٍ وإعدامه بعد محاكمة عادلة. تم القبض على نصف مليون مرتشٍ وحوكموا محاكمة عادلة وتقرر إعدامهم. ثم نشأت مشكلة فنية. كيف يمكن أن يتم إعدام نصف مليون في وجبة واحدة؟ عندها قررت تجفيف منطقة المستنقعات. إستدعيت خبراء البنك الدولي. درسوا المشروع وأعجبوا به وأطلقوا عليه اسم مشروع القرن. جاءنا المستثمرون من كل مكان، وجُفِّفت المستنقعات في فترة قياسية. بعد انتهاء المشروع جاءني وزير التصفيات الدورية الدموية الذي لم أره لولا مخاطبته إياي، وقال: «سيدي الديكتاتور! المكان الآن جاهز. ولكننا لا نستطيع إعدام نصف مليون بإستخدام الطرق التقليدية». قلت: «وماذا تقترح، يا ثور؟». قال: «الغازات السامة، سيدي». قلت: «أحسنت! سوف أحصل على إذن خاص من كبير البطارسة». كلّمت الأمم المتحدة وطلبت السكرتير العام. وقلت: «مرحباً دكتور بطرس باشا بطرس بطرس». قال مصحّحاً: «غالي!». قلت: «مرحباً دكتور غالي باشا غالي غالي». قال مصحّحاً: «بطرس!» قلت: «الوردة بأي اسم آخر لن تكون أقل شذاً، كما قال شكسبير. مرحباً سيادة السكرتير العمومي». قال مصحّحاً: «العام!» قلت: «أهلاً بسيادة السكرتير العام». قال: «وت كان آي دو فور يو؟». قلت: «سيدي كبير البطارسة! أرجو استصدار قرار من مجلس الأمن الأفخم يتضمن السماح لي باستخدام الغازات السامة لمرة واحدة فقط وذلك لإعدام نصف مليون بيروقراطي مرتشٍ». قال: «مون دو!! مون دو!! هذا يتعارض مع إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان». قلت: «الإنسان؟! هؤلاء حيوانات يا بطرس باشا. مجرد موظفين مرتشين». قال: «المرتشي إنسان يتمتع بكل حقوق الإنسان المرتشي، وفي مقدّمتها حقّه في تقاضي الرشوة». قلت: «حسناً! حسناً! إذن، دعني أستخدم الأسلحة البيولوجية. هذه لا تتعارض مع حقوق الإنسان. هذه مصمّمة خصيصاً لتتمشى مع بيولوجية الإنسان». قال: «عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء»، كما قال بيرم بيه بيرم التونسي». هنا، يا حكيم، غضبت وقلت:

«بيرم بيه بيرم التونسي لم يقل هذا. قال هذا الشعوبي السرسري أبو نواس». قال: «يعني إيه سرسري؟! أنت حاتخشّ لي قافية يا وَلْه يا ديكتاتور أنتَ يا وَلَه؟!». قلت: «أنا؟ أنا لا أقول إلا ما قال شوقي: «غالٍ في قيمة ابن بطرس غالِ.'. علم الله ليس في الحق غالي». ضحك السكرتير العام ضحكة رنانة، وقال: «شوقي باشا قال هذا عني؟! بالذمّة؟!». قلت: «لا يا عمي! قاله في سلفك الكريم». سمعت صوتاً في الطرف الآخر يقول: «إجري يا مادلين على مكتبة مدبولي وهاتي الشوقيات. فرّيرة!». صرخت: «سيدي كبير البطارسة! هل تسمح لي باستخدام الأسلحة البيولوجية؟». قال السكرتير العام بضيق شديد: «بيولوجية إيه يا جدع أنت؟! غال في قيمة ابن بطرس أحسن لك!». ثم أغلق الخطّ. عندها، يا حكيم، فكّرت في استخدام المبيدات البرتقالية التي كان أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان يستخدمونها في تدمير غابات ڤيتنام. خاطبت الجهات المختصّة، وتبيّن أن آخر ما لديها من هذه المواد تسرّب إلى زعيم الصرب في البوسنة. هاتفت زعيم الصرب في البوسنة، وهو طبيب نفسي مثلك وشرواك وشاعر مثلي وشرواي، وطلبت منه المساعدة. قال: «هل المجرمون مسلمون؟». قلت: «نعم. من أهل القبلة». قال: «سوف أرسل لك فوراً ٥٠,٠٠٠ مناضل صربي يغتصبونهم جنسياً». قلت: «سيّدي الطبيب النفسي الشاعر المناضل! هؤلاء رجال!» قال: «نحن متخصّصون في اغتصاب جميع المسلمين جنسياً، نساءً ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً، وأجنّةً في الأرحام». قلت: «للّه دركم! ودرّ النظام الدولي الجديد الذي أطلقكم من قمقمكم». قال: «وما القمقم؟». قلت: «نِڤرْ مايندْ! إعلمْ، سيدي الطبيب النفسي الشاعر المناضل، أن هؤلاء مرتشون أجلاف ولا أعتقد أن الاغتصاب الجنسي سوف يؤدّي إلى وفاتهم. أخشى ما أخشاه أن يوجد بينهم من يستمرىء العقوبة. أريد فِرَق الإعدام لو سمحت». قال: «أعطني مهلة أسبوع. فرق الإعدام مشغولة، الآن، بتصفية ١٠٠,٠٠٠ طفل مسلم». عندها يا طبيب، اتخذت قراراً تاريخياً جديداً. قررت أن أعدم المرتشين بنفسي، بيدي، واحداً واحداً. ألف مرتشٍ في اليوم وتنتهي الحفلة في ٥٠٠ يوم. أطلقت على المنطقة. «ساحة أم الإعدامات». أمرت بإعداد مركبتي المذهبة التي يجرها عشرة ضباط من رتبة فيلد مارشال ركن، وامتطيتها، وترجّلت في وسط الساحة. جاؤوا بالمرتشي الأول. قلت له: «ما هي أمنيتك الأخيرة قبل أن أطلق عليك الرصاص بنفسي، يا مرتشي»؟ قال: «أن يرفع عن عيني هذا الغطاء». قلت: «ليش، يا حمار؟!». قال: «ليكون آخر وجه أراه قبل موتي هو وجه حبيبي وسيدي وقائدي المظفر». الحقيقة، يا حكيم، أنني شعرت، على الفور، بشفقة هائلة، واغرورقت عيناي بالدموع، وأمرت بإطلاق

سراحه. المرتشي الثاني؟ «أمنيتي أن أقبل وجه حبيبي وسيدي وقائدي المظفر». الثالث؟ «أقبل رجله». الرابع! «أقبلّ ركبته». الخامس؟ «أقبلّ حذاءه». نتيجة لهذا التفاني العظيم في حبّي عفوت عنهم جميعاً وأمرت لكل منهم بوسام الرشوة الوطنية من الدرجة الثانية، وغيّرت اسم الساحة إلى «أم الأوسمة». سادت البلاد موجة فرح واحتفالات. لكي تعبّر البيروقراطية عن ولائها بدأت تطلق عليّ الألقاب.

- عفواً! الألقاب؟

- أي نعم! أطلقت عليّ ألف لقب ولقب. هل تريد أن تسمعها؟

- لا يا پروفسور. دخيلك!

- إذن، إسمع بعض الأمثلة. ندى الفجر. زئير العلياء. فجر الحكمة. ضحكة الأقحوانة. صوت السنوات الضوئية. وجه النار الآخر. برق اليقظة. نشيد الإنسان. دفاتر المطر. مجد الإعصار. دم القرنفل. همسة القدر. رائحة الأرض. نشيد الجمر. ورقة البهاء. سيف الوطيس. الخضرة الذكية. قيثارة الآلهة. لغة الحب. بطولة الأشياء. شؤبوب المكارِم. سلافة العصور. حديث النهر. سلطان الظلام. أنشودة الجذور. سويعات الأصيل. زمن الحب. حبّة البركة. رجوع الموجة. صانع الحب. الظل الكبير. إنتفاضة العصافير. نقطة الغليان. شجرة الكلام. أكسير الحياة. عودة الروح. مسك الغزال. نزيف الحجر. الظل الأسود. شجرة الحكم. مرآة الضمير. درب القمر. رشّة العطر. القائد...

- يكفي يا پروفسور! دخيلك!

- حسناً! حسناً! مع كل لقب جديد يضفى عليّ كنت أطرب وأنتشي، ويختفي كرهي للبيروقراطية. حتى حلّ محل الكره تعاطف بدأ خفيفاً واشتدّ. تصورت نفسي بيروقراطياً مسكيناً في بلاد الآي الآي. راتبي عشرة دولارت. ماذا تصنع عشرة دولارات، يا حكيم؟ أستحلفك بالله! تصوّرت نفسي موظفاً مسكيناً راتبه عشرة دولارات يعمل في إدارة المرور. يُفتح الباب ويدخل منه خنفس وسيم يقود سيارة شبح ثمنها ربع مليون دولار، ويضع في يده ساعة «كاراتييه» ثمنها ١٠٫٠٠٠ دولار، ويرتدي بدلة «بوس» ثمنها ٥٠٠٠ دولار. يفتح الباب، ويطلب مني إنهاء إجراءات سيارته الشبح. أتأمل وجهه المترف، وأقول: «سيدي الفتى المراهق الوسيم! لا شيء يسعدني أكثر من أن أنجز رخصة سيارتك الشبح. لتتمكّن من أن تفرح بشبابك وتبدّد جو الملل والكآبة الذي بدأ يؤثر على وجهك المليح. ولكن سيدي الفتى المراهق الوسيم، أنا موظف مشغول جداً وهناك قائمة انتظار

طويلة. راجعنا بعد شهرين». هنا، يا حكيم، يُخرج الفتى المراهق الوسيم علبة سجائر ويدخن بعصبية. وأغمز أنا لزميلي في المكتب. يتقدّم زميلي من الفتى المراهق الوسيم ويهمس في أذنه: «إدهن سيره». لا يفهم الفتى المقصود، ويسأل بحيرة: «أدهن سير السيارة؟ السيارة جديدة!». يشرح له الزميل المقصود. ويتم إصدار الرخصة. وأحصل على مائة دولار، ويحصل الزميل على ١٠٪ منها. مائة دولار من هنا، و٥٠ دولاراً من هناك، و٢٠ دولاراً من هنالك، وأتمكّن من البقاء على قيد الحياة. بدأت أكتشف، يا نطاسي، أن البيروقراطية مظلومة. البيروقراطية تريد أن تعيش. ولها أولاد يريدون حقائب مدرسية وثياباً صوفية ومصروف جيب. وأحذية وآيسكريم. والبيروقراطية تمرض وتصاب بالسرطان وأمراض القلب، والطبيب، مثلك وشرواك، يتقاضى أتعاباً باهظة ثم يرسلها إلى شريكه الصيدلي الذي يبيع حبة الدواء بنصف دولار. والبيروقراطية تريد، مثل غيرها، أن تتزوّج، والزواج يحتاج إلى مهر ومصاريف وحفلات وولائم وإلى شقة تُسْتَأْجر وتفرش. البيروقراطي مظلوم، يا حكيم. والناس لا يرحمون، لا حديث للناس إلاّ عن البيروقراطية. «كنت اليوم في الجمرك وطلبوا مني رشوة». سو وت؟! «البيروقراطي الفلاني بنى بيتاً» سو وت؟! البيت لساكنه! «البيروقراطي الفلاني سافر إلى مانيلا». سبحان الله! هل أصبح السفر إلى مانيلا وقفاً على السفلة والرعاع؟ لماذا لا نفترض حسن النية؟ لماذا لا نفترض أنه سافر إلى مانيلا لبحث حماية البيئة؟ التعاطف مع البيروقراطية أمر بسيط، يا نطاسي، ولكنني بدأت أشعر بالقلق عندما بدأ تعاطفي مع الديكتاتور. من حيث المبدأ.

ـ فظيع!

ـ صدقت! بدأت أشفق على الديكتاتور الذي يتعذب في سبيل الأمّة ولكنه يكتم آلامه ويتجلد للشامتين، يريهم أنه لريب الدهر لا يتضعضع. والناس لا يرحمون. أمَر الديكتاتور بتعذيب المساجين. قطع الله ألسنتكم أيها الناس! هل يعرف الناس المعاناة النفسية التي يحسّها الديكتاتور وهو يأمر بالتعذيب؟! هل يوجد إنسان يحب تعذيب نظرائه في الخلق؟! ولكن ضرورات الأمن فوق كل شيء. أسألك، يا طبيب، هل وجد ديكتاتور سعيد واحد في التاريخ؟! بعد هذا التعاطف، بدأ التقمص. بدأت أتقمّص شخصيات ديكتاتورية. تقمّصت الديكتاتور الفتى. الذي لم يدخل مدرسة في حياته. وصرت أجلس في الصحراء. وأتأمّل النجوم. وتنهال عليّ الفيوضات من أعظم العقول في التاريخ. هنا فكرة من أفلاطون. وهنا فكرة من الفارابي. وهنا فكرة من الشيخ الرئيس. وأصحو في الصباح، وأنشر كتباً

خضراء وزرقاء وقرمزية. يجتمع أقطاب الفكر لبحثها. ثم أقف أمام الجماهير، أخطب. وأعترف بصراحة مؤثرة: «كل ما عملته خطأ في خطأ. وغلط في غلط». وتهدر الجماهير إعجاباً. وتتساقط دموعي وتتناكح مع دموع الجماهير. ويقف أمامي أبو حسيد. وينشدني: «ترعرع الملك الأستاذ مكتهلاً ∴ قبل اكتهالِ. أديباً قبل تأديب. مُجرِّباً فهِماً.. من غير تجربة ∴ مهذَّباً كرماً.. من غير تهذيب. حتى أصاب من الدنيا نهايتها ∴ وهمّه في ابتداءاتِ وتشبيب». ثم أغادر جسم الديكتاتور الفتى. وأتقمّص جسم الديكتاتور الشيخ الفاني التقيّ النقيّ الطاهر الورع. الذي لا يسفك سوى الدم الحلال . دم المفسدين في الأرض والمنافقين. وأرى نفسي وقد نزلت من طائرة كافرة تحرسها طائرات كافرة، وأعلنت الجهاد على الكفر، فأصيب الكفر بالمغص الكلوي. وأرى نفسي أمام الجموع. الملايين! أوزّع البركات. وتسقط البركة على كل رأس. هذه البركة تشفي الصداع. وهذه البزكة تنعش التجارة. وهذه البركة تعجّل بالذرية. وأرى أبا حسيد يقف أمامي، ويقبّل الأرض، ثم يقبّل يدي، ثم ينشدني: «عدوّك مذموم بكل لسانِ ∴ ولو كان من أعدائك القمرانِ. ولله سِرٌ في علاك وإنما ∴ كلام العِدا ضربٌ من الهذيانِ. أتلتمسُ الأعداء بعد الذي رأت ∴ قيام دليل أو وضوح بيان؟. رأتْ كل من ينوي لك الغدر يُبتلى ∴ بغدرِ حياةٍ أو بغدر زمانِ. لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ∴ لعوقه شيءٌ عن الدوران». ثم أترك جسد هذا الديكتاتور المقدَّس وأتسلل عبر التاريخ إلى الحجّاج. آه! الحجّاج! ديكتاتوري المفضل! دعني أحدثك قليلاً عن الحجاج، يا نطاسي. ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف، كما كان عبد الملك بن مروان يسمّيه تحبّباً وتدليعاً. وتهديداً! ولا تسألني عن المقصود بهذه العبارة فالمقصود له دلالات جنسية. وهذه العبارة من الشعر الحرّ. بحر المتدارك. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن عبد الملك بن مروان هو أول من قال الشعر الحر. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا الحجّاج. الديكتاتور العصامي. الذي ولد بلا أست فثقبوا له استاً. تصور تقدم الجراحة في الطائف أيامها. صانع من صناع التاريخ. أحد أربعة لا يلحنون في جد أو هزل. تصوّر! حتى في هزل! «إذا دخل الحجّاج أرضاً مريضة: ∴ تتبع أقصى دائها فشفاها». الجرّاح الذي يؤمن بالجراحة الراديكالية. أعدم ١٢٠٫٠٠٠ إنسان، في سبيل توطيد هيبة الدولة. وكان في سجنه ٥٠٫٠٠٠ رجل و ٣٠٫٠٠٠ امرأة. أتصور نفسي، يا حكيم، وقد أصبحت الحجّاج. أحاول أن ألحن فلا أستطيع. وأضع كل يوم ألف خوان للناس. وآمر الخدم بحملي على محفة فإذا رأيت طباخاً لم يضع السكر على الأرزة أمرت بضربه ٢٠٠ سوط. ويزعجني الحشّ فآمر بمنعه نهائياً. والحش هو الجوسپ كما سبق أن

أخبرتك. وأقول في خطبة من خطبي المشهورة: «إياي وهذه الزرافات والجماعات. وقيل وقال وما تقول، وفيم أنتم ونحو هذا»؟! ثم أنزل من المحفة، ويدخل عليّ أبو حسيد، وينشدني: «بغيرك راعياً عبث الذئابُ ∴ وغيرك صارماً ثلم الضِرابُ. وتملك أنفسَ الثقلين طرّاً ∴ فكيف تحوز أنفسها كِلابُ. وما تركوك معصية. . ولكن ∴ يُعاف الورد. . والموت الشرابُ. طلبتهم على الأمواه حتى ∴ تخوّف أن تفتّشه السحاب». وتعجبني الفكرة. وأفكّر، جدّياً، في تفتيش السحاب. إلا أن الموت يسبقني. وأموت ويرثيني الشعراء، ومنهم الفرزدق الذي قال: «ليبْكِ على الحجاج من كان باكياً ∴ على الدين من مستوحش الليلِ خائفِ. وأرملة لما أتاها نعيه ∴ فجادت له بالواكفات الذوارفِ. وقالت لعبديها: «أنيخا فعجّلا ∴ فقد مات راعي ذودنا بالتنائفِ». فليت الأكف الدافنات ابن يوسف ∴ يقطّعن إذ يَحثِينَ فوق السقائف». ولا تستغرب يا طبيب، أن يتحدث الفرزدق عن أرملة مسكينة تملك عبدين غير الرواحل، فقد كان زمن الحجاج زمن العجائب. بعد موت الحجاج، أعني، بعد موتي، قررت أن المسألة تحتاج إلى علاج. أرسلت رسالة تيليباثية إلى زوجتي الفراشة التي أقبلت من الفضاء الخارجي في لحظة. فحصتني وأخبرتني أن المخ المزروع يحتاج إلى تثبيت. وتم التثبيت عن طريق المعاشرة الزوجية. وقد سبق أن ألمحت إلى أن معاشرة الفراشة لا تعتبر تجربة جسدية. بل تجربة مخيّة. أدّت إلى تثبيت المخّ المزروع. وزوال أحلام اليقظة الديكتاتورية والبيروقراطية. وعودتي إلى وضعي الطبيعي. ومما ساعد على إعادة الأمور إلى نصابها سارا لنكولن. . .

ـ مين؟!

ـ سارا، يا صديقي. اسمها الأول. واسمها عائلتها لنكولن التي ينطقها أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان لنكون. نعم! نعم! مثل لنكولن محرر العبيد. حقيقة الأمر، أنها كانت سليلة عبيد محُرّرين. أي أنها كانت زنجية. أي ملونة. أي سوداء. أي أفريكان/أمريكان. وقد تبنّتْ عائلتها اسم لنكولن من باب الإعجاب والتقدير. هل تعرف أن شبح لنكولن لا يزال يجوب البيت الأبيض؟ لا تعرف؟! كل رئيس سكن البيت الأبيض بعد مقتل لنكولن أقسم أنه شاهد شبح لنكولن. وكل رئيس دولة حلّ ضيفاً على البيت الأبيض. ومعظم الوقت لا يخرج الشبح من غرفة النوم المسمّاة بإسمه، أعني لنكولن، لا رئيس الدولة الضيف. كل هذه الأشياء مكتوبة ومعروفة. لم تسمع عنها؟! هذا ليس ذنبي. الأمريكان، الآن، يعتبرون لنكولن أعظم رؤسائهم على الإطلاق. أمّا في حياته فكانوا يكرهونه كره

العمى، يستوى في ذلك أهل الشمال وأهل الجنوب. لم يكن فيه أيامها، ما يدلّ على عظمة تاريخية. كان يُعيِّن قوّاداً عسكريين لا يفعلون شيئاً. فيعزلهم ويعين قوّاداً لا يفعلون شيئاً. وفي هذه الأثناء كان مشغولاً بتسديد ديون زوجته موللي. التي كانت مصابة بهوس من نوع غريب. وهو شراء ثياب ثمينة وعدم تسديد الحساب. وكان هذا يسبّب حرجاً شديداً لمحرّر العبيد. علاوة على الحرج الذي كان يقاسي منه بسبب رفض قوّاده العسكريين التحرك ضد الجنوبيين، حتى سحق الجنوبيون أنفسهم بأنفسهم...

- حاجة يا بروفسور!

- في كلامي مبالغة طفيفة. وأنا أؤمن أن المبالغات الطفيفة مثل البزار في الطعام. والبزار هو خليط من التوابل. ولكن المؤكد هو أن الحرب الأهلية استغرقت عدة سنين بسبب فشل لنكولن في قيادة المعركة وعجزه...

- حاجة يا بروفسور!

- أنا أحدّثك عن التاريخ كما حدث. أما أنت فلا تعرف سوى التاريخ الذي كُتِب. لم يكن في لنكولن ميزة سوى العناد. كانت هناك ميزة أخرى. كان يتمتع بموهبة البلاغة والفصاحة. ويطلق الأقوال المأثورة بمعدل قول مأثور في اليوم. ومن أشهر أقواله أنك تستطيع أن تخدع كل الناس...

- عفواً! يا بروفسور! أعرف ما قاله لنكولن.

- بالتأكيد! بالتأكيد! أحياناً، أنسى أنك أمريكي. ولا يمكن لأمريكي، صالحاً كان أو طالحاً، أن يتجنّب أقوال لنكولن المأثورة. ولكنها لم تصبح مأثورة إلاّ بعد اغتياله. حتّى خطابه الشهير في بيتسبيرج...

- عفواً، يا بروفسور! لا أود أن أسمع المزيد عن لنكولن.

- أنت وشأنك. الإصرار على الجهل ظاهرة شائعة. تستطيع أن تقول إنها ظاهرة متفشّية. ولكنها ليست جريمة تعاقب عليها القوانين.

- هل من الممكن أن نعود إلى سارا؟

- آه! سارا! سارا لنكولن! بكل سرور. ماذا تريد أن تعرف عنها؟

- حبّيتها؟!

- بكل تأكيد. وبكل اندفاع. وبكل حرقة. ولكنه كان حُبّاً من جانب واحد،

يا نطاسي. لا أستطيع أن أقول: «وكان ما كان مما لست أذكره». لأنه لم يحدث شيء. كان الأمر، من جانبها، مجرّد صداقة. أوه! لا تسىء فهمي. كنت أراها كل يوم. نقضي الساعات الطوال معاً. نتناول جميع الوجبات معاً. نسافر معاً. كانت، في الواقع سكرتيرتي.

- سكرتيرتك وما صار شي؟!

- ما هذه الملاحظة، يا أخا فرويد؟ هل أفهم منها أنه صار شيء بينك وبين كل فتاة عملت سكرتيرة لديك؟

- لا. مو هيك قصدي.

- هيك قصدك ونص! كانت سارا ممرضة في المستشفى. وتعرّفت عليها هناك. كانت في الخامسة والعشرين. جميلة إلى درجة لا تصدّق. قبلها، لم أكن أتصور أن بوسع امرأة سوداء أن تكون بهذا الجمال. أنا عنصري كما تعرف. ولكن عنصريتي متطوّرة. تتجاوز الألوان. عنصريتي تكره كل الألوان، وكل الأجناس، وكل الناس. وفيما يتعلق بالنساء، كنت من حزب الشقر. وهذا، بطبيعة الحال، حزب غير سياسي، يختلف عن حزب الخضر الذي يؤمن بالمحافظة على الأشجار والحيوانات، والذي ماتت مؤسّسته في ألمانيا منتحرة مع عشيقها. أعني بحزب الشقر حزب الشقراوات. واعلم أن الفقيه الأندلسي الأشهر ابن حزم كان يفضل الشقراوات. وشرح السبب في «طوق الحمامة»، فقال: «إني أحببتُ في صباي جارية لي شقراء اللون فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس، أو على صورة الحسن نفسه، وإنّي لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت». ولو على الشمس؟! أو صورة الحسن نفسه؟! هذا، إن سألتني، تطرّف من أبي محمد، رحمه الله. ولعلّه كان متأثراً بمعازيبه الخلفاء الأمويين في الأندلس الذين كانوا، والعهدة عليه، مجبولين على تفضيل الشقرة، «لا يختلف في ذلك منهم مختلف». والتطرّف ذميم حتى في حبّ الشقر. والتطرّف يوجد تطرّفاً مضاداً. وهذه هي الديلكتيكية التي اكتشفها هيجل السنة الفارطة. وقد أوجد التطرّف في حبّ الشقر حزب سود قويّاً وفعالاً. وكثير من الشعراء تغزلوا في اللون الأسود. حتّى أبو حسيد تغزّل في لون كافور فقال: «تفضح الشمس كلمّا ذرّت. الشمس بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ». وهذا بيت لئيم جداً، كما هو واضح. وتغزّل أمين نخلة في سوداء حسناء فأبدع. وقال ضمن ما قال: «ستّ! نحن العبيد في مجدك الأسود، أهل البياض نشقى ونسعدْ». وتعبير ستّ هنا ذروة الجمال. فقد جرت العادة على أن تقول الجارية السوداء لمولاتها البيضاء «ستي». فعكس أمين نخلة الآية. إلاّ أن

زعيم حزب السود، غير المنازع، هو الشاعر ابن سكّرة. ولا تسألني لماذا سُمّي بهذا الإسم فقد تكون أمه حلوة جداً. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنه كانت لابن سكّرة قينة سوداء تدعى خمرة. ونظم فيها الشاعر ١٠,٠٠٠ بيت بالتمام والكمال. وأنا أنقل هذه المعلومة السكّرية الخمرية عن أدونيس. وأدونيس أبخص مني ومنك. تستطيع أن تجد جملة صالحة من الغزل في السوداوات في كتابي: «الدر المنضود. في الغزل بالسود». وقد طبع أكثر من عشر مرات. تستكثر ذلك؟! ألا تعرف أن عدد الطبعات في عربستان لا يعني شيئاً؟ لا تعرف؟ حسناً! يطبع الواحد منا من كتابه ٤٠٠٠ نسخة ويكتب على ألف منها الطبعة الأولى، وعلى ألف الطبعة الثانية. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن سارا لنكولن كانت سوداء جميلة جداً، وأنني عشقتها من طرف واحد. وهذا أعنف أنواع الحب، كما سبق أن قلت لك. لم أعش في حياتي كلّها فترة مليئة بالحرمان مثل تلك الفترة. مليئة بالحرمان السعيد. أو السعادة المحرومة. أو الحرّسعادة. لا بُدّ أن هناك في أعماق كل إنسان حيواناً ماشوستياً يهوى أن يعذَّب. حقيقة الأمر، أنها لم تعذبني. كانت رقيقة كالنسيم، حانية كالأم، طيبة كالجدة. إلا أنها لم تحبني. وكانت صادقة كل الصدق معي. طلبت منها أن تستقيل من المستشفى عند خروجي، وتعمل سكرتيرة لي، ووافقت. كانت تقضي جلّ وقتها معي، ومع ذلك لم تشعر بأي رغبة جسدية نحوي. والحب بالكيف مو بالسيف، كما يقول ربعنا في خليجعربستان. ورامي الذي سبق أن حدثتك عنه يرى أن الشعر ليس له من مصدر سوى الحرمان. وسومرست موم كتب رواية شهيرة اسمها «عن العبودية البشرية». فيها وصف بديع لمعاناة العاشق من طرف واحد. ربمّا كان هذا ما دفعه، فيما بعد، الى الخيار الجنسي البديل. لم أكن أول المحرومين، ولن أكون آخرهم. في تلك الأيام، تذكرت عفراء وموضوع رسالتها، إبراهيم ناجي. أخبرتني عفراء أن ناجي لم يعش قصة حب متبادلة واحدة، وإن كان شعره قد يوحي بغير ذلك. والشعراء يكذبون كما سبق أن أخبرتك. ولكن المتمعن في شعر ناجي يدرك أن عفراء كانت على حق. نغمة الحرمان لا يمكن تخطئها أُذن. إسمع! «متى يرقّ الحظ يا قاسي ∴ ويلتقي المنسيُ والناسي؟». واسمع! «ظمأ على ظمأٍ على ظمأٍ ∴ وموارد كثر.. ولم أرِدِ». واسمع! «حان حرماني وناداني النذيرْ ∴ ما الذي أعددت لي قبل المسيرْ؟. زمني ضاع وما أنصفتني ∴ زاديَ الأول كالزاد الأخيرْ». وما أنصفتني تعني ما عبطتني. ما نعستَ معي. ما رحت معي على الفرشة. واسمع! «كل الورى يدّعون حبّكْ ∴ أنا الوحيد الذي أحبّكْ. صدرك فيه اضطرابُ شوقٍ ∴ يقرع قرع العباب جنبكْ. فكيف تخلي به مكاني ∴ وتسكن الغادرين قلبكْ؟» يكفي! إقرأ

رسالة عفراء إن شئت. أين توجد؟ في مخزن ما من مخازني. لا! لم تكمل عفراء الرسالة. كانت على وشك الانتهاء منها عندما حدث ما حدث. إلا أن ديوان ناجي في الأسواق. وكل حرف منه يطفح بالحرمان. أبو حسيد، بدوره، جرّب الحرمان وإن كان لم يعترف به إلاّ نادراً. إسمع! «يا وجه داهية الذي لولاك ما .·. أكل الضنى جسدي ورضَّ الأعظما. إن كان أغناها السلوّ فإنّني .·. أمسيتُ من كبدي ومنها معدما» وهذه من مبالغات أبي حسيد إياها. وهل يسمّي إنسان حبيبته «داهية» إلا إذا كان يريد الانتقام منها؟ وقد فعل جرير شيئاً مماثلاً عندما سمّى حبيبته «بوزع». فوبّخه، بحق، الخليفة الممدوح. هذا واعلم، يا نطاسي، أن الجميلات نادراً ما يحببن الشعراء. ولا القبيحات إن أردت الحقيقة. والسبب؟ الأسباب كثيرة. السبب الأول، والأهم، هو الشكل. أنظر إلى أشكال الشعراء، الأحياء منهم والأموات، أنظر إلى البرنس. أنظر إلى شاعر النيل. أنظر إلى شاعر القطرين. وتأمّل صور النجفي والرصافي والزهاوي وأبي فرات. نسخ معاصرة من الجاحظ. والسيّاب! يكفي أن تتذكر قوله: «. . فإن جميع من أحببتُ قبلك لم يحبوني». ومن يلومهنّ؟ وأمين نخلة كان شكله مش ولا بُدّ. والأخطل الصغير، الذي بخلت عليه الأقاحيّة السمراء، لم يكن أوسم العرب. ولا الياس أبو شبكة الذي كان يصرّ على تسمية أولغا غلواء، وهذا نوع من الغلوّ الشعري. وجبران كان يعتقد أنه وسيم، ولا يشاركه الرأي سوى الخواجايات العجائز، وميّ. والشعراء المهجريون، عموماً، يبدو الواحد منهم كما لو كان قد ولد عجوزاً. وبالنسبة للشعراء القدامى، الحال من بعضه. رأيت أبا حسيد بنفسك. نسخة من المليجي. والبحتري كان قذراً، فوق دمامته. وابن الرومي لم يكن مارلون براندو. وأبو العتاهية. حسناً! ماذا تتوقّع من رجل اسمه أبو العتاهية؟! ونفس الملاحظة تنطبق على شعراء الفرنجة. شكل الشيخ زبير يصدّ النفس. وشعراء أوربا المشاهير بين مسلول وأعرج ومجنون ومسفلس. وعندما يكون الشاعر نصف وسيم، مثل عمر بن أبي ربيعة في القدماء ونزار قباني في المحدثين، فالويل كل الويل للقراء. تصيب الشاعر عقدة نرجسية كُبْر البراحة. ابن أبي ربيعة زعم أنه لم توجد حاجّة حسناء لم تعشقه، وهذا بهتان عظيم. وابن قباني يزعم أن المرأة التي لم تعشقه لم تولد بعد. والسبب الثاني، يا نطاسي، هو أن الشعراء مشغولون بأنفسهم، والمرأة تحتاج إلى من ينشغل بها. المرأة تحتاج إلى من يركض وراءها طيلة الوقت، والشعراء يركضون وراء حوريات الشعر. وهناك سبب ثالث. يندر أن ترى شاعراً طبيعياً. أعني من الناحية النفسية. أرني شاعراً طبيعياً وسأريك شويعراً أو شعروراً. الشعراء الكبار جميعاً مهووسون، على نحو أو آخر. والسبب الرابع، يا أخا فرويد، هو أن معظم الشعراء بخلاء.

هذه ظاهرة معروفة لم يتطوّع بتفسيرها أحد. والمرأة تمقت الرجل البخيل. وهناك...

- عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن تعود إلى سارا؟

- بكل سرور! مذاق الحب من طرف واحد مذاق عجيب. حلو. مرّ. مدمّر. منعش. كل المتناقضات في شعور واحد. لا تستطيع أن تبقى. ولا تستطيع أن ترحل. لا تستطيع أن تنسى. ولا تريد أن تتذكر. لا تريد أن تفرض نفسك. وتعجز عن إنكار ما في نفسك. كانت أياماً غريبة. واجهت سارا الموقف بكل وضوح: «أنت تحبّني. وأنا أعتبرك أقرب صديق إلى قلبي وروحي. فليتمتّع كل منا بشعوره. ولنتمتّع بالحياة معاً». وتمتّعنا بالحياة. تزلّجنا على الثلوج في كولورادو. واصطدنا الأسماك في البهاماز. وأكلنا البامية بالجمبري ولعبنا...

- باميه بقريدس؟ شوها الأكلة؟

- هذه أكلة زنجية شهيرة. ولذيذة. ولكن عليك أن تذهب إلى لويزيانا لتجدها مطبوخة على أصولها. لم يبق شيء لم نفعله معاً، سارا وأنا، باستثناء الشيء الذي تفكّر فيه. كانت سعيدة معي. لا أدري ماذا كان سيحدث لو أنها أحبتني. كان مجرى حياتي سيتغيّر رأساً على عقب.

- وماذا حدث؟

- عدت إلى دنيا الواقع. في الحقيقة، كنت في كامل صحتي عندما غادرت المستشفى. بأعضاء جديدة لماعة. ومخ فضائي لَنج. ولَنج بالمصرية الدارجة تستخدم لوصف الشيء الجديد. ولا أدري من أين جاءت. ولا السدنة الخالدون يدرون. لم أكن بحاجة إلى نقاهة. ولكني بقيت سنة كاملة في أمريكا بعد خروجي من المستشفى بسبب سارا. ثم وصلتني برقية منحوسة. لا بارك الله فيها، ولا في من أرسلها. من فريد، وهو إسم حركي. وفريد زميل من زملاء برهان سرور. يطلب مني الحضور فوراً إلى عربستان ٤٩. البرقية لم تجيء من فريد مباشرة، لأنه كان في السجن. وإنما من وحيد، وهذا بدوره إسم حركي، وهو صديق لفريد استلم منه الرسالة، وأبرق بها إليّ. غريبة! فريد ووحيد! فريد الأطرش، في كل أفلامه تقريباً، يسمّي نفسه وحيد. عقدة الوحدة؟ عقدة التفرّد؟ الله أعلم! يغلب على الظن أن الذي اختار الأسماء الحركية كان من أنصار فريد الأطرش. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أني رتّبتُ لسارا عملاً مناسباً في شركة من شركاتي. دون أن تعرف أني أملك الشركة. قضت معي قرابة سنة ونصف دون أن

تعرف أنها بصحبة رجل من أثرى أثرياء العالم. وأعتقد أنها لو عرفت لما أثّر هذا عليها كثيراً أو قليلاً. لم يكن راتبها عندما عملت معي يزيد عن الرواتب المعتادة. ولا راتبها، فيما بعد، في الشركة. ولم تقبل أي هدية مني إلاً بعد ضغط شديد. وبشرط أن تكون الهدية رمزية. والأمور في الهدايا نسبية. وهدية الرجل الثريّ الرمزية تفوق هدية الرجل الفقير غير الرمزية. كانت سارا امرأة قنوعاً جداً. ودّعتني بقبلة. قبلة حقيقية. القبلة الحقيقية الأولى والأخيرة. لا تذكّرني الآن! «يا حبّذا المتحمّلون.. وحبّذا .·. وادٍ لثمتُ به الغزالة كاعبا» أبو حسيد! بيت من قصيدته الدينارية. وقد سُمّيت الدينارية لأنه نال عليها ديناراً واحداً فقط لا غير. يا بلاش! بعد ذلك أصبح يتوقّع ولايات. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني ودعت سارا ولم أرها منذ ذلك الحين.

- ورجعت إلى عربستان ٤٩؟

- رجعت، يا عمي، رجعت. وليتني لم أرجع. ولكن إذا وقعت يا فصيح لا تصيح. غبت أقلّ من سنتين، ووجدت أن كل شيء تغيّر. بدأنا، كالعادة، من المطار. لا تقل لي إن التاريخ يعيد نفسه. لا تقل لي تكرّر ما حدث مع صلاح الدين المنصور. التاريخ لا يعيد نفسه. أبداً! أبداً! ولم يتكرّر ما حدث مع المنصور. كانت الأمور مختلفة تماماً. لم أذهب إلى عربستان ٤٩ بدعوة رسمية. ولا ذهبت في طائرتي الخاصة. ذهبت مسافراً عادياً، بتأشيرة سياحية، على طائرة تجارية. المفاجأة الأولى كانت في المطار. لا! لم تكن اسم المطار. اسم المطار لم يتغيّر. كانت المفاجأة التمثال الهائل المنتصب في كل قاعة من قاعات المطار. برهان سرور، يمدّ ذراعيه وكأنه، شخصياً، يحتضن كل القادمين إلى عربستان ٤٩. التمثال بحجم تمثال رمسيس الذي يطلّ على باب الحديد في القاهرة. المفاجأة الثانية كانت في الشوارع. الجداريات! سمعت عن الجداريات، يا نطاسي؟ لم تسمع؟ أحسن لك! رأيت الجداريات، لأول مرة، في شوارع عربستان ٤٩. الجداريّة، يا حكيم، هي صورة عملاقة تغطي الجدار بأكمله، جدار العمارة لا جدار الغرفة. ومن هنا جاء الإسم. صورة بحجم العمارة. على كل عمارة. لا حول ولا قوة إلا بالله! ماذا حدث للرجل؟ ماذا حدث للبلاد؟ ماذا حدث للناس؟ وصلت إلى الفندق في طاكسي. لا! لم يكن إسم الفندق برهان سرور. كان اسمه فندق المجد. إسم مجيد. على مكتب الإستقبال وجدت رسالة مكتوبة تفيدني أن السيد الأمين العام يدعوني تلك الليلة على العشاء. سألت موظف الاستقبال بشيء من الدهشة: «السيد الأمين العام؟!». أشار الموظف بخشوع إلى التمثال الهائل الذي يتوسّط بهو الفندق. برهان

سرور! بعد دقائق من وصولي، زارني وحيد. وشرح لي ما حدث خلال غيابي. حُلّتْ الجمعية التأسيسية الدستورية. شُكّل مجلس قيادة كل أعضائه من حزب الإنطلاقة. أصبح برهان سرور رئيس الدولة ووزير الدفاع ووزير الداخلية ووزير الخارجية. وتحوّل الحزب إلى نسخة من الحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي أيام عنفوانه. نسخة أكثر نهماً وشراسة وتحكماً. حُظر العمل السياسي خارج حزب الإنطلاقة. واكتظت السجون. إنبثقت الجداريات من كل جدار، ونمت التماثيل في كل ميدان. أعدم الآلاف. ساد الرعب. عندما انتهى وحيد من كلامه كنت أرتجف. يا الله! هل هذا معقول؟ هل حدث هذا كله في أقلّ من سنتين؟ الشاب الوديع يأمر بالإعدامات الجماعية؟! والراهب الهارب من السلطة يطالعك من الصباح إلى المساء وإذا غفوت سلّت عليك سيوفه الأحلام؟!

ـ وشفت برهان سرور؟

ـ شفته، يا عمي، شفته. ويفدح حريشها شوفة! عفواً! لا! لا! لا! لا تتوقع أن أحدثك عن قصور كقصور صلاح الدين المنصور. ولا استراحات صحراوية وبحرية ورعوية. حقيقة الأمر، أن برهان سرور استقبلني في منزله الصغير القديم الذي أعرفه. كانت هناك إجراءات أمن مشدّدة. وكان الحرس يحتلون المنازل المجاورة. إلا أن المنزل، نفسه، لم يتغيّر. وبرهان سرور، نفسه، لم يتغيّر. وجدته كما تركته، تماماً. وبدأ الأمل يدبّ إلى نفسي. أقنعت نفسي أنني كنت واهماً. توهّمت التماثيل والجداريات وحكايات وحيد. إستقبلني برهان على باب المنزل، وعانقني بحرارة. وقادني إلى غرفة الجلوس المتواضعة التي لم يتغيّر فيها شيء. حتى صورة والده ووالدته. في مكانها القديم. وعليها نفس الغبار القديم. بدأ الحديث عفوياً، كما يبدأ الحديث بين الأصحاب القدامى. لم ينزعج عندما قلت له: «يا برهان!». وكانت هذه علامة إيجابية. أخبرني أنه اشتاق إليّ كثيراً. وأنّه كان يتابع أخباري الصحيّة أولاً بأول. وقال إنه يعتب عليّ لأني عدت دون أن أخبره. قلت: «من الواضح أنك عرفت». إبتسم ولم يعلّق. وأضاف أن وظيفتي القديمة ما زالت تحت تصرفي. ثم جاءت زوجته، ماجدة، وحيّتني بحرارة. وذهبنا إلى غرفة الطعام الضيّقة. نفس الطاولة المتآكلة. نفس الأكلات الشعبية. قال برهان: «أصرّت ماجدة على أن تطبخ لك بنفسها». بدأت أشعر بشيء من الدوار. هل هذا الرجل البسيط الذي يسكن هذا المنزل البسيط، ويأكل معي هذا الطعام البسيط الذي طبخته زوجته البسيطة لي بيديها، هو نفس الرجل الذي تنتصب تماثيله وجدارياته المرعبة في كل مكان؟ هل أنا في عالم الحقيقة؟ أو عالم الخيال؟ أو عالم المثال؟ وعالم

المثال من استخراع محي الدين بن عربي. ولا تدخلنا فيه الآن. لو دخلنا لن نخرج. بعد العشاء، أخذت أسأل برهان، وأخذ يجيب. وبخلاف صلاح الدين المنصور، لم يغضب أو ينفعل أو يطلق عليّ النار. قلت: «يا برهان! إسمح لي أن أتحدث معك بمنتهى الصراحة». قال: «يا بروفسور! لا تتصوّر كم يسعدني هذا. أستطيع، الآن، أن أجد إنساناً يصارحني. كل من يكلمني لا يقول إلا «أنا!» «أنا!»، «أنا!». أو «أنت!». «أنت!»، «أنت!»». واعلم، يا حكيم، أن كتاب «فلسفة الثورة» الذي فلفسه صديقي هيكل لصديقي جمال عبد الناصر يحتوي على شيء مماثل. يقول الريّس إن كل إنسان يقابله يقول له: «أنا!» «أنا!»، «أنا!». إلا أن برهان سرور أضاف إليها: «أنت!». «أنت!». «أنت!». وهذه فاتت صديقي هيكل. فلعلّه يستدرك في طبعة قادمة. قلت: «يا برهان! الحقيقة، أنني أعيش في صدمة. تركت البلاد في حال، ورجعت فوجدتها في حال آخر. تركتك أنت في وضع، ورجعت فوجدتك في وضع جديد». إبتسم برهان سرور ابتسامة طفولية أضاءت ملامح وجهه، وقال: «صحيح! صحيح! حدثت تغييرات كثيرة. معظمها حدث رغماً عني. كلها، إذا أردت الدقة، حدثت رغماً عني. لماذا لا نأخذ هذه التغييرات واحدة واحدة؟». قلت: «حسناً! فلنبدأ بالجمعية التأسيسيّة الدستورية». قال: «نبدأ بها. كان قرار حلّها صعباً، يا بروفسور. ولكن لم يكن هناك خيار. قضت الجمعية سنة، سنة كاملة، في بحث ٥ مواد من الدستور. أقسم لك بالله! قضتْ شهرين تناقش الاسم الجديد للدولة، ولم تصل إلى قرار. قضت شهرين تبحث تصميم العلم الجديد، ولم تصل إلى قرار. نحن في سباق مع الزمن، يا بروفسور. سباق لا يرحم. إسرائيل تزداد قوّة كل لحظة، وترسانتها الذرية تتضخّم كل يوم. وحلفاء إسرائيل يتربصون بنا من كل جهة. والنظام البائد لم يلفظ كل أنفاسه. والجمعية بعد سنة كاملة من النقاش المستمر تنتج ٥ مواد فقط. وكلّها من مقدمة الدستور، لا صلبه. حاولت المستحيل مع الأعضاء. حاولت الإقناع. حاولت الضغط. توسّلت. ناشدت. باءت كل جهودي بالفشل. في النهاية، اضطررت إلى أن أقول لهم ما قاله كروموبل لأعضاء البرلمان: «لقد جلستم...» وهنا قاطعته: «أعرف يا برهان، تماماً، ما قال كروموبل...»

ـ عفواً يا بروفسور! ماذا قال كروموبل؟

ـ كروموبل، يا طبيب، كما تعرف هو الذي قاد الصراع باسم البرلمان ضد الملك في الحرب الأهلية الإنجليزية التي انتهت بإعدام الملك في القرن السابع عشر. عندما استقر لكروموبل الحكم، لم يتعاون البرلمان. لم ينجز المشروعات التي

كان يريد إنجازها. فزار الأعضاء، أثناء انعقاد البرلمان، زيارة غير وديّة وقال لهم: «لقد جلستم هنا وقتاً طال دون أن تنتجوا شيئاً. أقول لكم: دعونا نتخلّص منكم. إنصرفوا، بحق الله!». وانصرفوا. وكرومويل، يا حكيم، شخصية غريبة. رفض أن يصبح الملك رغم أن العرش عرض عليه. واكتفى بلقب «السيد الحامي». وبعد موته...

ـ عفواً، يا پروفسور، هل من الممكن أن نعود إلى برهان سرور؟

ـ نعود! قلت له: «حسناً! هذا عن الجمعية، ماذا عن مجلس القيادة؟ لماذا غيّرت رأيك؟». عبرت بوجه برهان سرور سحابة من الألم تقلصت منها أساريره. ثم زالت، وقال: «قرار صعب آخر. بعد حلّ الجميعة، نشأ فراغ دستوري. تذكر، يا پروفسور، أننا قرّرنا، في بداية الثورة، إعتبار مجلس الوزراء السلطة الشرعية وذلك بصفة مؤقّتة حتى ينتهي الدستور الذي تعدّه الجمعية؟ تذكر؟ طبعاً! بحلّ الجمعية فقد مجلس الوزراء أساسه الدستوزي. فقد شرعيته. كان لا بد من ملء الفراغ. الطبيعة تكرهه الفراغ؛ والسياسة تكرهه أكثر». قلت: «حسناً! ولكن لماذا جاء مجلس القيادة من حزب الإنطلاقة؟». إبتسم برهان سرور ابتسامة عذبة، وقال: «قرار صعب ثالث! عرضت على قادة الأحزاب الأخرى أن يساهموا في مجلس القيادة ولكنهم رفضوا. كانوا محتجّين على حلّ الجمعية. رجوت. تضرّعت. بكيت! ولكنهم أصرّوا على موقفهم. لم يكن هناك أيّ خيار. حزب الانطلاقة كان الحزب الوحيد الذي تفهّم الظروف القاهرة وطبيعة المرحلة الدقيقة. ورضي بحمل المسؤولية الثقيلة». قلت: «حسناً! وماذا عنك أنت يا برهان؟». إبتسم ابتسامة كبيرة نابعة من أعمق الأعماق، وقال: «ماذا عني؟». قلت: «ما هذه المناصب التي تشغلها الآن؟». قال ببساطة: «أيّ مناصب؟». قلت: «رئيس الجمهورية. ووزير الدفاع. ووزير الداخلية. ووزير الخارجية». إتسعت ابتسامة برهان سرور، وقال: «لا يوجد عندي سوى منصب واحد، الأمين العام لحزب الإنطلاقة. وهذا هو موقعي القديم، كما تعرف جيّداً». قلت: «أعرف هذا. ماذا عن المناصب الأخرى؟». قال على الفور: «مجرد شكليات. شكليات مؤقّتة. أنت تذكر، يا پروفسور، أننا اتفقنا، في بداية الثورة، على أن يتولى أكبر أعضاء مجلس الوزراء سنّاً رئاسة الدولة، بصفة مؤقتة، حتى تنتهي الترتيبات الدستورية. مع اختفاء مجلس الوزراء، لم يعد هناك رئيس للدولة. وتذمّر الخبراء الدستوريون. فراغ دستوري في القمة. لمن يقدّم السفراء أوراق اعتمادهم؟ من يتبادل برقيات التهنئة مع رؤساء الدول الأخرى؟ من الذي يقوم بكل المراسم المرتبطة برئاسة الدولة؟ رشحتُ أكثر

من زميل. ولم يقبل أحد. في النهاية، قبلت على مضض. وبشرط مكتوب. وهو أن تنتهي رئاستي في اليوم الذي يبدأ فيه عمل الترتيبات الدستورية. وفي هذا اليوم نفسه يزول مجلس القيادة». قلت: «وماذا عن المناصب الأخرى؟». قال: «وزارة الدفاع؟ أنت تعرف رأيي في الضباط. هل من المعقول أن أترك وزارة الدفاع لضابط؟ هل تريد أن تتكرّر مأساة عربستان ٤٨؟ حقيقة الأمر، يا پروفسور، أنها كادت تتكرّر. بمجرد نجاح الثورة بدأ الضباط يتصرّفون وكأنهم سادة النظام الجديد. نسوا أن هذه ثورة حقيقية، صنعها الشعب الخالد. لم يكن ما كان انقلاباً. بدأت مظاهر انحراف رهيبة في القوّات المسلّحة. كلّ ضابط يتصرّف وكأنّه يملك البلاد والعباد. حتّى أصغر الضبّاط. ثم صدّق الضباط ماتوهّموه. بدأوا التآمر للقفز على السلطة. كان لا بُدّ من تصرف سريع. وقررت أن أتولى وزارة الدفاع، مؤقّتاً، لإعادة الأمور إلى نصابها. وبالفعل، سُرِّح الضباط المتآمرون وانتهت الفتنة. والقوات المسلحة اليوم في مكانها الصحيح، في خدمة المواطنين». قلت: «ووزارة الداخلية؟» قال: «تذكر صديقنا المشترك صلاح الدين المنصور؟ بمجرد نجاح ثورتنا، أخذ يتآمر عليها بشكل سافر. ونجح في جعل عملائه يتغلغلون في أجهزة الأمن، والإستخبارات، بشكل خاص. وأنت تعرف أن هذا الحيوان استخباري من الدرجة الأولى. فوجئتُ بوزارة الداخلية هنا وقد تحوّلت إلى طابور خامس. الجهاز الذي يحمي أمن المواطن أصبح خطراً على المواطن. قررّت أن أضع حداً لهذا العدوان. وتوليت وزارة الداخلية، مؤقتاً، لوأد الخطر في في مهده. وبالفعل طُهّر الجهاز تطهيراً كاملاً. في خلال أسابيع سوف يُعيِّن وزير للداخلية، وأرتاح من هذا العبء. أنا بشر كبقية الناس، يا پروفسور، ولي طاقة محدودة». قلت: «ووزارة الخارجية؟». ضحك برهان سرور ضحكة ترقرقت كالماء في نافورة، وقال: «غداً يصدر قرار بتعيين وزير خارجية. قبلت هذا التكليف خلال الشهور الماضية حتى تمَّ العثور على شخص موثوق في كفاءته وإخلاصه. وعثرنا عليه». قلت: «عفواً، يا برهان، هذه النقطة حسّاسة بعض الشيء. ماذا عن كل هذه الجداريّات والتماثيل؟ هذه صيغة قبيحة من عبادة الفرد. ألا تذكر كم كنا ننتقد صلاح الدين المنصور عندما بدأ يتصرّف كما لو كان من طينة غير طينة البشر العاديين؟». لفّت وجه برهان سرور غمامة عميقة من الألم وبدأ صوته يتهدج: «آه يا پروفسور! آه يا پروفسور! السلطة! لعن الله السلطة يا پروفسور! السلطة تفسد، يا پروفسور. وقد أفسدت السلطة عدداً من أعضاء حزب الإنطلاقة. أخذوا يتصرّفون وكأنّهم هم الثورة. والثورة، كما تعرف، هي ثورة الشعب العظيم المبدع. ثورة كل رجل وكل أمرأة، كل طفل وكل شيخ. ثورة كل مواطن. ولم نكن نحن سوى الطليعة. قلت

لأعضاء الحزب، مراراً وتكراراً، إن دورنا ينتهي عندما يمارس الشعب صلاحياته عن طريق الترتيبات الدستورية الدائمة. ولكن ماذا تفعل بالطبيعة البشرية؟ انشغلت عن الحزب قليلاً بمهامّي المؤقتة في إدارة الدولة فحدث التسيّب. لا يستطيع الواحد من أعضاء الحزب أن يقيم تمثالاً له، ولكنه يستطيع أن يقيم تمثالاً لي. ليحكم هو عن طريق التمثال. الكهنة والأوثان! والوثن آخر من يعلم! قبل أن يتنبّه أحد، وبالتأكيد قبل أن أتنبّه أنا، انتشرت التماثيل والجداريات في كل مكان. إكتشفت أن هناك خليّة كبيرة في الحزب شُكّلت، دون علمي، لهذا الغرض. وأقامت خلايا، بدون علمي، في كل مدينة وقرية. هل تعرف ماذا فعلت عندما لاحظت ما يدور؟ وضعت أعضاء هذه الخلايا في السجن. ولا يزالون هناك. وشكّلت لجنة هدفها الوحيد إزالة التماثيل والجداريات. رأت اللجنة أن يتم هذا بشكل تدريجي ومُبرمَج حتى لا تتصور الجماهير أنّ انقلاباً أودى بالثورة». وهنا توقّف برهان سرور عن الكلام، وأخذ ملفّاً كان بجانبه، واختار منه ورقة قدّمها إليّ وهو يقول: «اقرأ يا بروفسور!». بدأت القراءة، ولكنه أضاف: «إقرأ بصوت مرتفع». قرأت: «تقرير إلى السيّد الأمين العام من اللجنة المكلّفة بإزالة التماثيل والجداريات. يسرّ اللجنة أن ترفع تقريرها الثالث إلى سيادتكم ويسرّها الإفادة أنه تمّ خلال الشهر المنصرم إزالة ٧ تماثيل، وإنزال ٤٥ جدارية في مختلف المحافظات. وتتوقع اللجنة أن تنتهي من مهمتها خلال ٦ شهور من الآن». قلت: «عظيم! عظيم! أحسنت، يا برهان! ماذا عن الأشياء الأخرى؟». نظر إليّ باهتمام بالغ، وقال: «أيّ أشياء؟». قلت: «حظر الأحزاب. السجناء السياسيون. الإعدامات». ابتسم برهان سرور ابتسامة ساحرة مضيئة كالنهار، وقال: «لم يكن هناك حظر. أعطيْت الأحزاب فرصة لتطهير كوادرها من العملاء والانتهازيين. أعطي كل حزب مهلة سنة يمارس فيها التنقية الذاتية، ثم يعود إلى ساحة العمل السياسي». قلت: «والسجناء السياسيون؟». قال: «لا يكادون يذكرون. قِلّة قليلة من عملاء إسرائيل. وعملاء صلاح الدين المنصور. وعملاء عربستان ٥٠. وثلة من أيتام العهد البائد». قلت: «والإعدامات؟» قال: «لم يعدم سوى جواسيس إسرائيل الذين اعترفوا بإرادتهم الحرّة». قلت: «كم عددهم؟». قال وملامح وجهه تفيض بالصدق: «لا أذكر العدد الآن. غداً سوف يكون العدد عندك. والأسماء». قلت: «حسناً! متى تنتهي الفترة المؤقتة؟ متى تبدأ الترتيبات الدستورية الدائمة؟». قال: «سؤال ممتاز! هذا مربط الفرس! أنا أعمل، ليل نهار، لتقصير الفترة الانتقالية. خلال سنة من الآن، تبدأ الانتخابات لجمعية تأسيسية دستورية جديدة. وسوف تعطى هذه الجمعية مهلة سنة، سنة واحدة فقط، لإنجاز الدستور الدائم. عندما

تزورنا بعد سنتين من الآن ستجدني مواطناً عادياً إختفى في الجموع. آه، يا بروفسور، كم أتطلّع إلى ذلك اليوم. أترقّبه كما يترقّب السجين يوم الخلاص. وعلى ذكر السجين، هل تذكر أيامنا في المنتزه؟ كانت أياماً حلوة، رغم قسوتها. أياماً مثيرة. أياماً صنعت التاريخ. آه، يا بروفسور! هل تعتقد أنني سعيد بوضعي الراهن؟ هل يوجد إنسان عاقل يسعد بأعباء كهذه؟ أنا أنتظر يوم الفرج على أحرّ من الجمر. يوم العودة إلى أحضان الشعب المعلّم القائد». صمت برهان سرور فترة قصيرة، ثم أستأنف الكلام: «حسناً، يا بروفسور! يبدو أنك استمعت إلى جانب واحد من القصّة. إستمع، الآن، إلى الجانب الآخر. خلال الفترة القصيرة التي ابتُليتُ فيها بمصيبة السلطة، تمكّن الشعب من تحقيق منجزات ثورية يستغرق الوصول إليها، عادة، عشرات السنين. سوف أروي لك جزءاً بسيطاً منها. أولاً، أصدرنا تشريعاً بحد أدنى للأجور. بهذا التشريع ينتهي تاريخ طويل من إذلال العمّال وتجويعهم. ثانياً، أممّنا شركات الفوسفات والمنجنيز والألومنيوم وهي جميعاً ملك إحتكارات رأسمالية دولية. ثالثاً، أممّنا الشركة السباعية التي كانت تمصّ خيرات البلاد وتمجّها في البنوك السويسرية. رابعاً: بدأنا مفاوضات جادة، توشك أن تنتهي، لتزويد الجيش بأحدث الأسلحة استعداداً للمواجهة الحاسمة مع الكيان اللقيط. خامساً، بدأنا مشروع «مكتبة لكل بيت». في خلال ٣ سنوات سوف يكون في كل بيت، أكرّر كل بيت، مكتبة تحتوي على أمهات الكتب، على نفقة الدولة. سادساً، شكلنا «كتائب الأمل». وهذه الكتائب هي جيش مدني يجنّد الشباب الذين لا تنطبق عليهم شروط الخدمة العسكرية ولا يجدون العمل المناسب، ويوجههم إلى العمل التطوّعي. بعد الآن، لن تجد في شوارع عربستان ٤٩ متسكعاً واحداً أو عاطلاً واحداً أو مائعاً واحداً يغازل الفتيات. ستجد الشباب في مواقع العمل الإنساني في الملاجىء والمستشفيات. سابعاً، أطلقنا شعار «لا بيروقراطية بعد اليوم»، وشكلنا وزارة تتفرغ لملاحقة الروتين البيروقراطي وإزالته. سوف نكون أول دولة في التاريخ تتقلّم براثن البيروقراطية. ثامناً، أنشأنا «جامعة الفكر»، وهي أول مؤسسة تعليمية في الأمة العربية تعلم الجيل الصاعد مناهج التفكير الحرّ المنقّى من شوائب التبعية والعمالة والغزو الثقافي. تاسعاً، شكلنا أول جمعية لحقوق الإنسان في العالم العربي. بمجرّد أن تستكمل هذه الجمعية إجراءات تأسيسها فسوف تكون عيناً ساهرة تضمن حق كل مواطن في الحرية والكرامة الإنسانية. عاشراً، أنشأنا جهازاً خاصاً...». وهنا قاطعته: «يا برهان! هذه مشاريع رائعة ورائدة. مشاريع جبّارة. ألا تخشى أن تضطرك متابعتها إلى البقاء في السلطة فترة أطول من الفترة الإنتقالية؟». هزّ برهان سرور رأسه بعنف، وقال: «مستحيل! مستحيل! كل هذه

منجزات الشعب. والشعب لا يحتاج إلى وصاية مني. أو من غيري». في هذه الأثناء دخلت ماجدة ومعها ولداها المراهقان، غاضب ومقدام، وابنتها الصغيرة إباء. بصوت واحد، قال برهان وماجدة: «سلّموا على عمّو!». سلّم الأولاد، وانتهى الحوار السياسي، وبدأ حوار عن الدراسة والمناهج والهوايات. استأذنت، وودعني برهان سرور إلى باب السيارة، وقال: «لا بُدّ أن تبقى عتدنا بغض الوقت لتحكم على ما يدور بنفسك. ولنستفيد بآرائك». قلت: «لا أستطيع البقاء أكثر من أسبوع. أعمالي التجارية تتطلب حضوري». ضحك برهان سرور وقال: «ذكرتني! متى نريد أن نسدّد القرض؟». قلت: «سامحك الله يا برهان! لم يكن قرضاً. كان مساهمة متواضعة في الثورة المجيدة». نظر برهان في وجهي، والتقت عيناي بعينيه، وشد على يدي بقوّة، وهمس: «لن أنسى فضلك أبداً». كانت هذه آخر عبارة أسمعها من برهان سرور قبل أن يختفي وجهه، وتتحرّك السيّارة.

ـ وصدقت هاالحكي يا پروفسور؟ تجليط في تجليط!

ـ طوّل بالك، يا حكيم، طوّل بالك. «أنت فاكرني هندي؟»، كما قال صديقي جمال عبد الناصر لصديقه نهرو خلال زيارة الأخير الرسمية لمصر، وقد ادّعى صديقي هيكل أنه سمع العبارة بنفسه، ولكنه لم يُسجّلها في أي من كتبه التي تترجم إلى ٩٩ لغة حتى لا يُتّهم باللاهندية. تسألني هل صدّقت ما قاله برهان سرور؟ إعلم، يا أخا فرويد، أن للحمق درجات فصّلها الثعالبي النيسابوري. إذا كان بالإنسان أدنى حمق وأهونه فهو أبله. فإذا زاد ما به من ذلك وانضاف إليه عدم الرفق في أموره فهو أخرق. فإذا كان فيه تسرّع وفي قدّه طول فهو أهوج. فإذا لم يكن ذا رأي فهو مأفون ومأفوك. فإذا كان عقله يحتاج إلى أن يُرقّع فهو رقيع. فإذا زاد على ذلك، فهو مرقعان ومرقعانة. فإذا زاد حمقه عن ذلك فهو بوهة وعباماء ويهفوف. فإذا اشتد حمقه فهو خنفع وهمّقع وهلباجه وعفنجج. فإذا كان مشبعاً حمقاً فهو عفيك ولفيك. لا بُدّ، يا نطاسي، أن أكون عفيكاً لفيكاً لأصدّق حرفاً واحداً مما قاله برهان سرور. رجعت إلى الفندق وكلماته «لن أنسى فضلك أبداً» ترن في أذني، وتسبّب لي القشعريرة. قررت أن أسافر في اليوم التالي. لا مكان لي في هذا المكان المرعب. مع هذا الكائن المرعب. نمت. حوالى الثالثة صباحاً كان هناك قرع خفيف لا يكاد يُسمع على باب الغرفة. صوّرت لي نرجسيّتي المتقرّحة أنها سائحة حسناء رأتني في الطيّارة وتبعتني إلى الغرفة. قمت بالبيجامة، وفتحت الباب، وعلى وجهي ابتسامة واسعة سرعان ما تلاشت عندما وجدت أمامي ٦ أشخاص، يكاد الواحد منهم أن يكون نسخة من الآخر. وكلّ منهم نسخة من برهان سرور. خفق

قلبي بشدة! زوّار السَحَرْ! وهذا التعبير من استخراعي ويطبّق على من يستخدمه، بدون إذني، الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة. لبست ثيابي، وأخذت حقيبتي، ومشيت مع زوّار السحر. لم يقولوا شيئاً، حتّى «تفضل معانا!». ولم أقل أنا شيئاً، حتّى «إلى أين؟». مضينا إلى حافلة وجدت فيها ٦ نسخ أخرى من برهان سرور. طاف ببالي، وقتها، أن برهان سرور قدّر قوتي الجسدية فوق قدرها عندما أرسل لي دزينة كاملة من رجاله المتشابهين. كما طاف ببالي أن برهان سرور لم يكن وسيماً كما كنت أعتقد. رأيت صوره؟! بلا شك! لا يوجد إنسان لم يرها. بالمقاييس المعتادة، يعتبر رجلاً وسيماً. ولكنني حين رأيت النسخ المتشابهة بدأت أكتشف سمات قبح لم ألاحظها من قبل. العينان أضيق ممّا تصورت. والشفتان مزرقّتان. والأسنان مدبّبة بعض الشيء. إنطلقت بنا الحافلة، وهذه ترجمة موفقة للأوتوبيس ولا أدري هل جاءت من السدنة الخالدين أم من صديقي هيكل، عبر شوارع العاصمة الثورية التي كانت تتثاءب وتفتح أجفانها لترحب بفجر جديد من كتائب الأمل ولا بيروقراطية بعد اليوم. طالت الرحلة. ٣ ساعات زايد قاصر...

- عفواً، شو يعني زايد قاصر؟

- يعني بالتقريب. مور أور لس. خرجنا من العاصمة وانتقلنا إلى مدينة أخرى أصغر. لا! لم تكن عيناي معصوبتين. ولا كانت يداي مقيّدتين. ولا كان الرجال المتشابهون وقحين. كانوا في غاية التهذيب. قدموا لي ساندوتشات بيض. وسكبوا لي شايا فاتراً من ترمس. وعرضوا عليّ السجائر. وتبادلوا الحديث معي عن جو الرياضة وآخر الأفلام. وقفنا، في النهاية، عند مبنى أبيض كبير ذكّرني تصميمه بمدارس الثانوية. عرفت، فيما بعد، أنه كان، بالفعل مدرسة ثانوية قبل أن يتحوّل إلى سجن. والسجن، كما يعرف حضرة جنابك، تهذيب وإصلاح. وهل يختلف مبنى السجن من مبنى المدرسة للتهذيب والإصلاح؟ قادني الرجال المتشابهون إلى مبنى السجن الذي كان، هو الآخر، نسخة من برهان سرور. هل فكّرت في صحة نظرية التشابه؟ لم تفكّر؟ حسناً! الكلب بعد سنوات طويلة من العيش مع صاحبه يبدأ في تقليد ملامح صاحبه، حتى يصبح شبيهاً به. والزوجة بعد قضاء نصف قرن مع الزوج تصبح في شكله تقريباً. ظاهرة معروفة. لم أقل إنها ظاهرة علمية؛ قلت إنها ظاهرة معروفة. مجرد مقولة. والإعجاب إذا تجاوز حدّاً معيّناً يجعل المعجب شبيهاً بالمعجب به. لاحظت هذا بنفسي. أثناء علاقتي بسوبر بدأ لوني الأسمر يصبح فاتحاً. وأثناء علاقتي بدولوريس بدأ لوني يصبح بنيّاً. في فترة هيامي بعنترة كان لون بشرتي يسودّ. لو كان الحب متبادلاً لأصبحت في لون عنترة أو لون كافور

الذي يسميه أبو حسيد أبا الكلونياء. سبق أن حدثتك عن السقمصة. الإسقاط والتقمّص. من الممكن أن تصبح إنساناً آخر عن طريق السقمصة. ومن الممكن أن تشبه إنساناً آخر عن طريق السقمصة. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن مدير السجن رحب بي قائلاً: «أهلاً يا پروفسور! سمعت عنك الكثير. كان بودي أن نلتقي في ظروف أفضل وفي مكان غير هذا المكان». قلت: «سي لا ڤيه». قال: «شنو يعني؟!». قلت: «كلمة يستخدمها الفرنساويون. تعني هذا شأن الحياة. أو دنيا، كما يقول المصريون». قال وعلى وجهه حيرة واضحة: «أشدخّل الفرنساويين والمصريين في القضية؟». قلت: «أيّ قضيّة؟!». قال: «ما أدري!». قلت: «ولا أنا». قال: «زين! المسألة تحقيقات بسيطة. تعود بعدها إلى الفندق مُعززاً مكرّماً. خصّصنا لك أفضل غرفة لدينا. وزودّناها بكل وسائل الراحة. حمّام خاص. ومكيّف. ومكتبة». قلت: «لن أنسى فضلك أبداً». قال: «أشْقَصْدك؟». قلت: «أقصد شكرك على هذه التسهيلات». قال: «العفو! العفو!». ذهبنا إلى الغرفة وكانت، كما قال المدير، مريحة. تكاد تكون غرفة في فندق بنجمتين. وهناك، بالفعل، رفّ مكتظ بالكتب. بدأت أستعرضها، وفوجئت أنها، كلّها من تأليف برهان سرور. أكثر من ٥٠ كتاباً. قرأت العناوين. «ديمقراطية لا أتوقراطية». «الثورة وشروط النهضة». «الحرية أولاً، والحرية أخيراً». «سيبقى الشعب سيّدي». «ترتيلة للجماهير». «لعينيك يا أمتي». «الحب الثوري». «المكتبة: خط الدفاع الأول». «كتائب الأمل: الحلم الوردي». «إسرائيل: ذئب من ورق». «في البداية كانت الكرامة». «لا قضبان بعد اليوم». «الحرية قبل الخبز». وعناوين رائعة من هذا النوع. قلت لنفسي: «لله درّ أبي غاضب! متى وجد الوقت لتأليف هذه الكتب؟. هكذا، وإلاّ فلا، يكون التفاني في خدمة الشعب». تُرِكتُ يومَيْن كاملين بلا مضايقة. كان الطعام يأتي في مواعيده. وكان شهيّاً جداً. كأنّه من طبخ ماجدة. في اليوم الثالث، بدأ التحقيق. حقيقة الأمر، أنه لم يكن تحقيقاً. كان محاولة مستمرة لإقناعي بالتوقيع على اعتراف جاهز، ممنتج ومُدبلج ومدبّج ومؤدلج. جاءني رجل لم أره من قبل، يشبه بدوره، برهان سرور، وقال: «سيدي البروفسور! لا تضيّع وقتنا ولا وقتك. وقّع. واسترح. وأرحنا. الإعتراف لا يتضمّن سوى الحقيقة». قلت: «ولكن ما هي الحقيقة؟»، كما قال بيلاطس ومضى دون أن يسمع الجواب، طبقاً لرواية فرنسيس بيكون». قال: «منهو بيلاطس؟!». قلت: «الوالي الروماني الذي حكم...». قاطعني: «اشدخّل الرومان بالقضيّة؟». قلت: «آسف! بماذا تريد أن أعترف؟». قال: «أنت تعرف صلاح الدين المنصور؟». قلت: «نعم». قال: «وسبق أن تعاونت معه؟». قلت: «نعم». قال:

«ولك علاقة بالسي. آي. ايه؟». قلت: «علاقة أفلاطونية». قال: «منهو أفلاطون؟». قلت: «رئيس السي. آي. ايه السابق». قال: «سابق لاحق. كلو واحد! لك علاقة؟». قلت: «نعم». قال: «إذن لا توجد أي مشكلة. الإعتراف يقول إنك تآمرت مع السي. آي. إيه. ومع صلاح الدين المنصور للإطاحة بالنظام الثوري في عربستان ٤٩ واغتيال السيد الأمين العام». قلت لمستجوبي: «الإسم الكريم؟». قال: «جبّار». قلت: «إسمع يا أخ جبّار. أنا الذي خطّطت للنظام الثوري في عربستان ٤٩، وأنا الذي أوصلت السيد الأمين العام المحكم». قال جبّار: «الله يقطع سوالفك! أفهم من هذا أنك لا تنوي التوقيع؟». قلت: «فهمك صحيح». قال: «سوف تتعبنا. وتتعب نفسك». قلت: «تعبكم راحة». قال: «يصير خير». حسناً! صار خير! بدأت الأمور تسوء بشكل تدريجي منهجي. كل يوم أنقل إلى غرفة أسوأ من سابقتها وكل يوم يجيء جبّار، وأرفض توقيع الإعتراف. بعد أسبوع من التنقل في الغرف جاء جبّار ومعه شخص يشبه، بدوره، برهان سرور، ويرتدي روباً كأرواب الأطباء، مثلك وشرواك. قال جبّار: «سيّدي البروفسور! هذه آخر فرصة لك قبل أن نشبك الوايرات».

- عفواً، يا پروفسور! شو يعني نشبك الوايرات؟

- نشبك تعني نوصل. والوايرات هي أسلاك الكهرباء.

- العمى! العمى! تعذيب بالكهرباء؟!

- صدقت! قلت: «إشبك يا جبّار!». أتى الشخص ذو الروب الأبيض بسلك يشبه سلك الرزراز، ووضع طرفه الأوّل في المكبس الكهربائي، والطرف الثاني في... حسناً! في عضو حساس. شعرت بنفس الشعور الذي انتابني مع الصدمة الكهربائية. نفس الشعور تماماً! لحظات ثم أغمي عليّ. عندما أفقت كان جبّار ينظر إليّ، وهو يبتسم ويردد: «شكراً يا پروفسور! شكراً!». قلت: «لا شكر على واجب. ماذا فعلت؟». قال: «وقعّت. وأرحتنا وأرحت نفسك». قلت: «متى؟». قال: «قبل أن تنام». قلت: «والآن؟». قال: «يصير خيْر». وصار خيراً في الغد، يا نطاسي، فُوجئت بثلاثة أشخاص لا يشبهون برهان سرور، ويرتدون أرواباً سوداء عليها أوسمة لامعة، وعلى رؤوسهم قبّعات كهنوتية، يملأون الغرفة الضيّقة، ويقفون أمامي، ويبتسمون بوداعة. أخرج الأوسط، الذي يبدو أنه رئيسهم، ورقة من جيبه، وبدأ يقرأ: «حكمت محكمة أمن الدولة الاستثنائية المشكّلة بأمرِ هاتفيّ من السيّد الأمين العام حضورياً بإعدام المتهم بشّار الغول، الشهير بالپروفسور، بعد أن ثبت للمحكمة باعتراف المتهم الاختياري أنه تآمر على حياة

السيّد الأمين العام وعلى النظام الثوري وذلك بالإشتراك مع منظمة السي. آي. إيه. الأمبريالية ومع العميل الصهيوني صلاح الدين المنصور، وصدّق السيد الأمين العام هاتفياً على الحكم، وسيتمّ تنفيذ الحكم شنقاً في فناء سجن الزوال فجر يوم الخميس الموافق...».

- شو؟ شو؟ شو؟ حكموا بإعدامك؟!

- حكموا بإعدامي!

- مش معقول!

- معقول ونصّ!

- وأعدموك؟!

- منيحة يا دكتور.

- شو صار؟

- بعد أن خرجت محكمة أمن الدولة الإستثنائية الهاتفية، دخل عليّ رجل صبوح وقور، في منتصف الثلاثينات، تزيّن وجهه لحية سوداء جميلة، وتطفح ملامحه بالرضا. سلّم علي، وقال: «أنا أخوك ضياء المهتدي. سجين مثلك. محكوم عليه بالإعدام مثلك. ولكن الجماعة يستغلون كوني طالباً من طلبة العلوم الشرعية ويطلبون مني قضاء بعض الوقت مع المحكوم عليهم بالإعدام». قلت: «بادرة حضارية مشرقة. ومتى سيعدمونك أنت؟». قال: «لم يصادق برهان سرور على إعدامي بعد. ولم يتحدّد الموعد». قلت: «صدق أبو فرات: «والله لو كان خيراً أبطأت بُرُدُ». أهلاً وسهلاً بفضيلة الشيخ». قال: «لا داعي للألقاب». قلت: «أهلاً وسهلاً بك يا أخي ضياء». قال: «أحدّثك أو تحدّثني؟». قلت: «حدثني بحديث وإن رغم أنف أبي ذر». قال: «حُبّاً وكرامة! قال أبو ذر رضي الله عنه: أتيت النبيَّ صلّى الله عليه وسلم، وهو نائم، عليه ثوب أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلستُ إليه، فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلاّ دخل الجنّة». قلتُ: «وإن زنى وإن سرق؟». قال: «وإن زنى وإن سرق». ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر». قال فخرج أبو ذرّ وهو يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر»» قلت: «وأنا أشهد الله وملائكته وأشهدك يا أخي ضياء أني أقول لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله مؤمناً صادقاً، وأرجو أن أموت على ذلك». قال ضياء المهتدي: «آمين». قلت: «حدثني يا أخي ضياء عن الرجل الذي اختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب». قال: «نعم!

عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض. فُدلّ على راهب، فأتاه، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة، فقال لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل من توبة؟ قال: «نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟، إنطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها أناساً يعبدون الله عزّ وجلّ، فاعبد الله تعالى معهم، ولا ترجعْ إلى أرضك فإنها أرض سوء». فانطلق حتَّى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: «جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله عز وجلّ». وقالت ملائكة العذاب: «إنه لم يعمل خيراً قط». فأتاهم ملك في صورة آدمي. فجعلوه بينهم فقال: «قيسوا ما بين الأرضينْ فإلى أيتهما كان أدنى فهو له». فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة. وجاء في رواية: فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي». قلت: «إني، والله!، لأرجو من الله الخير الكثير». قال ضياء المهتدي: «أحسنت! عن جابر، رضي الله عنه، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو محسن بالله الظنّ». قلت: «حدثني، يا أخي ضياء، حديث المؤمن الذي يحبّ الله لقاءه». قال: «نعم! عن شريح بن هاني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّ الله عليه وسلم: «من أحبّ لقاء الله أحبّ اللّه لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه». قال: «فأتيت عائشة فقلت: «يا أمّ المؤمنين! سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله صلّ الله عليه وسلم حديثاً إذا كان كذلك فقد هلكنا» فقالت: «إن الهالك من هلك بقول رسول الله صلى اللّه عليه وسلم، وما ذاك؟». قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». وليس أحد منا إلاّ وهو يكره الموت. فقالت: «قد قاله رسول الله صلّ الله عليه وسلم وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشنّجت الأصابع، فعند ذلك من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلت: «أشهد الله وملائكته وأشهدك يا أخي ضياء أني أحبّ لقاء الله عزّ وجلّ على كل حال». قال: «هل أعددت وصيتك؟». قلت: «حال الجريض دون القريض». قال: «سمعت أن لديك ثروة لا بأس بها». إبتسمت، وقلت: «لا بأس بها». قال: «ماذا تنوي أن تفعل بها؟». قلت: «لا أدري. لم أكن أتصوّر أن تسير الأمور بهذا الشكل». قال: « لا تقلق. لا أظن أن حكم الإعدام سينفذ». قلت: «تعني أن برهان سرور سيغير رأيه؟». قال: «هذا

الكلب المسعور؟! أعتقد أنه ينوي حضور الإعدام. ولا أستبعد أن يتولّى الشنق بنفسه». قلت: «ماذا تقصد إذن؟». قال: «لديّ شعور داخلي، وشعوري الداخلي قلما يخيب، أنك ستنجو». إستمرّ حواري مع الشيخ بقية النهار. وتبينّ أنه يحمل الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة هامبورج. وأنه عاش في أوربا وأمريكا ردحاً من الزمن. وأنه أسّس حزب النور في عربستان ٥٠. وانتشرت فروع الحزب في كل مكان. وتكاثر الأعضاء بسرعة هائلة. قال إنه جاء إلى عربستان ٤٩ أثناء انتخابات الجميعة التأسيسية ليشرف على نشاط الحزب هنا بنفسه. وأخبرني أن برهان سرور تعاون معه في البداية. ثم أودعه السجن مع بقية زعماء الأحزاب. وكان ما كان. جاءني في صبيحة اليوم التالي وقال: «لم أكن أعرف أنك تحمل درجة الدكتوراة في الفقه». قلت بتواضع مصطنع: «شهادة مغمورة من جامعة مغمورة». قال: «لا ينتهي عجبي من رجل رزقه الله حظّاً من الفقه يتعاون مع أعداء الله». قلت: «ماذا تقصد يا أخي ضياء؟». قال: «لا توجد أسرار تحت الشمس. أنت الذي ساعدت برهان سرور على الوصول إلى الحكم. وقبلها ساعدت صلاح الدين المنصور. ودفعت لكل منهما مبالغ خيالية. أليس هذا صحيحاً؟». قلت: «هذا صحيح». قال: «كيف تثق في إنسان لا يخاف الله؟». قلت: «كلّ بني آدم خطّاؤون». قال: «لا أتكلم عن الذنوب العادية. صلاح الدين زنديق». قلت: «أقسم بالله أني لم أكن أعرف. كان يصلي ويصوم». قال: «وبرهان سرور أعظم زندقة. تستطيع اعتبار برهان سرور ملحداً». قلت: «يا أخي ضياء! أنا لا أحكم على ضمائر الناس. ولا أستطيع أن أشقّ عن صدورهم». قال: «ومن يتحدّث عن الضمائر والصدور؟ أنا أتحدث عن الأعمال الظاهرة السافرة. برهان سرور يحاول، جاهداً، أن يلغي شريعة الله ويستبدل بها قانوناً من صنعه». قلت: «لم يكن هذا اتفاقي معه. أقسم لي على المصحف». قال: «ما لكافر عهد ولا يمين». قلت: «لا يعلم الغيب إلا الله». قال: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلها. متى نتعلم؟ إلى متى نكرر الخطأ؟ إلى متى نستمر في التجارب وكأننا في معمل مليء بالفئران؟ العقائد المستوردة فشلت. المذاهب الإلحادية سقطت. متى نتعلّم؟» قلت: «أرجو أن أكون قد تعلمت». قال: «أرجو أن نلتقي ثانية». قلت: «تقصد في الدار الآخرة؟!». قال: «نلتقي في الجنة. ولكنّي أعني لقاء أقرب، في الحياة الدنيا». قلت: «ولكنّي سأشنق في الغد فجراً». قال: «رأيت رؤيا طيّبة. رأيتك تخرج من السجن سليماً معافى». قلت: «بشرك الله بالخير». تعانقنا بحرارة، وخرج. أويت إلى فراشي الذي تحوّل، في هذه المرحلة، إلى حصير. كنت أتصوّر أن عيني لن تذوق الغمض في ليلة فجرها الموت. إلا أنني استغرقت في نوم عميق

طويل. صحوت، بغتة، على يد تهزني بعنف: «قم! قم! قم!». فتحت عيني فإذا بزوجتي الجنية دفايّة أمامي. قلت: «دفايّة! ماذا تفعلين هنا؟!». قالت: «لا وقت للكلام. هيا معي». سحبتني من يدي، وفي تلك اللحظة دخل برهان سرور الغرفة أو ربما دخلها رجل من رجاله المتشابهين. إلتقت عينانا لمحة، وقلت له: «لن أنسى فضلك أبداً»، قبل أن أحس بنفسي أخترق الجدار مع دفاية. أغمي عليّ، أو عدت إلى النوم العميق بمجرد أن خرجنا من الجدار. عندما أفقت، وجدت شهاب بن شهاب ينظر إليّ ضاحكاً، ويقول: «الحمد لله على السلامة يا صهري العزيز. كدت تذهب وطي». قضيتُ عدة أيام في عالم الجن في الراحة والاستجمام. ذات صباح استدعاني صهري وقال: «يا شيخ شمل بني خضير! لدينا قول مأثور نتناقله جيلاً بعد جيل. وهو قول فيه كثير من الحكمة». قلت: «ما هو يا جناب الخاقان؟». قال: «الزراعة للفلاحين؛ والدراسة للطلبة؛ والتجارة للتجار؛ والسياسة للحكّام». قلت: «هذا، والله!، هو الصواب». قال: «إذن، فدع السياسة واقنع بالتجارة». قلت: «هذا ما أنوي أن أفعله. بمجرّد أن تأذن لي بالرجوع». قال: «تمنَّ عليّ قبل أن تذهب». قلت: «سيدي الخاقان! أتمنى أن تكثر حاسديّ بزورة إلى عبقر لأشاهد شياطين الشعراء، وأتحدّث عن تجربتي في المحافل الدولية». نادى الخاقان مدير البروپاجنداء وقال: «يا شعلة! خذ صهري في جولة سياحية في عبقر. ولكن احذر الإقتراب من فاخذ». امتطينا منطاداً من مناطيد الخاقان وطرنا حتى حططنا في هيثرو عبقر. هناك، رأيت موظفاً تبدو عليه علامات الطيبة والصلاح. قلت لشعلة الذكاء المتّقدة: «هذا الزول يتبعني في كل مكان». قال شعلة: «دعه لي». قال الزول: «هل عند هذا الإنسي ڤيزاء معتبرة؟». ردّ عليه شعلة: «العصافير لا تطلب تأشيرة دخول». قال الزول: «وهل هذا عصفور؟ هذا شحط». قال شعلة: «هذا عصفور ابتلى بمرض الفيل». قال الزول: «لا حول ولا قوة إلا بالله! حسبت ورمه شحماً». ثم التفت إليّ وقال: «عظني!». قلت: «من لم تفده عبراً أيامه ∴ كان العمى أولى به من الهدى. ومن لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ∴ راح به الواعظ يوماً أو غدا». قال: «صدقت!» قلت: «وأنت فعظني!». قال: «إحذر أن تقترب من صخرة طانيوس. ولا تدع النجوم تحاكم القمر. ولا ترضع طفل الرمال». قلت: «سأذكر هذا ولا أنساه». قال شعلة: «ما شأنكما؟». قلت: «ينصحني وأنصحه. ويعود كل منا إلى سالف عهده». مضينا في سيارة رينج روڤر حتى وصلنا إلى عبقر، حيّ شياطين الشعراء السكني. وجدت هناك شوارع خضراء، وميادين نظيفة، تتفرّع منها شوارع أخرى خضراء، تقوم على جانبيها بيوت شياطين الشعراء، وأمام كل بيت حديقة واسعة. تذكّرت، على

الفور، بيوت كبار الموظّفين في أرامكو. وقفنا أمام البيت الأول فرأيت شيطاناً يرتدي بيجامة قرمزية، وروب دي شامبر فستقيّاً، ويدخن سيجاراً هولندياً. قال مدير البروپاجنداء: «هذا حادث محدث المحداث، شيطان أدونيس. تعال يا حادث! سلّم على البروفسور». قال حادث: «أنشدك أو تنشدني؟». قلت: «أنشدك ثم تنشدني». قال: «هات!». قلت: «قصيدة الثابت والمتحوّل: قال الثابت للمتحول: «أثبت!». قال المتحوّل: «تحول!». قال الثابت: «النجوم لا تتنفس شعراً». قال المتحوّل: «الكينونة جزء من الصيرورة». قال الثابت: «الزهور لا تقتل الغزلان». قال المتحوّل: «الإمعان في الذات إعنات». قال الثابت: «ابتهال المباخر شجرة». قال المتحول: «أن تحيا هو ألا تحيا». صرخ حادث: «أحسنت! زدني!». قلت: «أنشدني أنت». قال: «يا صدمة الحداثة اصدميني .·. ودغدغيني ثم جَمْشيني. إياك والبكاء في الأطلالِ .·. فإنها من سمة الأرذالِ. وحاذري الوقوع في التقليد .·. فإنها من صفة العبيدِ. ثوري وثوري ثم ثوري ثوري .·. وزمّري في الشعر بالزمورِ. وفجّري عليهم هذي اللُغَهْ .·. حتى تصير لغة مُتَلِغَه. ثم يتمّ النصر للحداثة .·. سَويَة يا صاح! ـ أو ملتاثه». قلت لشعلة: «إنصرف بنا عن هذا الحادث المُحدث». إنتقلنا إلي البيت الثاني فوجدنا في الحديقة شيطاناً يرتدي عباءة من جلد النساء، ويركض بين أهرام من الحلمات، ويقف كل دقيقة. زيزعق: «هل تسمعون صهيل أحزاني؟». فتتعالى الصرخات من كل مكان: «نعم! نعم! وطّي الصوت!». ما إن رآني الشيطان الراكض حتى هجم عليّ وهو يصيح: «أيا جملاً من الصحراء لم يلجُم!.. ويا من يأكل الجدريّ منك الوجه والمعصم». قلت: «ما هذا التورنيدو يا شعلة؟!». قال شعلة: «هذا هو الشيطان الذي حذّر جناب الخاقان من الإقتراب منه. هذا فاخذ رديفان النهيدان». قلت: «شيطان نزار قباني؟». قال شعلة: «كيف عرفت؟». قلت: «من بغضه للأعراب. شنشنة نعهدها فيه. وفي أخزم. وفي هيكل». قال شعلة: «وزير البروپاجنداء؟ زميلي؟». قلت: «ما غيره». ثم التفتُ إلى فاخذ، وقلت: «أنشدني يا شاعر المَرَهْ!». قال: «متى تفْهم؟ متى يا سيّدي تَفْهم؟ بأني لست واحدة كغيري من عشيقاتك». قلت: «يا شعلة! ما لهذا الذكر لا يتحدث إلا باسم الأنثى؟». قال شعلة: «دعْ ذا وأنشدْه من شعرك». قلت: «عرقٌ.. عرقٌ. وعدوَّتها .·. معها.. ولتموز هياجْ. والباب تصرّ مفاصلُه .·. ويصرصر فيه المزلاجُ. يا أختي! لا! لا تضطربي .·. إني لك بيتٌ وكراجُ. نحن إمرأتان لنا قِممٌ .·. لكن يتعذّر إيلاجُ. أحرامٌ أختاهُ إذا ما .·. لثم الكورتاجَ. الكورتاجُ؟!» ضحك شعلة، وصرخ فاخذ: «آخ! آخ! طاخ! طاخ! أبو جهل اشترى فليت ستريت وجاء يشتري عبقر فري هولد. هذه، يا مجدور!،

قصيدتي أنا. قصيدتي الشرّيرة المشهورة الممنوعة حتى في بارات سوهو». قلت: «وقع السوتيان على السوتيان!». همّ فاخذ، عندها، بعضّي لولا أن شعلة حذره: «تذكّر، يا فاخذ، أن هذا قريب الخاقان». قال فاخذ: «من شعراء السلطة الخصيان؟». قال شعلة: «تحسا وتهبا! من شعراء السلطة الفحول. هذا صهر الخاقان». تركنا فاخذ يواصل ركضه، وانطلقنا إلى البيت المجاور، فإذا بنا أمام شيطان يرتدي توجا رومانية، ويضع على رأسه إكليلاً من الغار شبيهاً بالغار الذي قال فيه البرنس لكليوباترا على لسان أنطونيو: «ردّي على هامتي الغار الذي سُلبتْ .·. فقبلةٌ منك تعلوها هي الغارُ». قال شعلة: «أقدّم لك ڤينيس لاتينوس الافنيقوس». قلت: «ذكرتني، يا شعلة، بلخبوطة أبي حسيد: «هذي! برزت لنا فهجت رسيسا». هل هذا صاحب سعيد عقل؟». قال شعلة: «أوف كورس!». قلت للشيطان: «أنشدني يا ڤينيس لاتينوس الافنيقوس!» قال: «بل تنشدني أنت!». قلت: «حُبّاً وكرامة! يو، ذا بوت، آند توسْيلْ، آند توسيْلْ. آه ما أجمل يا مدموزيلْ! إن ذي إيڤننج اللي اسمه هنا ليلْ. اللي اسمه هنا ليلْ. آه ما أجمل يا مدموزيلْ! إن ذا سيز، إن ذا سيز، حيث إفنيقيا. نكحتُ آسيا ثم أفريقيا. آه ما أجمل يا مدموزيل!» صرخ ڤينيس: «فانتاستك! زدني يا بدائي!». قلت: «أليور آيزْ تدلّ المسيو موْن .·. ينثر الزّهر على التلة سون؟». صرخ ڤينيس: «ترمندوس! زدني يا آربوس!». قلت: «سائليني. . سائليني .·. يا دَمسكَسْ .·. ما لذا الطائر في الغُشّ تكَرفَسْ؟. أنا حسبي أنني من جبلٍ .·. فيه فينيقٌ. . وأنباطٌ. . وشركَسْ».

قال الشيطان: «سأوسوس لشاعري فيمنحك جائزته للإبداع الشعري لهذا الشهر».

قلت لمدير البروپاجنداء: «يا شعلة! شاعر ويشرّه الشعراء؟!». قال: «يا زمان العجايب! وِش بقى ما ظهَرْ؟». مضينا إلى البيت المجاور فوجدنا على عتبة الباب شيطاناً زريّ الهيئة، رثّ المظهر، ما إن رآني حتى وثب ومدّ يديه إلى رقبتي وبدأ يخنقني. قلت بصعوبة: «يا شعلة! ما لهذا الشيطان الكسيف الطمْل يحاول خنقي؟!». قال شعلة: «لا تأخذ الموضوع مأخذاً شخصياً. هذا الشيطان هو متشرّد فقير المنفي، وهو يحاول أن يجعل من جمجمة كل رأسمالي منفضة للسجائر». قلت: «يا شعلة! لا اعتراض على المبدأ. ولكن في مخي، في الوقت الحاضر، أشياء لا يمكن تعريضها للنيكوتين». قال شعلة للشيطان: «دع عنك خنقه وسلّم عليه». ثم قال لي: «يا پروفسور! أقدم لك شيطان عبد الوهاب البياتي». قلت للشيطان: «أنشدني آخر ما قلته في عوشوه؟» قال: «وما عوشوه؟». قلت: «عائشة». إنفرجت أسارير الشيطان بعد عبوس، وبدأ ينشد: فراشةٌ، عائشتي، من الدم. . رأيتُها تطير في شيراز. تطيرُ في سمتيةٍ. . قد أقلعتْ من مربأ الأهواز. رأيتها تَطير

في مدريدْ. . تغسل بالقيح وبالصديدْ. مدائن العبيدْ. رأيتها تطير فوق لوركاء الشهيدْ. وفوق ناظم بن حكمت الصنديد. . رأيتها تطير في برلينْ. قبل سقوط سورها العظيمْ. . كنت هناك في برلين أكتب القصيدْ. قبل انكسارها الحزينْ. . قبل سقوط الأخوة الرفاق في حبائل التتارْ. فراشةٌ، عائشتي، من نارْ ∴ رأيتها تطير في بيروتْ بقُرب يلدزلازْ». صرخت: «آه! آه! آه! هذا الذي طلبه الشعراء فأضلوه وتغنوا بالأطلال. أنشدني، يا متشرّد، آخر ما قلته في الخيّام». قال المتشرّد: «أحكي لكم يا سادتي الكرامْ. . بعد السلام والكلامْ. أحكي لكم عن عمر الخيامْ. . ولست أعني الكباريه في عاصمة اللّئام والظلامْ. والشاعر الصعلوكْ. . والأعور المملوكْ. في لندن الظلامْ. . أقصد ذاك الشاعر العظيم. ذاك الذي أحب عائشةْ. . قصّة حب طائشة. . لكنها، واحسرتاه، ماتت في تثاؤب النهارْ. . وخلّفت شاعرنا الكبيرْ. الشاعر السكّيرْ. . يعاقر العقارْ. ويكتب الرباعيات في جناحه. . في فندق الهيلتون في شيرازْ. أوّاه يا خيّامْ! يا شاعر التلفازْ! . . إني أنا المشرّد المنفي في القفار. أجوبُها ممتطياً فراشة من نارْ ∴ فراشة سرقيسْ. رأيتها تطير في بيروتْ». قلت: «هذا، والله!، هو رد العجز على الصدر. إذهب، يا شيطان، فأنت أشعر الشعراء المتشردين الفقراء المنفيين». قال: «وأنت، يا رأسمالي، فاذهب فقد منحتك جمجمتك». قلت: «يا شعلة! اكتفيت! ورضيت من الغنيمة بالإياب. فعدْ بنا». قال: «لا تستعجل. تعال وسلّم على ثائر دموي الإنقلابجي». قلت: «شيطان الجواهري؟». قال: «أيْ نعم». جاءنا شيطان كهل متأبطاً زجاجة وقنبلة وبندقية كلاشينكوف. ما إن رأيته حتى هتفتُ: «سدّد خطاي لكي أقول واحسنا ∴ فلقد أتيت بما يجلّ عن الثنا». قال: «صدقت! صدقت!»، ثم أقبل عليَّ هاشّا باشّاً وقال: «أنشدني يا أخا البدو!» قلت: «لا أكتمنْك. . إنني لزِجُ ∴ جمُّ المساوىءِ، أبخرٌ، سَمِجُ. لا العِطرُ يا هذي يُقرّب من ∴ جسمي. . وليس رفيقي الأَرَجُ. إنا كلانا عارفان بما ∴ حوت الثيابُ. . وضمت البُقَجَ. وبنا كلينا لا حياء بنا ∴ الجنس في السروال يختلجُ. إني وردت الحوض ممتلئاً ∴ دبساً. . .يفوح صديده الخمِجُ. ولقد صدرت وملء أوردتي ∴ الايدزُ. . والزهريُّ. . والمَجَجُ». قال الشيطان: «شنو المجج؟!». قلت: «وباء جنسي يصيب البعارين الداشرة في ديرتنا». قال الشيطان: «بعارين! مجج! كاولي سختجي!». صوّب الكلاشينكوف نحوي وبدأ يطلق النار، وهو ينشد: «يا رسول الشرّ والدنسِ ∴ وغراب البين في الغلسَ. يا نذير الشؤم. . يحمله ∴ بين جنبيه مع النَفسِ. يا ابن قوم شيخهم دلَسٌ ∴.وهو مشتقّ من الدلسِ». أطلقنا سيقاننا للريح، شعلة الذكاء المتّقدة وأنا، والرصاص يئزّ فوق رؤوسنا. قلت: «يا شعلة!»

«الآن! الآن! وليس غداً ∴ أجراس العودة فلتقرع»». قال شعلة: «أيّ أجراس، الله يهديك؟! أحنًا في المدرسة؟! تعال وألقِ نظرة على موقف الشياطين الطاكسي قبل انصرافنا». قلت: «وما الشياطين الطاكسي؟». قال: هؤلاء شياطين شعر غير متفرغين تستؤجر خدماتهم من قبل شعارير الأنس». وقفت أمام طابور من الشياطين المصبوغين باللون الأسود على طريقة طاكسيات لندن، وعلى رأس كل منهم تسعيرة. «القصيدة ألف دولار». «الأغنية المغربية ١٥٠٠ دولار». «الأغنية الخليجعربستانية ٢٠٠٠ دولار». «الديوان الكامل ٥٠٠٠ دولار»، قلت: «أسعار غالية، يا شعلة هل يجدون من يستأجرهم؟» قال: «كثير! خاصة في موسم الأوكازيون حيث تُخفَض أسعارهم بنسبة ٤٠٪ ومعظم زبائنهم من خليجعربستان». قلت: «تذكر لي بعض الأسماء، جُعلت فداك؟!». ضحك مدير البروباجنداء حتى بدت له قناة ثانية كان يخفيها، وقال: «وأكتم السرّ فيه ضربة العنق». في طريق عودتنا استوقفنا صراخ شديد. مِلْنا فإذا بفاخذ قد وقف على صندوق بيبسي فارغ، وهو يصرخ بأعلى صوته: «أيها الناس! أنا مجنون ليلى. فابعثوا زوجاتكم يحملن مني. وابعثوا أزواجكم كي يشكروني. شرفٌ أن تأكلوا حنطة جسمي. شرفٌ أن تقطفوا لوزي وتيني. شرفٌ أن تشبهوني. فأنا حادثة ما حدثت، منذ آلاف القرون». قلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله! إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب! إنصرف بنا، يا شعلة، قبل أن يراني فتغلبه السوداء». في المطار، استوقفني الموظّف الذي تبدو عليه علامات الطيبة والصلاح، وقال: «عظني!». قلت: «أستحْ بيضاً بين أفوادك أن ∴ يقتادك البيضُ اقتياد المُهتدى ∴ هيهات! ما أشنع هاتا زلّةً. أطربا بعد المشيب وجلا؟!». قال: «آه! أصبت عصباً عارياً!». قلت: «وأنت، فعظني!» قال: «ابتعد عن ليون الأفريقي. ولا تتجوّل في حديقة الحواسّ. ولا تتحدّث إلى طائر الشاكو ماكو». قال شعلة: «هذه، والله!، هي جميعة النصح المتبادل». إمتطينا المنطاد، وفي الطريق قال لي...

ـ عفواً يا برفسور! عفواً! شبعنا شعر وشياطين! هل من الممكن أن نعود إلى قصتك؟

ـ نعود، يا نطاسي، نعود. ودّعت دقّاية والخاقان ورجعت إلى عالم الإنس، ونصيحة الخاقان تطنّ في أذني. قررت اعتزال السياسة والتفرغ، نهائياً، للعمل التجاري. كنت قد استمعت عن طريق جهاز الإرسال المزروع في مُخي عن عدة مستخرعات تحت التطوير. يحدث هذا أحياناً دون رغبة مني كما سبق أن أخبرتك. من الأشياء التي أسمعها ما يمكن استثماره تجارياً، ومنها ما يجعل الدم يتجمّد في

عروقي. صدّق أو لا تصدّق، ان هناك الآن، بحوثاً سرّية لإنتاج السوپرمان.

- حاجة، يا پروفسور!

- صدقني! هناك محاولات دائبة لتطوير الجينات المتكاملة التي سوف تنتج الإنسان المتكامل. لماذا تستغرب؟ بدأت التجارب على الحيوانات مع بداية التاريخ. ألا تعرف ان الكلاب التي تراها الآن بأشكال وأحجام غريبة وعجيبة هي نتيجة التجارب؟ ألا تعرف أن الأبقار الهولندية التي تنتج هذه الكمية الهائلة من الحليب جاءت بعد سنين طويلة من مزج الجينات؟ هناك، الآن، جمال بحجم أرانب، وأرانب بحجم جمال. والبحث ينتقل من عالم الحيوانات إلى عالم البشر. الفكرة، في حقيقة الأمر، ليست جديدة. حاول هتلر تطبيقها كما تعرف. وحاول كثيرون قبله. إلاّ أن الذين يحاولون الآن يملكون من وسائل العلم ما لم يملكه أسلافهم. ماذا سيحدث للعالم عندما يتم تطوير مليون أنشتاين؟ الله، وحده، العالم. ولكن أبحاث السوپرمان لا تخيفني بقدر ما تخيفني أبحاث التخلّص من المعمّزين. إذا استمرت الاتجاهات الحالية فسوف يصبح معدّل العمر في المجتمعات الصناعية قرناً كاملاً، وسوف تتحول هذه المجتمعات، مع الوقت، إلى مجتمعات من العجزة. وهذا يعني بداية النهاية. هناك، الآن، بحوث لاختراع تطعيم يعطى للطفل عند ولادته ويؤدي إلى وفاته في الستينات من عمره. ألم تسمع عن آلة الموت التي تسهّل الانتحار؟ ألم تسمع عن اليوثاناسيا، قتل الرحمة؟ آلة الموت سوف تباع في البقالات. واليوثاناسيا سوف تتم في عيادات خاصة تنشئها الدولة. الموت بكرامة!

- حاجة، يا پروفسور!

- من حسن حظي وحظك أننا لن نرى هذه التطورات أثناء حياتنا. ولكن الأجيال القادمة سوف تراها. هذا الموضوع مخيف مرعب، ولم أكن أقصد إخافتك أو إرعابك. كنت أتحدث عن الفرص التجارية التي عرفت بوجودها عن طريق جهاز الإرسال الفضائي. بعض هذه المستخرعات أصبح، الآن، معروفاً ومنتشراً. وبعضها سوف يظهر بعد سنين قليلة. وبعضها، لن يظهر إلا بعد سنين طويلة. المهمّ أنني حاولت استباق الآخرين والوصول إلى وكالات لهذه المستخرعات. ونجحت في بعض الأحيان. في هذه الفترة كنت رجل أعمال فعلاً. الحصول على وكالة جديدة وتطويرها يختلف عن الاستثمار في شركات قائمة. لم أشعر بلذة العمل التجاري الحقيقي إلا في هذه الفترة.

- عفواً، يا پرفسور! هل من الممكن أن تخبرني عن بعض الاختراعات الحديثة؟

- عن أي نوع تريد أن أحدثك؟

- كل الأنواع.

- بالنسبة للأشياء التي طوُرت بالفعل يعرفها الجميع، المايكروشب واستخداماته المختلفة. الرزراز الخليوي. الفاكس. الوكمان. الكاميرا التي تغنيك عن استديو كامل.

- وماذا عن الأشياء التي ستطوَّر قريباً؟

- من الأشياء التي ستنزل الأسواق قريباً الفاكس الملون والتليفزيون المُعطَّر الذي ينقل الروائح. والرزراز المصوّر الذي ترى فيه وجه محدثك. والدراجة الطائرة. وهذه تشبه الدراجة العادية إلا أن بوسعها التحليق على ارتفاع منخفض. والكلينكس المبوتك، أي المزود بالأنتيبيوتكز. عندما تصاب بالزكام، ستجد في الكلينكس كل الأدوية التي تحتاج إليها. وجهاز استئصال الزائدة اليدوي. وهذا الجهاز في حجم الكفّ، ويمكّن الإنسان العاديّ من تشخيص الزائدة الدودية واستئصالها، بدون جراحة، خلال دقائق. وهناك الموسى الشهريّة. وهذه موسى مزوّدة بمواد كيمائية تمنع نموّ الشعر شهراً كاملاً بعد الحلاقة. عشرات الأشياء، يا نطاسي. هذا ما يحضرني الآن.

- والأشياء التي ستتم بعد فترة طويلة؟

- هناك الأنثى/الروبوت. أجمل من أي أنثى بشرية. وهذه الأنثى/الروبوت هي التي سوف تنتج السوپرمان. وهناك المحكمة/الپورتبل. واضح أن النظام القضائي في كل مكان يوشك أن ينهار تحت ضغط القضايا المتزايدة، فضلاً عن انهيار القضاة أنفسهم. المحكمة/الپورتبل عبارة عن كومپيتر قضائي. ما على الراغبين في التقاضي سوى الذهاب إلى أقرب كومپيتر قضائي والإدلاء بما لديهم. يصدر الحكم خلال ٥ دقائق. وفي قضايا القتل يصدر الحكم خلال عشر دقائق. ويقوم الكومپيتر، نفسه، بتنفيذ حكم الإعدام. وهناك حبوب تحويل الجنس. عدد متزايد من الرجال يريد أن يتحوّل إلى نساء. والعكس. والأسباب معروفة لديكم يا أحفاد فرويد. العملية، الآن، مكلفة ومؤلمة. حبوب تحويل الجِنس سوف تمكن الراغب في تحويل جنسه من إتمام التحوّل بلا ألم. حبة يومياً، لمدة شهر، ويصبح الرجل أنثى، والأنثى رجلاً. وهناك شبكة إيصال المخدرات إلى المنازل. أنت تعرف، يا نطاسي، أن كل الجهود المبذولة لمحاربة المخدرات باءت بالفشل الذريع. عصابات المخدارت أقوى وأغنى من معظم الدول. تشتري من يتعاون وتقتل من لا

يتعاون. توصّل حكماء الغرب إلى أن الوسيلة الوحيدة لمقاومة هذه العصابات هي إباحة المخدرات. سوف تكون هناك شبكة تُمدّ إلى كل منزل، مثل شبكة الكهرباء أو الماء أو الغاز. عدة حنفيات. تفتح حنفية فيخرج لك عصير الهيروين. تفتح الثانية فيخرج عصير الكوكايين. أمّا إذا كنت تفضل الاستنشاق، فافتح صمّام الأنبوب واستنشق. دخان الحشيش. دخان الأفيون. والحساب بالعداد. والدفع آخر الشهر. بأسعار متهاودة. عالم الغد مخيف، يا حكيم . لم تشهد البشرية في تاريخها الطويل أقذر من التطورات التي ستشهدها في القرون المقبلة. وهذا ليس موضوعنا الآن. سألتني وأجبتك. موضوعنا أني بدأت في هذه الفترة أصبح آ رِيل بزنسمان. وجدت من الملائم أن أتزوّد ببعض المعرفة. أنا أؤمن بالعلم والتخصّص، كما لاحظت. التحقت بدورة خاصة تنظمها كلية الإدارة في هارڤرد. هل تعرف هارڤرد، يا حكيم؟

ـ معلوم! حضرت فيها ندوات ومؤتمرات.

ـ أما أنا فلم أحضر فيها سوى دورة واحدة. هذا الكورس. ودخوله صعب جداً ويحتاج إلى وساطات لا تتصورها. وهارڤرد، كأيّ مكان آخر على هذه البسيطة، لا ترفض الوساطات. خصوصاً، إذا جاءت مشفوعة بتبرع مقداره ٥ ملايين دولار، لإنشاء مبنى جديد أو جناح في مكتبة. وهارڤرد لم تصبح أغنى جامعة في العالم باتباع الطهارة الثورية، وأظن أن هذا التعبير من استخراع صديقي جمال عبد الناصر. أو صديقي هيكل. وأنا لا أعرف ما هي الطهارة الثورية. أعرف أن التطهير في كثير من مناطق عربستان يعني الختان. هل تعتقد أن الطهارة. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! عفواً! عفواً!

ـ حسناً! لا تكن نرڤوزاً ولا نرڤازاً ولا نرڤيزا. كنت أقول لك إن هارڤرد لا ترفض الوساطات. ودخلت الكورس مع نخبة مختارة من رجال الأعمال الكبار جداً جداً. عدد الدارسين لا يتجاوز العشرين، لتتاح الفرصة للنقاش والأخذ والردّ. وفي هارڤرد، يا دكتور، يسمّون الدكتور مسترِ. حتى أكبر پروفسور يسمونه مستر. حتى صديقي هنري عندما كان يدرس في هارڤرد كانوا يسمونه مستر كيسنجر. وإياك ثم إياك أن تعتقد أن هذه العادة من باب التواضع. هذه العادة من باب الغرور الشديد. يعتبرون عضو هيئة التدريس في هارڤرد أعلى من أي لقب، فيسمّونه مستر. أما أصدقائي البريطانيون فيسمّون الجراح المتخصّص مستر لأسباب أخرى. تاريخية. تعود إلى كون الجراحة في الماضي فناً قريباً من الجزارة لا علاقة له بالطب. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن هارڤرد

سنوبش. وأساتذتها ڤيري سنوبش. وطلاّبها أكثر الجميع سنبشه، إذا جاز التعبير. وإذا لم يجز، فسو وت؟ وعضوات هيئة التدريس تسمى الواحدة منهن مِسْ. ولو كان عمرها عمر لبد. تعرف لبد؟ آخر نسور لقمان بن عاد وأطولها عمراً؟ لا تعرفه؟ ولا تريد أن تعرفه؟! أنت وشأنك! نشأت بيني وبين الزملاء في الكورس صداقه عميقة. خصوصاً مع هانك سيتي. وسوف يأتيك خبر هانك سيتي، فيما بعد. كل الدارسين من أصحاب البلايين. يخالطهم المرء وهو مطمئن على محفظته، إلى حد ما. في ذلك الكورس لُخصتْ لنا آخر النظريات في علم إدارة الأعمال، وناقشنا قصص النجاح المذهلة، وقصص الفشل. وكنا نعقد صفقات جانبية. أعجب كورس في التاريخ! في الويك إند، تجد هذا الدارس وقد امتطى طائرته الخاصة ليعود إلى هيوستن. وتجد ذاك الدارس وقد عاد إلى الفندق الذي يملكه في الضفة الأخرى من نهر تشارلز. وتجد ذلك الدارس وقد عاد إلى يَخته المتربّص في الميناء.

- وماذا عنك، يا بروفسور؟

- سؤال لَمّاح! أنا، يا نطاسي، كنت مشغولاً في الويك إند مع استر ويليامز. لا! لا! لا أقصد السبّاحة الجميلة التي يذكرها المخضرمون. اسم على اسم! استر ويليامز التي أقصدها هي صاحبة شركة بِتْ ليمتد. وهذه الشركة بدأت بداية متواضعة في أركنساس، التي يلفظها أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان أركنسو، ومنها انطلقت حتى أصبحت ثالث شركة كومپيتر في العالم. وأصبحت استر واحدة من أغنى النساء في العالم. لم تسمع بها؟ ولا أنا. حتى التقينا في هارڤرد. وهناك جمعتنا هواية مشتركة. لا يا حفيد فرويد! ليس ما طاف ببالك.

- أنا ما قلت شي.

- صدقت! ولكني أعرف ما يدور ببالك. الهواية المشتركة هي كتابة الروايات. بدأنا نكتب رواية معاً، موضوعها قاتل رقمي. لا تعرف ما هو القاتل الرقمي؟ هو السيريال كِلرْ! قاتل يقتل ضحاياه، باستخدام شبكة الانترنت. تعرف ما هو الإنترنِت؟ الحمد لله! إكتشف وسيلة ينقل فيها، عبر الشبكة، رسائل تحدث آثاراً في المخ تؤدّي إلى موت مستلمها. إستطاع القضاء على أكثر من ٧٥٠٠...

- حاجة، يا بروفسور!

- هذه رواية، يا عمّي، فِكشَنْ، ساينس فِكشنْ، إذا أردت الدقة. خيال في خيال، راجت الرواية رواجاً عظيماً، وتحولت إلى فيلْم سينمائي كان من أنجح الأفلام في تاريخ هوليود.

ـ عفواً، يا پرفسور! صار شيء بينك وبين إستر؟

ـ لا، يا نطاسي، لم يحدث شيء. سوى الصداقة والتعاون في التأليف والإنتاج. هل كانت جميلة؟ نص/نص. والناس يعتبرونها جميلة جداً لأنها ثرية جداً. والثراء أعظم مكياج. كما أن الجوع هو أمهر الطباخين. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنّي بعد الإنتهاء من الكورس بدأت محاولاتي للحصول على وكالة عدد من المستخرعات الحديثة. وابتدأت باليابان، حيث توجد معظم هذه المستخرعات. والتعامل مع اليابانيين صعب جداً. هل أخبرتك أني أكره اليابانيين؟ لا بد أن أكون قد أخبرتك. حسناً! أكل السمك النييء يتعب المعدة. فضلاً عن الأعصاب. وقد اضطررت في بداية الأمر إلى مجاراة المضيفين وأكل ما يأكلون. ثم أصبت بتلبّك معوي.. وأعلنت الإضراب عن أكل السمك النييء. حتى لو كان محاطاً بلوحة فنيّة من الخضروات. واليابانيون يزيّنون أطباقهم برسوم وأشكال جميلة من الخضروات. وحجتهم في ذلك أن الطعام يجب أن يسرَّ العين قبل الأنف والفم. ومع ذلك، أعلنت الإضراب. وبدأت آخذ معي حيثما أذهب سفرطاساً مليئاً بالكبساء.

ـ عفواً، يا پروفسور! شو يعني السفرطاس؟

ـ السفرطاس، يا حكيم، هو عدة قدور صغيرة من النحاس يعلو الواحد منها الآخر وتحتفظ بالطعام ساخناً. وقد بدأت تنقرض لبدائية تقنيتها. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن التعامل مع اليابانيين متعب جداً. والسبب؟ السبب، يا نطاسي، أنهم لا يقولون لا. أبداً! أبداً! ويبتسمون. ولا يقولون نعم. أبداً! أبداً! يهزّون رؤوسهم ويبتسمون، ودبّرني يا حكيم! ولا يصلون إلى قرار إلا بعد أنْ يشيب شعر رأسك، أو يسقط. حلقة من التشاور لا تنتهي. والجماعة يبتسمون. وينحنون لك. وتنحني لهم. والبروتوكول يقضي أن يكفّ الشخص الأكبر مقاماً عن الانحناء أولاً. ولمّا كان الأدب الياباني يحول بين الشخص والاعتراف أنه أكبر مقاماً من زميله فالانحناء قد يستمر ساعات. وربما، سنين. ولهذا ينتشر الدِسك بين اليابانيين انتشاراً وبائياً. لم تسمع بذلك؟ سو وت؟ هناك أشياء كثيرة جداً لم تسمع بها. ولم تحلم بها فلسفتك. واليابانيون لا يدعونك إلى منازلهم. أبداً! أبداً! وقد عجز عتاة السيسيولوجيين، مثلي وشرواي، عن تفسير الظاهرة. واليابانيون لديهم تفسير بسيط. المنازل بعيدة وضيقة ومزدحمة ولا تليق بمقام حضرة جنابك. كما أن الزوجات ممنوعات من أي نشاط إجتماعي أو سياسي أو تجاري. ومع ذلك، لا تجد من يتّهم اليابانيين بالعنصرية الذكورية كما تجد من يتهم العربستانيين.

وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن اليابانيين لا يدعونك إلى منازلهم. ولكن إلى مطاعم فاخرة جداً. وعريقة جداً. وطبقية جداً. وغالية جداً. تكلفة الوجبة الواحدة تصل إلى ١٠٫٠٠٠ دولار. للشخص الواحد. ومع ذلك، فهذه المطاعم محجوزة على مدار السنة. ولا يسمح بدخولها إلاّ لمن يحمل شجرة عائلة تثبت أنه من أبناء ماء السماء. كما أن اليابانيين يدعونك إلى محلات الجيشا. وهي تختلف اختلافاً جذرياً عمّا تراه في الأفلام. المحلات محتشمة وهادئة والجيشا الحقيقية تختلف عن جيشا الأفلام. الجيشا الحقيقية يندر أن تكون تحت الأربعين ويستحيل أن تكون جميلة. وهي موسوعة بشرية في الأدب والتاريخ والموسيقى والغناء والفلسفة. وترتدي كيمونو لا يمكن أن يقل ثمنه عن ٢٠٠٫٠٠٠ دولار. وإذا قلَّ عن ذلك اعتبرت شرشوحة. ولا تقل لي إنك لا تعرف معنى شرشوحة. وإذا كنت لا تفهم اللغة اليابانية ولا تتذوق الموسيقى اليابانية فجلوسك مع جيشا عذاب مقيم. وكل جيشا لها شُجَرْ دادي. تعرف الشُجْر دادي؟ بالتأكيد! البعض يسميه درتي أولدْ مانْ. هذا إذا كان فقيراً. أمّا إذا كان غنياً فهو شُجْر دادي. هذا الأب السكّري يتبنّى الجيشا. ويدفع لها قيمة الكيمونو. وإيجار الشقة. ويزورها مرّة في الأسبوع. فتخفف عنه عناء العمل بنوادر وحكايات منتقاة من التراث. وقطع موسيقية رومانسية. والزوجة تدري ولا تغضب. تذكرني بالزوجة العجوز التي قيل لها إن زوجها العجوز يطارد النساء فقالت: «كل الكلاب تطارد السيارات. ولكن كم كلباً يعرف القيادة؟» الزوجة اليابانية لا تغضب لأنه لا يحدث بين الجيشا والأب السكري ما يوجب الغضب. وكيف يحدث وصاحبنا تجاوز التسعين؟ وكل الأشخاص المهمين في اليابان تجاوزوا التسعين. وهكذا، يا نطاسي، تتحوّل مفاوضاتك في اليابان إلى عقبة بعد عقبة. عقبة الانحناء. وعقبة السمك النيىء. وعقبة الجيشا التي ترطن بما لا تفهم. وعقبة عدم قول لا وعدم قول نعم. شأن اليابانيين في ذلك شأن صاحبة عمر بن أبي ربيعة. التي تلوذ بالصمت، على خلاف صاحبات نزار قباني اللواتي يصرخن: «نعم! نعم! نعم!» وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أن المفاوضات تطول. وأنت تدور ببطنك من مطعم إلى مطعم. وتصاب باللمباجو من كثرة الانحناءات. وكثرة الانحناءات، بالمناسبة، هي السبب في ازدهار المساج في اليابان. ولولا المساج الذي يعيد الظهور إلى وضعها الطبيعي لوجدت اليابانيين، جميعاً، مقوسي الظهور. ويستمر الانتظار شهوراً. ثم تفاجأ بعقد جاهز للتوقيع. وعندها، فقط، تدرك أن المفاوضات تكللت بالنجاح. أمّا عندما لا يظهر عقد، بعد قرابة سنتين، فيجب ان تدرك أن المفاوضات انتهت بالفشل. وإذا لم تكن دقيق الملاحظة، فقد تقضي بقيّة عمرك في اليابان محاطاً بالابتسامات والانحناءات

والأسماك النيئة والجيشا. وهذا خطر يهدّد كل مفاوض غشيم، وهناك عدد منهم في اليابان. وبعضهم بدأ التفاوض من ثلاثين سنة. وحتى الآن لم يدرك أن المفاوضات فشلت. وإذا انتهت الأمور بتوقيع عقد، فابشر بالخير. لن تجد مشكلة واحدة بعد التوقيع. اليابانيون يحترمون التزاماتهم. ويفون بوعودهم كاملة. على خلاف رجال الأعمال العربستانيين. الذين يعطونك الشمس في يد والقمر في يد. في الليل. كل شيء ممكن. كل شيء سهل. وكل شيء هيّن. سوف نقيم المشروع الفلاني. وسوف نفتح المعرض الفلاني. وسوف نؤسّس الشركة الفلانية. تأمر! حاضر يا الشيخ! كلو تمام يا أفندم! باهي! مزيان! تهنّا! صار! وفي الصباح، تروح السكرة وتجيء الفكرة. أنا قلت هذا؟ أيّ مشروع؟! أيّ معرض؟! أي شركة؟! لا بدّ أني كنت أمزح. أو ربّما كنت أفكر بصوت عال. وويلك إذا فاوضت عربستانياً في منزله. يخجل أن يتحدث بصراحة لأنك ضيف. والواجب إكرام الضيف. ومن إكرامه أن توافق على كل شيء يقوله. وتنقضه فيما بعد. وويلك إذا فاوضت عربستانياً في منزلك. فأنت المضيف. والمضيف لا يحرج ضيفه بالإستيضاحات والاعتراضات. المفاوض الذكيّ يختار منطقة منزوعة السلاح. لا بيتك وبيته. والمفاوض العبقري يختار دولة أجنبية. لا شيء يذبح التجارة العربستانية مثل الضيافة العربستانية. والخطر الثاني في المفاوضات بين العربستانيين هو القبل. التي تأتي مفاجئة كالصاعقة. وتهبط على أيّ مكان. رأسك أو أنفك أو ذقنك أو شفتيك. مصحوبة بعبط وهدير كالرعد: «قول تمّ» وإذا. . .

ـ عفواً، يا بروفسور! شو يعني «قول تمّ»؟.

ـ «قول تمّ» معناها إقبلْ. وافقْ. ساي يس! وإذا لم تقل تمّ استمرت القبلات حتى تموت غرقاً في اللعاب. أو اختناقاً بالرائحة. أو مكسور الأضلاع من العبط. ورجال الأعمال العربستانيون لا يؤمنون بالتخطيط. ولا دراسات الجدوى. ولا التفاصيل. عندما يصلون إلى التفاصيل بعد توقيع الاتفاق بسنة تكون الأمور قد وصلت إلى المحاكم. والعربستاني لا يستشير المحامي إلا بعد وقوع الواقعة. يدفع مليون دولار عند التقاضي ولا يدفع ألف دولار قبل التوقيع. أما دراسة الجدوى فيبدأ عملها بعد إفلاس المشروع. وما لم يفلس المشروع، فلا داعي للفضول وكثرة الأسئلة. أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب. وهو، غالباً، الإعسار أو الإفلاس. وأنا، يا حكيم، أتحاشى التعامل التجاري مع العربستانيين رغم ميولي العربية التي تعرفها جيّداً. إبعدْ عن الشر وغنّي له. وهذا مثل مصري. لا يخلو من تطرّف. يكفي أن تبتعد عن الشرّ ولا داعي للغناء. خصوصاً، إذا كان صوتك

مزعجاً. أو كان الشرّ لا يحبّ الغناء. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنماط التعامل التجاري بين الأمم. والتعامل مع أصدقائي وأصدقائك الأمريكان سهل نسبياً. وهم على نقيض العربستانيين تماماً. لا يوقّعون على عقد بنصف دولار إلا بعد أن يدرسه ٥٠ مكتب محاماة. ولا يقيمون مصنعاً بألف دولار إلا بعد ٥٠٠ دراسة جدوى. وهذه، بطبيعة الحال، مبالغة. لا يوجد عقد بنصف دولار ولا مصنع بألف دولار. والأمريكان يقتلونك بلاءآتهم خلال المفاوضات. لا! لا! لا! لا، هذا غير ممكن! لا، هذا غير قانوني! لا، هذا غير مناسب سياسياً! تحسّ وأنت تفاوضهم أنك تحارب على عدة جبهات. جبهة المحامين. وجبهة الاقتصاديين. وجبهة العلاقات العامة. وجبهة الفنيين المختصين بالمشروع أساساً. وما أبذأ المفاوض الأمريكي! بين كل كلمة وكلمة كلمة يعفّ عنها اللسان. الصفقة بشّ! وهي الكلبة، كما يعرف حضرة جنابك. ورئيس مجلس الإدارة ابنها. ابن الكلبة لا الصفقة. والقانون بشْ! وعلى ذلك، فَقِسْ. وهم قوم مضيافون. يندر أن يطلبوا من أمهم أن تبول على المايكرو ويف. خصوصاً، عندما يتفاوضون على عقود ضخمة. ومع زبون مريّش. ومشكلتهم أن للضيافة حدوداً. فلا توجد في أمريكا مطاعم أرستقراطية. ولا يمكن ذبح مئات الطليان. يعوضونك بالحفلات. التي تحضرها الفاتنات. وإذا كنت مهمّاً جداً فقد تحضرها ممثلة سينما. أو كومبارس، على الأقل. ويدخل هذا في باب الضيافة. وقد يدخل في باب الرشوة. والفروق بين الضيافة والرشوة قد تكون غائمة. وقد لا تكون. وهذا ليس موضوعنا. موضوعنا أنماط التفاوض التجاري بين الأمم. والتفاوض مع أصدقائي وأصدقائك الفرنسيين أسهل سبيل إلى الإنهيار العصبي. الفرنسيون، بطبعهم، نرفوزون نرافزة نرافيز. خصوصاً مع الأجنبي الذي لا يحسن لغتهم. وعندما ينرفزون تصدر منهم أصوات غريبة ومفرقعات. تستغرب خروجها عن طريق الفم. وتصحب ذلك إشارات مستهجنة باليدين. ثم يهدأون. وتعود المفاوضات. ويقول حضرة جنابك جملة غير مفيدة. وينرفزون من جديد. ولا يهدأون إلا مع النبيذ. والطعام الفرنسي المفتخر. وتستغرق الوجبة عشر ساعات. وبعد الوجبة، ينسى المفاوض الفرنسي كل ما تمَّ الإتفاق عليه. وتبدأ من جديد. أمّا التعامل مع أصدقائي وأصدقائك الجرمان فمريح جداً. خصوصاً، إذا كنت خرّيج مدرسة عسكرية. وتعشق الاستيقاظ في الخامسة صباحاً. والجرمان لا يدعونك خير شر. لا إلى بيوتهم، ولا إلى مطاعمهم. وهذا من حسن حظّك. فطعامهم في منازلهم سيّىء جداً. والطعام في المطاعم أسوأ بكثير. وهذا ما جعل هتلر نباتياً. وما يجعل معظم الجرمان اليوم بطاطسيين. والبطاطس أهون الشرور الغذائية في ألمانيا. والجرمان يتفاوضون بجلد

على التفاصيل لا مثيل له في العالم. ولا يفقدون أعصابهم. ولا ينكّتون. ولا يفهمون النكت. ولا يبتسمون إلا إذا دغدغتهم. ودغدغتهم تعني زغزغتهم. وإذا وقّعت معهم عقداً فحطّ في بطنك بطيخة صيفي. وهذا مثل مصري دارج معناه اطمئن ولا تخف. وإن كنتُ، شخصياً، لا أعرف العلاقة بين الاطمئنان والبطيخ. ولا أعرف الفرق بين البطيخ الشتوي والبطيخ الصيفي. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنماط التعامل التجاري. والتعامل مع أصدقائي وأصدقائك البريطانيين. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نتحدث، الآن، عن مصحّة جنيف؟

ـ لماذا تريد أن نتحدّث عن مصحّة جنيف؟

ـ عندك مانع؟

ـ لا.

ـ إذن، فلنتحدث عنها. لماذا دخلت إلى مصحّة جنيف؟

ـ الفوبياز، يا نطاسي، الفوبياز!

ـ الفوبياز؟ شو قصدك؟

ـ ألا تعرف ما هي الفوبيا يا حفيد فرويد؟!

ـ معلوم!

ـ حسناً! أصبت بكل أنواع الفوبيا التي يعرفها علم النفس.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ حسناً! حسناً! لا داعي للمبالغة. لم أصب بها كلها؛ أصبت بمعظمها. دعني أضرب لك بعض الأمثلة. كنت أعاني من الأسفرسيفوبيا. وهذه، كما يعرف حضرة جنابك، تعني الخوف من الروائح. حتى الشذيّة منها. مجرد التفكير في رائحة يصيبني بالغثيان. والأدونثوفوبيا. وهذه تعني الخوف من أن يهاجمني طبيب أسنان مصاب بلوثة ويقتلع أسناني كلّها. اضطررت إلى أن اعيش بكمّامة لا أنزعها أبداً. والبو جنو فوبيا، الهلع من اللحى. كل لحية أراها أتصوّرها متحفّزة للإنقضاض على وجهي والتغلغل فيه. الألسوبترو فوبيا، الخوف من المرايا. أزلت كل المرايا من المنزل. صعب أن يحلق الإنسان بدون مرايا، خصوصاً عندما يكون خوفه من الشعر قدر خوفه من المرآة. البيلونو فوبيا. وهذه، كما تعلم، تعني

الخوف من الإبر والدبابيس. اضطررت إلى البقاء واقفاً خوفاً من أن أجلس فتنغرز إبرة خفيّة في مؤخرتي. لا تنبغي الاستهانة بفوبيا الإبر. والثلا سو فوبيا، الخوف من البحر. ومن الماء عموماً. واعلم، يا طبيب، أن ابن الرومي الذي سبق أن حدّثتك عنه كان من ضحايا هذه الفوبيا. وقد وصف خوفه وصفاً جميلاً في عدة قصائد. ومن ذلك قوله: «وأيسر إشفاقي من الماء....»

ـ عفواً، يا بروفسور، عفواً! حفظت المصطلحات من قاموس طبي. وتتوقع مني أن أصدّقك؟

ـ وهذا غير الأنيمو فوبيا، الخوف من الريح. ومن...

ـ حاجة، يا بروفسور، حاجة! بدنا نحكي جدّ.

ـ أوكي! أوكي! جدّ جدّاً! دخلت المصحّة بمحض رغبتي. لو فتّشت في الملّف ألف سنة لن تعثر على حادثة كانت السبب في دخولي.

ـ صحيح. لشو دخلت مصحّة جنيف؟

ـ يجب أن تعرف، يا نطاسي، أن مصحّة جنيف ليست في جنيف. جنيف أقرب المدن السويسرية الكبيرة إليها، ولكنها لا توجد في جنيف. تقع في جبل ما. أو قل مجموعة جبال ما. وغابات ما. وبحيرات ما. والاسم الذي لديك في الملف ليس اسمها الحقيقي. لا يوجد لهذا المكان إسم. ويوجد له ألف إسم. يعطونك تقريراً بالاسم الذي تفضّله. مركز أمراض جلدية. مستشفى أطفال. عيادة تشخيصية. ويجب أن تعرف، يا نطاسي، أن المكان ليس مصحّة نفسية. هناك قسم نفسي ولكنه من أصغر الأقسام. المكان بتاع كلّو! يقدم خدمات تجميلية وعلاجية من كل نوع. هناك علاج طبيعي. وعلاج صناعي. وعلاج بالسموم. وعلاج بالأعشاب. ومدرسة يوجا. وزرع شعر. وزرع أجهزة أنسولين. وكل ما يمكن زرعه في الأعضاء الحسّاسة من آليات. وشدّ وجه. وتضخيم ثدي أو تخسيسه. تجد في المكان وصفات شعبية وآخر ما توصل إليه الطب الحديث. أغرب مصحّة في العالم. وأغلى مصحّة. لا تقلّ تكلفة اليوم الواحد عن ١٠,٠٠٠ دولار.

ـ حاجة، يا بروفسور! اليوم الواحد؟!

ـ أي نعم! وكل زبون يعيش في جناح خاص فيه صالون وغرفة نوم وغرفة استقبال وغرفة رياضة وبركة سباحة...

ـ حاجة، يا بروفسور!

ـ إذهب، بنفسك، إذا لم تصدّقني. ولكن من الأوفر، والأسهل، أن تصدّقني. منذ أن تصحو وحتى تنام وأنت محاط بممرّضات جميلات من جميع الجنسيات. الفطور تقدّمه ممرّضتان جميلتان. تذهبان، وتأتي ممرضّتان جميلتان جديدتان لإصطحابك إلى غرفة البخار المعطّر. ثم غداء في أحضان الطبيعة. مع ممرضّتَيْن جديدتين. ثم قيلولة على سرير يتأرجح على نحو يجلب النوم لأشد الناس أرقاً. تصحو فتجد ممرضتين جميلتين، أحضرتا لك الشاي والشمپانيا. . .

ـ شمپانيا؟!

ـ قلت لك إنها مصحّة غريبة جداً. لا يعرف عن وجودها إلا القلّة. ولا يتحمل مصاريفها إلا أقلّ من القلّة. في هذا المكان العجيب تعرّفت على الدكتور مونتيسكييه، وليتني لم أتعرّف عليه. سويسري بوذي مجنون خالص يؤمن بالتنويم المغناطيسي وتناسخ الأرواح. كان ينوّمني مغناطيسياً، كل يوم، ويرسلني في رحلة عبر القرون بحثاً عن تناسخاتي السابقة حتّى كاد يصيبني بالجنون.

ـ حاجة، يا پروفسور! الدكتور مونتيسكييه طبيب نفسي مؤهّل تأهيلاً عالياً.

ـ هل أنكرت أنه مؤهّل تأهيلاً عالياً؟ قلت إنه مجنون خالص. هل تعتقد أن التأهيل العالي يتنافى مع الجنون الخالص؟ ألا تعرف أن كثيراً من العباقرة ماتوا مجانين، والبقية عاشوا مجانين؟ لم تنقذني من أرواحه وتناسخاته سوى شيرلي ماكلين.

ـ شيرلي ماكلين؟ الممثلة المشهورة؟

ـ أيْ نعم!

ـ كانت هناك؟

ـ أيْ نعم!

ـ شو كانت بتعمل؟

ـ هل من الضروري أن أجيب على هذا السؤال؟

ـ لا.

ـ إذن، فسوف أجيب. كانت تتعالج من عضة. عضة غير عادية. كانت في كهف في منطقة نائية من المكسيك تبحث عن تناسخاتها السابقة عندما غلبها النوم. خلال نومها عضّها وطواط من فصيلة مصّاصي الدماء. في هذه المصحّة توجد العيادة الوحيدة في العالم لعلاج عضات الوطاويط مصّاصة الدماء.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ صدّقني! وإذا لم تصدقني اسأل شيرلي ماكلين. أنقذتني شيرلي من براثن التنويم المغناطيسي ورحلة البحث عن التناسخات السابقة. أقنعت الدكتور مونتيسكييه أنها ستتولى بنفسها مهمّة البحث عن تناسخاتي السابقة، مستخدمة بلّورتها.

ـ وقامت بذلك؟

ـ أيْ نعم!

ـ هل من الممكن أن تخبرني عن تناسخاتك السابقة؟

ـ بكل سرور. عبر دورات، بدأت منذ مئات الآلاف من السنين ولم تنته إلا في القرن الماضي، كنت راعياً فملكاً فراهباً فسنجاباً فساحرة فنملة فشجرة فجنيناً فطبيباً فبابا روما فأدميرالاً فـ. . .

ـ عفواً، يا پروفسور! صدّقت ها الحكي؟!

ـ كبّر عقلاتك، يا نطاسي! كيف أصدّق هذا الهراء؟ سخف لا يقبله عقل أو نقل. في الإسلام لا توجد سوى نفس واحدة تغادر الجسد عند الموت إلى البرزخ وتحشر مع الجسد. لا توجد أرواح متنقّلة. ومع ذلك، فهناك فرق إسلامية تؤمن بالتناسخ. والتناسخ عندهم ٤ أنواع هي النسخ والمسخ والفسخ والرسخ. وشرح هذا يطول. وليس فيه كبير غناء. المهم أن الإسلام، كما تفهمه الغالبية، يرفض فكرة التناسخ. أمّا في الأديان الأخرى، فالوضع يختلف. أتباع الهندوسية والبوذية والسيخ يؤمنون بالتناسخ. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنني لم أصدّق كلمة واحدة من كلام شيرلي. كنت أتسلّى معها.

ـ وماذا عن العلاج مع الدكتور مونتيسكييه؟

ـ ماذا عنه؟

ـ يقول الملفّ إنك كنت تعاني من كآبة عميقة.

ـ كآبة عميقة مرّة واحدة؟! ديپ دپرشن؟! إعلم، يا حكيم، أني قابلت، ذات مساء، في حفلة في نيويورك، واحداً من أعظم الأطباء النفسيين في العالم. أستاذ علم النفس الأكلينيكي في هارڤرد. الحاصل على جائزة نوبل عن بحوثه في نفسية الفأرة التي يهجرها صديقها. الپروفسور ويلنج. سمعت عنه؟ بالتأكيد! حسناً! قال لي الپروفسور ويلنج إن هناك ٣ أعراض يدل وجودها، مجتمعة، على

وجود كآبة نفسية. أولاً، فقدان شهيّة الطعام. ثانياً، فقدان شهية الجنس. ثالثاً، فقدان القدرة على النوم. وأنا لم أشعر بعرض واحد من هذه الأعراض. تستطيع أن تقول إن العكس هو الصحيح.

ـ البروفسور ويلنج قال لك ها الحكي؟

ـ قاله، ونص! هل تريد أن أقسم برأس شيرلي ماكلين؟

ـ ربما كان يمزح معك.

ـ وربّما كان جادّاً.

ـ إسمع، يا بروفسور! كثير من حالات الإفراط في الأكل سببها الكآبة، خصوصاً بين الجنس اللطيف. وكثير من حالات الإفراط في الجنس هدفها الفرار من الكآبة، خصوصاً بين كهول الجنس الخشن. أما النوم فالمسألة فيفتي/فيفتي. في بعض حالات الكآبة لا يستطيع المريض أن ينام. وفي بعضها لا يستطيع أن يقوم من الفراش.

ـ هل تتوقّع مني أن أصدّقك وأكذّب البروفسور ويلنج، الحاصل على جائزة نوبل؟

ـ لا تصدّقني. ولا تكذّبه. كان البروفسور يحاول تبسيط المسألة.

ـ وتبسيط المسائل خير من تعقيدها، لو سألتني. وحتّى لو لم تسألني. حسناً! إذا كان يسرّك أن أقول لك إني كنت أعاني من كآبة عميقة فسوف أقول لك إني كنت أعاني من كآبة عميقة. لا مشاحّة في الاصطلاح، كما يقول الفقهاء. ومعنى هذا أنه لا مُبرّر للخلاف على الأسماء ويجب أن ينصبّ الجدل على المُسمَّى. حقيقة الأمر، يا حكيم، أني كنت أعاني من الملل العميق. إذا كان الملل العميق هو الكآبة العميقة، ماشي الحال. هل أخبرتك أني أكره تعبير ماشي الحال؟

ـ لشو؟

ـ لأنه غير واضح وغير محدد. شأنه شأن يعني. أو عادي، التي بدأت تتفشى في عربستان. كيف أصبحت؟ ماشي الحال! عادي! كيف كانت الحفلة؟ ماشي الحال! عادي! هل توافق على حضوري معكم؟ ماشي الحال! عادي! هل البنت جميلة؟ ماشي الحال! عادي! وفسّر أنت! وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا أنّي بعد فترة سعيدة من النشاط التجاري الممتع أصبت بالملل العميق. وجرّبت عدة أشياء. إشتريت جريدة وأصبحت رئيس تحريرها، وسرعان ما مللت.

دخلت مجمع السدنة الخالدين عن طريق البرطيل كما سبق أن أخبرتك ولم تكن تجربة موفقة. لجأت إلى التأليف. طفت العالم متنكّراً على هيئة مغني أوبرا. في بداية مغامراتي التجارية، كان كل شيء مثيراً. تطوير الفكرة من مجرد خاطرة إلى مصنع عملاق يعمل فيه مئات البشر. الاجتماعات التي لا تنتهي. شعور القوة الذي يتملكك وأنت تفصل وتعيّن. متعة السفر بالطائرة الخاصة. الاستقبال الحافل. طعم الربح. طعم الخسارة. كبار الشخصيات الذين يخطبون ودّك. نشوة بعد نشوة بعد نشوة. ثم حدث شيء غريب. أصبحت الأشياء المثيرة مملّة حتّى الموت. لم أعد أطيق حضور اجتماع واحد. لم أعد قادراً على رؤية مصنع واحد. ملل قاتل. لعنة ميداس! كل شيء ألمسه يتحوّل مللاً.

ـ فظيع!

ـ صدقت!

ـ ومن شان هيك رحت المصحّة؟

ـ من شان هيك!

ـ وقضيت حوالى سنتين؟

ـ معظم هذا الوقت كان مخصّصاً للإصلاحات الجسدية. وفي مقدمتها العلاج بالجينات.

ـ العلاج بالجينات؟!

ـ لا تتوقّع منّي التفاصيل. أنا لا أعرفها. ولم أسأل عنها. هناك إشاعات كثيرة. الجينات مأخوذة من رحم امرأة حامل. عقرب حامل. أرنب حامل. أو ربّما الفأرة المهجورة التي درس البروفسور ويلنج نفسيتها. لا أدري ولا أريد أن أدري. كل ما أعرفه أن العلاج فعّال إلى أبعد الحدود. ودليل فعاليته أني لا أزال أبدو أصغر من سنّي الحقيقي بكثير. بعد الجينات، بدأت عملية زرع الشعر. المأخوذ من غوريلا. إختفت الصلعة وحل محلّها هذا الشعر الحريري الأسود الكثّ. ثم جاء دور النظر. حكوا قاع الشبكية والقرنية بالليزر، ورميت النظّارة. ثم إنقاص الوزن. بلا تعب. استشفطوا شحمي استشفاطاً بالتقسيط المريح. وفقدت ٧٠ كلجم غير مأسوف عليها. ثم جاء التدريب الرياضي. لا تعمل شيئاً سوى أن تنطرح. وتتولّى الأجهزة والممرضات الباقي. ثم بدأت مرحلة ترميم الأعضاء الحسّاسة التي تعرضت لعوامل التعرية. هاه! هاه! هاه! الموضوع حسّاس ولن أتطرّق إلى التفاصيل. بجانب الإصلاحات الجسدية، كانت هناك دردشة يومية

مع الدكتور مونتيسكييه الذي أصبح عاقلاً بمجرد أن انتهينا من البحث عن تناسخاتي السابقة. حقيقة الأمر، كان هو الذي يتكلم طيلة الوقت، وكنت أكتفي بالاستماع.

ـ عن شو كان يحكي؟

ـ عن تناسخاته السابقة.

ـ ولكن الكآبة زالت. أعني الملل!

ـ أي نعم! ولم يكن السبب الدردشة. كان السبب عقار منع الملل الذي ركّبه مونتيسكييه بنفسه. هذا العقار هو مزيج من وصفات هندية وصينية وفرعونية ويونانية قديمة جمعها زميلك السايكاترست عبر تناسخاته العديدة.

ـ حاجة، يا پروفسور!

ـ لا تقل لي أنا حاجة. قلها لزميلك. الرجل يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه عثر على العقار عن هذا الطريق. ومن أنا حتى أنازع طبيباً نفسياً بوذيّاً اعتقاداته؟ أو أوهامه؟ أو حقائقه؟ لا يهمني، في كثير أو قليل، كيف عثر على الدواء. ما يهمّني أني استفدت من الدواء فائدة عظمى. زال الملل نهائياً. عاودني الشبق إلى الحياة. لم أقل الشبق إلى النساء. قلت الشبق إلى الحياة. والنساء جزء من الحياة. أليس كذلك؟

ـ ماشي الحال!

ـ براڤو، دكتور، براڤو! عادي! هل تعرف من رأيت هناك؟

ـ مين؟

ـ صلاح الدين المنصور.

ـ مش معقول؟!

ـ معقول، ونص! ضمّني بحرارة. وعانقني. وقبّلني. قلت له: «ماذا تفعل هنا يا فخامة الرئيس؟». قال: «إعلم، يا پروفسور، أنّي تعرّفت على صديقة جديدة. مثقفة دكتورة. أستاذة مساعدة في الجامعة. اسمها ض. وهذا إسم حركي، بطبيعة الحال. إسمها الحقيقي ضمائر...».

ـ ضمائر؟! شو هاالإسم؟!

ـ لم أُسمّها أنا، يا دكتور. اسمها ضمائر! سبحان الله! دعني أكمل ما قاله

المنصور: «ذات ليلة، وكنا في اللحظات السحرية التي تسبق مهرجان الشروق، أنا وهي، نصنع ما نصنع في الفرشة، أبدت بعض الملاحظات عن مظهري. وعن قوامي، بصفة خاصة. نقد هادف بنّاء! بعدها، بفترة وجيزة، توفيت المسكينة. في حادث مرور. رحمها الله! كدت أن أموت من الحزن. ثم قررت أن أصلح مظهري، وقوامي بصفة خاصة، إكراماً لذكراها. وأتيت إلى هنا». قلت: «فكرة موفقة، يا فخامة الرئيس. والتحسينات واضحة». إبتسم المنصور وقال: «هل تعرف آخر أخبار صاحبك برهان سرور؟». قلت: «إعتزلت السياسة. لم أعد أتابع الأخبار السياسية». قال المنصور: «جُنّ الرجل! جُنّ تماماً! أصبح عدد تماثيله في عربستان ٤٩ يفوق عدد السكان. وأصبح كل طفل يولد يسمى برهان. ألم يقل مسيلمة الكذّاب شيئاً ينطبق على برهان سرور؟». قلت: «تقصد المتنبي؟» قال: «نعم! نعم!». قلت: «قال: أمَيْناً... وإخلافاً.. وغدراً.. وَخِسّة .·. وجبناً... أشخصاً لحت لي أم مخازيا؟!». ضحك صلاح الدين المنصور ضحكة مجلجلة، وقال: «جميل! جميل! أصبر حتى أكتب البيت». كتب البيت ثم ابتسم وقال: «إعلم، يا بروفسور، أني معجب هذه الأيام بامرأة اسمها د. وهذا اسم حركي. واسمها الحقيقي دعد. وهي مثقفة جداً. عميدة كلية. وحدث...». قاطعته: «وحدث سوء تفاهم بسيط بسبب الغيرة. وتريد أن أعطيك شعراً للمتنبي ترسله مع بطاقة و٥٠٠٠ زنبقة حمراء». نظر إليّ المنصور باستغراب واضح وقال: «كيف عرفت؟!». قلت: «رياح الفون يا فخامة الرئيس! رياح الفون السويسرية لها تأثير عجيب على خلايا مخي. تمكّنني، أحياناً، من قراءة الأفكار». قال: «هات الشعر، يا بروفسور». قلت: قال أبو حسيد: «لقد حازني وجدٌ بمن حازه بعدُ .·. فيا ليتني بُعدٌ ويا ليته وجدُ. أسرُّ بتجديد الهوى ذكر ما مضى .·. وإن كان لا يبقى له الحجر الصلدُ. مُمَثّلةٌ حتّى كأن لم تفارقي .·. وحتّى كأنَّ اليأسَ من وصلكِ الوعدُ. وحتى تكادي تمسحين مدامعي .·. ويعبقُ في ثوبَي من ريحك الندُّ». صاح المنصور: «آه! آه! ولكنها ليستُ ممثلة. هي عميدة كما أخبرتك». قلت: «يا فخامة الرئيس! لم يقل المتنبي ممثِلة بالكسر. قال ممثَّلة، بالفتح. ويقصد أنها ماثلة أمامه كأنها لم تفارقه». قال: «هل يمكن إضافة دعد إلى هذه الأبيات؟» قلت: «لا أعتقد أن المتنبي يسرّه ذلك». قال: «لا يهمّني سرور مسيلمة الكذّاب. يهمّني سرور دعد. أين أضع دعد؟». قلت: «إن كان ولا بدّ، يا فخامة الرئيس، فضعها في الشطر الثاني من البيت الأول ليصبح: فيا ليتني بعدٌ ويا ليته دعدُ». قال المنصور: «آه! آه! أحسنت! أحسنت! أصبر حتى أكتب الأبيات». كتبها وانصرف محاطاً بكوكبة من الممرّضات الجميلات وهو يغنّي بأعلى صوته: «فيا ليتني بعدٌ.. ويا ليته دعدُ».

وفي المصحّة رأيت ليز. أعني اليزابيث تايلور. لم أستلطفها كثيراً. كانت العلاقة، بيننا، عادية.

ـ وشو كانت تعمل في المصحّة؟

ـ تتعالج من الإدمان.

ـ إدمان الكحول؟

ـ مالك لوا!

ـ شو يعني مالك لوا؟

ـ مالك لوا هي نفي مهذب. لا مؤدّبة.

ـ إدمان المخدرات؟

ـ مالك لوا!

ـ إدمان الأزواج؟!

ـ كمان مالك لوا!

ـ إدمان شو لكان؟

ـ العمليات الجراحية.

ـ شو؟

ـ العمليات الجراحيّة. أجرت ليز ٩٩ عملية جراحية لا توجد بينها عملية واحدة ضرورية.

ـ فظيع!

ـ صدقت! وفي النهاية، جاءت إلى المصحّة تطلب العلاج.

ـ وعالجوها؟

ـ تستطيع أن تقول ذلك.

ـ شو يعني؟

ـ وضعوا في مختلف أنحاء جسدها، تحت الجلد مباشرة، موادّاً بلاستيكية غير ضارة جاهزة لاستئصالها بمزيد من العمليات الجراحية.

ـ شو ها العلاج؟

ـ مرضها، يانطاسي، لا يقبل العلاج. أخذوا بأهون الشرّين. عمليات جراحية صغيرة لا تؤذي، وفي نفس الوقت تشبع إدمانها. تستطيع ليز أن تجري عملية جراحية كل شهرين بقية حياتها. هل أخبرتك أني رأيت مايكل جاكسون في المصحّة؟

ـ وشو كان يعمل؟

ـ أجرى ٥٥٠ عملية تجميلية. ثم بدأ التجارب على لون بشرته، لوّنها بالأزرق. ثم بالأحمر. ثم بالقرمزيّ. ثم بالأخضر. ثم بالأبيض. ثم بالأشقر...

ـ مش معقول!

ـ معقول ونص! حتى انتهى إلى لونه الحالي الذي لا يعرفه أحد. لا هو ولا نحن ولا أنتم.

ـ هل عرفته جيّداً؟

ـ عادي! يعني! علاقة عابرة. الزلمة قليل الكلام. ويتجنّب الغرباء. ولا يشعر بالطمأنينة إلا مع ليز والأطفال الصغار والجثث المحنّطة.

ـ فظيع!

ـ صدقت! ولكن أفظع ما مرَّ بي في المصحة هو أنني رأيت الجنرال موشيه بن نمرود بن عادياء، رئيس الموساد سابقاً. حقيقة الأمر، أنه تعرّف عليّ قبل أن أتعرّف عليه. وبدأ في الكلام: «شالوم، يا پروفسور! ماذا تفعل في مصحة يملكها يهود يا عدوّ اليهود؟!». قلت: «شالوم يا جناب الجنرال. «في كتاب الطبيعة المليء بالأسرار اللانهائية. أستطيع أن أقرأ القليل»». ضحك الجنرال وقال: «لا تزال تستشهد بشكسبير؟ ألم تعلّمك عفراء شمالي، الاستشهاد بناجي؟». هنا، يا حكيم، دارت بي الأرض، وأغمي عليّ، وصحوت لأجد ممرضة حسناء تقرّب زجاجة شمپانيا من أنفي. ضحك الجنرال وقال: «آسف! لم أكن أعرف أن ذكر عفراء سوف يحدث هذا الأثر. فلنغير الموضوع» قلت: «لا! أخبرني عن عفراء. هل كانت جاسوستكم؟». قال الجنرال: «المسألة جزء من كتاب الطبيعة المليء بالأسرار اللانهائية» قلت: «ماذا تفعل يا جناب الجنرال موشيه بن نمرود بن عاديّاء في مصحة أصحاب البلايين؟ أليس المفروض انكم الاسرائيليين لا تسيئون استخدام النفوذ؟ كيف تستطيع أن تدفع فاتورة المصحة؟ من راتب الجنرال التقاعدي؟».
إبتسم موشيه، وقال: «ما أظرفكم معشر الأعراب! وما أسرعكم إلى ظن السوء! أنا لست زبوناً هنا. أنا كونسلتنت». قلت: «رئيس استخبارات سابق يعمل مستشاراً لمصحة علاجية؟! ماذا تفعل بالضبط؟». قال الجنرال: «وهذه المسألة،

بدورها، جزء من كتاب الطبيعة المليء بالأسرار اللانهائية. لا يهم ما أفعله أنا. المهم ما تفعله أنت. لماذا تصرّ على معاداة اليهود؟ لماذا تستمر في محاولاتك الصبيانية لتدمير إسرائيل؟ حاولت عن طريق صلاح الدين المنصور. وفشلت. بالمناسبة، هل رأيته هنا؟ رأيته؟ هل أخبرك أنه قتل صديقته التي لفتت نظره إلى سمنته؟ أصبح المنصور الآن من أعزّ أصدقائنا. ثم حاولتَ مع برهان سرور. وفشلتَ مرة ثانية. بالمناسبة أمه هنا. هل رأيتها؟». قلت: «أمّه؟! أم برهان سرور؟! هنا؟! ماذا تفعل هنا؟!». قال: «جاءت تعمل ريجيم». قلت: «الفلاحة العجوز العجفاء المصابة بإنيميا جاءت إلى هذا المكان للريجيم؟!» قال: «كان زمان! أصبحت الآن متختخة». قلت: «وهل أصبح برهان سرور من أعز أصدقائكم أيضاً؟». قال: «تستطيع أن تقول ذلك. سوف أفشي لك الآن سراً خطيراً. جزء من مهمتي هنا حماية أم برهان سرور من حرس صلاح الدين المنصور». قلت: «فظيع! فظيع!». قال: «صدقت! صدقت! وماذا عنك؟ متى تنوي أن تنضمّ إلى الركب؟ متى تنوي الالتحاق بمسيرة السلام؟». قلت: «يا جناب الجنرال! فليكن الجواب جزءاً من كتاب الطبيعة المليء بالأسرار اللانهائية. شالوم!».

ـ وماذا فعلت بعد أن خرجت من المصحّة؟

ـ عدت إلى السياسة التي قررت اعتزالها. بمحض الصدفة!

ـ كيف؟

ـ بمجرد خروجي من المصحّة رأيت ضياء المهتدي.

ـ مش معقول.

ـ معقول ونص! كنت أتمشى على شاطىء بحيرة جنيف، في تلك اللحظات السحرية التي تسبق مهرجان الغروب. فجأة، وجدت شخصاً يهجم عليّ، ويعانقني، ويردد: «وقد يجمع الله الشتيتين بعدما :. يظنان كلّ الظن ألاّ تلاقيا». تأمّلت، فإذا بي أمام ضياء المهتدي. لم يتغيّر كثيراً. دبّ الشعر الأبيض إلى لحيته. أصبح أكثر وقاراً، وأعظم هيبة. وازداد بريق الرضا النابع من ملامحه. قلت: «أخي ضياء! كيف نجوت من قبضة برهان سرور؟». قال: «قصتي بسيطة. رتب حزب النور هربي. خرجت متنكراً في زي عامل نظافة. كانت مغامرة ولكن الله سلّم. الغريب خروجك أنت. كيف خرجت؟». نظرت إليه، وابتسمت، ولم أجب. قال: «هل تعرف أن برهان سرور جاء بنفسه ليشهد شنقك؟». قلت: «رأيته ولكني لم أكن متأكداً. الجميع يشبهونه كما تعرف». قال ضياء المهتدي: «أصيب برهان، يومها،

بإنهيار عصبي. مؤقّت مع الأسف. يقال إن هروبك هو السبب في انهياره. الكل يعرفون أنك هربت ولا أحد يعرف كيف. آه لو سمعت الإشاعات!». قلت: «أسمعني!». قال: «يشاع أنك اختفيت في الجدار!». قلت: «وماذا تقول أنت؟» قال: «قدرة الله لا يعجزها شيء. ولكنني أستبعد حكاية الجدار. قل لي كيف نجوت». قلت: «لن تصدّقني لو أخبرتك». قال: «جرّبني!». قلت: «جاءت زوجتي الجنيّة دفايّة وأخذتني معها إلى عالم الجنّ. خرجنا، فعلاً، عبر الجدار». وهنا انطلقت ضحكات ضياء المهتدي عاليه مجلجلة سعيدة. توقف بعض السويسريين، وحدجونا بنظرات غاضبة. بغضاء أهل سويسراء وثقلاء! شخص يضحك على البحيرة فيتوقفون وينظرون إليه بغضب، كما لو كان يتحدث بأعلى صوته في مسرح مزدحم في لندن. هل رأيت، في حياتك كلها، سويسرياً دمه خفيف؟ هذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا فضيلة الدكتور ضياء المهتدي. بعد أن انتهى من الضحك، قلت له: «دعنا مني الآن. نجوت بمعجزة، والسلام. ماذا عنك أنت؟ ماذا تفعل في سويسراء؟». قال: «أشرف على الجهاد. وأبشّرك أن النصر قريب جداً. وعندما تقوم دولتنا الإسلامية في عربستان ٥٠ سيتبعها العالم الإسلامي كله. من أقصاه إلى أقصاه». قلت: «أخشى، يا أخي ضياء، أني سمعت كلاماً مشابهاً من قبل». قال: «سمعته من زنادقة وملاحدة». قلت: «أخي ضياء! أخاف أن تعتقلنا السلطات السويسرية بتهمة النقاش العلني على ساحل بحيرة جنيف. لماذا لا تزورني غداً في الفندق لنتحدث بهدوء؟» قال: «في فندق الرويال الذي تسكنه وتملكه يا بروفسور؟». قلت: «براڤو، يا أخي ضياء، براڤو!». زارني فضيلته، وقضينا يوماً وليلة في نقاش متواصل.

- يخزي العين! وحكيتو عن شو؟

- أخشى، يا حكيم، أن النقاش كان في مجمله فقهياً وشرعياً وفيه نقاط كثيرة قد لا تهمك. ونقاط قد لا تستوعبها.

- جرّبني!

- حسناً! بدأ الدكتور ضياء المهتدي الكلام، وبدأه بصراحة تامة. قال: «إسمع، يا بروفسور! أعرف أنك عقدت آمالاً عريضة على صلاح الدين المنصور، ثم خابت. وآمالاً أعرض على برهان سرور، ثم خابت. والذي يلدغه الثعبان يخاف من الحبل، كما يقولون. أنت، الآن، تخشى أن تتكرّر التجربة معي. أليس كذلك؟». هززت رأسي موافقاً، ولم أتكلّم. واستمر الدكتور ضياء المهتدي: «لن أخدعك. ولن ألتزم بوعود وأتخلّى عنها. سوف أضع برنامجي بين يديك الآن.

وتأكّد أني لن أخرج عنه قيد أنملة». وهنا أخرج الدكتور ضياء المهتدي من جيبه كتاباً صغيراً قدّمه لي، وقال: «هذا هو برنامجي!». نظرت إلى الكتاب، وقلت: «معالم في الطريق؟» قال: «نعم. للشهيد العظيم سيّد قطب، قدّس الله سره. هل سمعت بهذا الكتاب، يا پروفسور؟». قلت: «سامحك الله يا فضيلة الدكتور! كيف أسمّي نفسي البروفسور ولا أعرف أهم كتاب صدر في العالم العربي خلال نصف القرن الأخير؟!». قال فضيلة الدكتور مصححاً: «خلال القرون الخمسة الأخيرة!» قلت: «حسناً! لن أعارضك ولن أوافقك. لا أملك قاعدة معلوماتية تكفي للحكم»، قال: «إذن، فأنت تعرف ما يحتويه الكتاب؟». قلت: «أعرف الكتاب جيّداً، تستطيع أن تقول إني قتلته بحثاً. وهذا مجرد تعبير فالكتب لا تقتل. يقتل أصحابها، ولكنها لا تقتل. هل تسمح لي يا فضيلة الدكتور..». قاطعني فضيلته: «لا داعي للألقاب! المؤمنون أخوة». قلت: «أحسنت! هل تسمح لي، يا أخي ضياء، أن أقول إن استشهاد سيّد قطب أضفى على أفكاره من البريق ما لم تكن لتحصل عليه لو أنه مات ميتة طبيعية؟». تجهّمت ملامح فضيلة الدكتور وقال مستنكراً: «هل أفهم من هذا أنك ترى أن أهمية فكر سيد قطب نابعة من استشهاده؟». سارعت إلى القول: «لا، يا أخي ضياء. لا، والله!، ليس هذا قصدي. أفكار سيد قطب تستمدّ أهميتها من قيمتها الذاتية. كل ما قصدته أن استشهاد الكاتب أضاف إلى الأفكار القيّمة الكثير من البريق». قال فضيلة الدكتور: «البريق؟ ما للأفكار وللبريق؟ لم أفهم». قلت: «يا أخي ضياء! الموضوع لا يستعصي على الفهم. هذه الظاهرة معروفة ولا تقتصر على سيد قطب، رحمه الله. خذ سقراط. خذ الحلاّج. خذ السهروردي. خذ لوركا». قال فضيلته: «سقراط ولوركا؟!». قلت: «آسف! كانت ملاحظة عابرة. مجرد رأي شخصي». قال: «حسناً! هذا الكتاب يمثّل البرنامج الذي سيلتزم به حزب النور عندما يمكنه الله في الأرض». قلت: «عفواً يا أخي ضياء! هذا الكتاب هو مجموعة مقالات. والمقالات تضمّ اجتهادات. بعضها مصيب وبعضها مخطىء. وهي، في النهاية، تعميمات. الكتاب لا يضم أي برامج مفصّلة أو خطوات محدّدة يمكن...». قاطعني فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «رحم الله الشهيد العظيم! كأنه يستمع إليك، الآن، من سجف الغيب. إسمع رده: «والذين يريدون من الإسلام أن يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب وأن يصوغ تشريعات للحياة، بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرّر فعلاً أن يحكّم شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها، مع تملّكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفّذه، الذين يريدون من الإسلام هذا لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة كما يريد له الله. إنهم يريدون منه أن يغيّر طبيعته

ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية، ومناهج بشرية، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، رغبات إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة، يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب نظريات وفروض تواجه مستقبلاً غير موجود...»». وهنا قاطعته: «لا أدري من هؤلاء الذين يتحدّث عنهم الشهيد. أما أنا فأواجه مستقبلاً موجوداً هو وصول حزب النور إلى الحكم عن قريب. تعميمات الشهيد تصلح شعارات للوصول إلى الحكم. ولكنها لا تصلح برنامجاً للحكم». تنهّد فضيلة الدكتور ضياء المهتدي وقال: «سبحان الله يا أخي! وهل الأنظمة الجاهلية التي تحكم في كل مكان تحكم ببرامج ممتازة مثالية متكاملة؟». قلت: «هنا المشكلة، يا أخي ضياء. لا أحد يحكم ببرنامج. كل حزب يطرح شعارات. «كل حزب بما لديهم فرحون». ما الفائدة من حزب جديد وشعارات جديدة بدون برنامج جديد؟». قال فضيلته منفعلاً: «ولكننا لسنا حزباً عادياً. لسنا كالآخرين. نحن حزب الله!» قلت: «عفواً! ماذا تقصد؟». قال «أعلنها الإمام الشهيد مدوية حين قال: «إن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدّد. وأحزاباً أخرى كلها للشيطان والطاغوت»». قلت: «مع احترامي الشديد للإمام الشهيد ولك، هذه مغالطة. حتّى في صدر الإسلام كان هناك أكثر من حزب. حتّى في عهد النبوّة». قال فضيلته مستغرباً: «كيف؟» قلت: «كان المهاجرون حزباً. وكان الأنصار حزباً». قال: «كانوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص». قلت: «كانوا كذلك في مواجهة الأعداء. فيما بينهم كانت هناك مناوشات تعرفها كما أعرفها، تداركتها، دائماً، حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام. وأنت تعرف ما حدث في أعقاب غزوة حنين، وكيف غضب الأنصار، وكيف هدّأهم عليه السلام. بعد وفاته ﷺ، برز الأنصار حزباً سياسياً في مواجهة حزب المهاجرين. وكأيّ حزب سياسي قدّموا مرشحهم لرئاسة الدولة». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي محتدّاً: «لم تكن المسألة مسألة أحزاب. كانت مسألة اجتهادات». قلت: «وماذا عن الثورة التي انتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه؟ ألم يكن الثوار حزباً؟». قال فضيلته: «كان عثمان على حق». قلت: «قد يكون للإمام الشهيد رأي آخر. ولكن دعنا من هذا الآن. ماذا عن حرب الجمل؟». قال: «كان عليّ على الحق». قلت: «صدقت! ولكن هل كان حزب عائشة أم المؤمنين حزب الشيطان؟» قال: «العياذ بالله! العياذ بالله! كانوا جماعة اجتهدت فأخطأت». قلت: «وماذا عن حزب عليّ وحزب معاوية؟». قال فضيلته: «كان عليّ على الحق». قلت: «صدقت! ولكن أغلبية المسلمين، وقتها، كانت مع معاوية. هل تعتبر حزب معاوية حزب الشيطان؟» قال: «العياذ بالله! العياذ بالله! كان معاوية مجتهداً وأخطأ». قلت:

«حسناً! هل تريد منا، أهل القرون الأخيرة، أهل الذنوب والمعاصي والخطايا، أن نكون أفضل من الصحابة؟». قال: «العياذ بالله! العياذ بالله! من يريد ذلك؟». قلت: «أنت!» قال: «أنا؟ كيف؟». قلت: «عندما تقول إنه لا يمكن أن يوجد سوى حزب واحد هو حزب الله فأنت تتوقع منا أن نكون أفضل من الصحابة الذين انقسموا إلى أحزاب. أحزاب متقاتلة». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «لا أتحدّث عن خلافات داخل التصوّر الإسلامي. هذه حدثت، وتحدث، وستحدث. أتحدّث عن الخلاف بين التصور الإسلامي، والتصور غير الإسلامي». قلت: «ومن يحدّد التصوّر؟» قال: «جماعة المسلمين» قلت: «عندما رشح الأنصار سعد بن عبادة لخلافة الرسول هل كانوا خارجين عن التصوّر الاسلامي؟». قال: «العياذ بالله! العياذ بالله! كانوا مجتهدين وأخطأوا». قلت: «ولكن جماعة المسلمين تؤمن أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «الأئمة من قريش». هل أنت يا فضيلة الدكتور من قريش؟». قال غاضباً: «سبق أن قلت لك لا داعي للألقاب». قلت: «حسناً! هل أنت يا أخي ضياء من قريش؟». قال: «هذا العبد الضعيف العاجز ليس قضيّة». قلت: «ماذا ستقول لمن يزعم أنك خالفت التصوّر الإسلامي عندما تطلعت إلى الحكم وأنت لست من قريش؟». قال: «أقول له ما قلت لك. شخصي ليس القضية». قلت: «حسناً! ماذا عن الشيعة؟». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «ماذا عنهم؟». قلت: «الشيعة لا يرون الخلافة إلا للإمام الفاطمي المعصوم المُعين بأمر إلهي. ولهذا الامام وحده الحق في السمع والطاعة، حاضراً كان أم غائباً. هل يتمشى هذا، في رأيك، مع التصوّر الإسلامي للحكم؟». قال فضيلته: «اجتهدوا وأخطأوا» قلت: «وماذا ستفعل بهؤلاء المجتهدين المخطئين؟ تقبلهم في حزب الله؟ أم تنفيهم إلى الحزب الآخر؟» قال: «سبق أن قلت لك ان الاجتهادات داخل التصوّر الإسلامي مقبولة». قلت: «وهل هذا التسامح يشمل المسلمين الذين لا يرون رأي الامام الشهيد في الحاكمية؟». قال فضيلته على الفور: «من لا يرى الحاكمية ليس من المسلمين». قلت: «هذا، والله!، هو الغلوّ. هذا ما أودى بالخوارج». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي غاضباً: «أو كلّما أفلس نظام استشهد بالخوارج؟!». قلت: «أنا لست نظاماً. كما أني أبعد ما أكون عن الإفلاس». ضحك فضيلته ضحكة طويلة، وقال: «لا شيء كحس الدعابة». قلت: «صدقت! لا تنفعل إذا قلت لك إن الحاكمية لن تحل مشكلة بل ستثير ألف مشكلة. هذه كلمة لم ترد في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة ولا في أقوال السلف الصالح. هذه الكلمة...». وهنا قاطعني فضيلته: «سوف تقول لي الآن إن اللفظ لم يستخدمه سوى الخوارج أثناء التحكيم. وإنه اختفى من الخطاب

الإسلامي حتى بعثه أبو الأعلى المودودي. وسوف تقول لي إن المودودي تأثر بظروف الهند ورغبته في تطهير المجتمع الإسلامي من التأثيرات الهندوسية. وسوف تقول لي إن الإمام الشهيد تأثر بالمودودي وبجو الضغط والقهر والقمع الذي كتب فيه المعالم. وسوف تردد فتاوى المرتزقة الذين هاجموا الإمام الشهيد». قلت له بإعجاب: «أيْ، والله!، يا أخي ضياء كنت أنوي أن أقول لك هذا بحذافيره. كيف عرفت؟ هل أنت ساحر؟». ضحك فضيلته وقال: «ساحر؟ العياذ بالله! «ولا يفلح الساحر حيث أتى»». قلت: «إعلم، يا أخي ضياء، أن ابن حزم الأندلسي، رحمه الله، خالف كل الأئمة في موضوع الساحر ورأى أنّه لا يُقتل بل يُعزّر. هل يخرجه، هذا، عن التصور الإسلامي للسحر؟» قال ضياء المهتدي: «لن أسمح لك باستثارتي». قلت: «حسناً! نعود إلى موضوعنا، ألا ترى أن تكفير المسلمين المؤمنين لمجرد عدم اتفاقهم مع سيد قطب في مسألة الحاكمية لا يخلو من تطرف؟». قال: «نحن لا نكفّر أحداً. الذي لا يؤمن بحاكمية الله يصبح كافراً بالله تلقائياً. ما جدوى الإيمان بإله لا تقبل حكمه؟ من هذا المنطلق رأى الإمام الشهيد أن المجتمعات المعاصرة مجتمعات جاهلية. يقول رحمه الله: «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية. تصوّرات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما يحسب ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية وفلسفة إسلامية وتفكيراً إسلامياً هو، كذلك، من صنع الجاهلية». أليس هذا وضع الأمة الإسلامية اليوم، يا بروفسور؟». قلت: «في ملاحظة سيد قطب بعض الصواب. وفيها الكثير من الخطأ. ولم تكن لديه القاعدة المعلوماتية الكافية لإصدار حكم قاطع كهذا الحكم. لا أستطيع القول إن كل العادات والتقاليد والعقائد في كل بلد مسلم جاهلية. في هذا مجازفة لا يرضاها عاقل لنفسه». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «لا يغير من طبيعة الحق أن يكون مرّاً». قلت: «ولا أن يكون حلواً! لا أرى ما قاله سيّد قطب حقاً. إنني أرتعش خوفاً وأنا أستمع إلى مفكر إسلامي يعلن أن الكثير مما يعتبر تفكيراً إسلامياً هو من صنع الجاهلية. هذا سلاح ذو حدّين. يمكن أن يوجّه إلى فكر سيد قطب نفسه». قال ضياء المهتدي: «الفرق بين سيد قطب وبقية المفكرين الإسلاميين أنه رفض الاعتراف بواقع الهزيمة وبفكر الهزيمة. قالها بوضوح: «إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية». قلت: «سبحان الله يا أخي ضياء! ألم يكن صلح الحديبية من أنصاف الحلول؟ ألم تكن كل الاتفاقيات مع المشركين من أنصاف الحلول؟ أليس تأليف قلوب الكفار الذين يخشى أذاهم من أنصاف الحلول؟». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «خلطت بين

البداية والنهاية. في البداية، كانت هناك دعوة، لها متطلباتها وظروفها. في النهاية استقرت الأمور، دعوة وجهاد. ولا تعايش بين إسلام وكفر». قلت: «ولكن الإسلام ضعيف اليوم يا أخي ضياء. ألا ترى أن الحرب ضد الكفار الآن ستضعفه أكثر فأكثر؟ نحن لا نملك قنابل هيدروجينية والكفار يملكونها». قال فضيلته: «كأن الإمام الشهيد كان يردّ عليك شخصياً عندما قال إن على الدعاة ألاّ يلتفتوا، «في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء وبالعرق والدماء إلى نصرٍ أو غلبة أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض» هذا هو منهجنا. نحن لا نبحث عن انتصارت». قلت: «من لا يبحث عن انتصارات سيمنى بهزائم. ثم ما هذه النظرة الدموية العنيفة؟ جماجم وأشلاء!! لم لا نأخذ دروساً من انتصار الإسلام في عهد النبوة؟ لم يكن الطريق مفروشاً بالجماجم والأشلاء. سقط عدد من الشهداء في كل غزوة. ولكن كم عدد الذين استشهدوا في الغزوات كلها؟». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «لا توجد لديّ إحصائية». قلت: «ولا لديّ. ولكني أشكّ أن العدد تجاوز المئات. وإن تجاوزه فإلى عدد قليل من الآلاف. لم يكن الطريق مفروشاً بالجماجم والأشلاء. كان مفروشاً بالحب والحكمة والموعظة الحسنة والعفو عند المقدرة والتسامح. لم يبدأ الرسول عليه السلام أحداً بحرب قط». قال: «هذه قراءة رومانسية للتاريخ، يا بروفسور». قلت: «كان سيد قطب، ذات يوم، قطباً من أقطاب الرومانسية». إبتسم فضيلته وقال: «أفهم من كلامك أنك ترى أن الجهاد قد انتهى؟ نتعايش مع الكفار وتنتهي الدعوة؟». قلت: «العياذ بالله! العياذ بالله! الجهاد سنام الإسلام. الجهاد ماض إلى يوم القيامة. ولكني أرى أن الجهاد العسكري مرتبط بتوفر شروطه». قال: «وما هي شروطه؟!». قلت: «الحد الأدنى هو أن تكون هناك إمكانية معقولة للانتصار. بدون ذلك يتحوّل الجهاد إلى انتحار». قال فضيلته: «أنت تتكلم، يا بروفسور، وكأن الجهاد خيار ضمن عدة خيارات مقبولة. خيار نتبناه عند الحاجة، ونطرحه عند الضرورة. ولكن الحقيقة هي أن الجهاد هو الخيار الوحيد. لا يوجد بديل. يقول الشهيد العظيم: «الإسلام ليس مجرد عقيدة حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان. إنما هو منهج يتمثّل في تنظيم حركي يزحف لتحرير كل الناس، والتجمّعات الأخرى لا تمكّنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو، ومن ثم يتحتّم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام». قلت: «التجمعات والأنظمة؟! أمريكا واليابان وروسيا والصين وأوربا؟! هل تعتقد أن هذه الدول ستقف مكتوفة الأيدي وتسمح لك بإزالتها؟!». قال: «سبق أن قلت لك إننا لا نبحث عن نصر عاجل». قلت: «ولا يجب أن نبحث عن موت محقّق. القوة الآن للعلم يا أخي ضياء. أصبع

تضغط على زر فيموت ملايين البشر. ما لم تملك هذا الزرّ فلا تبدأ معركة مع من يملكه. وأنا بصراحة، يا أخي ضياء، لست متفائلاً بازدهار العلم في دولة تتّخذ من أفكار سيد قطب دستوراً لها». قال فضيلته مستنكراً: «ماذا تقصد؟». قلت: «هات الكتاب! يقول سيّد قطب: «أصبح نتاج الفكر الأوربي بجملته ـ شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان في جميع البقاع ـ شيئاً آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقدمات التصور الإسلامي». أخشى لازم هذا المذهب». قال فضيلته: «لازم المذهب ليس بمذهب. ولكن ماذا تخشى؟». قلت: «أخشى أن يؤدي رأيه إلى رفض العلوم كلها باعتبارها نتاج فكر أوربي جاهليّ». قال فضيلة الدكتور: «ولكن الإمام الشهيد استثنى العلوم التطبيقية البحت». قلت: «أخشى أنه لم يستثنها». إسمع ما يقوله: «إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، وعلم طبقات الأرض». هذا كلام غريب، يا أخي ضياء. كيف توجد لعلوم طبيعية كهذه قاعدة إيمانية؟». قال ضياء المهتدي: «أوضح الإمام الشهيد قصده عندما قال إن الهوى المنحرف استخدم هذه العلوم للانحراف عن الله». قلت: «أنا لا أتحدث عن الهوى. أتحدث عن العلم. العلم علم! العلم هو محاولة لاكتشاف القوانين التي أودعها الخالق خليقته. إذا سبق المسلمون إلى اكتشافها، فهذا الأولى. أما إذا سبق غير المسلمين فهذا لا يغير من طبيعتها العلمية؛ لا يوجد قانون جاذبية إسلامي وقانون جاذبية كافر. ولا توجد معادلات رياضية صالحة ومعادلات طالحة. وإذا رأى الشهيد العظيم غير ذلك، فقد كان الشهيد العظيم على خطأ». قال ضياء المهتدي: «التقدم الجاهلي مرفوض حتى عندما يكون تقدماً علمياً». قلت: «معذرة يا أخي ضياء! لا يوجد تقدم علمي جاهلي وتقدم علمي إسلامي. يوجد تقدم علمي وتخلّف علمي. الشر في القرار السياسي الذي يسيىء استخدام العلم، لا في العلم نفسه. العلوم محايدة». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «لقد جادلتني فأطلت جدالي. هل أفهم من هذا أنك لا تنوي مساندة حزب النور؟». قلت: «على العكس. حزب النور يستحقّ الفرصة التي نالها غيره. ومن يدري؟ قد يكون رأيك هو الصواب ورأيي أنا الخطأ». قال: «إذن، فستدعمنا؟». قلت: «سوف أعطيك نفس المبلغ الذي أعطيته برهان سرور». ضحك فضيلة الدكتور وتلا: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم». قلت: «وأطبق المفسرون على أن عسى هنا تعني التأكيد فالغفور الرحيم أكرم من أن يمّني ولا يعفو». قال: «عفا الله يا أخي عني وعنك!».

ـ ودفعت له نصف مليار؟

ـ دفعت، يا طبيب.

ـ أعطيتها هالزلمة المجنون؟

ـ الزلمة لم يكن مجنوناً، يا دكتور. الزلمة كان عاقلاً جداً، مع شيء من الغلوّ. وقعت الشيك وسلّمته له وودعته إلى الباب الخارجي. عند عودتي فوجئت بامرأة عجوز تسحبني من ذراعي سحباً إلى ركن من أركان الفندق. ظننت نفسي عرضة لهجوم جنسي صاعق من الحيزبون، وكنت على وشك الصياح في طلب النجدة، عندما أزالت العجوز شعرها الأشيب الطويل ونظارتها السوداء. تأملت الوجه المبتسم أمامي وقلت: «جناب الجنرال موشيه بن نمرود بن عادياء!! عليك اللعنة!». قال: «شالوم يا صديقي البروفسور! تدفع كل هذه البلايين لتدمير إسرائيل؟ لو رشوت بها قادة إسرائيل لدمّروها لك. هاه! هاه! أنا أمزح بطبيعة الحالّ». قلت: «ما أخفَ دمكم معشر الإسرائيليين! وما أكثر مزاحكم! كنت تتنصّت عليّ؟ وفي فندقي؟ هذه، والله! هي الخوتزبا». قال: «أعرابي ويعرف اليِدْشِ! حِكَمْ! ألم تسمع، يا بروفسور، بالقول الشائع: «العالم قرية إلكترونية واحدة»؟ في هذه القرية لا شيء أسهل من التنصّت. عندما تمتلك الأجهزة المتطورة». قلت: «سمعت كل ما دار بيني وبين ضياء المهتدي؟». قال: «سمعته وأعجبني النقاش. محاورة فقهية دسمة!»، قلت: «لا تقل لي، رجاءً، أن ضياء المهتدي من عملائكم!». قال: «هذا المتطرف؟ لو عرف أنني هنا لأرسل إليّ من يغتالني». قلت: «ما رأيك فيه»؟ قال: «سوف يحكم عربستان ٥٠ في القريب. خلال سنة. أو سنتين على الأكثر». قلت: «وكيف توصّلت إلى هذه النتيجة؟». قال الجنرال: «المدّ الأصولي، هناك، كاسح كالسيل». قلت: «لا تقل لي، رجاءً، إنكم وراء المد الأصولي». ضحك موشيه ضحكة طويلة وقال: «ما أشدّ حبكم معشر الأعراب لنظرية المؤامرة! لا! لسنا وراء المدّ الأصولي. هذا المدّ كاسح لأنه يتمشى مع تطلعات الجماهير». قلت: «وكيف كان ذلك أيها اليهودي الصهيوني الذي ينظّر للأصولية الإسلامية؟». قال: «إعلم يا بروفسور، أن الجماهير تشعر بالكثير من المرارة. وبالكثير من الغضب. تشعر أن الأنظمة الفاسدة تخنقها وتمصّ دماءها. تشعر بحنين إلى تغيير شامل. إلى حركة تقتلع الأشياء من جذورها. وضياء المهتدي شخصية قيادية كارزماتية. ووصوله إلى السلطة شيء مفروغ منه». قلت: «ألا يفزعكم ذلك؟ ألا تخشون أن يقود جهاداً مسلّحاً ضدكم؟». ابتسم الجنرال وقال: «لن نعطيه الفرصة». قلت: «كيف؟». قال: «بعد وصوله إلى الحكم بفترة قصيرة ستنشب حرب بين عربستان ٤٩ وعربستان ٥٠. وستدمر القوة العسكرية للبلدين». قلت: «هل أصبحت منجّماً، يا

موشيه؟». قال: «لا يحتاج الأمر إلى منجمين» قلت: «وماذا عنكم؟». قال: «سوف نزود الطرفين بالأسلحة. عن طريق أطراف ثالثة، بطبيعة الحال». قلت: «بطبيعة الحال! لماذا تخبرني بكل هذه الأسرار؟». قال: «أولاً، لأنك لن تستفيد منها. لن يصدقك أحد. وثانياً، لأني أستلطفك. فيك شيء طفولي ساحر من البراءة والطيبة». قلت: «هذا الطفل لا يصدّق أنكم لا تخافون المدّ الأصولّي». نظر إليّ الجنرال طويلاً ثم قال: «لا نخاف أي حركة تنتهي بتسلّط فرد. التعامل مع فرد أمر سهل. بمجرد أن تعرف نقاط ضعفه تصل إلى مقتله. في كل إنسان نقاط ضعف. حصان طروادة! وكعب أخيل! خذ صديقك العزيز صلاح الدين المنصور. اكتشفنا، في وقت مبكّر، أن نقطة ضعفه هي حب المال. زيّنا له المسألة عن طريق مستشارين زرعناهم هنا وهناك. وفرص قدمناها هنا وهناك. وشغله حب المال عن كرهنا. لم يعد عدوا لنا. خذ صديقك العزيز برهان سرور. بمجرد أن اكتشفنا جنون العظمة الكامن في أعماقه تنفسنا الصعداء. صدّق أو لا تصدّق أنّنا، عن طريق عملائنا، أول من بدأ التماثيل والجداريات. والباقي تعرفه جيّداً. إنشغل الرجل بحب نفسه عن كرهنا. لم يعد مصدر خطر». قلت: «شالوم يا جناب الجنرال!». قال: «شالوم أيها الطفل البريء!».

ـ وشو عملت، يا پروفسور؟

ـ ماذا تتوقع مني أن أعمل؟

ـ أن تحذّر ضياء المهتدي من الوقوع في الفخ.

ـ أحسنت! هذا، بالضبط، ما عملته.

ـ واقتنع؟

ـ لم يقتنع. دار بيننا نقاش طويل آخر. قلت له: «يا أخي ضياء! هل تسمح لي بتقديم نصيحة صادقة؟». إبتسم فضيلته، وقال: «هل بدأت تفرض شروطك عليّ مقابل الدعم؟». قلت: «يا أخي ضياء! لا شروط ولا فرض. مجرد نصيحة. والدين النصيحة». قال: «صدقت! صدقت! مرحباً بالناصح الأمين!». قلت: «تجنب الاحتكاك ببرهان سرور. تجنب ذلك، بأي ثمن». إربدّت ملامح ضياء المهتدي وقال بغيظ لم يفلح في كتمانه: «ما هذه النصيحة، يا پروفسور؟! هل نسيت أنه حاول إعدامك وحاول إعدامي؟». قلت: «لم أنس. ولن أنسى حتى أموت. ولكن القضية تتجاوز الثأر الشخصي. تجنّب الاشتباك معه». قال فضيلة الدكتور ضياء المهتدي: «القضية، فعلاً، تتجاوز الثأر الشخصي. هذا المجرم هو

رأس حزب الطاغوت في الأمة الإسلامية كلها، فكيف يمكن التغاضي عنه؟». قلت: «لا حول ولا قوّة إلا بالله!». قال مستغرباً: «تحوقل خوفاً من مواجهة مع الطاغوت؟! ينبغي أن أن تُسّر بذلك». قلت: «يا أخي ضياء! أنا وأنت نعرف برهان سرور جيداً. والرجل لم يصبح رأس حزب الطاغوت لطيبته وحنوّه ودماثة أخلاقه. الرجل خبيث وماكر. والمعركة معه لن تكون سهلة. المعركة ستطول. ويقع ضحايا من الجانبين. ضحايا من المسلمين الأبرياء. الذين لا يفهمون حتى معنى الطاغوت». قال: «شهداؤنا في الجنة وقتلاهم في النار». قلت: «يا أخي ضياء! هذا هجوم على الغيب لا يليق بعالم. هل كشفت عن ضمير كل جندي يحارب مع برهان سرور؟ فيهم مسلمون أتقياء أنقياء. تأكد أن برهان سرور سوف ينجح في إقناعهم أنهم حزب الله وأنهم يحاربون حزب الشيطان». قال ضياء المهتدي: «ليس في صفوف الطاغوت مسلمون أتقياء أنقياء. ومع ذلك، فنحن لن نأخذهم على حين غرة. سوف نشرح الأمور. سوف نوضّح كل شيء بالأدلة الشرعية. لن نترك لهم أي مجال للشك في أنهم يحاربون تحت راية الشيطان. إذا أصرّوا على القتال، فالإثم عليهم». قلت: «حسناً! ألا يمكن تأجيل المواجهة بعض الشيء؟ ٥ سنوات مثلاً؟ حتى توطّد حكمك. كل الدراسات المتوفّرة تقول إنه يستطيع توجيه ضربة موجعة لعربستان ٥٠. قد تكون ضربة قاتلة. لماذا تغامر بمستقبل بلادك؟». هنا، يا نطاسي، أومضت عينا فضيلة الدكتور بنور عجيب أذهلني، وشع في قسماته تيار مهيب من السكينة، وهو يقول: «قال الشهيد العظيم: «إن المؤمن لا يستمدّ قيمه وتصوراته من الناس، حتى يأسى على تقدير الناس، إنما يستمدّها من رب الناس وهو حسبه وكافيه. إنه لا يستمدّها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق. إنما يستمدّها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل. إنه لا يتلقّاها من هذا العالم الفاني المحدود، إنما تنبثق في ضميره من ينابيع الوجود. فأنّى يجد في نفسه وهناً، أو يجد في قلبه حزناً، وهو موصول بربّ الناس وميزان الحق وينابيع الوجود...». قاطعته متسائلاً في حيرة: «ينابيع الوجود؟!». تجاهلني فضيلته، واستمرّ: «انه على الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وليكن للضلال سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، ولتكن معه جموعه وجماهيره، إن هذا لا يغيّر من الحق شيئاً. إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال». تركت فضيلة الدكتور ضياء المهتدي في شبه غيبوبة سعيدة وعدت إلى الفندق. ما إن دخلت البهو حتى رأيت رجلاً مقعداً ينتظرني على كرسيّ نقّال. هزَّ المقعد رأسه عدة مرات، وقال: «لا فائدة معك، يا بروفسور!». قلت: «يا جنرال! حلّ عن مؤخّرتي!». قال: «حسناً! حسناً! ولكن قبل أن أذهب دعني

أترك معك السر الأكبر. سر الأسرار! السرّ الأعظم! نحن لا نخاف إلا الديمقراطية. عندما يزول حكم الفرد وتبدأ تجربة ديمقراطية حقيقية في أي مكان من عربستان فسوف تكون هذه بداية النهاية لنا. ولكن أين أنتم من الديمقراطية؟ أين أنتم من الديمقراطية؟ شالوم أيها الولد الحبيب!». قلت: «إلى حيث القت، يا موشيه!».

ـ وبعدين شو صار يا پروفسور؟

ـ بعدها، يا دكتور، انغمست في تفكير عميق محوره الديمقراطية. ظلّت كلمات الجنرال اللئيم تطنّ في أذني وفي روحي «أين أنتم من الديمقراطية؟». «أين أنتم من الديمقراطية؟». «أين أنتم من الديمقراطية؟». سبحان الله! هل البشر في الديمقراطيات من طينة غير طينتنا؟ خصوصية التجربة الديمقراطية الأوربية مفهومة. وخصوصية التجربة الديمقراطية الأمريكية معروفة. ولكن ما المانع من وجود تجربة ديمقراطية عربستانية لها خصوصيتها؟ ما المانع؟ حتى الهنود، الذين لا أحبهم كثيراً، لديهم ديمقراطية. الديمقراطية، كما قال ونستون تشرشل، ليست نظاماً جيداً للحكم، ولكن الأنظمة الأخرى أسوأ بكثير. وهذا تلخيص جيد للقضية. في الديمقراطية، على كثرة عيوبها، لا يمكن لفرد واحد أن يزج بالأمة في متاهات حسب مزاجه. يحارب يوماً، ويعدم المطالبين بالصلح. يصالح غداً، ويعدم المطالبين بالحرب. يحارب إذا إجا على باله. ويصالح إذا إجا على باله. يؤمم يوماً، ويخصخص يوماً. وأنت وحظّك! إذا قابلته يوم التأميم أممك! وإذا قابلته يوم الخصخصة خصخصك! مثل النعمان الذي كان له يوم سعد ويوم نحس. إذا قابلته يوم سعده أغناك. وإذا قابلته يوم نحسه قتلك. بقطع الوريد. ولما كان الشعراء مناحيس بالسليقة فقد كانوا لا يلقونه إلا يوم نحسه. وترتوي الرمال بالدماء الشاعرية. وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا الديمقراطية. تستطيع أن تقضي مائة سنة في قراءة كتب عن الديمقراطية. ومائة سنة في تأليف كتب عن الديمقراطية. ولكن العمر لا يتسع لهذا كله. حتّى پروفسور مثلي لا يستطيع أن يقوم بهذا المجهود الفكري. وهذا المجهود قام به كثيرون قبلي ولم ينتج ديمقراطية تذكر. عدت إلى نقطة الانطلاق: مركز التفكير. اخترت مجموعة من المفكرين العربستانيين الشباب النوابغ وكلّفتهم بمهمّة محدّدة. أن يقدّموا لي اقتراحاً عملياً. أن يختاروا أنسب دولة عربستانية لبدء التجربة الديمقراطية. وأعطيتهم مهلة سنة. في هذه الأثناء بدأت مرحلة غريبة جداً في حياتي. أصبحت سفيراً.

ـ شو ها الحكي؟

ـ ها الحكي مضبوط! وسامح الله مختار باشا البيلي. صديقي منذ أيام ستانفورد. دارت الأيام، وأصبح أميناً عاماً للجامعة العربية. تستغرب أن يصبح أحد أصدقائي أميناً عاماً للجامعة العربية؟ حدثت في التاريخ أشياء أغرب من هذه. ولا تزال تحدث. طلب مني مختار أن أكون سفيراً للجامعة العربية في واشنطن دال. سين. قلت له إني لا أصلح للدبلوماسية. ولا لأيّ شيء آخر، إذا أردت الصراحة. ولكنه أصرّ. لم يكن بوسعي أن أرفض طلباً قومياً من صديق قديم. وهكذا وجدت نفسي سفيراً للأمة العربية الخالدة في دال. سين. وخدمت القضية. كنت أعقد مؤتمراً صحفياً كل يوم، يحضره صحفي واحد على الأكثر. وكنت ألقي محاضرة كل أسبوع تستغرق ٤ ساعات على الأقل، ويحضرها ٤ مستمعين، جميعهم يعملون لديّ. وكنت أكتب مقالات لا يقرأها أحد. وإذا قرأها أحد لا يفهمها. ولكن جهادي الأعظم لم يكن بالكلام، كان بالطعام.

ـ كيف يعني؟

ـ إعلم، يا نطاسي، أن الجنديّ يخدم وطنه ببندقيّته. والعالم بذهنه. والصحفي بقلمه. والدبلوماسي بمعدته. وتضحيات الدبلوماسيين، في هذا المجال، لا توصف، ولا تقدّر بثمن. آه! آه! آه لو أبصرتني وأنا أنطلق، كعاصفة الصحراء، من حفل استقبال إلى حفل استقبال، من غداء إلى غداء، ومن عشاء إلى عشاء، ومن فطور إلى فطور، ولا أستقرّ إلا عند سفير مضياف أولم «فأهرس وأعدس وأستبذج وسكبج وطهبج وأفرج ودجّج وأبصل وأمضر ولوزج وافلوذج». كما قال البطيني القديم. والبطيني هو الدباغ، أو الأكول، أو الأكّيل. واعلم، يا حكيم، أن الثعالبي النيسابوري تكلم عن ضروب من الأكل فأفاد وأجاد. قال: إن التطعم والتلمظ هو التذوق. والخضم هو الأكل بجميع الأسنان. والقضم هو الأكل بأطراف الأسنان. والفذم هو الأكل بنهم. والقشم والسحت شدة الأكل. وأضاف أن الخمخمة ضرب من الأكل قبيح، وهو أن يطلب الأكل من هنا وهنا. وكنت أنا أخمخم في سبيل القضية لا ألوي على أحد أو شيء. ما فقدته في مصحّة جنيف خلال سنتين استرجعته في دال سين في أسابيع. لو رأيتني، لذهلت. يرتفع الكولسترول، ولا أبالي. أصاب بالتخمة ولا أهتم. تضيق بدلي، فأرميها بلا أسف. آه، يا حكيم، لو تعرف ما يعانيه الدبلوماسيون من عذاب. تصوّر نفسك تأكل، في يوم واحد، الدال الهندي، والشابو الشابو اليابانية، وبيضة الصين المخمّرة من ألف عام، والكانجرو الأسترالي، والهريسة التونسية، وأرجل الضفادع الفرنسية، والسوسجاء الجرمانية، والبصارة المصرية بالمحيزيرة السعودية، والكسكس

المغربي، وهذا كله غير زنود المدام، والبسبوساء، وعيش السراياء، والسيدة والدة الأخ علي و...

- يكفي يا پروفسور! جعت من وصفك. لماذا لا تعتذر عن الحضور؟ أو تحضر ولا تأكل؟

- بلا صغرة، يا طبيب، هذا كلام يدل على جهل دبلوماسي مطبق. هل تعرف كم حرباً قامت بسبب اعتذار سفير عن حضور حفل استقبال؟ ٥٥٠٠ حرب، غير المناوشات. ثم كيف تحضر ولا تأكل؟ «الأكل على قدر المحبة»، كما تقول بوضوح المادة الأولى من اتفاقيّة ڤينا للطبخات الدبلوماسية. هل تعرف أني الإنسان الوحيد في العالم الذي توقع غزو الكويت؟ وهل تعرف أني توقعت الغزو بسبب الأكل؟

- حاجة، يا پروفسور!

- إسمع القصة. كنت وقتها أزور دولة في أمريكا اللاتينية. وحضرت حفل استقبال أقامه سعادة السفير الكويتي. لاحظت أن سعادة السفير العراقي لم يأكل شيئاً. بادرة خطيرة! خطيرة جداً! اقتربت منه وقلت: «أبا أشوس! مالك لم تموّش ولم تدقّس؟». قال: «يعني شنو؟». قلت: «مالك لم تأكل المموّش مزخرفاً بالدقوس؟». قال: «ماكو أوامر!». هنا، دق في رأسي جرس الإنذار. قلت: «إذن، فأرهش. فالرهش الكويتي يزيل قشرة الرأس، وينظف الباطنية، ويقويّ الباه». قال سعادة السفير العراقي: «يقويّ الباه؟! وداعتك يا پروفسور؟». قلت: «وداعتك يا أبا أشوس. يقوّي الباه». مدّ سعادة السفير العراقي يده إلى الرهش، وفي آخر لحظة سحبها، وقال: «ماكو أوامر!». انطلقت، منزعجاً، إلى سعادة السفير الكويتي، وقلت: «أبا غنيم! السفير العراقي ما موّش ولا دقّس ولا أرهش». قال: «ياكل وإلاّ في الطقّاق!».

- عفواً، يا پروفسور، شو يعني في الطقّاق؟

- كلمة تنقال. يعني في ستين داهية. يعني إن شاء الله عنّو ما أكل. قلت لسعادة السفير الكويتي: «أبا غنيم! هذه أزمة خطيرة. دعنا نعالجها بالحكمة. التصعيد لا ينفع. لا بُدّ من الترطيب». قال سعادته: «من وين آييب له رطبُ الحين؟!». وكان ما كان.

- فظيع! لم أعرف أهمية الأكل الدبلوماسي من قبل.

- الآن تعرف. نحن نعيش، يا أخا فرويد، في عالم خطر جداً. أخطر من العالم الذي دفع أنشتاين إلى كتابة رسالة تاريخية إلى فرويد يسأل فيها عن علاج لمشكلة الحروب. حروب في كل مكان. أسلحة نووية مفلوتة. أمبراطوريات تتفكّك. هل تريد أن تعرض هذا الكوكب للدمار الشامل حفاظاً على رشاقة سكرتير تاسع أو عاشر؟

- إلى هذه الدرجة.

- وأكثر! الدبلوماسيون يفتدون السلام العالمي بكروشِهم. ومن هنا اقترحت اتفاقية فيّنا المشار إليها آنفاً أن تتم ترقية الدبلوماسيين بالوزن.

- كيف يعني؟

- بمجرد وصل الدبلوماسي إلى ٩٠ كلجم يصبح مستشاراً. عندما يصل إلى ١٠٥ كلجم يصبح وزيراً مفوضاً. بمجرد أن يتجاوز ١٢٠ كلجم يصبح سفيراً فوق العادة. إلاّ أن معظم الدول رفضت هذا الإقتراح لأنها تتبع هذا الأسلوب في ترقية العسكريين. لو طُبِّق أسلوب الوزن في ترقية الدبلوماسيين والعسكريين معاً لأصيبت معظم دول العالم العاشر بمجاعات.

- وشو عملت بأمريكا غير الأكل؟

- سؤال جيّد! كانت هناك قصتي مع بيتي. القصة التي انتهت بمأساة. سوف أحدثك عن ذلك بعد قليل. وكان هناك كتابي الشهير: «البيروقراطية تخنق البيت الأبيض». لم تسمع عنه؟ عجيب! بيعت منه آلاف النسخ. دراسة طريفة عن نجاح البيروقراطية في شلّ كل رئيس أمريكي.

- ممكن تعطيني خلاصة الكتاب؟

- بكل سرور. إعلم، يا دكتور، أن البيروقراطية تقتل خصمها عن أحد طريقين. إما إغراقه في التفاصيل اغراقاً تاماً، وإما حجب التفاصيل عنه كلية. وفي الحالين، يخلو الجو للبيروقراطية فتبيضّ وتصفرّ وتنقرّ. البيروقراطية تفحص غريمها بذكاء. إذا وجدته نشيطاً مُحبّاً للعمل، وركهولك، كما يقول أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان، قتلته بالتفاصيل. وإذا وجدته كسولاً يحب الراحة، لم توصل إليه معلومة واحدة. وهذا ما فعلته البيروقراطية الأمريكية مع الرؤساء المتعاقبين. آيزنهاور شلّته البيروقراطية بحجب كل التفاصيل. تركته يلعب الجولف في اسطبل داود، وفعلت ما شاءت. ثم جاء كيندي. واكتشفت البيروقراطية حُبَّه للنساء. وضعت امرأة خلف كل دولاب من دواليب البيت الأبيض. وانغمس كيندي في

نشاطاته الأفقية. ولم يقرأ ورقة واحدة خلال رئاسته. هجم على كوبا دون أن يعرف تفاصيل الخطة. ودن أن يخبره أحد أن الغطاء الجوي الأمريكي كان ضرورياً لنجاح الغزو. وحدث ما حدث في خليج الخنازير. وقال كينيدي: «النجاح له ألف أب، أما الفشل فطفل يتيم». وهي مقولة صادقة لا أدري من أين سرقها. ربّما من الشاعر الجاهلي الذي قال: «والناس من يلقَ خيراً قائلون له ∴ ما يشتهي...».

- عفواً، يا پروفسور!

- حسناً! حسناً! جاء جونسون. وكان من النوع الذي يعمل حتى يصاب بنوبة قلبية. واكتشفت البيروقراطية ذلك على الفور. قتلته بالتفاصيل. ألف موعد في اليوم. خطاب كل نصف ساعة. مؤتمر صحفي كل دقيقة. وكانت البيروقراطية ترسل له قرارات التدخل في ڤيتنام على جرعات صغيرة جداً. «نحتاج، اليوم، إلى ٥ جنود». ويوقّع الأمر. «نريد، اليوم، ٣ ضباط». ويوقّع الأمر. «نحتاج اليوم، ٩ هيلوكبترات». ويوقّع الأمر. عندما تنبّه كانت ڤيتنام تعجّ بنصف مليون جي. آي. وجي. آي تعني جندي أمريكاني. قررّ جونسون أن يتنازل عن الترشيح لفترة رئاسية إضافية. وجاء فورد.

- عفواً، يا پروفسور! تقصد جاء نيكسون؟

- براڤو، دكتور ثابت، براڤو! تعمدت ترك نيكسون لأني سوف أعود إليه بشيء من التفصيل. جاء فورد ولم يشكّل أي تحدّ للبيروقراطية. كان كلمزي! يعثر عدة مرات في اليوم. يعثر على سلم الطائرة. ويعثر على مدخل البيت الأبيض. ويعثر في المكتب البيضاوي. ويعثر في الحمّام. وكان يقضي جلّ وقته في الاستجمام من هذه العثرات. ثم جاء جيمي كارتر. وكان يقضي ٢٣ ساعة في العمل، وما تبقى من الوقت في الهرولة. «لا أنام»، كان هذا شعاره، مع الإعتذار للأستاذ إحسان عبد القدوس. هل تعرف، يا حكيم، أن إحسان عبد القدوس مظلوم مع النقاد؟ والسبب؟ السبب أنه نجح جماهيرياً. وقد سبق أن أخبرتك أن هذا يحدث للشعراء. وأخبرك، الآن، أنه يحدث للروائيين والكتّاب. ظاهرة معروفة في كل زمان ومكان. ظاهرة غير صحية. خذ، مثلاً، باربرا كارتلاند. سمعت عنها؟ لم تسمع؟ حسناً! علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ. هذه السّيدة أنتجت، حتى لحظة حديثنا، ٦٥٩ رواية. تستغرب؟ راجع، إن شئت، كتاب «جينيس للأرقام القياسية». ولكن من الأسهل أن تصدّقني. أنتجت هذه الدردبيس الإنجليزية الأرستقراطية هذا العدد الهائل من الروايات الرومانسية التي تُرجمت إلى كل لغة، وبيع من كل رواية ملايين النسخ، ومع ذلك لا تقرأ عنها مقالة نقدية واحدة.

مؤامرة الصمت؟ شيء من الغيرة؟ قليل من الحسد؟ ربّما! المهم أن إحسان عبد القدّوس يستحقّ قسطاً أكبر من عناية النقاد. والأمر نفسه يصدق على يوسف السباعي، الذي كان موهوباً رغم كونه ضابطاً. هاه! هاه! مجرد مداعبة بريئة. ألّف رواية اسمها «السقّا مات»، قرأتها ٧ مرات عندما كنت مراهقاً، وكنت أبكي كل مرّة. واحدة من أفضل الروايات العربية. ومع ذلك، مرّت بهدوء لأنّ كاتبها يوسف السباعي. ومشكلتي مع السباعي وعبد القدّوس أنهما كانا ضعيفين في القواعد، وكانا يفتخران بهذا الضعف. جاء المدرّسون أو جاء المدرسين. ما الفرق؟ لن يفهم أحد أن المقصود هو المدرسات. كلام سخيف. وعندما يجيء من روائي يصبح أكثر من سخيف. هل تعرف مشكلة الروائيين العرب المعاصرين؟ لا تعرف؟ مشكلتهم أنهم لا يحفظون ألفيّة ابن مالك. مع أنها أرجوزة ظريفة. «كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقم .·. واسمٌ، وفعلٌ، ثم حرفٌ. والكَلِمْ .·. واحده كلمة والقول...».

- عفواً، يا پروفسور! عفواً!

- حسناً! حسناً! كنا نتحدث عن جيمي كارتر وكنت أقول لك إن شعاره كان «لا أنام». أمطرت البيروقراطية جيمي مليون ورقة في اليوم. وهام في التفاصيل. أصيب بحالة ذهول وشرود. وعندما أفاق كانت الرئاسة قد انتقلت إلى رونالد ريجان. وهذا الرجل، يا طبيب، لم يكن يعمل أكثر من نصف ساعة في اليوم. أما باقي الوقت فيمضيه في التدرب على إلقاء خطبه وركوب الخيل وتشذيب الشجر ومشاهدة أفلامه القديمة. حجبت عنه البيروقراطية كل شيء. كانت تعدّ له أوراقاً صغيرة تبين ما يجب أن يفعله ويقوله في كل موقف. كان يقف وراءه، دائماً، ضابطان، ضابط يحمل الحقيبة السوداء التي تحوي مفاتيح الحرب النووية. وهذه ليست مفاتيح حقيقية بل شفرة عسكرية. وضابط يحمل صندوق الأوراق التي تتعامل مع أي موقف قد يواجه الرئيس. ثم اكتشفت البيروقراطية إيمان نانسي بالسحرة. وإذا آمنت نانسي بشيء فتأكد أن رون سوف يؤمن به. إستأجرت البيروقراطية ساحرة من سان فرانسيسكو كانت تحدد لرون أياماً لا يغادر فيها البيت الأبيض، وأياماً لا يغادر فيها واشنطن. هذا كله معروف وموثّق. لا بدّ أنك سمعت عنه؟

- نعم! نعم!

- نعم؟! نعم؟! ولماذا لم يعترض الأطباء النفسيون في أمريكا؟ أقوى دولة في العالم تديرها ساحرة من سان فرانسيسكو! لو حدث هذا في دولة من دول العالم

العاشر لقامت القيامة. شعوذة! جهل! دجل! ڤودو! بلاك ماجك! پاپا دوك! بيبي دوك! أما في أمريكا فالسحر حلو. سكسي! لم يقل أحد إن الرئيس فقد صوابه. إبتسم الجميع وهزوا رؤوسهم: «رون! جود اولد رون!» هاه! هاه! هاه! إيمان رؤساء أمريكا بالسحرة ظاهرة طريفة. أما إيمان رؤساء العالم العاشر بالمنجّمين فظاهرة خطيرة. يجب القضاء عليها فوراً. بطائرات الشبح والمارينز. حتى يصبح العالم مكاناً امناً للديمقراطية. وسحرة سان فرانسيسكو.

- عفواً، يا پروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى الموضوع؟

- لم نخرج عن الموضوع، يا نطاسي. كنت أحدثك عن رون. إنتهت فترة رئاسته دون أن يتخذ قراراً واحداً. وعندما نشأت فضيحة «إيران جيت». قال للمحققين: «أنا لا أعرف أي شيء عن أي شيء. ولا يخبرني أيّ مسؤول عن أيّ موضوع». وصدّقه الجميع. وكان يقول الحقيقة. ثم جاء صديقي جورج بوش. وأدركت البيروقراطية، على الفور، أنه نشيط في حقل السياسية الخارجية، كسول في مجال السياسية الداخلية. وتأقلمت البيروقراطية مع طبعه. تركته يفعل ما يشاء في الخارج. وعملت هي ما تشاء في الداخل. سمحت له بشن حرب الخليج ولم تعطه معلومة إقتصادية واحدة. لم يعرف صديقي جورج أن الإقتصاد الأمريكي يعاني من الركود إلا أثناء الحملة الإنتخابية، وعندها كان الوقت قد فات. ثم جاء بيل كلينتون. وهنا يدرك شهرزاد الصباح. البروتوكول يمنع من التعرّض للرؤساء وهم في الحكم.

- وماذا عن نيكسون؟

- آه! نيكسون! نيكسون، يا حكيم، كان لئيماً. مُقطّع وموصّل، كما يقولون. أدرك الأمريكان هذه الحقيقة عندما سمّوه المكّار، تِركي دِكي. عندما انتشرت الشنيعة التي تقول: «هل تطمئن إلى شراء سيارة مستعملة من هذا الرجل؟». أنا، شخصياً، لا أطمئن إلى أي سيارة مستعملة في أمريكا، ولكن هذه قصة أخرى. وكان دكي المكّار عند حسن ظنهم، أو، بالأصحّ، عند سوء ظنهم. حارب البيروقراطية بسلاحها. أمطرها بالتفاصيل. طلب منها ملايين الدراسات. شغلها بنفسها قبل أن تشغله بنفسه. أشعل الفتنة بين مراكز القوى. ألبّ الوزارة على الوزارة وحرّض الوكالة على الوكالة. وأخذ يدير الأمور بنفسه. كان هذا هو الأسلوب الذي حاولتُ اقتباسه عندما توليّت وزارة الشؤون الهامّة، كما سبق أن أخبرتك. أدركت البيروقراطية أن دكي المكّار سيقضي على سيطرتها إذا لم تقضِ عليه. وجاءت فضيحة «ووتر جيت». وانتصرت البيروقراطية، كما تنتصر دائماً وأبداً.

ـ بسّ نيكسون كان المسؤول عن ووتر جيت. شو خصّ البيروقراطية؟

ـ هل تصدّق، يا أخا فرويد، أن نيكسون هو الذي أمر باقتحام المقرّ الانتخابي للحزب الديمقراطي ليلاً؟! هل يصدّق هذا رجل عاقل؟! فعلت هذا البيروقراطية. ثم ذهبت إليه وأقنعته أن الذي أمر بالاقتحام هو صديقه الحميم جون ميتشل وزير العدل. وأمرَ نيكسون بالتكتّم ليحمي صديقه. وكانت البيروقراطية تكذب لأن ميتشل لم يأمر بالاقتحام. بدأت البيروقراطية تسرّب الأخبار وتعزوها إلى مصدر مجهول في البيت الأبيض سُمّي الحلق العميق. ديپ ثروت! وحدث ما حدث. وسُجنَ مَن سُجِنَ. واستقال المكّار. بعدها، لم يحاول أي رئيس أمريكي تحدّي البيروقراطية.

ـ فظيع!

ـ صدقت! هل تعرف من هو الزعيم الآخر الذي أوشك أن ينجح في القضاء على البيروقراطية؟

ـ برهان سرور؟!

ـ منيحه! مالك لوا! ماوتسي تونج. إستخدم أسلوباً جذرياً يشبه أسلوب هتلر في التعامل مع أولاد العمّ. قرر ماو، يا نطاسي، أن يستأصل شأفة البيروقراطية. وهذا تعبير يعني يجيب خبرها. أعلن الثورة الثقافية. في البداية، لم يفهم أحد المقصود. ظن الناس أن الثورة الثقافية تعني مضاعفة عدد المسارح وتوزيع الكتب الحمراء الصغيرة التي تحمل أفكار ماو. ثم اتضح المقصود. الثورة الثقافية تعني أنه يجوز لكل إنسان غير بيروقراطي أن يقتل من يشاء من البيروقراطيين بلا حساب أو عقاب أو عتاب. من الذي ينطبق عليه وصف إنسان غير بيروقراطي في الصين الشعبية؟ الطلبة، والطلبة وحدهم. وانطلق الطلبة يجزرون البيروقراطيين جزراً. من الوزراء إلى الضباط إلى الحزبيين إلى الموظفين. سالت الدماء أنهاراً، وامتلأت الأنهار بالجثث. إبتسم ماو وهو يرى معركته ضد البيروقراطية توشك أن تنتهي بالقضاء على كلّ كائن بيروقراطي. ثم حدث شيء غريب، يا حكيم.

ـ ماذا حدث، يا پروفسور؟

ـ آه! حدث أن تخرّج الطلبة وأصبحوا بيروقراطيين وامتنعوا عن قتل أنفسهم. حاول ماو استثارة جيل جديد من الطلبة ولكن البيروقراطيين الجدد الذين كانوا حتى عهد قريب طلبة أفسدوا خططه. أصيب ماو بكآبة نفسية شديدة حاول

تبديدها بالنوم مع صبايا عاريات. وهذا، بدوره، معروف وموثق. هل تعرف أن غاندي ظل فترة من الزمن ينام بين فتاتين عاريتين؟

- غاندي؟! المهاتما غاندي؟!

- أيْ نعم! هذه حقيقة تاريخية. قرر غاندي، ذات يوم، أن يعتزل الجنس نهائياً. يتقاعد جنسياً. ولكي يختبر قوّة إرادته قرّر أن ينام، كل ليلة، بين فتاتين عاريتين. شاطرة ومشطورة وبينهما مهاتما. إسأل أي هندي مطلع. هذا إذا وجدت هندياً مطّلعاً. مجرد تعليق عنصري سخيف. هل تعرف أن البيروقراطية قتلت صديقي جمال عبد الناصر وصديقي أنور السادات؟

- حاجة، يا پروفسور! جمال عبد الناصر مات بأزمة قلبية. وأنور السادات مات مقتولاً على المنصّة.

- صحيح. ولكن البيروقراطية هي الفاعل الحقيقي. سوف أشرح لك ما حدث بعد لحظة. دعني أعود إلى قصتي. في هذه الأثناء أنجز مركز التفكير تقريره عن الديمقراطية. كانت التوصية واضحة ومركّزة. عربستان ٦٠.

- شو فيها عربستان ٦٠؟

- إنتهى التقرير إلى أنها أنضج دولة عربستانية للديمقراطية. لديها تقاليد برلمانية تعود إلى القرن التاسع عشر. وفيها ٤٠ صحيفة. ولديها أحزاب شبه حقيقية. وفيها حاكم بلغ التسعين وليس لديه ذريّة. قطعت مهمّتي الدبلوماسية في أمريكا وسافرت إلى عربستان ٦٠. عقدت اجتماعات مطولة مع الحاكم، ومع قادة الأحزاب دفعت للحاكم ٥٠٠ مليون دولار مقابل تنازله عن الحكم. وبالفعل، أعلن الزلمة تقاعده. واختير رئيس الدولة الجديد في انتخابات حرّة. وكان مفكّراً مشهوراً. وأعيدت صياغة الدستور على نحو يضمن الحرية الكاملة.

- أنت المسؤول عن هذا كله، يا پروفسور؟

- أيْ نعم! وأعتبر أن هذا هو أعظم إنجاز في حياتي. أنا لا أعيش معكم، الآن، إلا بسبب هذا الإنجاز.

- شو قصدك؟

- لا تستعجل! جايك بالحكي. شَهدتْ عربستان ٦٠ مولد أوّل ديمقراطية حقيقية في عربستان. ليس بوسع أحد أن يعتقلك إلا بأمر القضاء. لا توجد محاكم أمن دولة ولا محاكمات عسكرية. التعذيب ممنوع. التنصّت ممنوع. تشتم رئيس

الدولة ولا تبالي. حق التظاهر مكفول. حق العمل الحزبي. حق العمل النقابي. كل شيء في إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان وضعناه في دستور عربستان ٦٠. وسارت الأمور على خير ما يرام. وتذوق الناس طعم الديمقراطية. عدت إلى أمريكا وأنا في قمة النشوة. لم أكد أصل حتى جاءت الأنباء بنجاح الثورة في عربستان ٥٠ ووصول ضياء المهتدي إلى السلطة.

ـ عفواً، يا پروفسور! وعدت بالحديث عن عبد الناصر والسادات.

ـ أوكي! اكتشفت البيروقراطية حب صديقي جمال عبد الناصر للعمل فأمطرته بالأوراق. كانت الأوراق تأتي إلى منزله في كميونات. وكان ينكب عليها منذ أن يستيقظ حتى فجر اليوم التالي. الأوراق تنهمر، وهو يوقّع. وماذا كان يوقّع؟ «قرار جمهوري بتعيين طِلْب طِلْب الشهير بحربي شاويشاً في الجيش». «قرار جمهوري بتمديد خِدمة طِلبْ طِلبْ طِلبْ الشهير بحربي الشاويش في الجيش». «قرار جمهوري بصرف راتب استثنائي لأرملة طِلْب طِلْب طِلْب الشهير بحربي الشاويش في الجيش». قلت له: «يا أبا خالد! هذه الأوراق ستقتلك. أقسم لك، بالله!، أنها ستقتلك. إرمها من الشباك. أو دعها تتكوّم. أو أرسلها إلى هيكل ليحتفظ بها للتاريخ». لم يكن يسمع نصائحي. لو سمع نصائحي لتغير مجرى التاريخ. أرسل ٧٠,٠٠٠ جندي إلى اليمن لأنه غضب من أرجوزة ركيكة نظمها الإمام أحمد في هجاء الإشتراكية: «ولا يجوز أخذ مال الغير ∴ إلا بأن يرضى بدون ضَير». قلت له: «يا أبا خالد! هذا نظم سقيم. لو كانت قصيدة عصماء لما لمتك إذا غضبت وأرسلت الجيوش. ولكن هذه الأرجوزة تافهة. فورجت ات!». لم يسمع ما قلته عن الأرجوزة، ولم يسمع ما قلته عن الأوراق. ظلّ يقرأ ويوقّع حتى قتلته الأوراق. كما توقّعت تماماً. الأوراق هي التي قتلته، يا نطاسي، لا الأزمة القلبية. ثم جاء صديقي الرئيس المؤمن الذي كان مكّاراً. وكان حريصاً على ألاّ يكرّر تجربة عبد الناصر. بمجرد تولّي السادات الرئاسة جمع أركان البيروقراطية في حديقة القصر الجمهوري ووقف فيهم خطيباً: «إسمعوا يا عتاولة الروتين! وعوا يا عمالقة الميري! وافهموا يا مراكز القوى! أما، والله!، أني لست بالرئيس المستضعف، ولا بالرئيس المداهن، ولا بالرئيس المأفون. أنا آخر الفراعنة، فمن قال برأسه كذا قلت، بعصاي هذه الأبنوسية، كده هو! آمركُم بثلاث، وأنهاكم عن ثلاث. فإن خالفتموني فرمتكم فرم الكفتاء. آمركم بالانفتاح فهو سداح مداح رداح. وآمركم بالكاڤيار فإنه يزيل وخم الفول والطعميّة. وآمركم بالپايپ فهو من سمات المفكّرين الاستراتيجيين. وأنهاكم عن النكت فهي تشجّع العامة على الشغب

على كبير العيلة. وأنهاكم عن عدّ استراحاتي فهذا عيب ينطبق عليه قانون العيب. وأنهاكم عن قراءة «بصراحة» هيكل فإن عزيزي هنري يستثقلها. وإياكم ثم إياكم ثم إياكم أن ترسلوا لي أوراقاً أو تقارير أو معاملات، فهذه تفاصيل، والتفاصيل للفقاقيع، والفقاقيع يعني حضراتكم». كان السادات، يا أخا فرويد، منظّماً. كان يقضي ٣ ساعات في المشي. و٤ ساعات في التفكير العميق. و٥ ساعات في تناول وجبات خفيفة مطبوخة بدقيق فرنجي برنجي مجلوب خصيصاً من سويسراء. و٥ ساعات في القيلولة. وساعة في الدردشة مع عثمان أحمد عثمان. أما بقيّة الوقت فكان يقضيه في الراحة والاستجمام. لم يقرأ ورقة واحدة. تفاصيل! والنتيجة أنه سمع عن ثغرة الدوفرسوار عندما أعلنتْ جولدا مائيير عنها في الكنيست. تفاصيل! والنتيجة أنه وقّع اتفاقية كامب ديڤيد وهو لا يعرف ما فيها. تفاصيل! والنتيجة أن وزير داخليته اعتقل ١٥٠٠ شخصية قيادية في يوم واحد دون أن يعرف الرئيس الأسماء. تفاصيل وفقاقيع! والنتيجة أنه لم يقرأ التقرير الأمني الذي حذّره من الذهاب إلى المنصّة. وكان ما كان.

ـ فظيع!

ـ صدقت! نعود إلى قصّتنا. كنت أقول لك إن فضيلة الدكتور ضياء المهتدي وصل إلى السلطة. في ثورة شعبية لم يشهد العالم ما يشبهها منذ الثورة الفرنسية. لم يكن هناك انقلاب عسكري. لم تكن هناك مؤامرة بين أفراد معدودين. سارت الملايين تهتف في الشوارع. تردّد «الله أكبر» و«عاش ضياء». وتتحدّى بصدورها الرصاص. ولم يجرأ رجال البوليس على إطلاق النار. الملايين، يا حكيم! انهار النظام وجاء النظام الجديد. وأصبح فضيلة الدكتور ضياء المهتدي المرشد الأعلى للثورة الإسلامية. بعد الثورة، بأسابيع قليلة ذهبت لزيارة ضياء المهتدي وتهنئته. وكانت مفاجأة كبرى أن أراه في المطار يستقبلني بنفسه. لم يتغير الرجل. لا حرس ولا مواكب. الوقار والهيبة والملامح المشعّة بالضياء. دار بيننا حوار طويل تستطيع أن تستنتج محوره.

ـ برهان سرور؟

ـ صدقت!. قلت: «يا سماحة المرشد. . .». قاطعني سماحته: «لا داعي للألقاب!». قلت: «أحسنت! يا أخي ضياء! حققت نصراً تاريخياً عندما قُدت أول ثورة شعبية في هذا القرن. لا تدع برهان سرور يسرق منك هذا الإنجاز». قال سماحة الدكتور ضياء المهتدي: «لا يستطيع هذا الزنديق أن يطفىء نور الله بفمه». قلت: «صدقت! ولكنه يستطيع تدمير عربستان ٥٠ قبل أن تقف على قدميها». قال

سماحته: «الله متمٌّ نوره». قلت: «صدقت! ولكن لا تركض إلى مواجهة لم تعدّ لها عدتك. لا تستفز الرجل بهذه البيانات اليومية التي تبثّها وسائل إعلامك». قال سماحة المرشد الأعلى للثورة الإسلامية: «لا يوجد في بياناتنا ما يخرج عن مقولات الإمام الشهيد العظيم، قدّس الله سره». قلت: «أعرف ذلك. ولكن عندما تقع الحرب بين عربستان ٤٩ وعربستان ٥٠ فإن مقولات الإمام الشهيد لن تأتي لإيقاف القتال». قال: «لو غيرك قالها، يا پروفسور!». أدركت، يا طبيب، أن المحاولة ميؤوس منها. أيقنت أن نبوءة الجنرال اللئيم بن عادياء سوف تتحقق. وأيقنت أنه عثر على نقطة ضعف المرشد الأعلى. حب الثأر. حب الثأر المتأجّج المشتعل. عدت إلى أمريكا بكآبة لم يبدّدها سوى تعرفي على بيتي سيتي.

ـ عفواً، يا پروفسور! شو ها الاسم؟

ـ هذا اسمها، يا نطاسي! زوجة هانك سيتي. الذي تعرفت عليه في دورة هارڤرد كما سبق أن أخبرتك. البليونير الذي يملك حقول بترول ومزارع أبقار في تكساس. كانت في الثلاثين. وكان زوجها في الستين. وكنت أنا بين الثلاثين والستين. في تلك المرحلة الصعبة من العمر. التي يسميها البعض مرحلة اليأس الذكوري. وهذه ترجمة غير موفقة للميل مينيپوز. ويسميها البعض الآخر أزمة منتصف العمر. وأسمّيها أنا مرحلة أكل الهوا.

ـ عفواً، يا پروفسور! شو يعني أكل الهوا؟

ـ كلِمةٌ تنقال. والمقصود أكل أشياء أقذر وأنتن من الهَوا.

ـ فهمان عليك!

ـ المهم أنها مرحلة مزعجة جداً. لا أنت بالشاب الظريف. ولا أنت بالكهل الوقور. ولا أنت بالشيخ الفاني. فيك من كل عمر أسوأ ما فيه. فيك حمق الشاب. وأنانية الكهل. وتذمّر الشيخ. لا أنت تقاعدت عن الجنس على طريقة المهاتما غاندي ولا أنت قادر على ممارسته على طريقة المتوكّل. مرحلة متعبة. تتعب صاحبها وتتعب المتعاملين معه. وأنتم معشر الأطباء النفسيين تعرفون المرحلة. وتعرفون أعراضها. في هذه المرحلة يفعل الرجل الغرائب. يرتدي بنطلونات الجينز. يبدأ في تعلم التِّنس والجولف. يفكر في زوجة ثانية. ما لم يكن متزوّجاً بجنّية وكائنة فضائية. تستطيع، الآن، أن تعرف لماذا تعلقت ببيتي سيتي. التي كنت أسمّيها، فيما بعد، پرتي بيتي سيتي ذا سيلبرتيْ. نظم سقيم كما تسمع. كانت

جميلة. وتموج بالحياة. وكانت من حزب الشقر الذي أنتمي إليه. وكان قوامها فانتاستك. وكانت خفة دمها أكثر من فانتاستك. تعلّقي بها ليس غريباً؛ الغريب تعلّقها بي. والأرجح أن السبب هو زوجها الذي كان مشغولاً عنها ببلايينيه. أهملها إهمالاً تاماً. ولم يكن يدور بينهما شيء في الفراش إلا مرّة في السنة. على الأكثر. وجئت أنا، يا نطاسي، أتأبط رومانسيتي، وفحولتي الموشكة على الغروب، وأبيات أبي حسيد المنتقاة: «قفي! تغرم الأولى من اللحظ مهجتي . . بثانيةٍ. . . والمتلف الشيء غارمُهْ. سقانا وحيّانا بك الله! إنما .·. على العيس نورٌ. . والخدود كمائمُهْ. وما حاجة الأظغان حولك في الدجى .·. إلى قمر؟ . . ما واجدٌ لك عادمُهْ». دعني أحكي لك كيف لقيتها. كنا في مزرعة هانك سيتي في أعماق تكساس. حفل شواء في ضوء القمر. باربكيو. دجاج؟ مالك لوا! ستيك؟ مالك لوا! عجول! أكثر من ٩٠ عجلاً كانت مغروزة في سفافيد هائلة تدور على أكوام فحم هائلة. كانت نغمات الويسترن ميوزك في كل مكان. وكنت أنا مجرد وجه في الجموع. كنت قد دعوت هانك ودعاني أكثر من مرّة. ثم رجاني أن أحضر حفلة الشواء السنوية التي يقيمها في مزرعته في أغسطس من كل سنة. ولا تسألني لماذا يختار للحفلة شهر آب طباخ العنب والتين. فلعلّه يطبخ العجول ضمن ما يطبخ. كنت مدعوّاً بين ٩٥٠٠ مدعوّ. لا تصدّق؟ هذا هو الرقم المعتاد في حفلات الشواء التي يقيمها أصحاب البلايين التكسانيون. إختلط الحابل بالنابل. وتشرذمت الحفلة. هنا مجموعة تنتظر الطعام. وهناك مجموعة ترقص. وهنا مجموعة تحلقت حول مغنّية. تحولت الحفلة إلى حفيلات كثيرة. إياك أن تتصور أنه كان هناك زحام. مزرعة هانك مساحتها نصف مليون فدان. زايد قاصر! لا تصدق؟ إسأل هانك! أكبر من كثير من دول العالم العاشر. كنت أتمشّى بمفردي، بعيداً عن الحفيلات. أتأمّل في البدر التكساني. لا أظن أن البدر جزء من التخطيط الدقيق الشامل الذي سبق الحفلة. أعتقد أن الأمر كان مجرد صدفة. ومن الأسلم أن أقول مصادفة حتى لا يهدر مجمع السدنة الخالدين دمي مرّة أخرى. كان الجو حاراً. تستطيع أن تقول إنه كان خانقاً. وكنا في أعمق أعماق تكساس. وكانت النسمات تتنسم بصعوبة. إلاّ أن البدر كان رائعاً. يحتلّ نصف السماء تقريباً. وهذه، بطبيعة الحال، مبالغة تكسانية. كنت أتمشّى بمفردي عندما أبصرت حورية شقراء تجلس على مقعد صخري بقرب بحيرة صناعية، وحولها سحابات من الدخان. لم تكن تحترق؛ كانت تدخّن. والتدخين ليس جريمة تعاقب عليها القوانين إذا كنت تدخن في الهواء الطلق. بمجرد أن اقتربت منها عرفتها من صورها في الصحف والمجلات. قلت لها بدون مقدمات: «حتّى القمر في تكساس بحجم تكساس». إلتفتت إليّ

وقالت: «لا تحدثني عن أقمار تكساس. أفضّل أقمار مونتري». قلت: «مونتري؟ لماذا؟». قالت: «أنا من هناك. ولم أر تكساس إلا بعد أن عرفت هانك». قلت: «واعجباه! عالم صغير! إعلمي سيدتي الشقراء الجميلة أنني قضيت فترة حافلة من عمري في مصحّة مونتري أتعالج من الجنون». ضحكت، وقالت: «وهل شفيت؟». قلت: «مسألة فيها نظر. مثل مسألة قتل الشعوب الآمنة. إسمحي لي، سيّدتي، أن أقدّم نفسي. أنا البروفسور، شيخ شمل بني خضير وسفير الأمة العربية إلى الشيطان الأكبر». ضحكت، وقالت: «آه! أنت بشّار. أخبرني هانك أنه رآك في هارڤرد. هانك يستلطفك». قلت: «وأنا أستلطف هانك، يا سيّدتي. وإن كنت الآن أستلطف ذوقه في النساء أكثر». ضحكتْ، وقالت: «إجلس. المقعد يتسع لاثنين». قلت: «من حجمي؟!» قالت: «من حجم ثيران هانك». قلت: «شكراً على المقارنة!» ضحكتْ، وقالت: «لم أقصد ذلك. إجلس! هل تريد سيجارة؟» قلت: «أفضّل السيجار. إذا كنت لا تمانعين». قالت: «لا أمانع». قلت: «ماذا تفعلين هنا بمفردك؟». سادت فترة قصيرة من الصمت نفثت بيتي خلالها المزيد من السحابات، وأشعلت أنا سيجاري، وقالت: «أنا هنا. جالسة على مقعد صخري. بقرب بحيرة صناعية. أدخّن». قلت: «هيك سؤال بدّو هيك جواب». لم أعد أحصي ضحكاتها. قالت: «سؤالك الحقيقي لماذا أنا هنا». قلت: «صدقت!». قالت: «هل يتحتمّ عليّ أن أجيب على سؤالك؟». قلت: «لا يتحتّم. ولكن يجب أن أنذرك أني دخلت مصحّة مونتري لأني كنت أقتل كل حسناء ترفض الإجابة على أي سؤال من أسئلتي». قالت: «أقنعتني! أنا هنا لأني أكره هانك. وأكره حفلاته. وأكره ضيوفه. أكره هذا القطيع الغبيّ الذي يستوي ذكاؤه وذكاء أبقار هانك». صَمَتُّ لحظة، غصصت خلالها بدخان سيجاري، وسعلت قليلاً، ثم قلت: «هل أخبرك أحد أنك غير مؤهلة للعمل الدبلوماسي؟».. ضحكت، وقالت: «ماذا عنك؟». قلت: «أنا هنا على مقعد صخري بقرب بحيرة صناعية أستمع إلى بيتي تخبرني أنها تكره زوجها». قالت: «توشيه!» قلت: «سيّدتي! أنا أخاف الجموع؛ لا أكرهها ولكنني أخافها». قالت: «لماذا؟». قلت: «الجموع تبغض الفرد. وأنا فردي. بمجرد أن يطبق عليّ جمع تنتابني كل أعراض القلق العميق. العرق. برودة اليدين. جفاف اللسان. تسارع النبضات. صعوبة الكلام. كلّ الأعراض». قالت: «هل تحاول أن تجر ساقي؟». قلت: «لا شيء أحب إلى نفسي من جرّ ساقك. ولكني كنت جاداً». قالت: «أنا وأنت من الكائنات التي توشك أن تنقرض. هذا زمان القطيع». قلت: «ما رأيك لو انقرضنا معاً؟». قالت: «ولم لا؟». هنا، يا طبيب، بدأت أقبّلها. وبدأت تقبّلني. ولا تعطني، الآن، محاضرة عن زوجات

الأصدقاء. النهاية كانت مأساوية بدون محاضراتك. ربّما كان الفاعل الأصلي هو البدر التكساني الذي احتلّ نصف السماء. أو دخان السيجار الكوبيّ الملوث بأنفاس الرفيق فيديل كاسترو. والمضمّخ بالعرق المنساب من أفخاذ الكوبيات أثناء اللف كما تقول الأسطورة الشهيرة. وربّما كان السبب آب اللّي خلّى شحم قلبي داب. المهم، أنني بدأت قصة حب لم أعرف مثيلاً لها منذ أيام عفراء. التفاصيل؟ لا لن أتطرّق إلى تفاصيل. أقول ما قاله أبو حسيد «الحبّ ما منع الكلام الألسنا». أما ليلتنا تلك فقد أبدع أبو حسيد في وصفها حين قال: «وتوقّدت أنفاسنا حتى لقد .:. أشفقت تحترق العواذل بيننا». وهذا منتهى التوقّد. وكان الخوف من احتراق العجول لا العواذل. وكان هذا حالنا في كل مرة نلتقي فيها. وقد التقينا كثيراً. خلال سنة أو أكثر. بمعدل مرّة في الأسبوع. على الأقلّ. في كل مكان قد يخطر ببالك. وفي أمكنة يستحيل أن تخطر لك ببال. باستثناء الفترة التي عدت فيها إلى عربستان ٥٠.

ـ متى رجعت؟

ـ عندما نشبت الحرب بين عربستان ٤٩ وعربستان ٥٠. هذه المرة لم يكن سماحة الدكتور ضياء المهتدي في استقبالي في المطار. كان، كما يمكنك أن تتوقّع، في الجبهة. ومع ذلك فقد استقبلني بعد وصولي بساعات. استقبلني في خيمة عسكرية على خط النار. عانقته وعانقني وقلت: «أحمد الله أنك لا زلت بثيابك القديمة. لا تلبس البدلة العسكرية. لا تلبسها رجاء!». ضحك سماحته من الأعماق وقال: «أنا لست عسكرياً ولا أنوي لبس بدلة عسكرية». قلت: «أحسنت!» قال: «هل أتيت لتشاركنا فرحة الانتصارات؟ تغلغلت قواتنا بسهولة في عربستان ٤٩». قلت: «الحقيقة، يا أخي ضياء، أني جئت في محاولة لوقف إطلاق النار. محاولة من فرد واحد». قال: «الزنديق هو الذي بدأ الهجوم. نحن في حالة دفاع مشروع عن النفس». قلت: «يا أخي ضياء! نحن لسنا، الآن، في كلية الحقوق نناقش نظريات القانون الدولي. ولا في محكمة العدل الدولية نحدّد الجاني والمجني عليه. نحن على أبواب حريق يوشك أن يأكل الأخضر واليابس. ألا يوجد أمل في هدنة؟ هدنة مؤقتة؟». قال سماحته: «هدنة مع الطاغوت؟! مع الطاغوت؟!». قلت: «الذين يموتون من الجانبين مسلمون». قال سماحته: «قرّر الإمام الشهيد العظيم أن «كل أرض تحارب المسلم في عقيدته، وتصدّه عن دينه، وتعطّل عمل شريعته، هي دار حرب ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته»». قلت: «يا أخي ضياء! ألا تنوي أن تعطي «معالم في الطريق» إجازة؟

إجازة مؤقتة؟ ما رأيك لو انتقلت إلى الفتوحات المكّيّة؟». إربدّت ملامح سماحة المرشد الأعلى للثورة الاسلامية. وقال: «يا پروفسور! لا مجال للمزاح. ركبت خيل الله». قلت: «أرجو المعذرة. إذا لم يكن هناك أي أمل في أي هدنة فمن الأفضل أن أعود». قام سماحة الدكتور وعانقني قائلاً: «نلتقي قريباً في عاصمة عربستان ٤٩». قلت: «استثن!» قال: «إن شاء الله». عدت، يا نطاسي، إلى أمريكا. وإلى بيتي. وإلى مشهد كالذي وصفه أبو حسيد: «ولما التقينا. والنوى ورقيبنا .·. غفولان عنا... ظِلت أبكي وتَبسمُ. فلم أرَ بدراً ضاحكاً قبل وجهها .·. ولم ترَ قبلي ميّتاً يتكلّمُ» لا أطيل عليك، يا دكتور. وقعت الواقعة ذات يوم بارد في نيويورك. كان هانك في سفرة طويلة في الشرق الأقصى ولم يكن من المتوقع وصوله إلا بعد عدة أيام. كنت معها في المخدع الزوجي، في شقّة هانك في التفاحة الكبيرة، وهذا كما تعرف إسم الدلع لنيويورك. بغتة، فتح باب المخدع الزوجي، وأطلّ هانك الذي رآنا وتراجع إلى الوراء بسرعة. راودني الأمل في أن يكون هانك من نوع اللورد نكنوكستر الذي يرى أن امتطاء الستّ لا يفسد للود قضية. كنا في حالة تلبس تام. أعني بلا ملابس. بعد أقل من نصف دقيقة عاد هانك وفي يديه مسدس متوسط الحجم. من فصيلة المشط لا المحالة. بدون أن يتفوّه ببنت شفة صوب المسدس إليّ. كان تصويب الخبيث أدق من تصويب صلاح الدين المنصور. شعرت بحرارة شديدة في كتفي الأيمن. تبعتها حرارة شديدة في كتفي الأيسر. لم أسمع صوت رصاص. ولم أحس بألم. حرارة ثم بقعة تتسع من الدماء. كنت على وشك الإغماء، يا حكيم، عندما احتضنتني فراشة هائلة واخترقت بي الجدار...

ـ فراشة؟!

ـ زوجتي، يا نطاسي، زوجتي! زوجتي الفضائية! هل نسيت؟ ألم أخبرك أنها تظهر على هيئة فراشة؟ وصلت في الوقت المناسب. بعد الوقت المناسب، إذا أردت الحقيقة. أغمي عليّ بمجرد دخول الجدار وعندما أفقت كنت في كوكب الفراشة. في الفضاء الخارجي السحيق. وحولي الفراشة من جهة، ودفّاية من الجهة الأخرى.

ـ الجنية؟!

ـ أحسنت! الصديق وقت الضيق. وكذلك الزوجة. تضافرت جهود الجنية والفضائية لإنقاذي من موت محقق. خلال أسبوع، استعدتُ صحتي. قلت للزوجتين: «لا أعرف لماذا قدّم ابن الكلب سفرته وطبّ علينا؟!». هنا بدأت دفّاية

تضحك ضحكتها الشهيرة. وبدأت الفراشة تضحك ضحكاً تلباثياً عالياً. قلت: «أيتها الخبيثتان! أنتما السبب!». بدأت دفاية تمارس معي حقوقها الزوجية. وما إن انتهت حتى بدأت الفراشة. وما إن انتهت حتى عادت دفّاية. وهكذا دواليك. حتى كدت أروح وطي. أي أهلك وطأً. أي من كثرة الوطء. لولا عقاقير الجن والفضاء. قالت دفّاية: «لماذا لا تعيش معي في عالم الجن؟». وقالت الفراشة: «لماذا لا تبقى معي في هذا الكوكب؟». قلت: «أسكتا! مهمّتي لم تنته بعد». قالت دفّاية: «ولكنك فشلت. صلاح الدين المنصور أصبح من أصدقاء إسرائيل. وبرهان سرور اليوم من حلفاء إسرائيل». وقالت الفراشة: «وضياء المهتدي مشغول بحرب ستدمّره وتدمّر بلده». قلت: «ولكن هناك عربستان ٦٠. الضوء في نهاية النفق. شعلة الأمل في الليلة السوداء. بذرة الديمقراطية. ما دامت عربستان ٦٠ باقية فالأمل باق». قالت الفراشة لدفاية: «أخبريه!». قالت دفاية للفراشة: «أخبريه أنتِ». قلت: «ما القصة؟». قالت الفراشة لدفّاية: «قولي لي يا دفّاية». قالت دفّاية: «خبر سيّىء. في أي لحظة من الآن سوف يكون هناك انقلاب عسكري في عربستان ٦٠». صرخت كالمجنون: «كذب! كذب! كذب!». قالت دفّاية: «صحيح! صحيح! صحيح!». قلت: «وكيف تعرفين يا ملقوفة الجن؟!». قالت: «إستمع بعض ربعنا من الجن إلى اتصالات هاتفية تؤكد وجود مؤامرة». قلتُ: «جنانوة خضيرية ملاقيف!». قالت الفراشة: «عندما يقوم الانقلاب هل تعترف أنك فشلت؟». قلت: «أعترف». قالت: «وستعود معي إلى هذا الكوكب لتقضي فيه بقية عمرك؟». قالت دفّاية: «لا! لا! يعود معي إلى عالم الجن ويبقى هناك». قالت الفراشة: «حل وسط! ٦ شهور معي و٦ شهور مع دفّاية». قلت: «وماذا عني؟ أليس لي رأي في المسألة؟». قالت دفّاية: «ماذا تفعل على الأرض؟ فشلت مشاريعك السياسية». وأضافت الفراشة: «ومللت مشاريعك التجارية». قالت دفّاية: «ونساء الإنس خطرات ينتحرن أو يقتلك أزواجهن». قالت الفراشة: «لم يبقَ سوى مشاريعك الأدبية. وهنا أفضل مكان لها. بمجرد أن تختمر الفكرة في رأسك يستطيع الجميع قراءتها. التأليف المريح!». وأضافت دفّاية: «ولا تنس عبقر. سوف يكون كل أصدقائك من العباقرة». بعد تفكير طويل، يا أخا فرويد، وجدت أن في كلامهما الكثير من المنطق. ماذا تبقّى لي هنا؟ لا شيء سوى عربستان ٦٠. إذا وقع الانقلاب العسكري، أكون، بالفعل، فشلت في تحقيق هدف حياتي. ما جدوى البقاء على هذه الأرض؟ في عالم الجن، تحديات جديدة، مثيرة ومختلفة. وفي الكوكب الفضائي عوالم تموج من الذبذبات والالكترونيات. قمم من النشوة الجنسية لا تنالها مع بنات حواء. ومشاريع فكرية لا تنتهي. إتفقت مع دفّاية

والفراشة على أن أرحل بمجرد وقوع الانقلاب. أجمع حقائبي وأرحل. حقيقة الأمر أني لا أحتاج إلى حقائب.

ـ عفواً، يا پروفسور! يمكن حكاية الانقلاب مو صحيحة؟

ـ أخشى، يانطاسي، أنها صحيحة. بمجرد عودتي إلى الأرض أكّد جهاز الإرسال في مخي أن المؤامرة موجودة. وعرفت كل التفاصيل.

ـ ولماذا لم تنذر الحكومة في عربستان ٦٠؟

ـ آه يا طبيب! آه يا حكيم! آه يا دكتور! هل تظنّ أنني لم أحاول؟ ذهبت ولم يصدّقني أحد. لا رئيس الدولة المفكّر. ولا رئيس الوزراء المفكّر. ولا وزير الداخلية المفكّر. مثقّفون يعيشون في عالم غير عالمنا. سمعت منهم أروع النظريات. الشعب الذي يتذوّق الحرية لا يطلقها. مكاسب الجماهير هي سلاح الجماهير. الجموع أقوى من الدروع. وبقية غرائب المثقفين. أعطيتهم أسماء الضباط السرسرية الذين ينوون تدبير الانقلاب. ولم يصدّقني أحد. هل تعرف أسوأ ما في الموضوع؟

ـ شو؟

ـ أسوأ ما في الموضوع أن الانقلاب من تدبير المجرم بن المجرم بن المجرم موشيه بن نمرود بن عادياء. وهل تعرف كم الكلفة؟ ٥ ملايين دولار! يا بلاش! أدفع نصف مليار في سبيل بناء الديمقراطية. ويدفع هذا الكلب ابن الكلب ٥ ملايين فقط ويدمرّها.

ـ وبعدين شو صار؟

ـ إتفقت الفراشة ودقّاية أن تكون نقطة الانطلاق هي العصفورية.

ـ لشو؟

ـ سؤال ممتاز! لكل منهما ذكريات جميلة في هذا المحلّ. هنا، أفسدت دقّاية علاقتي بفرحة ربيع. وهنا مارست الفراشة الحب معي لأول مرة. عندما اتخذت القرار، لم تبقَ سوى التفاصيل ثم اختيارك، بعناية، لتسجّل قصة حياتي.

ـ شو ها الحكي؟

ـ ها الحكي مضبوط

ـ يعني ما جيت تتعالج؟!

ـ قلت لك، من البداية، أني لست مريضاً هنا. إسمع يا نطاسي! دقّاية،

الآن، حامل. والفراشة حامل. ذات يوم، سيطلع لك من الأرض ابني نصف الجنّي ويسألك عن تاريخ أبيه. وسيهبط عليك من فوق ابني نصف الفضائي ليعرف أسرار أبيه. وكل شيء الآن في عهدتك. سيسلمك المستشفى كل أفلام الڤيديو. كل كلمة قلتها لك مصوّرة ومسجّلة. إحذر أن يضيع شيء.

ـ كل شيء بدو يفوت بالكومپيتر. ما بيضيع شيء. ومن غير شر، متى بتروح؟!

ـ أنا معك ما دامت الحكومة الحالية في عربستان ٦٠ قائمة. لن أترك حتى تنهار.

ـ ممكن تضلّ شهر شهرين؟

ـ أو أكثر. أو أقل.

ـ عفواً يا پروفسور! صار لنا أكثر من ٢٠ ساعة نحكي. تعبت!

ـ نوكدنج؟! ٢٠ ساعة؟! لا غرو أن بدأ صوتي يصاب بالبحة. ولكن لا تستكثر ٢٠ ساعة على حكاية تحوي كل هذه العجائب والغرائب. تكلم الرفيق فيدل كاسترو، مرة، في الأمم المتحدة ٥ ساعات ولم يأتِ بشيء يتجاوز الشعارات. وتكلم الرفيق خروتشوف...

ـ عفواً يا پروفسور! بلّشت إنعس!

ـ حسناً! حسناً! نلتقي بعد ٢٠ ساعة من الراحة. ما رأيك؟

ـ ماشي الحال!

يجمع الدكتور سمير ثابت ملفاته وأوراقه ويضعها في الحقيبة ويغادر الجناح وهو يتثاءب تاركاً البروفسور يغط في نوم عميق.

مخرج

يفتح الدكتور سمير ثابت باب الجناح ويدخل، ويبقى هناك عدة دقائق، ثم يخرج مذعوراً وهو يصرخ.

ـ **شفيق! شفيق! شفيق!**

يأتي الممرض الضخم وهو يجري:

ـ **خير؟ شو القصة يا دكتور ثابت؟**

ـ **البروفسور؟!**

ـ **شو ماله؟!**

ـ **مش موجود جوّه. ما لقيته.**

ـ يمكن في الحمّام.

ـ فتّشت في الحمّام.

ـ غريبة.

ـ إسمع يا شفيق! سمعت الأخبار اليوم الصبح؟

ـ إيه.

ـ كان فيه خبر عن انقلاب؟

ـ إيه.

ـ وين؟

ـ شو بيعرّفني؟! كل يوم انقلاب. مين بيتذكّر؟

ـ حاول تتذكّر! في عربستان ٦٠؟

ـ إيه! مضبوط! إيه! شالوا رئيس الجمهورية. وإجا ضابط.

ـ آه! آه! آه!

ـ خير يا دكتور؟ شو بيك؟

ـ الفراشة ودقّاية.

ـ شو فراشة ودقّاية؟

ـ الفراشة زوجة البروفسور.

ـ البروفسور تزوّج فراشة؟!

ـ وتزوّج جنية. دقّاية.

ـ دقّاية؟!

ـ وراح معهم.

ـ مع مين؟

ـ مع الفراشة ودقّاية.

ـ لوين راح؟

ـ على عالم الجن. وعلى كوكب الفضاء.

ـ دكتور ثابت! لا تؤاخذني! شربت لك شي كاس كاسين قبل ما تجي على هون؟

ـ ما شربت حتى شاي!

ـ لشو عم بتهلوس لكان؟

ـ ما عم بهلوس يا شفيق! البروفسور طار! راح مع الفراشة ودقّاية.

يبتعد شفيق بحذر عن الدكتور ثابت، ثم يجري وهو يصيح:

ـ تعوا هون! تعوا كلكم. الدكتور ثابت جن! الدكتور ثابت جن! عيّطوا على المدير!

يجلس الدكتور سمير ثابت على أرض الممر منخرطاً في ضحك عميق سرعان ما يتحول إلى بكاء عميق يردد خلاله:

ـ ضيعانك، يا بروفسور! والله ضيعانك! ضيعانك!

❊